بدائع التفسير

الجامع لما فسره الإمام

ابن قيم الجوزية

رحمه الله تعالى

جمعه وخرج أحاديثه

يسري السيد محمد

راجعه ونسق مادته ورتبها

صالح أحمد الشامي

طبعة جديدة منقحة

المجلد الثالث

دار ابن الجوزي

بسم الله الرحمن الرحيم

بدائع التفسير

الطبعة الأولى

رمضان ١٤٢٧هـ

طبعة جديدة منقحة



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية: الدمام - شارع الملك فهد - ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٨٩ - ٨٤٦٧٥٩٣، ص ب: ٢٩٨٢ - الرمز البريدي: ٣١٤٦١ - فاكس: ٨٤١٢١٠٠ - الرياض - ت: ٤٢٦٦٣٣٩ - الإحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢ - جدة - ت: ٦٣٤١٩٧٣ - ٦٨١٣٧٠٦ - الخبر - ت: ٨٩٩٩٣٥٦ - فاكس: ٨٩٩٩٣٥٧ - بيروت - هاتف: ٠٣/٨٦٩٦٠٠ - فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١ - القاهرة - ج م ع - محمول: ٠١٠٦٨٢٣٧٨٣ - تلفاكس: ٠٢٤٣٤٤٩٧٠

البريد الإلكتروني: aljawzi@hotmail.com - www.aljawzi.com

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

فإذا كان سبحانه قد نهى عن التقديم بين يديه؛ فأي تقديم أبلغ من تقديم عقله على ما جاء به؟

قال غير واحد من السلف: ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

ومعلوم قطعاً أن من قدم عقله أو عقل غيره على ما جاء به فهو أعصى الناس لهذا النبي ﷺ، وأشدهم تقدماً بين يديه، وإذا كان سبحانه قد نهاهم أن يرفعوا أصواتهم فوق صوته؛ فكيف يرفع معقولاتهم فوق كلامه وما جاء به؟

ومن المعلوم قطعاً أنه لم يكن يفعل هذا في عهده إلا الكفار والمنافقون، فهم الذين حكى الله سبحانه عنهم معارضة ما جاء به بعقولهم وآرائهم، وصارت تلك المعارضة ميراثاً في أشباههم كما حكى الله عن المشركين معارضة شرعه وأمره بقضائه وقدره، وورثهم في هذه المعارضة طائفتان:

إحداهما: إخوانهم المباحية، الذين خلعوا ربقة الشريعة من أعناقهم ودانوا بالقدر.

والثانية: الذين عارضوا قضاءه وقدره بأمره، وقالوا: لا يمكن الجمع بينهما فأبطلوا القدر بالأمر، وأولئك أقعد بالميراث من هؤلاء.

وقد ذكر سبحانه الأمثال العقلية التي عارض المشركون بها الوحي لتكون عبرة للمؤمنين، ومثلاً للمعارضين: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢][1].

وحذر المؤمنين من حبوط أعمالهم بالجهر لرسول الله ﷺ؛ كما يجهر بعضهم

---

(١) الصواعق المرسلة (٣/ ٩٩٦ ـ ٩٩٨).

لبعض، وليس هذا بردة؛ بل معصية تحبط العمل وصاحبها لا يشعر بها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ [**الحجرات**: ٦].

فإن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط لما بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق بعد الوقعة مصدِّقاً، وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم بمقدمه تلقوه تعظيماً لأمر رسول الله ﷺ فحدثه الشيطان: أنهم يريدون قتله فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ، فقال: إن بني المصطلق منعوا صدقاتهم، وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهَمَّ أن يغزوهم، فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قبلناه من حق الله، فبدا له في الرجوع فخشينا أنه إنما رده من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله.

فاتهمهم رسول الله ﷺ، وبعث خالد بن الوليد خفية في عسكر، وأمره أن يخفي عليهم قدومه وقال له: «انظر فإن رأيت منهم ما يدل على إيمانهم، فخذ منهم زكاة أموالهم، وإن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ما تستعمل في الكفار»، ففعل ذلك خالد ووافاهم، فسمع منهم أذان صلاتي المغرب والعشاء فأخذ منهم صدقاتهم ولم ير منهم إلا الطاعة والخير، فرجع إلى رسول الله ﷺ وأخبره الخبر، فنزل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[(٢)].

والنبأ: هو الخبر الغائب عن المخبَرِ إذا كان له شأن.

و«التبين»: طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علماً.

وهاهنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق ولو أخبر به من أخبر.

فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري

---

(١) الوابل الصيب (٢١).

(٢) رواه الإمام أحمد ﷺ (٤/ ٢٧٩)، والطبراني في الكبير (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥). وقال الهيثمي: «رجال أحمد ثقات»، مجمع الزوائد (٧/ ١٠٨، ١٠٩). وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٣ - ٢٢٥)، والطبري (٢٦/ ١٢٣).

وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما من فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته، وأما من فسقه من جهة الكذب؛ فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن بَدَرَ منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

فتحبيبه سبحانه الإيمان إلى عباده المؤمنين هو إلقاء محبته في قلوبهم، وهذا لا يقدر عليه سواه، وأما تحبيب العبد الشيء إلى غيره فإنما هو بتزيينه وذكر أوصافه وما يدعو إلى محبته.

فأخبر سبحانه أنه جعل في قلوب عباده المؤمنين الأمرين، حبه وحسنه الداعي إلى حبه، وألقى في قلوبهم كراهة ضده من الكفر والفسوق والعصيان، وأن ذلك محض فضله ومنته عليهم، حيث لم يكلهم إلى أنفسهم بل تولى هو سبحانه هذا التحبيب والتزيين وتكريه ضده، فجاد عليهم به فضلاً منه ونعمة، والله عليم بمواقع فضله ومن يصلح له ومن لا يصلح، حكيم بجعله في مواضعه[2].

وذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾، ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾.

يقول سبحانه: لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له وتزيينه في قلوبكم منكم، ولكن الله هو الذي جعله في قلوبكم كذلك، فآثرتموه ورضيتموه، فلذلك لا تقدموا بين يدي رسولي، ولا تقولوا حتى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر، فالذي حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان، فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم ولا تقدمتم به إليها، فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك، ولا تبلغه.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٦٠، ٣٦١).
(٢) شفاء العليل (٥٧).

فلو أطاعكم رسولي في كثير مما تريدون؛ لشق عليكم ذلك، ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لا تشعرون، ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح كما أردتم الإيمان، فلولا أني حببته إليكم، وزينته في قلوبكم، وكرّهت إليكم ضده؛ لما وقع منكم ولا سمحت به أنفسكم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

قسم العباد إلى تائب وظالم، وما ثم قسم ثالث البتة، وأوقع اسم الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه؛ لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله.

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»(٢). وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور»، مائة مرة(٣). وما صلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عليه ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] إلى آخرها إلا قال فيها: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي»(٤)، وصح عنه ﷺ أنه قال: «لن ينجي أحداً منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»(٥).

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله، وحقوقه وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها(٦).

□ □ □

وتارك المأمور ظالم، كما أن فاعل المحظور ظالم، وزوال اسم «الظلم» عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين، فالناس قسمان: تائب وظالم ليس إلا، فالتائبون هم: ﴿الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢]. فحفظ حدود الله جزء التوبة، والتوبة هي مجموع هذه الأمور، وإنما سمي تائباً: لرجوعه إلى أمر الله من

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤١٤، ٤١٥). (٢) رواه البخاري (٦٣٠٧).
(٣) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦/ ٣٢٨)، وصححه أحمد شاكر، ورواه أبو داود (١٥١٦).
(٤) رواه البخاري (٨١٧)، ومسلم (٤٨٤). (٥) رواه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦).
(٦) مدارج السالكين (١/ ١٧٨، ١٧٩).

نهيه، وإلى طاعته من معصيته[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ **[الحجرات: ١٤]**.

نفياً للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه:

منها: أنه أمرهم أو أذن لهم أن يقولوا: أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها: أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات، ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاء، لا نفاقاً وكفراً.

ومنها: أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى الإيمان.

ومنها: أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾. [الحجرات: ١٤]، أي: لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها: أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ [الحجرات: ١٧]، فأثبت لهم إسلاماً، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا بل أنتم كاذبون كما كذبهم في قولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١]؛ لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها: أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ ولو كانوا منافقين لما منّ عليهم.

ومنها: أنه قال ﴿أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾، ولا ينافي هذا قوله: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾، فإنه نفى الإيمان المطلق ومنَّ عليهم بهدايتهم إلى الإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها: أن النبي ﷺ لما قسم القسم، قال له سعد: أعطيت فلاناً وتركت فلاناً وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم»[٢] ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان، وفي الآية أسرار بديعة ليس هذا موضعها.

والمقصود: الفرق بين الإيمان المطلق ومطلق الإيمان، فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها[٣].

* * *

---

(١) مدارج السالكين (١/٣٠٦).

(٢) رواه البخاري في الإيمان (١٤٧٨)، ومسلم (١٥٠).

(٣) بدائع الفوائد (٤/١٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [**الحجرات**: ١٥].

ثم ذكر أهل الإيمان الذين ذاقوا طعمه وهم الذين آمنوا به وبرسوله ثم لم يرتابوا في إيمانهم، وإنما انتفى عنهم الريب؛ لأن الإيمان قد باشر قلوبهم وخالطتها بشاشته فلم يبق للريب فيه موضع.

وصدق ذلك الذوق: بذلهم أحب شيء إليهم في رضى ربهم تعالى، وهو أموالهم وأنفسهم، ومن الممتنع حصول هذا البذل من غير ذوق طعم الإيمان ووجود حلاوته، فإن ذلك إنما يحصل بصدق الذوق والوجد، كما قال الحسن: (ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل)[1].



(١) مدارج السالكين (٣/ ٩١).

سُورَةُ قٓ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًاۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ١ ـ ٣].

الصحيح: أن (قٓ، ون، وص) بمنزلة (حم. وألم. وطس): تلك حروف مفردة، وهذه متعددة، وقد تقدمت الإشارة إلى بعض ما فيها قبل[١].

وهاهنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده؛ ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به؛ لما في القسم من الدلالة عليه؛ أو لأن المقصود نفس المقسم به كما تقدم بيانه.

ثم أخذ سبحانه في بيان عجب الكفار من غير عجيب، بل ربما لا ينبغي أن يقع سواء، كما قال سبحانه: ﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [يونس: ١، ٢]، فأي عجب من هذا حتى يقول الكافرون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾؟ وكيف يتعجب من رحمة الخالق عباده، وهدايته وإنعامه عليهم بتعريفهم على لسان رسوله ﷺ بطريق الخير والشر، وما هم صائرون إليه بعد الموت، وأمرهم ونهيهم، حتى يقابل ذلك بالتعجب، ونسبة ما جاء به إلى السحر، لولا غاية الجهل والظلم، وإن العجب كل العجب قولهم وتكذيبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥][٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ١٠].

وقال تعالى: ﴿وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء: ١٤٨]. طلع النخل: ما يبدو من

---

(١) انظر: أول البقرة، وأول يس.
(٢) التبيان (٤٢٥، ٤٢٦).

ثمرته في أول ظهوره، وقشره يسمى الكفرى، والنضيد: المنضود الذي قد نضد بعضه على بعض، وإنما يقال له: نضيد ما دام في كفراه، فإذا انفتح فليس بنضيد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ [قٓ: ١٦].

فإن قيل: كيف تصنعون بهذا القول لله ﷻ؟

قيل: هذه الآية فيها قولان للناس:

أحدهما: إنه قربه بعلمه؛ ولهذا قرنه بعلمه بوسوسة نفس الإنسان.

و﴿حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ حبل العنق وهو عرق بين الحلقوم والودجين الذي متى قطع مات صاحبه، وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضاً. وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء.

والقول الثاني: إنه قربه من العبد بملائكته الذين يصلون إلى قلبه. فيكون أقرب إليه من ذلك العرق. اختاره شيخنا.

وسمعته يقول: هذا مثل قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]. وقوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]. فإن جبريل ﵇ هو الذي قصه عليه بأمر الله. فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه كما في صحيح البخاري عن ابن عباس ﵄ في تفسير هذه الآية: فإذا قرأه رسولنا فأنصت لقراءته حتى يقضيها(٢).

قلت: أول الآية يأبى ذلك، فإنه قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

قال: وكذلك خلقه للإنسان إنما هو بالأسباب، وتخليق الملائكة.

---

(١) زاد المعاد (٤/٣٣٨).

(٢) الذي في صحيح البخاري عن ابن عباس ﵄: «كان يحرك شفتيه إذا أنزل عليه فقيل له: لا تحرك به لسانك ـ يخشى أن ينفلت منه ـ إن علينا جمعه: أن نجمعه في صدرك، وقرآنه: أن نقرأه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ﴾ يقول: أنزل عليه ﴿فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ أن نبينه على لسانك»، فتح الباري (٨/ ٥٤٩ و٥٥٠) في التفسير، في سورة القيامة، باب: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾. وانظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٧٦).

قلت: وفي صحيح مسلم من حديث حذيفة بن أسيد ﷺ في تخليق النطفة «فيقول الملك الذي يخلقه: يا رب، ذكر أم أنثى؟ أسويٌّ أم غير سوي؟ فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك»(١)، فهو سبحانه الخالق وحده.

ولا ينافي ذلك استعمال الملائكة بإذنه ومشيئته وقدرته في التخليق، فإن أفعالهم وتخليقهم خلق له سبحانه، فما ثَمَّ خالق على الحقيقة غيره(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٧ ـ ٢٩].

أي: لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب، ولا أمنعه من أجر ما عمله من صالح؛ ولهذا قال قبله: ﴿وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ﴾ المتضمن لإقامة الحجة وبلوغ الأمر والنهي، وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه، فذلك الظلم الذي تنزه الله سبحانه وتعالى عنه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ [قٓ: ٣٧].

فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوة المسموعة، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية.

ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها، ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره ويشهد لما يلقى إليه، فإن كان غائباً عنه مسافراً في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا

---

(١) صحيح مسلم (٥/ ٥٠٠، ٥٠١)، في القدر، باب: كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩٠). (٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٦).

بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وهاهنا ثلاثة أمور:

أحدها: سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر.

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية.

قال ابن عطية: القلب هنا عبارة عن العقل إذ هو محله والمعنى لمن كان له قلب واع ينتفع به.

قال: وقال الشبلي: قلب حاضر مع الله لا يغفل عنه طرفة عين.

وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنباء الواعظة وأثبته في سمعه، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه: ٣٩]، أي: أثبتها عليك.

وقوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ قال بعض المتأولين معناه: وهو شاهد مقبل على الأمر غير معرض عنه ولا يفكر في غير ما يسمع.

قال: وقال قتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكأنه قال: إن هذه العبر لتذكرة لمن له فهم فتدبر الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها؛ لعلمه بها من كتابه التوراة، وسائر كتب بني إسرائيل.

قال: فشهيد على التأويل الأول من المشاهدة وعلى التأويل الثاني من الشهادة.

وقال الزجاج: معنى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: من شرف قلبه إلى التفهم، ألا ترى أن قوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ أنهم لم يستمعوا استماع مستفهم مسترشد فجعلوا بمنزلة من لم يسمع.

ومعنى ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾: استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يستمع. والعرب تقول: ألق إليَّ سمعك، أي: استمع مني، وهو شهيد، أي: قلبه فيما يسمع، قال: وجاء في التفسير أنه يعني به أهل الكتاب الذين عندهم صفة النبي ﷺ.

فالمعنى أو ألقى السمع وهو شهيد، أي: شاهد أن صفة النبي ﷺ في كتابه.

وهذا هو الذي حكاه ابن عطية عن قتادة وذكر أن شهيداً فيه بمعنى: شاهد، أي: مخبر.

وقال صاحب الكشاف: ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾: واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا

قلب له[1]، وإلقاء السمع: الإصغاء، وهو شهيد، أي: حاضر بفطنته؛ لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب أو هو مؤمن شاهد على صحته، وأنه وحي من الله وهو بعض الشهداء في قوله: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده.

فلم يختلف في أن المراد بالقلب: القلب الواعي، وأن المراد بإلقاء السمع: إصغاؤه وإقباله على المذكر، وتفريغ سمعه له.

واختلف في الشهيد على أربعة أقوال:

أحدها: أنه من المشاهدة وهي الحضور، وهذا أصح الأقوال ولا يليق بالآية غيره.

والثاني: أنه شهيد من الشهادة، وفيه على هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه شاهد على صحة ما معه من الإيقان.

الثاني: أنه شاهد من الشهداء على الناس يوم القيامة.

الثالث: أنه شهادة من الله عنده على صحة نبوة رسول الله ﷺ بما علمه من الكتب المنزلة.

والصواب: القول الأول، فإن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ جملة حالية؛ الواو فيها: واو الحال، أي: ألقى السمع في هذه الحال، وهذا يقتضي أن يكون حال إلقائه السمع شهيداً، وهذا هو من المشاهدة والحضور.

ولو كان المراد به الشهادة في الآخرة أو في الدنيا لما كان لتقييدها بإلقاء السمع معنى، إذ يصير الكلام إن في ذلك لآية لمن كان له قلب أو ألقى السمع حال كونه شاهداً بما معه في التوراة، أو حال كونه شاهداً يوم القيامة.

ولا ريب أن هذا ليس هو المراد بالآية.

وأيضاً فالآية عامة في كل من له قلب أو ألقى السمع، فكيف يدعى تخصيصها بمؤمني أهل الكتاب الذين عندهم شهادة من كتبهم على صفة النبي ﷺ؟

وأيضاً فالسورة مكية[2] والخطاب فيها لا يجوز أن يختص بأهل الكتاب ولا سيما مثل هذا الخطاب الذي علق فيه حصول مضمون الآية ومقصودها بالقلب الواعي وإلقاء السمع، فكيف يقال: هي في أهل الكتاب؟ فإن قيل: المختص بهم

---

(١) الكشاف للزمخشري (٤/ ٢٥).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/ ٦١٧١).

قوله: «وهو شهيد» فهذا أفسد وأفسد؛ لأن قوله: ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ يرجع الضمير فيه إلى جملة من تقدم، وهو من له قلب أو ألقى السمع، فكيف يدعى عوده إلى شيء غايته أن يكون بعض المذكور أولاً، ولا دلالة في اللفظ عليه.

وأيضاً فإن المشهود به محذوف ولا دلالة في اللفظ عليه، فلو كان المراد به وهو شاهد بكذا؛ لذكر المشهود به، إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه، وهذا بخلاف ما إذا جعل من الشهود وهو الحضور، فإنه لا يقتضي مفعولاً مشهوداً به، فيتم الكلام بذكره وحده.

وأيضاً فإن الآية تضمنت تقسيماً وترديداً بين قسمين، أحدهما من كان له قلب، والثاني من ألقى السمع وحضر بقلبه ولم يغب فهو حاضر القلب شاهده لا غائبه.

وهذا والله أعلم سرُّ الإتيان بأو دون الواو؛ لأن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه، ولا يحتاج إلى أن يستجلب قلبه ويحضره ويجمعه من مواضع شتاته، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض عنه، فهذا لا يحتاج إلا إلى وصول الهدى إليه فقط؛ لكمال استعداده وصحة فطرته، فإذا جاءه الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوباً فيه، فهو قد أدركه مجملاً ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملاً، وهذه حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل كما هي حال الصدِّيق الأكبر رضي الله عنه.

والنوع الثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول، فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه، وجمع فكرته عليه، وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله، وهذه طريقة أكثر المستجيبين، ولهم نوع ضرب الأمثال وإقامة الحجج، وذكر المعارضات والأجوبة عنها.

والأولون هم الذين يدعون بالحكمة، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، فهؤلاء نوعا المستجيبين.

وأما المعارضون المدَّعون للحق فنوعان:

نوع يُدْعَوْنَ بالمجادلة بالتي هي أحسن، فإن استجابوا وإلا فالمجالدة. فهؤلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد.

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شاملة لهؤلاء الأقسام متناولة لها، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾ [النحل: ١٢٥].

فهؤلاء المدعوون بالكلام، وأما أهل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

وأما من فسر الآية بأن المراد بمن كان له قلب هو المستغني بفطرته عن علم المنطق، وهو المؤيد بقوة قدسية ينال بها الحد الأوسط بسرعة؛ فهو لكمال فطرته مستغن عن مراعاة أوضاع المنطق، والمراد بمن ألقى السمع وهو شهيد من ليست له هذه القوة، فهو محتاج إلى تعلم المنطق ليوجب له مراعاته وإصغاؤه إليه وأن لا يزيغ في فكره، وفسر قوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ﴾ أنها القياس البرهاني ﴿وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ القياس الخطابي، ﴿وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ القياس الجدلي.

فهذا ليس من تفاسير الصحابة ولا التابعين ولا أحد من أئمة التفسير، بل ولا من تفاسير المسلمين، وهو تحريف لكلام الله تعالى وحمل له على اصطلاح المنطقية المبخوسة الحظ من العقل والإيمان، وهذا من جنس تفاسير القرامطة والباطنية وغلاة الإسماعيلية لما يفسرونه من القرآن وينزلونه على مذاهبهم الباطلة، والقرآن بريء من ذلك كله منزه عن هذه الأباطيل والهذيانات(١).



فالناس ثلاثة: [**الأول**:] رجل قلبه ميت، فذلك الذي لا قلب له، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه.

الثاني: رجل له قلب حي مستعد، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة: إما لعدم ورودها، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها. فهو غائب القلب، ليس حاضراً، فهذا أيضاً لا تحصل له الذكرى مع استعداده ووجود قلبه.

والثالث: رجل حي القلب مستعد. تليت عليه الآيات فأصغى بسمعه وألقى السمع وأحضر قلبه ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه. فهو شاهد القلب، ملقٍ السمع، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة.

فالأول: بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر.

والثاني: بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه، فكلاهما لا يراه.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١٨٥ ـ ١٨٨).

والثالث: بمنزلة البصير الذي قد حَدَّق إلى جهة المنظور وأتبعه بصره، وقابله على توسط من البعد والقرب فهذا هو الذي يراه.

فسبحان من جعل كلامه شفاءً لما في الصدور(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩].

وهذا تفسير ما جاء في الأحاديث: من قال: كذا وكذا حين يصبح وحين يمسي أن المراد به قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وأن محل هذه الأذكار بعد الصبح وبعد العصر(٢).

□ □ □

[المعنى الإجمالي للسورة]

وقد جمعت هذه السورة من أصول الإيمان ما يكفي ويشفي ويغني عن كلام أهل الكلام ومعقول أهل المعقول.

فإنها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد، والتوحيد والنبوة والإيمان بالملائكة، وانقسام الناس إلى هالك شقي وفائز سعيد، وأوصاف هؤلاء وهؤلاء، وتضمنت إثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائض والعيوب.

وذكر فيها القيامتين: الصغرى والكبرى، والعالمين: الأكبر: وهو عالم الآخرة، والأصغر: وهو عالم الدنيا.

وذكر فيها خلق الإنسان ووفاته وإعادته وحاله عند وفاته ويوم معاده، وإحاطته سبحانه به من كل وجه، حتى علمه بوساوس نفسه، وإقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها، وأنه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه إليه وشاهد يشهد عليه، فإذا أحضره السائق قال: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ [ق: ٢٣]. أي: هذا الذي أمرت بإحضاره قد أحضرته، فيقال عند إحضاره: ﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [ق: ٢٤]. كما يحضر الجاني إلى حضرة السلطان، فيقال: هذا فلان قد أحضرته، فيقول: اذهبوا به إلى السجن وعاقبوه بما يستحقه.

□ □ □

وتأمل كيف دلت السورة صريحاً على أن الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينه الذي

---

(١) مدارج السالكين (٤٤٢، ٤٤٣).
(٢) الوابل الصيب (١٢٧).

أطاع وعصى، فينعمه ويعذبه، كما ينعم الروح التي آمنت بعينها، ويعذب التي كفرت بعينها، لا أنه سبحانه يخلق روحاً أخرى غير هذه فينعمها ويعذبها كما قاله من لم يعرف المعاد الذي أخبرت به الرسل، وإنما تعجبوا من عودهم بأعيانهم، بعد أن مزقهم البلى وصاروا عظاماً ورفاتاً، فتعجبوا أن يكونوا هم بأعيانهم مبعوثين للجزاء؛ ولهذا قالوا: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [الصافات: ١٦]. وقالوا: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [قٓ: ٣].

ولو كان الجزاء إنما هو لأجسام غير هذه، لم يكن ذلك بعثاً ولا رجعاً، بل يكون ابتداء، ولم يكن لقوله: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [قٓ: ٤] كبير معنى. فإنه سبحانه جعل هذا جواباً لسؤال مقدر، وهو: أنه يميز تلك الأجزاء التي اختلطت بالأرض واستحالت إلى العناصر بحيث لا تتميز، فأخبر سبحانه أنه قد علم ما تنقصه الأرض من لحومهم وعظامهم وأشعارهم، وأنه كما هو عالم بتلك الأجزاء، فهو قادر على تحصيلها وجمعها بعد تفرقها، وتأليفها خلقاً جديداً، وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته وكمال حكمته.

فإن شبه المنكرين له كلها تعود إلى ثلاثة أنواع:

أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص.

الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك.

الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه، أو إنما الحكمة اقتضت دوام هذا النوع الإنساني شيئاً بعد شيء، هكذا أبداً، كلما مات جيل خلفه جيل آخر. فأما أن يميت النوع الإنساني كله ثم يحييه بعد ذلك فلا حكمة في ذلك، فجاءت براهين المعاد في القرآن مبنية على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [قٓ: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته، كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ﴾ [يس: ٨١]. وقوله: ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١].

ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص.

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أن المنكرين لذلك لما كذبوا بالحق اختلط عليهم أمرهم، ﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، مختلط لا يحصلون منه على شيء.

ثم دعاهم إلى النظر في العالم العلوي وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسنه والتئامه، ثم إلى العالم السفلي وهو الأرض، وكيف بسطها وهيأها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال وأودع فيها المنافع وأنبت فيها من كل صنف حسن من أصناف النبات؛ على اختلاف أشكاله وألوانه ومقاديره ومنافعه وصفاته، وأن ذلك تبصرة - إذا تأملها العبد المنيب وتبصَّر بها - تذكر ما دلت عليه مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد.

فالناظر فيها يتبصر أولاً، ثم يتذكر ثانياً، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه.

ثم دعاهم إلى التفكر في مادة أرزاقهم وأقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجنَّاتهم، وهو الماء الذي أنزله من السماء وبارك فيه، حتى أنبت به جنات مختلفة الثمار والفواكه، ما بين أبيض وأسود وأحمر وأصفر وحلو وحامض، وبين ذلك مع اختلاف منافعها وتنوع أجناسها، وأنبت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها وأشكالها ومقاديرها. ثم أفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل ﴿فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ١٦٤].

ثم قال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [ق: ١١]، أي: مثل هذا الإخراج من الأرض والفواكه والثمار والأقوات والحبوب، خروجكم من الأرض بعدما غيبتم فيها.

ثم انتقل سبحانه إلى تقرير النبوة بأحسن تقرير، وأوجز لفظ وأبعده عن كل شبهة وشك، فأخبر أنه أرسل إلى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون رسلاً

فكذبوهم، فأهلكهم بأنواع الهلاك وصدق فيهم وعيده الذي أوعَدَتهم به رسله إن لم يؤمنوا.

وهذا تقرير لنبوتهم ولنبوة من أخبر بذلك عنهم، من غير أن يتعلم ذلك من معلم ولا قرأه في كتاب، بل أخبر به إخباراً مفصلاً مطابقاً لما عند أهل الكتاب.

ولا يرد على هذا إلا سؤال البهت والمكابرة على جحد الضروريات بأنه لم يكن شيء من ذلك، أو أن حوادث الدهر ونكباته أصابتهم كما أصابت غيرهم، وصاحب هذا السؤال يعلم من نفسه أنه باهت مباهت جاحد لما شهد به العيان، وتناقلته القرون قرناً بعد قرن، فإنكاره بمنزلة إنكار وجود المشهورين من الملوك والعلماء والبلاد النائية.

□ □ □

ثم عاد سبحانه إلى تقرير المعاد بقوله: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِۚ﴾ [قٓ: ١٥]. يقال لكل من عجز عن شيء: عيي به، وعيي فلان بهذا الأمر

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]. قال ابن عباس: يريد: أفعجزنا، وكذلك قال مقاتل.

وليس المراد بالإعياء في هذه الآية التعب، كما يظنه من لم يعرف تفسير القرآن، بل هذا المعنى هو الذي نفاه سبحانه عن نفسه في آخر السورة بقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [قٓ: ٣٨].

ثم أخبر سبحانه أنهم: ﴿فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [قٓ: ١٥]. أي: أنهم التبس عليهم إعادة الخلق خلقاً جديداً ثم نبههم على ما هو من أعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وأدلة المعاد وهو خلق الإنسان، فإنه من أعظم الأدلة على التوحيد والمعاد.

وأي دليل أوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية بأعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والأعصاب والرباطات والمنافذ والآلات والعلوم والإرادات والصناعات... كل ذلك من نطفة ماء، فلو أنصف العبد ربه لاكتفى بفكره في نفسه، واستدل بوجوده على جميع ما أخبرت به الرسل عن الله وأسمائه وصفاته.

ثم أخبر سبحانه عن إحاطة علمه به، حتى علم وساوس نفسه. ثم أخبر عن قربه إليه بالعلم والإحاطة، وأن ذلك أدنى إليه من العرق الذي هو داخل بدنه، فهو أقرب إليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق:

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أن على يمينه وشماله ملكين يكتبان أعماله وأقواله، ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعاً وأعظم أثراً من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهايتها.

ثم أخبر عن القيامة الصغرى وهي سكرة الموت، وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه والقدوم عليه وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى.

ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ﴾ [قٓ: ٢٠]. ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه، وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الأرض التي كان عليها، له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين، فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين.

ولهذا أخبر نبيه أنه يحكم بين الناس بما سمعه من إقرارهم وشهادة البينة لا بمجرد علمه، فكيف يسوغ لحاكم أن يحكم بمجرد علمه من غير بينة ولا إقرار؟

ثم أخبر سبحانه أن الإنسان في غفلة من هذا الشأن الذي هو حقيق بأن لا يغفل عنه وأن لا يزال على ذكره وباله، وقال: ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ [قٓ: ٢٢]. ولم يقل عنه، كما قال: ﴿وَإِنَّهُمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [هود: ١١٠]. ولم يقل: في شك فيه، وجاء هذا في المصدر وإن لم يجئ في الفعل فلا يقال: غفلت منه ولا شككت منه، كأن غفلته وشكه ابتداء منه فهو مبدأ غفلته وشكه، وهذا أبلغ من أن يقال: في غفلة عنه وشك فيه، فإنه جعل ما ينبغي أن يكون مبدأ التذكرة واليقين ومنشأهما مبدأ للغفلة والشك.

ثم أخبر أن غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ، وعن العين فتنفتح. فنسبة كشف هذا الغطاء عن البعد عند المعاينة كنسبة كشف غطاء النوم عنه عند الانتباه.



ثم أخبر سبحانه أن قرينه، وهو الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، يكتب عمله وقوله، يقول لما يحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به؛ هذا قول مجاهد.

وقال ابن قتيبة: المعنى: هذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي[(١)]، والتحقيق أن الآية تتضمن الأمرين، أي: هذا الشخص الذي وكلت به وهذا عمله الذي أحصيته عليه. فحينئذ يقال: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [قٓ: ٢٤]. وهذا إما أن يكون خطاباً للسائق والشهيد، أو خطاباً للملك الموكل بعذابه وإن كان واحداً. وهو مذهب معروف من مذاهب العرب في خطابها، أو تكون الألف منقلبة عن نون التوكيد الخفيفة، ثم أجري الوصل مجرى الوقف.

ثم ذكر صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات:

أحدها: أنه كفَّار لنعم الله وحقوقه، كفَّار بدينه وتوحيده وأسمائه وصفاته، كفَّار برسله وملائكته، كفَّار بكتبه ولقائه.

الثانية: أنه معاند للحق بدفعه جحداً وعناداً.

الثالثة: أنه منَّاع للخير، وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق.

الرابعة: أنه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه.

الخامسة: أنه مريب، أي: صاحب ريب وشك، ومع هذا فهو آت لكل ريبة، يقال: فلان مريب، إذ كان صاحب ريبة.

السادسة: أنه مع ذلك مشرك بالله قد اتخذ مع الله إلٰهاً آخر يعبده ويحبه، ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له، ويوالي فيه ويعادي فيه، فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الأمر عليه، وأنه هو الذي أطغاه وأضله. فيقول قرينه: لم يكن لي قوة أن أضله وأطغيه، ولكن كان في ضلال بعيد اختاره لنفسه وآثره على الحق، كما قال إبليس لأهل النار: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وعلى هذا، فالقرين هنا هو شيطانه يختصمان عند الله. وقالت طائفة: بل قرينه ها هنا هو المَلَك، فيدعي عليه أنه زاد عليه فيما كتبه عليه وطغى، وأنه لم يفعل ذلك

---

(١) انظر: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (٤٢٢).

كله، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ [قٓ: ٢٧]. فيقول الرب تعالى: ﴿لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ﴾ [قٓ: ٢٨].

وقد أخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه في سورتي الصافات والأعراف، وأخبر عن اختصام الناس بين يديه في سورة الزمر، وأخبر عن اختصام أهل النار فيها في سورة الشعراء وسورة (ص).

□ □ □

ثم أخبر سبحانه أنه لا يُبدل القول لديه.

فقيل: المراد بذلك قوله: ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]. ووعده لأهل الإيمان بالجنة وأن هذا لا يبدل ولا يخلف.

قال ابن عباس: يريد: ما لوعدي خلف لأهل طاعتي ولا أهل معصيتي.

قال مجاهد: قد قضيت ما أنا قاض. وهذا أصح القولين في الآية.

وفيها قول آخر: إن المعنى ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس كما يغير عند الملوك والحكام. فيكون المراد بالقول قول المختصمين، وهو اختيار الفراء وابن قتيبة. قال الفراء: المعنى: ما يكذب عندي لعلمي بالغيب. وقال ابن قتيبة: ما يحرف القول عندي ولا يزاد فيه ولا ينقص منه. قال: لأنه قال: القول عندي ولم يقل: قولي، وهذا كما يقال: لا يكذب عندي.

فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [قٓ: ٢٩] من تمام قوله: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى، أي: ما قلته ووعدت به لا بد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه ولا جور.

وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين:

أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه وترويج الباطل عليه.

والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده.

□ □ □

ثم أخبر عن سعة جهنم وأنها كلما ألقي فيها تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [قٓ: ٣٠]. وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس من مزيد. والحديث الصحيح يرد هذا التأويل(١).

ثم أخبر عن تقريب الجنة من المتقين، وأن أهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الأربع:

إحداها: أن يكون أوّاباً، أي: رجَّاعاً إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره. قال عبيد بن عمير: الأواب: الذي يتذكر ذنوبه ثم يستغفر منها. وقال سعيد بن المسيب: هو الذي يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب.

الثانية: أن يكون حفيظاً، قال ابن عباس: لما ائتمنه الله عليه وافترضه. وقال قتادة: حافظ لما استودعه الله من حقه ونعمته. فالحفيظ: الممسك نفسه عما حرم عليه، والأواب: المقبل على الله بطاعته.

الثالثة: قوله: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [قٓ: ٣٣]. يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد. ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه. ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمٰن بالغيب إلا بعد هذا كله.

الرابعة: قوله: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾. قال ابن عباس: راجع عن معاصي الله، مقبل على طاعة الله. وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه. ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الأوصاف بقوله: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٤، ٣٥].



ثم خوَّفهم بأن يصيبهم من الهلاك ما أصاب من قبلهم وأنهم كانوا أشد منهم بطشاً ولم يدفع عنهم الهلاك شدة بطشهم، وأنهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا في البلاد، وهل يجدون محيصاً ومنجى من عذاب الله؟ قال قتادة: حاص أعداء الله

---

(١) يشير للحديث الصحيح: «يقال لجهنم: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها فتقول: قط قط؟». رواه البخاري (٨/ ٤٦٠) في التفسير، سورة ق، باب: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾، ومسلم (٥/ ٦٩٢) في صفة الجنة والنار، باب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، والترمذي (٥/ ٣٦٤) في التفسير، باب: «ومن سورة ق». وانظر: تفسير الطبري (٢٦/ ١٧٠).

فوجدوا أمر الله لهم مدركاً. وقال الزجاج: طَوَّفوا وفتشوا فلم يروا محيصاً من الموت. وحقيقة ذلك أنهم طلبوا المهرب من الموت فلم يجدوه.

ثم أخبر سبحانه أن في هذا الذي ذكر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [قٓ: ٣٧]. ثم أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولم يمسه من تعب ولا إعياء، تكذيباً لأعدائه من اليهود، حيث قالوا: إنه استراح في اليوم السابع.

ثم أمر نبيه بالتأسي به سبحانه في الصبر على ما يقول أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود: إنه استراح، ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه، ثم أمره بما يستعين به على الصبر وهو التسبيح بحمد ربه قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وبالليل وأدبار السجود. فقيل: هو الوتر. وقيل: الركعتان بعد المغرب. والأول قول ابن عباس، والثاني قول عمر وعلي وأبي هريرة والحسن بن علي، وإحدى الروايتين عن ابن عباس. وعن ابن عباس رواية ثالثة: أنه التسبيح باللسان أدبار الصلوات المكتوبات.

ثم ختم السورة بذكر المعاد ونداء المنادي برجوع الأرواح إلى أجسادها للحشر. وأخبر أن هذا النداء من مكان قريب يسمعه كل أحد: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ [قٓ: ٤٢]، بالبعث ولقاء الله يوم تشقق الأرض عنهم كما تشقق عن النبات، فيخرجون سراعاً من غير مهلة ولا بطء، ذلك حشر يسير عليه سبحانه.

ثم أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه؛ وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء.

ثم أخبره أنه ليس بمسلط عليهم ولا قهار ولم يبعث ليجبرهم على الإسلام ويكرههم عليه، وأمره أن يذكر بكلامه من يخاف وعيده، فهو الذي ينتفع بالتذكير وأما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو ثوابه، فلا ينتفع بالتذكير[1].



(١) الفوائد (٥ ـ ١٨).

سُوْرَةُ الذّارِيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ۝١ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ۝٢ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ۝٣ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ **[الذاريات: ١ ـ ٤]**.

أقسم بالذاريات وهي الرياح تذرو المطر وتذرو التراب وتذرو النبات إذا تهشم، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥]، أي: تفرقه وتنشره، ثم بما فوقها وهي السحاب الحاملات وقراً، أي: ثقلاً من الماء، وهي روايا الأرض، يسوقها الله سبحانه على متون السحاب الرياح. كما في جامع الترمذي من حديث الحسن عن أبي هريرة قال: بينما نبي الله ﷺ جالس في أصحابه إذ أتى عليهم سحاب، فقال نبي الله ﷺ: «هل تدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «هذه العنان، هذه روايا الأرض، يسوقها الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه»(١)، ثم أقسم سبحانه بما فوق ذلك وهي ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾، وهي النجوم التي من فوق الغمام. و﴿يُسْرًا﴾ أي: مسخرة مذللة منقادة.

وقال جماعة من المفسرين: إنها السفن تجري ميسرة في الماء جرياً سهلاً ومنهم من لم يذكر غيره.

واختار شيخنا رحمه الله القول الأول، وقال: هو أحسن في الترتيب، والانتقال من السافل إلى العالي فإنه بدأ بالرياح وفوقها السحاب وفوقه النجوم وفوقها الملائكة المقسمات أمر الله الذي أُمرت به بين خلقه. والصحيح أن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ لا تختص بأربعة.

وقيل: هم جبريل يقسم الوحي والعذاب وأنواع العقوبة على من خالف الرسل، وميكائيل على القطر والبرد والثلج والنبات، يقسمها بأمر الله، وملك الموت يقسم المنايا بين الخلق بأمر الله، وإسرافيل يقسم الأرواح على أبدانها عند النفخ في

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨).

الصور، وهم المدبرات أمراً، وليس في اللفظ ما يدل على الاختصاص بهم، والله أعلم.

وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة، والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته، وعظم قدرته. ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابِّها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها. فللمطر خمسة رياح: ريح ينشر سحابه، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه.

وللنبات ريح، وللسفن ريح، وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح.

وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها، يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاءً تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذاباً تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يغطيها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيماً، وتارة لاقحة، وتارة جنوباً، وتارة دبوراً، وتارة صباً، وتارة شمالاً، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير، لطيفة المسار بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء.

تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز.

وهي من رَوح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله كما رواه الترمذي في جامعه من حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «لما خلق الله الأرض جعلت تميد، فخلق الجبال، فقال: بها عليها، فاستقرت، فعجبت الملائكة من شدة الجبال وقالوا: يا رب، هل من خلقك شيء أشد من الجبال؟ قال: نعم الحديد، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من الحديد؟ قال: نعم النار، قالوا: يا رب فهل من خلقك شيء أشد من النار؟ قال: نعم الماء، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الماء؟ قال: نعم الريح، قالوا: يا رب فهل من خلقك أشد من الريح؟ قال: نعم ابن آدم، تصدق بصدقة بيمينه يخفيها عن شماله»[١]، ورواه الإمام أحمد في مسنده.

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ١٢٤)، والترمذي (٣٣٦٩).

وفي الترمذي[١] في حديث قصة عاد: أنه لم يرسل عليهم من الريح إلا قدر حلقة الخاتم، فلم تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم وقد وصفها الله بأنها عاتية. قال البخاري في صحيحه: عتت على الخَزَنة، فلم يستطيعوا أن يردوها[٢].

والمقصود: أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته.

□ □ □

ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو. في غاية الخفة، ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح، فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض، حامل لأرزاق العباد والحيوان، فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه.

فسل السحاب: من أنشأه بعد عدمه؟ وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد؟ ومن أغاث بقطره العباد، وأحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد، وأخرج ذلك القطر بقدر معلوم، وأنزله منه، وأفناه بعد الاستغناء عنه، ولو شاء لأدامه عليهم فلم يستطيعوا إلى دفعه سبيلاً، ولو شاء لأمسكه عنهم فلا يجدون إليه وصولاً، فإن لم يجبك جواباً أجابك اعتبار مرسل الرياح، من أنشأها بقدرته وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها بشراً بين يدي رحمته، جعلها سبباً لتمام نعمته، وسلطاناً على من شاء بعقوبته، ومن جعلها رخاءً وذارية، ولاقحة، ومثيرة، ومؤلفة، ومغذية لأبدان الحيوان، والشجر، والنبات، وجعلها قاصفاً، وعاصفاً، ومهلكة وعاتية، إلى غير ذلك من صفاتها.

فهل ذلك لها من نفسها وذاتها أم تدبير مدبر شهدت الموجودات بربوبيته، وأقرت المصنوعات بوحدانيته، بيده النفع والضر، وله الخلق والأمر، تبارك الله رب العالمين؟

□ □ □

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٣٦٤، ٣٦٥) في التفسير، باب: من سورة الذاريات.

(٢) ذكره البخاري (٦/ ٤٣٣) في كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، عن ابن عيينة قال: «عتت على الخزان». وانظر: تفسير ابن عيينة، ص(٣٣٨)، سورة الحاقة.

وسل الجاريات يسراً من السفن: من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ فمن الذي جعل الريح لها بقدر لو زاد عليها لأغرقها ولو نقص عنه لعاقها؟ ومن الذي أجرى لها ريحاً واحدة تسير بها، ولم يسلط على تلك الريح ما يصادمها ويقاومها، فتتموج في البحر يميناً وشمالاً. تتلاعب بها الريح؟ ومن الذي علَّم الخلق الضعيف صنعة هذا البيت العظيم، الذي يمشي على الماء، فيقطع المسافة البعيدة، ويعود إلى بلده يشق الماء ويمخره، مقبلاً ومدبراً بريح واحدة، تجري في موج كالجبال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢ ـ ٣٤]. ومن الذي حمل في هذا البيت نبيه وأولياءه خاصة، وأغرق جميع أهل الأرض سواهم؟.



وسل الجاريات يسراً من الكواكب، والشمس، والقمر: من الذي خلقها وأحسن خلقها، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم، وفاوت بين أشكالها ومقاديرها، وألوانها، وحركاتها، وأماكنها من السماء، فمنها الكبير، ومنها الصغير، والمتوسط، والأبيض، والأحمر، والزجاجي اللون، والدري اللون، والمتوسط في قبة الفلك، والمتطرف في جوانبها. وبين ذلك؟ ومنها ما يقطع الفلك في شهر ومنها ما يقطعه في عام ومنها ما يقطعه في ثلاثين عاماً ومنها ما يقطعه في أضعاف ذلك. ومنها ما لا يزال ظاهراً لا يغيب بحال فهو أبدي، ومنها أبدي الخفاء، ومنها ما لِه حالتان؛ ظهور واختفاء، ومنها ما له حركتان: حركة عرضية من المشرق إلى المغرب، وحركة ذاتية من المغرب إلى المشرق، فحالما يأخذ الكوكب في الغروب فإذا كوكب آخر في مقابلته، وكوكب آخر قد طلع، وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد، وكوكب آخر في الربع الشرقي وكوكب آخر في وسط السماء، وكوكب آخر قد مال عن الوسط، وآخر قد دنا من الغروب، وكأنه رقيبه ينتظر بطلوعه غيبته.

وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله،

فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر. فهي هداية في طرق العلم بالخالق سبحانه، وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة. ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا.

□ □ □

وأما دلالة ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ وهم الملائكة؛ فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة، فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم، وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم، فوكل بالشمس والقمر والنجوم، والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة، ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام في خدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الذاريات: ٥ ـ ١٢].

ثم أقسم سبحانه بهذه الأمور على صدق وعده، ووقوع جزائه بالثواب والعقاب فقال: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾، أي: ما توعدون من أمر الساعة والثواب والعقاب لحق كائن، وهو وعد صدق لا كذب، ﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ﴾ أي: إن الجزاء لكائن لا محالة.

ويجوز أن تكون (ما) موصولة، والعائد محذوف، والمعنى: أن الذي توعدونه لصادق، أي: كائن وثابت. وأن تكون مصدرية، أي: إن وعدكم لحق وصدق.

ووصف الوعد بكونه صادقاً أبلغ من وصفه بكونه صدقاً، ولا حاجة إلى تكلف جعله بمعنى مصدوق فيه، بل هو صادق نفسه، كما يوصف المتكلم بأنه صادق في كلامه، فوصف كلامه بأنه صادق، وهذا مثل قولهم: سر كاتم، وليل قائم، ونهار صائم، وماء دافق. ومنه ﴿عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٢١]. وليس ذلك بمجاز، ولا مخالف لمقتضى التركيب.

وإذا تأملت هذا التناسب والارتباط بين المقسم به والمقسم عليه وجدته دالًّا عليه؛ مرشداً إليه.

ثم أقسم سبحانه بـ ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾.

أصل الحبك في اللغة إجادة النسج، يقال: حبك الثوب إذا أجاد نسجه، وحبل محبوك إذا كان شديد الفتل، وفرس محبوك الكفل، أي: مدمجه، وقال شمر: المحبوك في اللغة: ما أجيد عمله، ودابة محبوكة: إذا كانت مدمجة الخلق، وقال أبو عبيدة والمبرد: الحبك: الطريق، واحدها حباك، وحباك الحَمَام: طرائق على جناحيه، وحبك الماء طريقه، وقال الفراء: الحبك تكسير كل شيء، كالرمل إذا مرت به الريح والماء الدائم إذا مرت به الريح، وتجعد الشعر حبك أيضاً، واحدها حبيكة، مثل: طرق وطريقة، وحباك مثل: مثال ومثل.

والمقصود: بهذا كله ما أفصح به ابن عباس، فقال: يريد الخلق الحسن.

وروى سعيد بن جبير عنه قال: الحبك حسنها واستواؤها، وقال قتادة: ذات الخلق الشديد. وقال مجاهد: متقنة البنيان. وقال أيضاً: ذات الطرائق ولكنها بعيدة من العباد فلا يرونها، كحبك الماء إذا ضربته الريح، وكحبك الرمل، وكحبك الشعر، وقال عكرمة: بنيانها كالبرد المسلسل.

قلت: وفي الحديث في صفة الدجال: «ورأسه حبك»[١]، أي: جعد الشعر، ومن أحسن ما قيل في تفسير الحبك: ما ذكره الترمذي في تفسير الجامع من حديث الحسن، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «هل تدرون ما فوقكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها الرقيع سقف محفوظ، وموج مكفوف»، وذكر الحديث[٢].

□ □ □

ثم ذكر المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾.

فالقول المختلف أقوالهم في القرآن وفي النبي ﷺ، وهو خرص كله، فإنهم لما كذبوا بالحق اختلفت مذاهبهم، وآراؤهم، وطرائقهم، وأقوالهم. فإن الحق شيء

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٢/ ١٧٥) برقم (٤٥٦). قال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح»، مجمع الزوائد (٧/ ٣٤٢، ٣٤٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢/ ٣٧٠)، والترمذي (٣٢٩٨).

واحد وطريق مستقيم. فمن خالفه اختلفت به الطرق والمذاهب، كما قال تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق: ٥]، أي: مختلط ملتبس. وفي ضمن هذا الجواب: أنكم في أقوال باطلة متناقضة، يكذب بعضها بعضاً، بسبب تكذيبهم بالحق.

ثم أخبر سبحانه أنه يصرف بسبب ذلك القول المختلف من صرف فـ«عن» هاهنا فيها طرف من معنى التسبيب، كقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣].

وقوله: ﴿مَنْ أُفِكَ﴾ أي: من سبق في علم الله أنه يضل، ويؤفك، كقوله: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۝ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦١ ـ ١٦٣].

وقالت طائفة: الضمير يرجع إلى القرآن، وقيل: إلى الإيمان، وقيل: إلى الرسول، والمعنى: يصرف عنه من صرف حتى يكذب به.

ولما كان هذا القول المختلف خرصاً وباطلاً قال: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾، أي: المكذبون[1]. ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾. وجهالة قد غمرت قلوبهم، أي: غطتها وغشتها، كغمرة الماء وغمرة الموت، فالغمرات ما غطاها من جهل، أو هوى، أو سكر، أو غفلة، أو حب، أو بغض، أو خوف، أو غم، ونحو ذلك، قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]، أي: غفلة، وقيل: جهالة.

ثم وصفهم بأنهم ساهون في غمرتهم، والسهو: الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه، والفرق بينه وبين النسيان أن النسيان الغفلة بعد الذكر والمعرفة والسهو لا يستلزم ذلك.

ثم قال: ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ استبعاداً للوقوع وجحداً. فأخبر تعالى أن ذلك:

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ۝ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ **[الذاريات: ١٣ ـ ١٤].**

والمشهور في تفسير هذا الحرف: أنه بمعنى: يحرقون، ولكن لفظة «على» تعطي

(١) وأصل الخرص: القول بلا علم، بل بالظن والتخمين، والقذف بالكلام من غير برهان على صحته، ومنه سمي الكاذب خارصاً، وصاحب الظن والتخمين خارصاً [الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٣٠)].

معنى زائداً على ما ذكروه، ولو كان المراد نفس الحرق لقيل: يوم هم في النار يفتنون؛ ولهذا لما علم هؤلاء ذلك قال كثير منهم: «على» بمعنى «في»، كما تكون «في» بمعنى «على». والظاهر أن فتنتهم على النار.

قيل: فتنتهم فيها لهم عند عرضهم عليها، ووقوفهم عليها فتنة، وعند دخولهم، والتعذيب بها فتنة أشد منها.

ومن جعل الفتنة هاهنا من الحريق؛ أخذه من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟﴾ [البروج: ١٠]. واستشهد على ذلك أيضاً بهذه اللفظة التي في الذاريات.

وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه؛ ولهذا سمى الله الكفر فتنة فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾.

وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها.

ففتنوا أولاً بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم، ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها، وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٩].

ثم ذكر سبحانه جزاء من خلص من هذه الفتن بالتقوى، وهو الجنات والعيون، وأنهم: ﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

من الخير والكرامة.

وفي ذلك دليل على أمور:

منها: قبولهم له.

ومنها: رضاهم به.

ومنها: وصولهم إليه بلا مانع ولا عائق.

ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم. فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك.

ثم ذكر السبب الذي أوصلهم إلى ذلك، وهو إحسانهم المتضمن لعبادته وحده لا شريك له، والقيام بحقوقه، وحقوق عباده. ثم ذكر ليلهم وأنهم قليل هجوعهم منه.

فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾

وقد قيل: إن ﴿مَا﴾ نافية، والمعنى ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير؟ وهذا ضعيف لوجوه[1].

---

(١) **أحدها**: أن هذا ليس بلازم لوصف المتقين الذين يستحقون هذا الجزاء.

الثاني: أن قيام من نام من الليل نصفه أحب إلى الله من قيام من قامه كله.

الثالث: أنه لو كان المراد بذلك إحياء الليل جميعه لكان أولى الناس بهذا رسول الله ﷺ، وما قام ليلة حتى الصباح.

الرابع: أن الله سبحانه إنما أمر رسوله أن يتهجد بالقرآن من الليل لا في الليل كله. فقال: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ﴾ [الإسراء: ٧٩].

الخامس: أنه سبحانه لما أمره بقيام الليل في سورة المزمل إنما أمره بقيام النصف، أو النقصان منه، أو الزيادة عليه، فذكر له هذه المراتب الثلاث، ولم يذكر قيامه كله.

السادس: أنه ﷺ لما بلغه عن عثمان بن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقاً، وإن لضيفك عليك حقاً، وإن لنفسك عليك حقاً، فصم وأفطر، وصل ونم». ولما بلغه عن زينب بنت جحش أنها تصلي الليل كله حتى جعلت حبلاً بين ساريتين إذا فترت تعلقت به أنكر ذلك وأمر بحله.

السابع: أن الله أثنى عليهم بأنهم كانت ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]. وتقلق عنها حتى يقوموا إلى الصلاة؛ ولهذا جازاهم عن هذا التجافي ـ الذي سببه قلق القلب واضطرابه حتى يقوم إلى الصلاة ـ بقرة الأعين.

الثامن: أن الصحابة ـ الذين هم أول وأولى من دخل في هذه الآية ـ لم يفهموا منها عدم نومهم بالليل أصلاً. فروى بجير بن سعد عن سعيد عن قتادة عن أنس في قوله: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ قال: كانوا يصلون ما بين المغرب والعشاء.

التاسع: أن في هذا التقرير تفكيكاً للكلام وتقديماً لمعمول العامل المنفي عليه؛ لأنك تجعل قليلاً مفعول يهجعون، وهو منفي، والبصريون لا يجيزون ذلك وإن أجازه الكوفيون. وفصَّل بعضهم، أجازه في الظرف، ولم يجزه في غيره.

وقيل: «ما» زائدة، وخبر كان ﴿يَهۡجَعُونَ﴾ و﴿قَلِيلًا﴾ منصوب إما على المصدرية أي: هجوعاً قليلاً. وإما على الظرف، أي: زمناً قليلاً.

واستشكل هذا بأن نوم نصف الليل وقيام ثلثه، ثم نوم سدسه أحب القيام إلى الله. فيكون وقت الهجوع أكثر من وقت القيام، فكيف يثني عليهم بما الأفضل خلافه؟

وأجيب عن ذلك: بأن من قام هذا القيام فزمن هجوعه أقل من زمن يقظته قطعاً. فإنه مستيقظ من المغرب إلى العشاء، ومن الفجر إلى طلوع الشمس. فيبقى ما بين العشاء إلى طلوع الفجر، فيقومون نصف ذلك الوقت فيكون زمن الهجوع أقل من زمن الاستيقاظ.

وقيل: (ما) مصدرية، وهي في موضع رفع بقليل أي: كانوا قليلاً هجوعهم وهو قول الحسن.

وقيل: إنها موصولة بمعنى: الذي، والعائد محذوف، أي: قليلاً من الليل الوقت الذي يهجعون، وفيه تكلف.

وقيل: ما يهجعون بدل اشتمال من اسم كان، والتقدير كان هجوعهم من الليل قليلاً. ويرد عليه أن من الليل متعلق بيهجعون، ومعمول المصدر لا يتقدم عليه، وأجيب عنه أنه منصوب على التفسير. ومعناه: أن يقدر له فعل محذوف ينصبه مفسره هذا المذكور، وقليلاً خبر كان، وتم الكلام بذلك، والمعنى: كانوا صنفاً أو جنساً قليلاً، ثم قال: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾، وأصحاب هذا القول يجعلون «ما» نافية، فيعود الكلام إلى نفي هجوعهم شيئاً من الليل. وقد تقدم ما فيه.

□ □ □

ثم أخبر عنهم بأنهم مع صلاتهم بالليل كانوا يستغفرون الله عند السحر، فختموا صلاتهم بالاستغفار والتوبة. فباتوا لربهم سجداً وقياماً، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك، «وكان النبي ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثاً»، وأمره الله سبحانه أن يختم عمره بالاستغفار(١)، وأمر عباده أن يختموا إفاضتهم من عرفات

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في سورة النصر: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ٣].

بالاستغفار[١]. وشرع ﷺ للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة[٢]، فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار.

ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم. فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان، ضد ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]. وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل والمحروم، الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل.

وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجدة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين، فلم يجمع عليه بين الحرمان بالقدر، وبالشرع، شرع عطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ﴾ **[الذاريات: ٢٠].**

فآيات الأرض أنواع كثيرة:

منها: خلقها وحدوثها بعد عدمها، وشواهد الحدوث والافتقار إلى الصانع عليها لا تجحد، فإنها شواهد قائمة بها.

ومنها: بروز هذا الجانب فيها عن الماء، مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغموراً به.

ومنها: سعتها وكبر خلقها.

ومنها: تسطيحها، كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ٢٠]. ولا ينافي ذلك كونها كروية، فهي كرة في الحقيقة، لها سطح يستقر عليه الحيوان.

ومنها: أنه جعلها فراشاً لتكون مقر الحيوان ومساكنه، وجعلها قراراً، وجعلها مهاداً. وجعلها ذلولاً توطأ بالأقدام، وتضرب بالمعاول، والفؤوس، وتحمل على ظهرها الأبنية الثقال فهي ذلول مسخرة لما يريد العبد منها، وجعلها بساطاً وجعلها كفاتاً للأحياء تضمهم على ظهرها، وللأموات تضمهم في بطنها، وطحاها فمدها وبسطها ووسعها ودحاها، فهيأها لما يراد منها بأن أخرج منها ماءها ومرعاها وشق فيها الأنهار، وجعل فيها السبل والفجاج.

---

(١) في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ . . .﴾ [البقرة: ١٩٩].

(٢) حديث صحيح. أخرجه الترمذي (١/ ٧٧، ٧٨)، وصححه أحمد شاكر، والألباني، كما في الإرواء (١/ ١٣٥).

ونبه بجعلها مهاداً وفراشاً على حكمته في جعلها ساكنة. وذلك آية أخرى إذ لا دعامة تحتها تمسكها، ولا علاقة فوقها، ولكنها لما كانت على وجه الماء كانت تكفأ فيها تكفأ السفينة، فاقتضت العناية الأزلية، والحكمة الإلٰهية أن وضع عليها رواسي يثبتها بها؛ لئلا تميد؛ وليستقر عليها الأنام، وجعلها ذلولاً على الحكمة في أن لم تكن في غاية الصلابة والشدة كالحديد، فيمتنع حفرها وشقها، والبناء فيها، والغرس، والزرع، والنوم عليها، والمشي فيها.

ونبه بكونها قراراً على الحكمة في أنها لم تخلق في غاية اللين والرخاوة والدماثة، فلا تمسك بناء، ولا يستقر عليها الحيوان ولا الأجسام الثقيلة، بل جعلها بين الصلابة والدماثة.

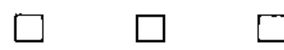
وأشرف الجواهر عند الإنسان: الذهب، والفضة، والياقوت، والزمرد. فلو كانت الأرض من هذه الجواهر لفاتت مصالح العباد والحيوان منها، وتعطلت المنافع المقصودة منها.

وبهذا يعلم أن جواهر التراب أشرف من هذه الجواهر وأنفع وأبرك، وإن كانت تلك أغلى وأعز؛ فغلاؤها وعزتها لقلتها وإلا فالتراب أنفع منها، وأبرك وأنفس.

وكذلك لم يجعلها شفافة، فإن الجسم الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان كذلك لم يقبل السخونة، فيبقى في غاية البرد، فلا يستقر عليه الحيوان ولا يتأتى فيه النبات، وكذلك لم يجعلها صقيلة براقة، لئلا يحترق ما عليها بسبب انعكاس أشعة الشمس، كما يشاهد من احتراق القطن ونحوه عند انعكاس شعاع الجسم الصقيل الشفاف.

فاقتضت حكمته سبحانه أن جعلها كثيفة غبراء. فصلحت أن تكون مستقراً للحيوان، والأنام، والنبات.

ولما كان الحيوان الهوائي لا يمكنه أن يعيش في الماء كالحيوان المائي أبرز له جانبها كما تقدم، وجعله على أوفق الهيئات لمصالحه، وأنشأ منها طعامه وقوته، وكذلك خلق منها النوع الإنساني، وأعاده إليها ويخرجه منها.



ومن آياتها أن جعلها مختلفة الأجناس، والصفات، والمنافع، مع أنها قطع متجاورات، متلاصقة، فهذه سهلة، وهذه حزنة، تجاورها وتلاصقها، وهذه طيبة تنبت، وتلاصقها أرض لا تنبت، وهذه تربة، وتلاصقها رمال، وهذه صلبة،

ويلاصقها ويليها رخوة، وهذه سوداء، ويليها أرض بيضاء، وهذه حصى كلها، ويجاورها أرض لا يوجد فيها حجر، وهذه تصلح لنبات كذا وكذا، وهذه لا تصلح له بل تصلح لغيره، وهذه سبخة مالحة، وهذه بضدها، وهذه ليس فيها جبل، ولا معلم، وهذه مسجرة بالجبال، وهذه لا تصلح إلا على المطر، وهذه لا ينفعها المطر، بل لا تصلح إلا على سقي الأنهار، فيمطر الله سبحانه الماء على الأرض البعيدة، ويسوق الماء إليها على وجه الأرض.

فلو سألتها: من نوَّعها هذا التنوع؟ ومن فرق أجزاءها هذا التفريق؟ ومن خصص كل قطعة منها بما خصَّها به؟ ومن ألقى عليها رواسيها، وفتح فيها السبل، وأخرج منها الماء والمرعى؟ ومن أمسكها عن الزوال؟ ومن بارك فيها، وقدر فيها أقواتها، وأنشأ منها حيوانها ونباتها؟ ومن وضع فيها معادنها وجواهرها ومنافعها؟ ومن هيأها مسكناً ومستقراً للأنام؟ ومن يبدأ الخلق منها، ثم يعيده إليها، ثم يخرجه منها؟ ومن جعلها ذلولاً غير مستعصية ولا ممتنعة؟ ومن وطأ مناكبها، وذلل مسالكها، ووسع مخارجها، وشق أنهارها وأنبت أشجارها، وأخرج ثمارها؟

ومن صدعها عن النبات، وأودع فيها جميع الأقوات؟ ومن بسطها، وفرشها ومهدها وذللها، وطحاها ودحاها، وجعل ما عليها زينة لها؟ ومن الذي يمسكها أن تتحرك فتتزلزل فيسقط ما عليها من بناء ومعلم، أو يخسفها بمن عليها فإذا هي تمور؟

ومن الذي أنشأ منها آدم، ونوحاً، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمداً صلى الله وسلم عليهم أجمعين، وأنشأ منها أولياءه وأحباءه وعباده الصالحين؟ ومن جعلها حافظة لما استودع فيها من المياه والأرزاق، والمعادن، والحيوان؟ ومن جعل بينها وبين الشمس والقمر هذا القدر من المسافة؛ فلو زادت على ذلك لضعف تأثرها بحرارة الشمس ونور القمر؛ فتعطلت المنفعة الواصلة إلى الحيوان والنبات بسبب ذلك، ولو زادت في القرب لاشتدت الحرارة والسخونة ـ كما نشاهده في الصيف ـ فاحترقت أبدان الحيوان والنبات، وبالجملة: فكانت تفوت هذه الحكمة التي بها انتظام العالم؟ ومن الذي جعل فيها الجنات والحدائق، والعيون؟ ومن الذي جعل باطنها بيوتاً للأموات، وظاهرها بيوتاً للأحياء؟ ومن الذي يحييها بعد موتها فينزل عليها الماء من السماء ثم يرسل عليها الريح ويطلع عليها الشمس؛ فتأخذ في الحبل، فإذا كان وقت الولادة مخضت للوضع، واهتزت وأنبتت من كل زوج بهيج.

فسبحان من جعل السماء كالأب، والأرض كالأم، والقطر كالماء الذي ينعقد منه الولد، فإذا حصل الحب في الأرض، ووقع عليه الماء، أثرت نداوة الطين فيه، وأعانها السخونة المختفية في باطن الأرض، فوصلت النداوة والحرارة إلى باطن الحبة، فاتسعت الحبة وربت، وانتفخت، وانفلقت عن ساقين: ساق من فوقها وهو الشجرة، وساق من تحتها وهو العرق. ثم عظم ذلك الولد حتى لم يبق لأبيه نسبة إليه، ثم وضع من الأولاد بعد أبيه آلافاً مؤلفة، كل ذلك صنع الرب الحكيم في حبة واحدة لعلها تبلغ في الصغر إلى الغاية، وذلك من البركة التي وضعها الله سبحانه في هذه الأم.

فيا لها من آية تكفي وحدها في الدلالة على وجود الخالق، وصفات كماله وأفعاله، وعلى صدق رسله فيما أخبروا به عنه، بإخراج من في القبور ليوم البعث والنشور.

فتأمل اجتماع هذه العناصر الأربعة وتجاورها وامتزاجها، وحاجة بعضها إلى بعض، وانفعال بعضها عن بعض، وتأثيره فيه وتأثره به، بحيث لا يمكنه إلا الاتباع، من التأثر والانفعال. ولا يستقل الآخر بالتأثير، ولا يستغني عن صاحبه، وفي ذلك أظهر دلالة على أنها مخلوقة، مصنوعة، مربوبة مدبرة، حادثة بعد عدمها، فقيرة إلى موجد غني عنها مؤثر غير متأثر قديم غير حادث، تنقاد المخلوقات كلها لقدرته، وتجيب داعي مشيئته، وتلبي داعي وحدانيته وربوبيته، وتشهد بعلمه وحكمته، وتدعو عباده إلى ذكره وشكره وطاعته وعبوديته ومحبته، وتحذرهم من بأسه ونقمته، وتحثهم على المبادرة إلى رضوانه وجنته.

فانظر إلى الماء والأرض، كيف لما أراد الرب تعالى امتزاجهما وازدواجهما أنشأ الرياح، فحركت الماء، وساقته إلى أن قذفته في عمق الأرض، ثم أنشأ لها حرارة لطيفة سماوية، وحصل بها الإنبات، ثم أنشأ لها حرارة أخرى أقوى منها حصل بها الانفتاح، وكانت حالته الأولى تضعف عن الحرارة الثانية، فادخرت إلى وقت قوته وصلابته. فحرارة الربيع للإخراج، وحرارة الصيف للإنضاج، هذا وإن الأم واحدة، والأب واحد، واللقاح واحد والأولاد في غاية التباين والتنوع. كما قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه، دعاه خالقه وبارئه ومصوره، وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر، والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية، وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل.

فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه؛ إذ يجده مكوناً من قطرة ماء: لحوماً منضدة، وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة، مأسورة مشددة بحبال العروق والأعصاب قد قمطت وشددت، وجمعت بجلد متين، مشتمل على ثلاثمائة وستين مفصلاً ما بين كبير وصغير، وثخين ودقيق، ومستطيل ومستدير، ومستقيم ومنحن، وشدت هذه الأوصال بثلاثمائة وستين عرقاً، للاتصال والانفصال، والقبض والبسط، والمد والضم، والصنائع والكتابة.

وجعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها.

وجعل داخل بابي السمع مراً قاتلاً، لئلا تلج فيها دابة تخلص إلى الدماغ فتؤذيه. وجعل داخل بابي البصر مالحاً، لئلا تذيب الحرارة الدائمة ما هناك من الشحم. وجعل داخل باب الطعام والشراب حلواً، ليسيغ به ما يأكله ويشربه. فلا يتنغص به لو كان مراً أو مالحاً.

وجعل له مصباحين من نور كالسراج المضيء، مركبين في أعلى مكان منه، وفي أشرف عضو من أعضائه، طليعة له. وركب هذا النور في جزء صغير جداً يبصر به السماء والأرض وما بينهما، وغشاه بسبع طبقات وثلاث رطوبات، بعضها فوق بعض، حماية له وصيانة وحراسة. وجعل على محله غلقاً بمصراعين أعلى وأسفل، وركب في ذيل المصراعين أهداباً من الشعر وقاية للعين، وزينة وجمالاً. وجعل فوق ذلك كله حاجبين من الشعر، يحجبان العين من العرق النازل. ويتلقيان عنها ما ينصب من هناك. وجعل سبحانه لكل طبقة من طبقات العين شغلاً مخصوصاً، ولكل واحد من الرطوبات مقداراً مخصوصاً، لو زاد على ذلك أو نقص منه لاختلت المنافع والمصالح المطلوبة.

وجعل هذا النور الباصر في قدر عدسة. ثم أظهر في تلك العدسة صورة السماء

والأرض، والشمس والقمر والنجوم، والجبال، والعالم العلوي والسفلي، مع اتساع أطرافه، وتباعد أقطاره، واقتضت حكمته سبحانه أن جعل فيها بياضاً وسواداً، وجعل القوة الباصرة في السواد، وجعل البياض مستقراً لها ومسكناً وزين كلاً منهما بالآخر وجعل الحدقة مصونة بالأجفان والحواجب كما تقدم، والحواجب بالأهداب، وجعلها سوداء، إذ لو كانت بيضاء لتفرق النور الباصر، فضعف الإدراك. فإن السواد يجمع البصر، ويمنع من تفرق النور الباصر. وخلق سبحانه لتحريك الحدقة وتقليبها أربعاً وعشرين عضلة، لو نقصت عضلة واحدة لاختل أمر العين.

ولما كانت العين كالمرآة، التي إنما تنطبع فيها الصور إذ كانت في غاية الصقالة والصفاء، جعل سبحانه هذه الأجفان متحركة جداً بالطبع إلى الانطباق، من غير تكلف؛ لتبقى هذه المرآة نقية صافية من جميع الكدورات؛ ولهذا لما لم يخلق لعين الذبابة أجفاناً فإنها لا تزال تراها تنظف عينها بيدها من آثار الغبار والكدورات[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢ ـ ٢٣].

أما الرزق ففسر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة، ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة. فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾، قال عطاء رضي الله عنه: من الثواب والعقاب. وقال الكلبي: من الخير والشر. وقال مجاهد: من الجنة والنار. وقال ابن سيرين: من أمر الساعة.

قلت: كون الجنة والخير في السماء فلا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين.

فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر، وأسباب دخول الجنة والنار، وافتراق الناس، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره، النازل من السماء. وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة، وفي اللوح المحفوظ قبل

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٧٨ ـ ٣٠٥).

العمل وبعده. فالأمر كله من السماء. وقول من قال: من أمر الساعة: يكشف عن هذا المعنى، فإن أمر الساعة يأتي من السماء، وهو الموعود بها. فالجنة والنار الغاية التي لأجلها قامت الساعة. فصح كل ما قال السلف في ذلك، والله أعلم.

ثم أقسم سبحانه أعظم قسم بأعظم مقسم به، على أجل مقسم عليه وأكد الإخبار بهذا القسم، ثم أكد بتشبيهه بالأمر المحقق الذي لا يشك فيه ذو حاسة سليمة. فقال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾

قال ابن عباس ﷺ: يريد أنه لحق واقع، كما أنكم تنطقون، وقال الفراء: إنه لحق كما أن الآدمي ناطق، وقال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام: إن هذا لحق كما أنك هاهنا.

قلت: وفي الحديث: «إنه لحق كما أنك هاهنا»[1]. فشبه سبحانه تحقيق ما أخبر به بتحقيق نطق الآدمي ووجوده. والواحد منا يعرف أنه ناطق ضرورة، ولا يحتاج نطقه إلى استدلال على وجوده، ولا يخالجه شك في أنه ناطق. فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد، والنبوة، والمعاد، وأسمائه، وصفاته حق ثابت في نفس الأمر، يشبه بثبوت نطقكم ووجوده. وهذا باب يعرفه الناس في كلامهم. يقول أحدهم: هذا حق مثل الشمس. وأفصح الشاعر عن هذا بقوله:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

□ □ □

وهاهنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه، وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه. وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معايناً مشاهداً بالبصائر، وإن لم يعاين بالإبصار.

ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دار الغرور، ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد

---

(١) ذكره ابن كثير عن معاذ موقوفاً عليه: «كان إذا حدث بالشيء يقول لصاحبه: إن هذا لحق، كما أنك هاهنا» (٤/ ٢٥١) تفسير ابن كثير.

ملكهم الحس، وقلَّ نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل، وكأن المقيم لا يرحل وكأن أحدهم لا يبعث ولا يسأل، وكأن مع كل مقيم توقيع من الله: لفلان ابن فلان بالأمان من عذابه. والفوز بجزيل ثوابه. فأما اللذات الحسية والشهوات النفسية كيفما حصلت فإنهم حصلوها، ومن أي وجه لاحت أخذوها، غافلين عن المطالبة، آمنين من العاقبة. يسعون لما يدركون، ويتركون ما هم به مطالبون، ويعمرون ما هم عنه منتقلون، ويخربون ما هم إليه صائرون، وهم عن الآخرة هم غافلون. ألهتهم شهوات نفوسهم فلا ينظرون في مصالحها، ولا يأخذون في جمع زادها في سفرها: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩]. والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل؟

وكيف تنام العين وهي قريرة   ولم تدر في أي المحلين تنزل؟

وإذا نزل بأحدهم الموت قلق لخراب ذاته، وذهاب لذاته، لا لما سبق من جناياته، ولا لسوء منقلبه بعد مماته، فإن خطرت على أحدهم خطرة من ذلك اعتمد العفو أو الرحمة، وكان يتيقن أن ذلك نصيبه ولا بد.

فلو أن العاقل أحضر ذهنه ما استحضر عقله، وسار بفكره، وأمعن النظر، وتأمل الآيات، لفهم المراد من إيجاده، ولنظرت عين الراحل إلى الطريق، ولأخذ المسافر في التزود، والمريض في التداوي، والحازم ما يجوز أن يأتي. فما الظن بأمر متيقن؛ كما أنه لصدق إيمانهم وقوة إيقانهم وكأنهم يعاينون الأمر.

فأضحت ربوع الإيمان من أهلها خالية، ومعالمه على عروشها خاوية. قال ابن وهب: أخبرني مسلم بن علي عن الأوزاعي، قال: كان السلف إذا طلع الفجر أو قبله كأنما على رؤوسهم الطير مقبلين على أنفسهم، حتى لو أن حبيباً لأحدهم غاب عنه حيناً ثم قدم لما التفت إليه، فلا يزالون كذلك إلى طلوع الشمس، ثم يقوم بعضهم إلى بعض فيتخلفون بأول ما يقتضون فيه أمر معادهم، وما هم صائرون إليه، ثم يأخذون في الفقه[1].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٢١ ـ ٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الذاريات: ٢٤ ـ ٣٠].

ففي هذا ثناء على إبراهيم في وجوه متعددة:

أحدها: أنه وصف ضيفه بأنهم مكرمون وهذا على أحد القولين: إنه إكرام إبراهيم. والثاني: إنهم المكرمون عند الله. ولا تنافي بين القولين فالآية تدل على المعنيين.

الثاني: قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ فلم يذكر استئذانهم. ففي هذا دليل على أنه ﷺ كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قراهم، فبقي منزله مضيفة مطروقاً لمن ورده، لا يحتاج إلى الاستئذان بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم.

الثالث: قوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ بالرفع وهم سلموا عليه بالنصب والسلام بالرفع أكمل فإنه يدل على الجملة الاسمية الدالة على الثبوت والتجدد، والمنصوب يدل على الفعلية الدالة على الحدوث والتجدد، فإبراهيم حياهم بتحية أحسن من تحيتهم فإن قولهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ يدل على سلمنا سلاماً. وقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أي: سلام عليكم.

الرابع: أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون. فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام.

الخامس: أنه بنى الفعل للمفعول وحذف فاعله فقال: ﴿مُّنكَرُونَ﴾ ولم يقل: إني أنكركم، وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة.

السادس: أنه راغ إلى أهله ليجيبهم بنزلهم، والروغان هو الذهاب في اختفاء بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم رب المنزل المضيف أن يذهب في اختفاء بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي فلا يشعر به إلا وقد جاءه بالطعام بخلاف من يسمع ضيفه ويقول له أو لمن حضر: مكانكم حتى آتيكم بالطعام ونحو ذلك مما يوجب حياء الضيف واحتشامه.

السابع: أنه ذهب إلى أهله فجاء بالضيافة فدل على أن ذلك كان معداً عندهم

مهيَّأً للضيفان ولم يحتج أن يذهب إلى غيرهم من جيرانه أو غيرهم فيشتريه أو يستقرضه.

الثامن: قوله: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ دل على خدمته للضيف بنفسه، ولم يقل: فأمر لهم بل هو الذي ذهب وجاء به بنفسه ولم يبعثه مع خادمه وهذا أبلغ في إكرام الضيف.

التاسع: أنه جاء بعجل كامل ولم يأت ببضعة منه وهذا من تمام كرمه ﷺ.

العاشر: أنه سمين لا هزيل، ومعلوم أن ذلك من أفخر أموالهم، ومثله يتخذ للاقتناء والتربية فآثر به ضيفانه.

الحادي عشر: أنه قربه إليهم بنفسه ولم يأمر خادمه بذلك.

الثاني عشر: أنه قربه إليهم ولم يقربهم إليه وهذا أبلغ في الكرامة أن تجلس الضيف، ثم يقرب الطعام إليه ويحمله إلى حضرته ولا تضع الطعام في ناحية ثم تأمر ضيفك بأن يتقرب إليه.

الثالث عشر: أنه قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، وهذا عرض وتلطف في القول وهو أحسن من قوله: كلوا أو مدوا أيديكم ونحوها وهذا مما يعلم الناس بعقولهم حسنه ولطفه؛ ولهذا يقولون: بسم الله، أو ألا تتصدق، أو ألا تجبر، ونحو ذلك.

الرابع عشر: أنه إنما عرض عليهم لأنه رآهم لا يأكلون ولم يكن ضيوفه يحتاجون معه إلى الإذن في الأكل بل كان إذا قدم إليهم الطعام أكلوا، وهؤلاء الضيوف لما امتنعوا من الأكل قال لهم: ألا تأكلون؛ ولهذا أوجس منهم خيفة، أي: أحسها وأضمرها في نفسه ولم يبدها لهم وهو الوجه.

الخامس عشر: فإنهم لما امتنعوا من الأكل لطعامه خاف منهم ولم يظهر لهم، فلما علمت الملائكة منه ذلك قالوا: لا تخف وبشروه بالغلام.

فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف، إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين(١).

□ □ □

---

(١) جلاء الأفهام (١٥٦ ـ ١٥٩).

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآية وتطلعت إلى معناها وتدبرتها. فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة الأضياف يأكلون ويشربون وبشروه بغلام عليم، وإنما امرأته عجبت من ذلك، فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يتجاوز تدبرك غير ذلك.

فاسمع الآن بعض ما في هذه الآيات من أنواع الأسرار.

□ □ □

وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

افتتح سبحانه القصة بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد بها حقيقة الاستفهام؛ ولهذا قال بعض الناس: إن (هل) في مثل هذا الموضع بمعنى: (قد) التي تقتضي التحقيق. ولكن في ورود الكلام في مثل هذا بصيغة الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر المخاطب بأمر عجيب ينبغي الاعتناء به، وإحضار الذهن له، صدر له الكلام بأداة الاستفهام، لتنبيه سمعه وذهنه للمخبر به، فتارة يصدره بألا، وتارة يصدره بهل، فقول: هل علمت ما كان من كيت وكيت؟ إما مذكراً به، وإما واعظاً له مخوفاً، وإما منبهاً على عظمة ما يخبر به، وإما مقرراً له.

فقوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه: ٩]، ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، و﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [الذاريات: ٢٤] متضمن لتعظيم هذه القصص والتنبيه على تدبرها ومعرفة ما تضمنته.

وفيه أمر آخر:

وهو التنبيه على أن إتيان هذا إليك علم من أعلام النبوة، فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك. فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا؟ أم لم يأتك إلا من قبلنا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عظم موقعه من جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: ﴿ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ متضمن لثنائه على خليله إبراهيم.

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفاً أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه

وأنس به، فلما علموا منه ذلك ﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنَّى لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سريته هاجر وكان بكره وأول ولده. وقد بيَّن سبحانه هذا في سورة هود في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، وهذه هي القصة نفسها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار.

وقوله: ﴿عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ ولم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة لم تذكر غيره، وأما في سورة هود، فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ﴾ متضمن لإثبات صفة القول له.

وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ متضمن لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدر الخلق والأمر، فجميع ما خلقه سبحانه صادر عن علمه وحكمته، وكذلك أمره وشرعه مصدره عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام.

والمقصود: أن صدور الخلق والأمر عن علم الرب وحكمته. واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائهما لتعجب النفوس من تولد مولود بين أبوين لا يولد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريان هذه الولادة على غير العادة المعروفة. فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلال بموجب الحكمة.

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣١ ـ ٣٣]

ثم ذكر ﷻ قصة الملائكة في إرسالهم لهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة

المسوَّمة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديق رسله وإهلاك المكذبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب؛ لوقوعه عياناً في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله لصحة ما أخبروا به عن ربهم.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦].

ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام.

فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب، ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهراً وباطناً.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهراً، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وضع دلالة القرآن وألفاظه مواضعها، تبين له من أسراره وحكمه ما يبهر العقول، ويعلم أنه تنزيل من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان فكيف استثناء الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [الذاريات: ٣٧].

فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فعلها في هذا العالم وأبقى آثارها دالة عليه وعلى صدق رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله تعالى.

كما قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا يزال الدهر فيه الشقاوة والسعادة.

وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وحقيقة الفرار: الهرب من شيء إلى شيء، وهو نوعان: فرار السعداء، وفرار الأشقياء. ففرار السعداء: الفرار إلى الله ﷻ.

وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه.

وأما الفرار منه إليه: ففرار أوليائه. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ فروا منه إليه واعملوا بطاعته. وقال سهل بن عبد الله: فروا مما سوى الله إلى الله. وقال آخرون: اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم ولا ليربح عليهم، لكن خلقهم جوداً وإحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]، وقال: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما أنه يحب أن يُعبد، يحب أن يُحمد ويُثنى عليه ويُذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى[٣].

❁ ❁ ❁

(١) الرسالة التبوكية (٧٣ ـ ٨٢).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٤٦٩).

(٣) طريق الهجرتين (١٢٥، ١٢٦).

سُوْرَةُ الطُّوْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ١ ـ ٨].

تضمن هذا القسم خمسة أشياء وهي: مظاهر آياته، وقدرته، وحكمته، الدالة على ربوبيته ووحدانيته.

[١] فالطور هو: الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرَّفه هاهنا باللام وعرَّفه في موضع آخر بالإضافة فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين: ٢]. وهذا الجبل مظهر بركة الدنيا والآخرة وهو الجبل الذي اختاره الله لتكليم موسى عليه. قال عبد الله بن أحمد في كتاب الزهد لأبيه: حدثني محمد بن عبيد بن حبان قال: حدثنا جعفر بن سليمان قال: حدثنا أبو عمران الجوني عن نوف البكالي قال: أوحى الله ﷻ إلى الجبال إني نازل على جبل منكم، قال: فشمخت الجبال كلها إلا جبل الطور فإنه تواضع وقال: أرضى بما قسم الله لي فكان الأمر عليه، وجبل هذا شأنه حقيق أن يقسم الله به وإنه لسيد الجبال.

[٢] الكتاب المسطور في الرق المنشور، واختلف في هذا الكتاب فقيل: هو اللوح المحفوظ وهذا غلط فإنه ليس برق، وقيل: هو الكتاب الذي تضمن أعمال بني آدم.

وقال مقاتل: تخرج إليهم أعمالهم يوم القيامة في رق منشور، وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول واختاره جماعة من المفسرين ومنهم من لم يزك غيره، فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله وأقسم الله به لعظمته وجلالته وما تضمنه من آيات ربوبيته وأدلة توحيده وهداية خلقه.

ثم قيل: هو التوراة التي أنزل الله على موسى وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال: هو التوراة، ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال: هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح.

وقيل: هو القرآن؛ ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة، بأيدي سفرة كرام بررة. فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشوراً.

وعلى هذا فيكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب. ويكون ذلك متضمناً للنبوتين المعظمتين، نبوة موسى، ونبوة محمد. وكثيراً ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون.



[٣] ثم أقسم بسيد البيوت، وهو البيت المعمور.

وفي وصفه الكتاب بأنه مسطور تحقيق لكونه مكتوباً مفروغاً منه، وفي وصفه بأنه منشور إيذان بالاعتناء به، وأنه بأيدي الملائكة منشور غير مهجور.

وأما البيت المعمور فالمشهور أنه الضراح الذي في السماء الذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء «يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون إليه آخر ما عليهم»[١]، وهو بحيال البيت المعمور في الأرض، وقيل: هو البيت الحرام. ولا ريب أن كلًّا منهما معمور، فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع والسجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت.



[٤] ثم أقسم سبحانه بمخلوقين عظيمين من بعض مخلوقاته، وهما مظهر آياته، وعجائب صنعته، وهما: السقف المرفوع[٢]، وهو السماء، فإنها من أعظم آياته قدراً، وارتفاعاً، وسعة وسمكاً، ولوناً، وإشراقاً وهي محل ملائكته، وهي سقف العالم، وبها انتظامه، ومحل النيرين اللذين بهما قوام الليل والنهار، والسنين والشهور والأيام والصيف والشتاء والربيع والخريف. ومنها تنزل البركات، وإليها تصعد الأرواح، وأعمالها وكلماتها الطيبة.

[٥] [وأما] البحر المسجور، فهو آية عظيمة من آياته، وعجائبه لا يحصيها إلا الله

---

(١) رواه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

(٢) هذا هو المخلوق العظيم الأول، أما الثاني فهو البحر المسجور المذكور في الفقرة التالية.

واختلف في هذا البحر، هل هو الذي فوق السماوات، أو البحر الذي نشاهده؟ على قولين: فقالت طائفة: هو البحر الذي عليه العرش، وبين أعلاه وأسفله مسيرة خمسمائة عام كما في الحديث الذي رواه أبو داود، من حديث سماك عن عبد الله بن مخيمرة عن الأحنف بن قيس، قال: كنت بالبطحاء في عصابة، فيهم رسول الله ﷺ فمرت بهم سحابة، فنظر إليها فقال: «ما تسمون هذه؟»، قالوا: السحاب، قال: «والمزن؟»، قالوا: والمزن، قال: «والعنان؟»، قالوا: والعنان. قال: «هل تدرون ما بين السماء والأرض؟»، قالوا: لا ندري، قال: «إن بُعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك ـ حتى عد سبع سموات ـ. ثم فوق السابعة بحراً بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله فوق ذلك»[1]. وهذا لا يناقض ما في جامع الترمذي: «إن بين كل سماءين مسيرة خمسمائة عام»[2]، إذ المسافات تختلف مقاديرها باختلاف المقدر به، فالخمسمائة مقدرة بسير الإبل، والسبعون بسير البريد، وهو يقطع بقدر ما تقطعه الإبل سبعة أضعاف. وهذا القول في البحر الذي تحت العرش محكي عن علي بن أبي طالب.

والثاني أنه بحر الأرض. واختلف في المسجور، فقيل: المملوء، هذا قول جميع أهل اللغة. قال الفراء: المسجور في كلام العرب المملوء. يقال: سجرت الإناء إذا ملأته، قال لبيد:

فتوسطا عرض السرى وصدعا   مسجورة متجاور أقلامها

وقال المبرد: المسجور المملوء عند العرب، وأنشد للنمر بن تولب:

إذا شاء طالع مسجورة

يريد عيناً مملوءة ماء، وكذا قال ابن عباس: المسجور الممتلئ.

وقال مجاهد: المسجور الموقد. قال الليث: السجر، إيقادك في التنور تسجره سجراً، والسجر اسم الحطب. وهذا قول الضحاك وكعب وغيرهما قال: البحر يسجر فيزداد في جهنم، وحكي هذا القول عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. قال:

---

(١) رواه أبو داود (١٣/ ٥ ـ ٩) في السنة، باب: في الجهمية، ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٣/ ٢٠٤) برقم (١٧٧١)، بتحقيق: الشيخ أحمد شاكر، وضعفه من أجل الوليد بن أبي ثور، فانظره مفصلاً.

(٢) رواه الترمذي (٣٢٩٨).

مسجور. قال الفراء: وهذا يرجع إلى القول الأول، لأنك تقول: سجرت التنور إذا ملأته حطباً. وروى ذو الرمة الشاعر عن ابن عباس: أن المسجور اليابس الذي قد نضب ماؤه وذهب، وليس لذي الرمة رواية عن ابن عباس غير هذا الحرف، وهذا القول اختيار أبي العالية، قال أبو زيد: المسجور المملوء، والمسجور الذي ليس فيه شيء، جعله من الأضداد.

وقد روي عن ابن عباس أن المسجور المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهو القلادة من عود أو حديد تمسكه. والمعنى على هذا: أنه محبوس بقدرة الله أن يفيض على الأرض فيغرقها، فإن ذلك مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامراً للأرض فوقها، كما أن الهواء فوق الماء، ولكن أمسكه الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا، وفي هذا حديث ذكره أحمد مرفوعاً: «ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه أن يغرق بني آدم».

وأقوى الأقوال في المسجور: إنه الموقد. وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور. ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]. قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت ناراً، ومن قال: يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها ناراً موقدة، وكذا من قال: ملئت، فإنها تملأ ناراً.

وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة ويصير ناراً: فكل من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني. والله أعلم.

□ □ □

وأقسم سبحانه بهذه الأمور على المعاد والجزاء، فقال: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾. ولما كان الذي يقع قد يمكن دفعه أخبر سبحانه أنه لا دافع له، وهذا يتناول أمرين:

أحدهما: أنه لا دافع لوقوعه.

والثاني: أنه لا دافع له إذا وقع، ثم ذكر سبحانه وقت وقوعه فقال:

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ٩ ـ ١٦].

والمور قد فسر بالحركة، وفسر بالدوران، وفسر بالتموج والاضطراب، والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء؛ ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال، فقال: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾، وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣]. من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ، وتموج، وتذهب، وتجيء.

قال الجوهري: مار الشيء يمور موراً، أي: تحرك وجاء وذهب، كما تكفأ النخلة العيدانة، أي: الطويلة، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾، قال الضحاك: تموج موجاً، وقال أبو عبيدة، والأخفش: تكفأ، وأنشد للأعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها   مور السحابة لا ريث ولا عجل

ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها، وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل، وأعمالهم لعب، ولما كانت هذه العلوم والأعمال مستلزمة لدفع الحق بعنف وقهر أدخلوا جهنم وهم يدعون إليها دعا، أي: يدفع في أقفيتهم وأكتافهم، دفعاً بعد دفع، فإذا وقفوا عليها وعاينوها وقفوا، وقيل لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾، وتقولون: لا حقيقة لها ولا من أخبر بها صادق.

ثم يقال: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ الآن، كما كنتم تقولون للحق لما جاءتكم به الرسل: إنه سحر، وإنهم سحرة، فهذا الآن سحر لا حقيقة له كما قلتم، أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها، كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ أفعميت أبصاركم اليوم عن رؤية هذا الحق، كما عميت في الدنيا فلا تبصرون الحق؟ ثم سلب عنهم نفع البصر الذي كانوا في الدنيا إذا دهمتهم الشدائد وأحاطت بهم لجأوا إليه وتعللوا بانقضاء البلية لانقضاء أمدها، فقيل لهم يومئذ: ﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾.

كلاهما سواء عليكم لا يجدي عنكم الصبر ولا الجزع، فلا الصبر يخفف عنكم حمل هذا العذاب، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة ولا يستنزل لكم الرحمة.

ثم اعلموا بأن الرب تعالى لم يظلمهم بذلك، وإنما هو نفس أعمالهم صارت عذاباً، فلم يجدوا من اقترانهم به بداً. بل صارت عذاباً لازماً لهم كما كانت إرادتهم وعقائدهم الباطلة وأعمالهم القبيحة لازمة لهم، ولزوم العذاب لأهله في النار بحسب لزوم تلك الإرادة الفاسدة، والعقائد الباطلة وما يترتب عليها من الأعمال لهم في الدنيا.

فإذا زال ذلك اللزوم في وقت ما بضده وبالتوبة النصوح زوالاً كلياً لم يعذبوا عليه في الآخرة؛ لأن أثره قد زال من قلوبهم وألسنتهم وجوارحهم، ولم يبق له أثر يترتب عليه، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له. والمادة الفاسدة إذا زالت من البدن بالكلية لم يبق هناك ألم ينشأ عنها.

وإن لم تزل تلك الإرادة والأعمال ولكن عارضها معارض أقوى منها كان التأثير للمعارض، وغلب الأقوى الأضعف، وإن تساوى الأمران تدافعا وقاوم كل منهما الآخر، وكان محل صاحبه جبال الأعراف بين الجنة والنار، فهذا حكم الله وحكمته في خلقه، وأمره ونهيه وعقابه، ولا يظلم ربك أحداً.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الطور: ١٧ ـ ٢٠].

ثم ذكر سبحانه أرباب العلوم النافعة، والأعمال الصالحة، والاعتقادات الصحيحة وهم المتقون، فذكر مساكنهم وهم في الجنان وحالهم في المساكن وهو النعيم، وذكر نعيم قلوبهم وراحتهم بكونهم: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾.

والفاكه: المعجب بالشيء المسرور المغتبط به، وفعله فكه ـ بالكسر ـ يفكه فهو فكه وفاكه إذا كان طيب النفس، والفاكه البال، ومنه الفاكهة وهي المرح الذي ينشأ عن طيب النفس، وتفكهت بالشيء، إذا تمتعت به، ومنه الفاكهة التي يتمتع بها، ومنه قوله: ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة: ٦٥]. قيل: معناه: تندمون، وهذا تفسير بلازم المعنى، وإنما الحقيقة تزيلون عنكم التفكه، وإذا زال التفكه خلفه ضده، يقال: تحنث إذا زال الحنث عنه، وتحرج وتحوب وتأثم، ومنه تفكه، وهذا البناء يقال للداخل في الشيء: كتعلم وتحلم، وللخارج منه: كتحرج وتأثم.

والمقصود: أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقاً؛ لأنهم تركوا ما يكره وأتوا بما يحب؛ فكان جزاؤهم مطابقاً لأعمالهم.

ثم أخبر عن دوام ذلك لهم بما أفهمه قوله: ﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾.

فإنهم لو علموا زواله وانقطاعه لنغص عليهم ذلك نعيمهم ولم يكن هناء لهم.

ثم ذكر مجالسهم وهيئاتهم فيها، فقال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ﴾.

وفي ذكر اصطفافها تنبيه على كمال النعمة عليهم بقرب بعضهم من بعض، ومقابلة بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٦]. فإن من تمام اللذة والنعيم أن يكون مع الإنسان في بستانه ومنزله من يحب معاشرته ويؤثر قربه، ولا يكون بعيداً منه، قد حيل بينه وبنيه، بل سريره إلى جانب سرير من يحبه.

وذكر أزواجهم وأنهم الحور العين، وقد تكرر وصفهم في القرآن بهاتين الصفتين، قال أبو عبيدة: جعلناهم أزواجاً كما يزوج البعل بالبعل، جعلناهم اثنين اثنين. وقال يونس: قرناهم بهن، وليس من عقد التزويج، واحتج على هذا بأن العرب لا تقول: تزوجت بها وإنما تقول: تزوجتها، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا﴾ [الأحزاب: ٣٧]. وفي الحديث: «زوجتكها بما معك من القرآن»(١)، وقال غيره: العرب تقول: تزوجت بامرأة، وقال الأزهري: العرب تقول: زوجته امرأة وتزوجت امرأة وليس في كلامهم تزوجت بامرأة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾.

أي: قرناهم. وعلى هذا فزوجناهم عند هؤلاء من الاقتران والشفع، أي: شفعناهم وقرناهم بهن، وقالت طائفة منهم مجاهد: زوجناهم بهن، أي: أنكحناهم إياهن.

قلت: وعلى هذا فتلويح فعل التزويج قد دل على النكاح وتعديته بالباء المتضمنة معنى الاقتران والضم، فالقولان واحد، والله أعلم.

وأما الحور العين فقال مجاهد: التي يحار فيها الطرف بادياً مخ سوقهن من وراء ثيابهن، ويرى الناظر وجهه في كبد إحداهن كالمرآة من رقة الجلد وصفاء اللون، وقال قتادة: ﴿بِحُورٍ﴾، أي: بيض، وكذا قال ابن عباس، وقال مقاتل: الحور البيض الوجوه، العين: الحسان الأعين. وعين حوراء: شديدة السواد، نقية البياض، طويلة الأهداب مع سوادها كاملة الحسن، ولا تسمى المرأة حوراء حتى يكون مع حور عينها بياض لون الجسد، فوصفهن بالبياض والحسن والملاحة، كما قال: ﴿خَيۡرَٰتٌ حِسَانٞ﴾ [الرحمٰن: ٧٠]. فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن. وقد وصف الله سبحانه نساء أهل الجنة بأحسن الصفات، ودل بما وصف بما سكت عنه.

* * *

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢١-٢٨]

ثم أخبر سبحانه عن تكميل نعيمهم بإلحاق ذرياتهم بهم في الدرجة، وإن لم يعملوا أعمالهم لتقر أعينهم بهم، ويتم سرورهم وفرحهم، وأخبر سبحانه أنه لم ينقص الآباء من عملهم من شيء بهذا الإلحاق فينزلهم من الدرجة العليا إلى الدرجة السفلى، بل ألحق الأبناء بالآباء ووفر على الآباء أجورهم ودرجاتهم.

ثم أخبر سبحانه أن هذا إنما هو فعله في أهل الفضل؛ وأما أهل العدل فلا يفعل بهم ذلك؛ بل: ﴿كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

ففي هذا دفع لتوهم التسوية بين الفريقين بهذا الإلحاق، كما في قوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾، دفع لتوهم حط الآباء إلى درجة الأبناء وقسمة أجور الآباء بينهم وبين الأبناء فينقص أجر أعمالهم، فرفع هذا التوهم بقوله: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما نقصناهم.

ثم ذكر إمدادهم باللحم والفاكهة والشرب، وأنهم يتعاطون كؤوس الشراب بينهم، يشرب أحدهم ويناول صاحبه؛ ليتم بذلك فرحهم وسرورهم.

ثم نزه ذلك الشراب عن الآفات من اللغو من أهله عليه ولحوق الإثم لهم فقال: قوله تعالى: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣].

فنفى باللغو السباب، والتخاصم، والهجر والفحش في المقال، والعربدة. ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر.

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ ولم يقل: ولا إثم، أي: ليس فيها ما يحملهم على الإثم ولا يؤثم بعضهم بعضاً بشربها، ولا يؤثمهم الله بذلك ولا الملائكة فلا يلغون ولا يأثمون. قال ابن قتيبة: لا يذهب بعقولهم فيلغوا ولم يقع منهم ما يؤثمهم.

ثم وصف خدمهم الطائفين عليهم بأنهم كاللؤلؤ في بياضهم، والمكنون: المصون الذي لا تدنسه الأيدي، فلم تذهب الخدمة تلك المحاسن، وذلك اللون والصفاء والبهجة. بل مع انتصابهم لخدمتهم كأنهم لؤلؤ مكنون، ووصفهم في

موضع آخر: ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان: ١٩]. ففي ذكره المنثور إشارة إلى تفرقهم في حوائج ساداتهم وخدمتهم، وذهابهم، ومجيئهم، وسعة المكان، بحيث لا يحتاجون أن ينضم بعضهم إلى بعض فيه لضيقه.

ثم ذكر سبحانه ما يتحدثون به هناك وأنهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾.

أي: كنا خائفين في محل الأمن بين الأهل والأقارب والعشائر فأوصلنا ذلك الخوف والإشفاق إلى أن منّ الله علينا، فأمنا مما نخاف ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾.

وهذا ضد حال الشقي الذي كان في أهله مسروراً، فهذا كان مسروراً مع إساءته، وهؤلاء كانوا مشفقين مع إحسانهم. فبدل الله سبحانه إشفاقهم بأعظم الأمن، وبدل أمن أولئك بأعظم المخاوف، فبالله سبحانه المستعان.

ثم أخبر عن حالهم في الدنيا، وأنهم كانوا يعبدون الله فيها، فأوصلتهم عبادته وحده إلى قربه وجواره، ومحل كرامته، والذي جمع لهم ذلك كله بره ورحمته؛ فإنه هو البر الرحيم.

فهذا هو المقسم عليه بتلك الأقسام الخمسة في أول السورة، والله أعلم[(١)].

□ □ □

روى قيس عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَـٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَـٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾، قال: ما نقصنا الآباء مما أعطى البنين»[(٢)].

وذكر ابن مردويه في تفسيره من حديث شريك عن سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال شريك: أظنه حكاه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده فيقال: إنهم لم يبلغوا درجتك أو عملك، فيقول: يا رب فقد عملت لي ولهم فيؤمر بالإلحاق بهم». ثم تلا ابن عباس:

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٦٤ ـ ٢٧٨).

(٢) رواه البزار (٣/ ٧٠) في تفسير سورة الطور، وقال الهيثمي: «رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقة شعبة والثوري وفيه ضعف»، مجمع الزوائد (٧/ ١١٤).

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ . . .﴾، إلى آخر الآية[١].

وقد اختلف المفسرون في الذرية في هذه الآية: هل المراد بها الصغار أو الكبار أو النوعان؟ على ثلاثة أقوال: واختلافهم مبني على أن قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ حال من الذرية التابعين أو المؤمنين المتبوعين.

فقالت طائفة: المعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمانهم فأتوا من الإيمان بمثل ما أوتوا به ألحقناهم بهم في الدرجات قالوا: ويدل على هذا قراءة من قرأ: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم﴾ فجعل الفعل في الاتباع لهم قالوا: وقد أطلق الله سبحانه الذرية على الكبار كما قال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ﴾ [الأنعام: ٨٤]. وقال: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ [الإسراء: ٣]. وقال: ﴿وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٣].

وهذا قول الكبار العقلاء قالوا: ويدل على ذلك ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس يرفعه: «إن الله يرفع ذرية المؤمن إلى درجته وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه»[٢]. فهذا يدل على أنهم دخلوا بأعمالهم ولكن لم يكن لهم أعمال يبلغوا بها درجة آبائهم فبلغهم إياها وإن تقاصر عملهم عنها، قالوا: وأيضاً فالإيمان هو القول والعمل والنية، وهذا إنما يمكن من الكبار، وعلى هذا فيكون المعنى: أن سبحانه يجمع ذرية المؤمن إليه إذا أتوا الإيمان بمثل إيمانه إذ هذا حقيقة التبعية وهذا كما أن زوجات النبي ﷺ معه في الدرجة تبعاً وإن لم يبلغوا تلك الدرجة بأعمالهن.

وقالت طائفة أخرى: الذرية هٰهنا الصغار، والمعنى: والذين آمنوا وأتبعناهم ذرياتهم في إيمان الآباء وإن كانوا صغاراً في الإيمان وأحكامه من الميراث والدية والصلاة عليهم والدفن في قبور المسلمين وغير ذلك إلا فيما كان من أحكام البالغين، ويكون قوله: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ على هذا في موضع نصب على الحال من المفعولين، أي: وأتبعناهم ذرياتهم بإيمان الآباء قالوا: ويدل على صحة هذا القول: إن البالغين لهم حكم أنفسهم في الثواب والعقاب فإنهم مستقلون بأنفسهم ليسوا تابعين الآباء في شيء من أحكام الدنيا ولا أحكام الثواب والعقاب

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٠) رقم (١٢٢٤٨)، والصغير (١/ ٢٤٣) رقم (٦٣١)، قال الهيثمي: «فيه محمد بن عبد الرحمٰن بن غزوان وهو ضعيف»، مجمع الزوائد (٧/ ١١٤).

(٢) انظر: الحديث قبل السابق.

لاستقلالهم بأنفسهم ولو كان المراد بالذرية البالغين؛ لكان أولاد الصحابة البالغون كلهم في درجة آبائهم، ويكون أولاد التابعين البالغين كلهم في درجة آبائهم وهلم جرًّا إلى يوم القيامة فيكون الآخرون في درجة السابقين.

قالوا: ويدل عليه أيضاً أنه سبحانه جعلهم معهم تبعاً في الدرجة كما جعلهم معهم تبعاً في الإيمان ولو كانوا بالغين لم يكن إيمانهم تبعاً بل إيمان استقلال، قالوا: ويدل عليه أن الله سبحانه جعل المنازل في الجنة بحسب الأعمال في حق المستقلين، وأما الأتباع فإن الله سبحانه يرفعهم إلى درجة أهليهم وإن لم يكن لهم أعمالهم كما تقدم، وأيضاً فالحور العين الخدم في درجة أهليهم وإن لم يكن لهم عمل بخلاف المكلفين البالغين فإنهم يرفعون إلى حيث بلغتهم أعمالهم.

وقالت فرقة منهم الواحدي: الوجه أن تحمل الذرية على الصغار والكبار؛ لأن الكبير يتبع الأب بإيمان نفسه والصغير يتبع الأب بإيمان الأب قالوا: والذرية تقع على الصغير والكبير الواحد والكثير والابن والأب، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [يس: ٤١]. أي: آبائهم والإيمان يقع على الإيمان التبعي وعلى الاختياري الكسبي، فمن وقوعه على التبعي قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢]. فلو أعتق صغيراً أجاز قالوا: وأقوال السلف تدل على هذا، قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقر بهم عيونهم ثم قرأ هذه الآية.

وقال ابن مسعود في هذه الآية: الرجل يكون له القدم ويكون له الذرية فيدخل الجنة فيرفعون إليه؛ لتقر بهم عينه وإن لم يبلغوا ذلك.

وقال أبو مجلز: يجمعهم الله له كما كان يحب أن يجمعوا في الدنيا، وقال الشعبي: أدخل الله الذرية بعمل الآباء الجنة، وقال الكلبي عن ابن عباس: إن كان الآباء أرفع درجة من الأبناء رفع الله الأبناء إلى الآباء، وإن كان الأبناء أرفع درجة من الآباء رفع الله الآباء إلى الأبناء، وقال إبراهيم: أعطوا مثل أجور آبائهم ولم ينقص الآباء من أجورهم شيئاً.

قالوا: ويدل على صحة هذا القول أن القراءتين كالآيتين فمن قرأ: ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ ذُرِّيَّتَهُم﴾، فهذا من حق البالغين الذين تصح نسبة الفعل إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ومن

قرأ: (وأتبعناهم ذرياتهم) فهذا حق الصغار الذين أتبعهم الله إياهم في الإيمان حكماً فدلت القراءتان على النوعين.

قلت: واختصاص الذرية هٰهنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم مثل هذا في الصغار، فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته، والله أعلم[(١)].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فهذا دعاء العبادة المتضمن للسؤال رغبة ورهبة، والمعنى: أنا كنا من قبل نخلص له العبادة وبهذا استحقوا أن وقاهم عذاب السموم لا بمجرد السؤال المشترك بين الناجي وغيره، فإن الله سبحانه يسأله من في السمٰوات ومن في الأرض، والفوز والنجاة إنما هي بإخلاص العبادة لا بمجرد السؤال والطلب[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ [**الطور**: ٣٥، ٣٦].

فتأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق وأفصح عبارة يقول تعالى: هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خلقوا من غير خالق خلقهم؟ فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع ومخلوق من غير خالق، ولو مر رجل بأرض قفر لا بناء فيها ثم مر فيها فرأى فيها بنياناً وقصوراً وعمارات محكمة لم يتخالجه شك ولا ريب أن صانعاً صنعها وبانياً بناها.

ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾، وهذا أيضاً من المستحيل أن يكون العبد موجداً خالقاً لنفسه، فإن من لا يقدر أن يزيد في حياته بعد وجوده وتعاطيه أسباب الحياة ساعة واحدة ولا أصبعاً ولا ظفراً، ولا شعرة، كيف يكون خالقاً لنفسه في حال عدمه؟

وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقاً خلقهم وفاطراً فطرهم، فهو الإلٰه الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلٰهاً غيره وهو وحده الخالق لهم!؟

---

(١) حادي الأرواح (٣١٦ ـ ٣١٨).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٥، ٦).

فإن قيل: فما موقع قوله: ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ من هذه الحجة؟

قيل: أحسن موقع، فإنه بيَّن بالقسمين الأولين أن لهم خالقاً وفاطراً وأنهم مخلوقون، وبيَّن بالقسم الثالث أنهم بعد أن وجدوا وخلقوا فهم عاجزون غير خالقين، فإنهم لم يخلقوا نفوسهم ولم يخلقوا السماوات والأرض وأن الواحد القهار الذي لا إله غيره ولا رب سواه هو الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض فهو المتفرد بخلق المسكن والساكن بخلق العالم العلوي والسفلي وما فيه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٥ ـ ٤٧].

وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره في الدنيا وأن يراد به عذابهم في البرزخ وهو أظهر؛ لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب في الدنيا.

وقد يقال وهو أظهر: إن من مات منهم عذب في البرزخ، ومن بقي منهم عذب في الدنيا بالقتل وغيره، فهو وعيد بعذابهم في الدنيا وفي البرزخ(٢).

* * *

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩٣، ٤٩٤).

(٢) الروح لابن القيم (٧٥).

سُورَةُ النَّجْمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١ ـ ٢].

أقسم سبحانه بالنجم عند هويه على تنزيه رسوله وبراءته مما نسبه إليه أعداؤه من الضلال والغي.

واختلف الناس في المراد بالنجم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أقسم بالقرآن إذا نزل منجماً على رسوله: أربع آيات، وثلاثاً، والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة. وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفراء، وعلى هذا فسمي القرآن نجماً لتفرقه في النزول، والعرب تسمي التفرق تنجماً والمفرق نجماً، ونجوم الكتاب أقساطها. ويقول: جعلت مالي على فلان نجوماً منجمة كل نجم كذا وكذا.

وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها فيقولون: إذا طلع النجم ـ يريدون الثريا ـ حل عليك الدين، ومنه قول زهير في دية جعلت نجوماً على العاقل:

ينجمها قوم لقوم غرامة ... ولم يهرقوا ما بينهم ملء محجم

ثم جعل كل تنجم تفريقاً وإن لم يكن موقتاً بطلوع نجم.

وقوله: ﴿هَوَىٰ﴾ على هذا القول، أي: نزل من علو إلى سفل. قال أبو زيد: هوى العقاب تهوي هوياً ـ بفتح الهاء ـ إذا انقضت على صيد أو غيره، وكذلك قال ابن الأعرابي. وفرق بين الهوي لقوله: والدلو في إصعادها عجل الهوى.

وقال الليث: العامة تقول: الهُوي ـ بالضم ـ في مصدر هوى يهوي. وكذلك قال الأصمعي: هوى يهوي هو بفتح الهاء، إذا سقط إلى أسفل، قال: وكذلك الهوي في السير إذا مضى.

وقال ابن عباس، في رواية علي بن أبي طلحة، وعطية: يعني: الثريا إذا سقطت

وغابت، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النجم تعني به: الثريا، قال: فباتت تعد النجم، وقال أبو حمزة اليماني: يعني: النجوم إذا انتشرت يوم القيامة.

وقال ابن عباس: في رواية عكرمة: يعني: النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع.

وهذا قول الحسن، وهو أظهر الأقوال.

ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له على أن ما أتى به رسوله حق وصدق، لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي، وحرساً له.

وعلى هذا فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور، وفي المقسم به دليل على المقسم عليه.

وليس بالبين تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى، ولا تسمية نزوله هوياً، ولا عهد في القرآن ذلك فيحمل هذا اللفظ عليه، وليس بالبين تخصيص هذا القسم بالثريا وحدها إذا غابت، وليس بالبين أيضاً القسم بالنجوم عند انتشارها يوم القيامة، بل هذا مما يقسم الرب عليه ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً؛ لعدم ظهوره للمخاطبين، ولا سيما منكرو البعث، فإنه سبحانه إنما استدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن، والله أعلم.

وبين المقسم به والمقسم عليه من التناسب ما لا يخفى؛ فإن النجوم التي ترمي الشياطين آيات من آيات الله، يحفظ بها دينه ووحيه وآياته المنزلة على رسوله، بها ظهر دينه وشرعه، وأسماؤه، وصفاته وجعلت هذه النجوم المشاهدة خدماً وحرساً لهذه النجوم الهاوية، ونفى سبحانه عن رسوله الضلال المنافي للهدى، والغي المنافي للرشاد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشاد، فالهدى في علمه والرشاد في علمه، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وبهما سعادته وفلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه، فقال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي»[1].

فالراشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال، وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢ ـ ٤٤).

والعمل الصالح، وهو صاحب الهدى ودين الحق، ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلباً، وأبعدهم من حقيقة الإنسانية. ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: [**الأول**:] ضال في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل.

الثاني: مهتد في علمه غاو في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به.

الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر.

الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عدداً فهم الأكثرون عند الله قدراً، وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه.

وتأمل كيف قال سبحانه: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: ما ضل محمد. تأكيداً لإقامة الحجة عليهم، بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخلق به وبحاله وأقواله وأعماله وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غي، ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط. وقد نبه على هذا المعنى بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [**النجم: ٣ ـ ٤**].

ينزه نطق رسوله أن يصدر عن هوى، وبهذا الكمال هداه ورشده وقال: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ ولم يقل: وما ينطق بالهوى؛ لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين نفي الهوى عن مصدر النطق، ونفيه عن النطق نفسه؛ فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال.

ثم قال: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾، فأعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أي: ما نطقه إلا وحي يوحى. وهذا أحسن من قول من جعل الضمير عائداً إلى القرآن، فإنه يعم نطقه بالقرآن والسنة، وإن كليهما وحي يوحى.

وقد احتج الشافعي لذلك فقال: لعل من حجة من قال: بهذا قوله: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ

عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. قال: ولعل من حجته أن يقول: قال رسول الله ﷺ لأبي الزاني بامرأة الرجل الذي صالحه على الغنم والخادم: «والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله: الغنم والخادم رد عليك...» الحديث(١).

وفي الصحيحين أن يعلى بن أمية كان يقول لعمر: ليتني أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي، فلما كان بالجعرانة سأله رجل، فقال: كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبته بعدما تضمخ بالخلوق، فنظر إليه النبي ﷺ ساعة ثم سكت، فجاء الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى، فجاء فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محرم يغط، ثم سُرِّي عنه، فقال: «أين السائل آنفاً؟» فجيء به، فقال: «انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجتك»(٢).

وقال الشافعي: أخبرنا مسلم عن ابن جريج عن ابن طاووس عن أبيه أن عنده كتاباً نزل به الوحي. وما فرض رسول الله ﷺ من صدقة وعقول فإنما نزل به الوحي. وذكر الأوزاعي عن حسان بن عطية قال: كان جبريل ينزل على رسول الله ﷺ بالسنَّة كما ينزل عليه بالقرآن يعلمه إياه.

وذكر الأوزاعي أيضاً عن أبي عبيد، صاحب سليمان: أخبرني القاسم ابن مخيمرة، حدثني ابن فضيلة قال: قيل لرسول الله ﷺ: سعر لنا. قال: «لا تسألني عن سنة أحدثها فيكم، لم يأمرني بها ولكن سلوا الله من فضله»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٧٢٤)، ومسلم (١٦٩٧).

(٢) رواه البخاري في مواضع منها (٤٩٨٥)، ومسلم (١١٨٠).

(٣) لم أعرف من «طلحة بن فضيلة» هذا، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ١٠٠) «عن أبي بصيلة قال: قيل للنبي ﷺ... فذكره»، وقال: «فيه بكر بن سهل الدمياطي ضعفه النسائي ووثقه غيره وبقية رجاله ثقات»، ولم أعرف من «أبو بصيلة» ولعله مصحف من «عبيد بن نضلة أو نضيلة» و«عبيد بن نضلة» ذكره ابن حبان في الثقات (٥/ ١٣٨)، وقال ابن حجر: «تابعي شهير وذكر ابن حزم أنه أدرك النبي ﷺ ولم يلقه، وأخرج ابن أبي شيبة في مسنده، من طريق القاسم بن مخيمرة عن عبيد نضلة أن الناس قالوا للنبي ﷺ في عام المجاعة: سعر لنا.. الحديث، قال العسكري: ليس يصح سماعه وأكثر ظني أنه مرسل، وكذلك ابن أبي حاتم وقال: مختلف في صحبته، سوى الحديث المرسل وأما إدراكه فصحيح..».اهـ. الإصابة (٧/ ٢٦٠)، وانظر: التهذيب (٧/ ٧٥)، وذكر الحديث صاحب كنز العمال، وقال: «رواه الطبراني والبغوي عن عبيد بن نضلة» (٤/ ١٠٣)، ولعله في الجزء المفقود من الطبراني لكنه عنده عن أبي جحيفة (٢١/ ١٢٥) بلفظ: «إن الله هو المسعر القابض..»، وفيه «غسان بن الربيع ضعيف» مجمع الزوائد (٤/ ١٠٠)، ولكنه صح عن أنس وأبي هريرة بلفظ =

وابن فضيلة هذا يسمى طلحة، وقد صح عنه أنه قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه»[(١)]. وهذا هو السنة بلا شك، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وهما القرآن والسنة. وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ٥ ـ ١٠].

ثم أخبر تعالى عن وصف من علمه الوحي والقرآن، مما يعلم أنه مضاد لأوصاف الشيطان معلم الضلال والغواية، فقال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾، وهذا نظير قوله: ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠]. وذكرنا هناك السر في وصفه بالقوة.

وقوله: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾، أي: جميل المنظر حسن الصورة، ذو جلالة، ليس شيطاناً أقبح خلق الله وأشوههم صورة. بل هو من أجمل الخلق وأقواهم وأعظمهم أمانة ومكانة عند الله.

وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما تقدم نظيره في سورة التكوير. فوصفه بالعلم والقوة، وجمال المنظر وجلالته.

وهذه كانت أوصاف الرسول البشري والملكي، فكان رسول الله ﷺ أشجع الناس، وأعلمهم، وأجملهم، وأجلهم.

والشياطين وتلامذتهم بضد من ذلك، فهم أقبح الخلق صورة ومعنى، وأجهل الخلق وأضعفهم همماً ونفوساً.

ثم ذكر استواء هذا المعلم بالأفق الأعلى، ودنوه وتدليه وقربه من رسول الله ﷺ، وإيحاء الله ما أوحى. فصور سبحانه لأهل الإيمان صورة الحال من نزول جبريل من عنده، إلى أن استوى بالأفق، ثم دنا وتدلى، وقرب من رسوله، فأوحى إليه ما أمره الله بإيحائه، حتى كأنهم يشاهدون صورة الحال ويعاينونها هابطاً من السماء إلى أن صار بالأفق الأعلى، مستوياً عليه، ثم نزل وقرب من محمد ﷺ وخاطبه بما أمره الله به، قائلاً: ربك يقول لك كذا وكذا.

= قريب رواه أبو داود (الصحيح) (٢/ ٦٦٠) كتاب البيوع، باب: التسعير، والترمذي (الصحيح) (٢/ ٣٢) في البيوع، باب (١١) والله أعلم بالصواب.

(١) حديث صحيح عن المقدام بن معد يكرب رضي الله عنه، رواه الإمام أحمد (٤/ ١٣٠)، ورواه أبو داود (الصحيح) (٤٦٠٤).

وأخبر سبحانه عن مسافة هذا القرب، بأنه قدر قوسين أو أدنى من ذلك وليس هذا على وجه الشك بل تحقيق لقدر المسافة، وأنها لا تزيد عن قوسين البتة كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]. تحقيق لهذا العدد، وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف رجل واحداً ونظيره قوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، أي: لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها.

وهذا المعنى أحسن وألطف وأدق من قول من جعل «أو» في هذه المواضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرأي وقول من جعلها بمعنى: الواو، فتأمله. انتهى.

وقوله ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ أبهمه لعظمه، فإن الإبهام قد يقع للتعظيم، ونظيره قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] أي: أمر عظيم فوق الصفة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ [النجم: ١١ ـ ١٢].

ثم أخبر تعالى عن تصديق فؤاده لما رأته عيناه، وأن القلب صدق العين وليس كمن رأى شيئاً على خلاف ما هو به، فكذب فؤاده بصره، بل ما رآه ببصره صدقه الفؤاد وعلم أنه كذلك. وفيها قراءتان(٢): إحداهما بتخفيف كذب، والثانية بتشديدها، يقال: كذبته عينه وكذبه قلبه وكذبه جسده، إذا أخلف ما ظنه وحدسه. قال الشاعر:

كذبتك عينك، أم رأيت بواسط ... غلس الظلام من الرباب خيالا

أي: أرتك ما لا حقيقة له.

فنفى هذا عن رسوله، وأخبره أن فؤاده لم يكذب ما رآه.

و﴿مَا﴾ إما أن تكون مصدرية، فيكون المعنى: ما كذب فؤاده رؤيته، وإما أن تكون موصولة، فيكون المعنى: ما كذب الفؤاد الذي رآه بعينه. وعلى التقديرين فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر، وتوافقهما، وتصديق كل منهما لصاحبه(٣).

---

(١) هذه الفقرة من مدارج السالكين (٣/ ٢٢١).

(٢) قال ابن مجاهد: «قرأ ابن عامر في رواية ابن ذكوان: (ما كَذَبَ) خفيفة، وفي هشام بن عمار: (ما كَذَّب) مشددة. وقرأ الباقون: (مَا كَذَبَ) مخففة الذال»، انظر: كتاب السبعة في القراءات، ص(٦١٤).

(٣) وهذا ظاهر جداً في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المبرد، وقال: في هذه =

ثم أنكر سبحانه عليهم مكابرتهم وجحدهم له على ما رآه، كما ينكر على الجاهل مكابرته للعالم ومماراته له على ما علمه وفيها قراءتان: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ و(أَفَتَمْرُونَهُ).

وهذه المماراة أصلها من الجحد والدفع، يقول: مريت الرجل حقه إذا جحدته، كما قال الشاعر:

لئن هجرت أخا صدق ومكرمة   لقد مريت أخاً ما كان يمريكا

ومنه: المماراة، وهي المجادلة والمكابرة؛ ولهذا عدي هذا الفعل بعلى وهي على بابها، وليست بمعنى: عن كما قاله المبرد، بل الفعل متضمن معنى المكابرة. وهذا في قراءة الألف أظهر، ورجح أبو عبيدة: قراءة من قرأ: (أفتمرونه)[1]. قال: وذلك أن المشركين إنما شأنهم الجحود لما كان يأتيهم من الوحي، وهذا كان أكثر من المماراة منهم، يعني: أن من قرأ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ فمعناه: أفتجادلونه؟ ومن قرأ: (أفتمرونه) معناه: أفتجحدونه؟ وجحودهم لما جاء به كان هو شأنهم، وكان أكثر من مجادلتهم له، وخالفه أبو علي وغيره، واختاروا قراءة ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ قال أبو علي: من قرأ ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ فمعناه: أفتجادلونه جدالاً ترومون به دفعه عما علمه وشاهده؟ ويقوي هذا الوجه قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]. ومن قرأ: (أفتمرونه) كان المعنى: أفتجحدونه. قال: والمجادلة كأنها أشبه في هذا؛ لأن الجحود كان منهم في هذا وغيره. وقد جادله المشركون في الإسراء.

= القراءة بعد. قال: لأنه إذا رأى بقلبه فقد علمه أيضاً بقلبه، وإذا وقعت العلم فلا كذب معه؛ فإنه إذا كان الشيء في القلب معلوماً، فكيف يكون معه تكذيب؟

قلت: وجواب هذا من وجهين:

أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيكذبه قلبه، إذ يريه صورة المعلوم على خلاف ما هي عليه، كما تكذبه عينه، فيقال: كذبه قلبه، وكذبه ظنه، وكذبته عينه. فنفى سبحانه ذلك عن رسوله، وأخبر أن ما رآه الفؤاد فهو كما رآه. كمن رأى الشيء على حقيقة ما هو به. فإنه يصح أن يقال: لم تكذبه عينه.

الثاني: أن يكون الضمير في ﴿رَأَىٰٓ﴾ عائداً إلى الرأي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر. وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنى ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، بل صدقه. وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم ير، ولا اتهم بصره.

(١) قرأ حمزة والكسائي: (أَفَتَمْرُونَهُ) بفتح التاء بغير ألف، وقرأ الباقون: (أَفَتُمَارُونَهُ) بضم التاء وألف، المصدر السابق.

قلت: القوم جمعوا بين الجدال والدفع والإنكار. فكان جدالهم جدال جحود ودفع، لا جدال استرشاد وتبين للحق، وإثبات الألف يدل على المجادلة. والإتيان بعلى يدل على المكابرة؛ فكانت قراءة الألف منتظمة للمعنيين جميعاً، فهي أولى، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ [النجم: ١٣].

ثم أخبر سبحانه عن رؤيته لجبريل مرة أخرى عند سدرة المنتهى: فالمرة الأولى كانت دون السماء بالأفق الأعلى، والثانية كانت فوق السماء عند سدرة المنتهى. وقد صح عنه ﷺ أنه جبريل عليه الصلاة والسلام رآه على صورته التي خلق عليها مرتين، كما في الصحيحين عن زر بن حبيش أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ﴾ [النجم: ٩]، قال: أخبرني ابن مسعود أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستمائة جناح(١).

وفي الصحيحين أيضاً عن عبد الله بن مسعود: ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١] قال: رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح(٢)، وقال البخاري، عنه: رأى رفرفاً أخضر يسد الأفق(٣).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ قال: رأى جبريل عليه السلام(٤).

وفي صحيحه أيضاً عن مسروق قال: كنت متكئاً عند عائشة فقالت: ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. قال: وكنت متكئاً فجلست. فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني ولا تعجليني؛ ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين، رأيته منهبطاً من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض»، فقالت: أو لم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ

---

(١) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤). (٢) رواه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤).
(٣) رواه البخاري (٣٢٣٣). (٤) صحيح مسلم (١٧٥).

﴿ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. قالت: ومن زعم أن محمداً كتم شيئاً من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله ﷻ يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. ولو كان محمد كاتماً شيئاً مما أنزل عليه لكتم هذه الآيــة: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾[1] [الأحزاب: ٣٧].

وفي الصحيحين عن مسروق أيضاً قال: سألت عائشة ﵂، هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله! لقد قف شعري مما قلت[2].

وفيهما أيضاً قال: قلت لعائشة: فأين قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٨، ٩]؟ قالت: إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجال، وإنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق[3].

وفي صحيح مسلم أن أبا ذر سأله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور، أنى أراه؟»[4].

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار، وعمل النهار قبل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[5].

وهذا الحديث ساقه مسلم بعد حديث أبي ذر المقدم وهو كالتفسير له، ولا ينافي هذا قوله في حديث الصحيح حديث الرؤية يوم القيامة: «فيكشف الحجاب، فينظرون إليه» فإن النور الذي هو حجاب الرب تعالى يراد به الحجاب الأدنى إليه، وهو لو كشف لم يقم له شيء، كما قال ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، قال: ذاك نوره الذي هو نوره، إذا تجلى به لم يقم له شيء، وهذا الذي ذكره ابن عباس يقتضي أن قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ على

---

(١) صحيح مسلم (١٧٧). (٢) رواه البخاري (٤٨٥٥)، ومسلم (١٧٧).
(٣) رواه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧). (٤) رواه مسلم (١٧٨).
(٥) رواه مسلم (١٧٩).

عمومه وإطلاقه في الدنيا والآخرة ولا يلزم من ذلك أن لا يرى، بل يرى في الآخرة بالأبصار من غير إدراك، وإذا كانت أبصارنا لا تقوم لإدراك الشمس على ما هي عليه، وإن رأتها مع القرب الذي بين المخلوق والمخلوق، فالتفاوت الذي بين أبصار الخلائق وذات الرب جل جلاله أعظم وأعظم؛ ولهذا لما حصل للجبل أدنى شيء منه تجلى الرب تسافى الجبل واندك لسبحات ذلك القدر من التجلي.

وفي الحديث الصحيح المرفوع: «جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما؛ وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه، في جنة عدن»[(١)]، فهذا يدل على أن رداء الكبرياء على وجهه تبارك وتعالى هو المانع من رؤية الذات، ولا يمنع من أصل الرؤية، فإن الكبرياء والعظمة أمر لازم لذاته تعالى فإذا تجلى سبحانه لعباده يوم القيامة وكشف الحجاب بينهم وبينه فهو الحجاب المخلوق، وأما أنوار الذات الذي يحجب عن إدراكها فذاك صفة للذات، لا تفارق ذات الرب جل جلاله. ولو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، وتكفي هذه الإشارة في هذا المقام للمصدق الموقن. وأما المعطل الجهمي فكل هذا عنده باطل ومحال.

والمقصود أن المخبر عنه بالرؤية في سورة النجم هو جبريل.

□ □ □

وأما قول ابن عباس: رأى محمد ربه بفؤاده مرتين[(٢)]، فالظاهر أن مستنده هذه الآية. وقد تبين أن المرئي فيها جبريل فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس. وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي[(٣)] الإجماع على ما قالته عائشة، فقال ـ في نقضه

(١) رواه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) رواه الترمذي (٥/٣٦٨) في التفسير، سورة النجم، وقال: «حسن غريب».

(٣) عثمان بن سعيد الدارمي، الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، صاحب «المسند الكبير» والتصانيف، انظر: ترجمته في السير (١٣/٣١٩)، وأما بشر المريسي فكان متكلماً بارعاً، وكان من الفقهاء، أخذ عن القاضي أبي يوسف، وروى عن حماد بن سلمة وسفيان بن عيينة، نظر في الكلام فغلب عليه، وانسلخ من الورع والتقوى، وجرد القول: بخلق القرآن، ودعا إليه، حتى كان عين الجهمية في عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم وكفره عدة.
انظر: السير (١٠/١٩٩)، وكتاب الإمام الدارمي، مطبوع سنة ١٣٥٨هـ في مطبعة السنة المحمدية، وهو كتاب جيد، كان أجود لو أمسك عن بعض ما ذكره من صفات لم ترد في الكتاب والسنة كما نبه العلماء.

على بشر المريسي - في الكلام على حديث ثوبان ومعاذ: إن رسول الله ﷺ قال: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة»(١). فحكى تأويل المريسي الباطل، ثم قال: ويلك إن تأويل هذا الحديث على غير ما ذهبت إليه، أما أن رسول الله ﷺ قال في حديث أبي ذر: «إنه لم ير ربه»(٢)، وقال رسول الله ﷺ: «لن تروا ربكم حتى تموتوا»(٣)، وقالت عائشة ؓ: من زعم أن محمداً رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية. وأجمع المسلمون على ذلك، مع قول الله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] يعنون أبصار أهل الدنيا، وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، يمكن رؤية الله على كل حال كذلك، وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «صليت ما شاء الله من الليل، ثم وضعت جنبي، فأتاني ربي في أحسن صورة»(٤)، فهذا تأويل هذا الحديث عند أهل العلم. اهـ.

□ □ □

وقد ظن القاضي أبو يعلى أن الرواية اختلفت عن الإمام أحمد: هل رأى رسول الله ﷺ ربه ليلة الإسراء أم لا على ثلاث روايات..

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (١/ ٣١٧) برقم (٩٣٨) قال الهيثمي: «فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه ولم أر من ترجمهما»، مجمع الزوائد (١/ ٢٣٧)، ولكن هذا المعنى صح من طرق أخرى، كما سيأتي قريباً إن شاء الله تعالى.

(٢) رواه مسلم (١٧٨).

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد عن عبادة بن الصامت ؓ (٥/ ٣٢٤)، وأوله: «إني قد حدثتكم عن الدجال حتى خشيت أن لا تعقلوا..»، ورواه أبو داود (الصحيح) (٣/ ٨١٤) في الملاحم، باب: خروج الدجال، وصححه الألباني، والحديث عند مسلم (٥/ ٧٧٥) في الفتن، باب: ذكر ابن صياد، والترمذي (٤/ ٤٤٠) في الفتن، باب: ما جاء في الدجال، من حديث الزهري عن عمر بن ثابت الأنصاري قال: أخبرني بعض أصحاب النبي ﷺ... فذكره ضمن حديث ابن عمر عن ابن صياد، وقال: حسن صحيح و«عمر بن ثابت» من ثقات التابعين، أخطأ من عدَّه في الصحابة، روى عن أبي أيوب وعن بعض الصحابة حديث الدجال وعن عائشة، التهذيب (٧/ ٤٣٠)، ورواه الإمام أحمد (٥/ ٤٣٣)، وانظر: تحفة الأشراف (٥/ ٤٠٦) و(١١/ ١٩٢)، والله أعلم.

(٤) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٥/ ٣٤٣) في التفسير باب: سورة ص، وقال: «هذا حديث صحيح، سألت محمد بن إسماعيل عن هذا الحديث، فقال: حديث حسن صحيح...»، وللحافظ ابن رجب رسالة «اختيار الأولى...» في شرح الحديث، وانظر: ظلال الجنة للألباني (١/ ١٦٩ - ١٧٠)، والإرواء (٣/ ١٤٧).

والمسألة رواية واحدة عنه، فإنه لم يقل: بعينه، وإنما قال: رآه، واتبع في ذلك قول ابن عباس رأى محمد ربه، ولفظ الحديث: «رأيت ربي» وهو مطلق وقد جاء بيانه في الحديث الآخر.

ولكن في رد أحمد قول عائشة ومعارضته بقول النبي ﷺ إشعار بأنه أثبت الرؤية التي أنكرتها عائشة، وهي لم تنكر رؤية المنام، ولم تقل: من زعم أن محمداً رأى ربه في المنام فقد أعظم على الله الفرية.

وهذا يدل على أحد أمرين: إما أن يكون الإمام أحمد أنكر قول من أطلق نفي الرؤية إذ هو مخالفته للحديث، وإما أن يكون رواية عنه بإثبات الرؤية، وقد صرح بأنه رآه رؤيا حلم بقلبه، وهذا تقييد منه للرؤية وأطلق أنه رآه، وأنكر قول من نفى مطلق الرؤية، واستحسن قول من قال: رآه، ولا يقول: بعينه ولا بقلبه. وهذه النصوص عنه متفقة لا مختلفة.

وكيف يقول أحمد: رآه بعيني رأسه يقظة ولم يجئ ذلك في حديث قط. فأحمد إنما اتبع ألفاظ الحديث كما جاءت وإنكاره قول من قال: لم يره أصلاً لا يدل على إثبات رؤية اليقظة بعينه، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ [النجم: ١٤ ـ ١٥].

وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء؛ وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها(٢).

والمأوى مفعل من أوى يأوي إذا انضم إلى المكان وصار إليه واستقر به.

وقال عطاء عن ابن عباس: هي الجنة التي يأوي إليها جبريل والملائكة.

وقال مقاتل والكلبي: هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء. وقال كعب: جنة المأوى جنة فيها طير خضر ترتع فيها أرواح الشهداء. وقالت عائشة رضي الله عنها وزر بن حبيش: هي جنة من الجنان.

والصحيح: أنه اسم من أسماء الجنة كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١](٣).

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٤٢ ـ ٢٦٤).
(٢) حادي الأرواح (٦١). (٣) حادي الأرواح (٨٦، ٨٧).

قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧].

قال ابن عباس: ما زاغ البصر يميناً ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به. وعلى هذا المفسرون، فنفى عن نبيه ما يعرض للرائي الذي لا أدب له بين يدي الملوك والعظماء، من التفاته يميناً وشمالاً، ومجاوزة بصره لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة إذ لم يلتفت جانباً، ولم يمد بصره إلى غير ما رأى من الآيات، وما هناك من العجائب، بل قام مقام العبد الذي أوجب أدبه إطراقه وإقباله على ما أري، دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يره، مع ما في ذلك من ثبات الجأش، وسكون القلب، وطمأنينته. وهذا غاية الكمال. وزيغ البصر التفاته جانباً، وطغيانه مده أمامه إلى حيث ينتهي، فنزه في هذه السورة علمه عن الضلال، وقصده وعمله عن الغي، ونطقه عن الهوى، وفؤاده عن تكذيب بصره، وبصره عن الزيغ والطغيان، وهكذا يكون المدح.

تلك المكارم لا قعبان من لبن ... شيبا بماء فعادا بعدُ أبوالا[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

فالظن الشبهة، وما تهوى الأنفس: الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢].

الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، بنص القرآن والسنة وإجماع السلف.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، إذا اجتنبت الكبائر»[٣].

وأما ما يحكى عن أبي إسحاق الإسفرائيني أنه قال: الذنوب كلها كبائر، وليس فيها صغائر. فليس مراده: أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء من الحرام، وإنما المراد: أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِيَ بها كلها

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٤٢ ـ ٢٦٤).

(٢) الكلام في مسألة السماع (١٧٢).

(٣) رواه مسلم (٢٣٣).

كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى.

والذي جاء في لفظ الشارع، تسمية ذلك «لمماً» و«محقرات» كما في الحديث: «إياكم ومحقرات الذنوب»(١).

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر وهو منقطع، أي: لكن يقع منهم اللمم.

وحسن وقوع الانقطاع بعد الإيجاب، والغالب خلافه أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ. إذ في الإيجاب هنا معنى النفي صريحاً. فالمعنى: لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش، فحسن استثناء اللمم.

ولعل هذا الذي شجع أبا إسحاق على أن قال: «الذنوب كلها كبائر» إذ الأصل في الاستثناء الاتصال ولا سيما وهو من موجب.

ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر.

ثم اختلفوا في فصلين:

أحدهما: في «اللمم» ما هو؟

والثاني: في «الكبائر» وهل لها عدد يحصرها أو حد يحدها؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين.



فأما «اللمم» فقد روي عن جماعة من السلف: أنه الإلمام بالذنب مرة ثم لا يعود إليه وإن كان كبيراً.

قال البغوي: هذا قول أبي هريرة ومجاهد والحسن ورواية عطاء عن ابن عباس قال: وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: «اللمم ما دون الشرك»، قال السدي: قال أبو صالح: سئلت عن قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فقلت: هو الرجل يلم بالذنب ثم

---

(١) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى عن سهل بن سعد رضي الله عنه (٥/ ٣٣١)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٩٠): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة، وهو عند الطبراني في الكبير (٦/ ١٦٥)، وقال ابن حجر: إسناده حسن فتح الباري (١١/ ٣٣٧) في الرقاق، باب: (٣٢)، ورواه الإمام أحمد (١/ ٤٠٢)، والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٦١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه أيضاً الإمام أحمد (٦/ ٧٠ و١٥١)، والدارمي (٢/ ٢١٣)، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٤١٦) في الزهد، باب: ذكر الذنوب، وصححه الألباني، كما في السلسلة الصحيحة رقم (٣٨٩ و٥١٣).

لا يعاوده»، فذكرت ذلك لابن عباس فقال: «لقد أعانك عليها ملك كريم».

والجمهور: على أن «اللمم» ما دون الكبائر، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس، كما في صحيح البخاري من حديث طاووس عنه قال: ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزنا اللسان: النطق، والنفس تمنى وتشتهي والفرج يصدق ذلك أو يكذبه». رواه مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة، وفيه: «والعينان: زناهما النظر، والأذنان: زناهما الاستماع، واللسان: زناه الكلام، واليد: زناها البطش، والرجل: زناها الخطى»[(١)].

وقال الكلبي: «اللمم» على وجهين؛ كل ذنب لم يذكر الله عليه حداً في الدنيا ولا عذاباً في الآخرة فذلك الذي تكفره الصلوات الخمس، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش.

والوجه الآخر: هو الذنب العظيم يلم به المسلم المرة بعد المرة فيتوب عنه.

قال سعيد بن المسيب: هو ما ألم بالقلب، أي: ما خطر عليه. قال الحسين بن الفضيل: «اللمم» النظر من غير تعمد، فهو مغفور، فإن أعاد النظر فليس بلمم، وهو ذنب. وقد روى عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إن تغفر اللهم تغفر جمّاً، وأي عبد لك لا ألمَّا»[(٢)].

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن «اللمم» ما فعلوه في الجاهلية قبل إسلامهم، فالله لا يؤاخذهم به، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين: أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا. فأنزل الله هذه الآية، وهذا قول زيد بن ثابت وزيد بن أسلم.

والصحيح: قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك. هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم، وهو قول أبي هريرة وعبد الله بن مسعود وابن عباس ومسروق والشعبي ولا ينافي هذا قول أبي هريرة وابن عباس في الرواية الأخرى: «أنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها»، فإن «اللمم» إما أنه يتناول هذا وهذا ويكون على وجهين، كما قال الكلبي أو أن أبا هريرة وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة ولم يصر عليها، بل حصلت منه فلتة في عمره باللمم

---

(١) رواه البخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) رواه الترمذي (٥/ ٢٧٠) في التفسير، سورة النجم، وقال: حسن صحيح غريب.. وصححه الألباني، كما في صحيح الترمذي (٣/ ١١١).

ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم في حق من تكررت منه مراراً عديدة.

وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث، وإنما يخاف العنت على من اتخذ الذنب عادته وتكرر منه مراراً كثيرة وفي ذلك آثار سلفية، والاعتبار بالواقع يدل على هذا.

ويذكر عن علي بن أبي طالب ﷺ: أنه دفع إليه سارق، فأمر بقطع يده فقال: يا أمير المؤمنين، والله ما سرقت غير هذه المرة، فقال: كذبت فلما قطعت يده قال: اصدقني كم لك بهذه المرة؟ فقال: كذا وكذا مرة؟ فقال: صدقت إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب، أو كما قال.

فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم فهو من جنسه ونظيره. فالقولان عن أبي هريرة وابن عباس، متفقان غير مختلفين، والله أعلم.

□ □ □

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين، فإنه يقال: ألمَّ بكذا، إذا قاربه ولم يغشه، ومن هذا سميت القبلة والغمزة لمماً؛ لأنها تلم بما بعدها ويقال: فلان لا يزورنا إلا لماماً، أي: حيناً بعد حين.

فمعنى اللفظة ثابت في الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية، وليس معنى الآية: «والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم فإنهم لا يجتنبونه»، فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم وهذا محال.

وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه؛ فإن سياق الكلام في تقسيم الناس إلى محسن ومسيء وأن الله يجزي هذا بإساءته وهذا بإحسانه، ثم ذكر المحسنين ووصفهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ومضمون هذا: أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه، ناجياً من عذاب الله إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش، فحسن حينئذ استثناء اللمم، وإن لم يدخل في الكبائر فإنه داخل في جنس الإثم والفواحش(١)(٢).

* * *

(١) مدارج السالكين (١/ ٣١٥ ـ ٣١٩).

(٢) [قال]: وضابط الانقطاع: أن يكون له دخول في جنس المستثنى منه، وإن لم يدخل في نفسه، ولم يتناوله لفظه، كقوله تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢]. فإن السلام داخل في الكلام الذي هو جنس اللغو والسلام، وكذلك قوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]. =

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩].

فقد اختلفت طرق الناس في المراد بالآية.

فقالت طائفة[١]: المراد بالإنسان هاهنا الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعي له بالأدلة التي ذكرناها، قالوا: وغاية ما في هذا التخصيص وهو جائز إذا دل عليه الدليل.

وهذا الجواب ضعيف جداً، ومثل هذا العام لا يراد به الكافر وحده بل هو للمسلم والكافر وهو كالعام الذي قبله، وهو قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٣٨].

والسياق كله من أوله إلى آخره كالصريح في إرادة العموم لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ [النجم: ٤٠، ٤١].

وهذا يعم الشر والخير قطعاً ويتناول البر والفاجر والمؤمن والكافر كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. وكقوله له في الحديث الإلهي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[٢].

وهو كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦].

= فإن الحميم والغساق داخل في جنس الذوق المنقسم، فكأنه قيل في الأول: لا يسمعون فيها شيئاً إلا سلاماً.

وفي الثاني: لا يذوقون فيها شيئاً إلا حميماً وغساقاً، ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص لا بطريق العموم الذي يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٧]. فإن الظن داخل في الشعور الذي هو جنس العلم والظن وأدق من هذا دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. إذ مفهوم هذا: أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم فإنه عفو وكذلك: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]. وإن كان المراد به ما كان في شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله فحسن أن يقال: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾.

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية.

(١) في الرد على منكري وصول الأعمال من الحي إلى الميت.

(٢) جزء من حديث قدسي أوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي...»، رواه مسلم (٢٥٧٧).

ولا تغتر بقول كثير من المفسرين في لفظ الإنسان في القرآن، الإنسان هاهنا أبو جهل، والإنسان هاهنا عقبة بن أبي معيط، والإنسان هاهنا الوليد بن المغيرة. فالقرآن أجل من ذلك، بل الإنسان هو الإنسان من حيث هو من غير اختصاص بواحد بعينه كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩]، و﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] و﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]. ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

فهذا شأن الإنسان من حيث ذاته ونفسه وخروجه عن هذه الصفات بفضل ربه وتوفيقه له ومنته عليه لا من ذاته، فليس له من ذاته إلا هذه الصفات وما به من نعمة فمن الله وحده، فهو الذي حبب إلى عبده الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان، وهو الذي كتب في قلبه الإيمان، وهو الذي يثبت أنبياءه ورسله وأولياءه على دينه وهو الذي يصرف عنهم السوء والفحشاء.

□ □ □

وقالت طائفة: الآية إخبار بشرع من قبلنا، وقد دل شرعنا على أنه له ما سعى وما سُعي له.

وهذا أيضاً أضعف من الأول أو من جنسه، فإن الله سبحانه أخبر بذلك إخبار مقرر له محتج به لا إخبار مبطل له؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ [النجم: ٣٦]. فلو كان هذا باطلاً في هذه الشريعة لم يخبر به إخبار مقرر له محتج به.

وقالت طائفة: اللام بمعنى على، أي: وليس على الإنسان إلا ما سعى.

وهذا أبطل من القولين الأولين فإنه قول موضوع الكلام إلى ضد معناه المفهوم منه ولا يسوغ مثل هذا ولا تحتمله اللغة، وأما نحو ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥]، فهي على بابها أي: نصيبهم وحظهم، وأما أن العرب تعرف في لغاتها لي درهم بمعنى: علي درهم فكلا.

وقالت طائفة: في الكلام حذف تقديره: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أو سعي له، وهذا أيضاً من النمط الأول فإنه حذف ما لا يدل السياق عليه بوجه وقول على الله وكتابه بلا علم.

وقالت طائفة أخرى: الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١]. وهذا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وهذا ضعيف أيضاً ولا يرفع حكم الآية بمجرد قول ابن عباس رضي الله عنهما ولا غيره: إنها منسوخة والجمع بين الآيتين غير متعذر ولا ممتنع، فإن الأبناء تبعوا الآباء في الآخرة كما كانوا تبعاً لهم في الدنيا، وهذه التبعية هي من كرامة الآباء وثوابهم الذي نالوه بسعيهم، وأما كون الأبناء لحقوا بهم في الدرجة بلا سعي منهم، فهذا ليس هو لهم وإنما هو للآباء أقر الله أعينهم بإلحاق ذريتهم بهم في الجنة، وتفضل على الأبناء بشيء لم يكن لهم كما تفضل بذلك على الولدان والحور العين والخلق الذي ينشئهم للجنة بغير أعمال والقوم الذين يدخلهم الجنة بلا خير قدموه ولا عمل عملوه.

فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾، وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس والعقل والفطرة شاهدان بهما، **فالأولى**: تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره. **والثانية**: تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، **فالأولى**: تؤمّن العبد من أخذه بجريرة غيره كما يفعله ملوك الدنيا. **والثانية**: تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب.

فتأمل حسن اجتماع هاتين الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة:

أحدها: أن هدي العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره.

الثاني: أن ضلاله بفوات ذلك وتخلفه على نفسه لا على غيره.

الثالث: أن أحداً لا يؤاخذ بجريرة غيره.

الرابع: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله.

فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته.

□ □ □

وقالت طائفة أخرى: المراد بالإنسان هاهنا الحي دون الميت، وهذا أيضاً من النمط الأول في الفساد.

وهذا كله من سوء التصرف في اللفظ العام وصاحب هذا التصرف لا ينفذ تصرفه

في دلالات الألفاظ وحملها على خلاف موضوعها وما يتبادر إلى الذهن منها وهو تصرف فاسد قطعاً يبطله السياق والاعتبار وقواعد الشرع وأدلته وعرفه، وسبب هذا التصرف السيء أن صاحبه يعتقد قولاً، ثم يرد كل ما دل على خلافه بأي طريقة اتفقت له، فالأدلة المخالفة لما اعتقده عنده من باب الصائل لا يبالي بأي شيء دفعه، وأدلة الحق لا تتعارض ولا تتناقض بل يصدق بعضها بعضاً.

وقالت طائفة أخرى: وهو جواب أبي الوفاء بن عقيل، قال: الجواب الجيد عندي أن يقال: الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج وأسدى الخير وتودد إلى الناس فترحموا عليه وأهدوا له العبادات وكان ذلك أثر سعيه كما قال ﷺ: «إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولد من كسبه»[1]. ويدل عليه قوله في الحديث الآخر: «إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به من بعده، وصدقة جارية عليه، أو ولد صالح يدعو له»[2].

ومن هنا قال الشافعي: إذا بذل له ولده طاقة الحج كان ذلك سبباً لوجوب الحج عليه حتى كأنه في ماله زاد وراحلة بخلاف بذل الأجنبي، وهذا جواب متوسط يحتاج إلى تمام، فإن العبد بإيمانه وطاعته لله ورسوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخوانه المؤمنين مع عمله كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عمله فإن المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في الأعمال التي يشتركون فيها كالصلاة في جماعة فإن كل واحد منهم تضاعف صلاته إلى سبعة وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له في الصلاة فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره، كما أن عمله سبب لزيادة أجر الآخر.

بل قد قيل: إن الصلاة يضاعف ثوابها بعدد المصلين، وكذلك اشتراكهم في الجهاد والحج والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتعاون على البر والتقوى.

وقد قال النبي ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً، وشبك بين أصابعه»[3]. ومعلوم أن هذا بأمور الدين أولى منه بأمور الدنيا، فدخول المسلم مع جملة المسلمين في عقد الإسلام من أعظم الأسباب في وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه في حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تحيط من ورائهم،

---

(١) حديث صحيح، رواه الترمذي (١٣٥٨) وأبو داود (٣٥٢٨).

(٢) رواه مسلم (١٦٣١).

(٣) رواه البخاري (٢٤٤٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

وقد أخبر الله سبحانه عن حملة العرش ومن حوله أنهم يستغفرون للمؤمنين ويدعون لهم[(١)].

وأخبر عن دعاء رسله واستغفارهم للمؤمنين كنوح وإبراهيم ومحمد ﷺ. فالعبد بإيمانه قد تسبب إلى وصول هذا الدعاء إليه فكأنه من سعيه.

□ □ □

يوضحه أن الله سبحانه جعل الإيمان سبباً لانتفاع صاحبه بدعاء إخوانه من المؤمنين وسعيهم، فإذا أتى به فقد سعى في السبب الذي يوصل إليه، وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ لعمرو بن العاص: «إن أباك لو كان أقر بالتوحيد نفعه ذلك»[(٢)]. يعني: العتق الذي فعل عنه بعد موته فلو أتى بالسبب لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب العتق، وهذه طريقة لطيفة حسنة جداً.

وقالت طائفة أخرى: القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره، وإنما نفى ملكه لغير سعيه وبين الأمرين من الفرق ما لا يخفى، فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه وأما سعي غيره فهو ملك لساعيه فإن شاء أن يبذله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه وهو سبحانه لم يقل: لا ينتفع إلا بما سعى، وكان شيخنا يختار هذه الطريقة ويرجحها[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].

متضمن لكنز عظيم وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]. واجتمع ما يراد له في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾. فليس وراءه سبحانه غاية تطلب وليس دونه غاية إليها المنتهى.

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ..﴾ الآية [غافر: ٧].

(٢) رواه الإمام أحمد (١٠/ ١٧٦) رقم (٦٧٠٤)، وقال الهيثمي: رواه أحمد وفيه الحجاج بن أرطأة وهو مدلس، مجمع الزوائد (٤/ ١٩٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

(٣) الروح (١٢٥ ـ ١٢٩).

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يحب ويراد فمراد لغيره.

وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى.

ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين، فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك وزال عنه وفارقه أحوج ما يكون إليه.

ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعيمه ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ [النجم: ٤٣].

الضحك والبكاء فعلان اختياريان، فهو ـ سبحانه ـ المضحك المبكي حقيقة، والعبد هو الضاحك الباكي حقيقة.

وتأويل الآية بخلاف ذلك، إخراج للكلام عن ظاهره بغير موجب، ولا منافاة بين ما يذكر من تلك التأويلات وبين ظاهره، فإن إضحاك الأرض بالنبات، وإبكاء السماء بالمطر، وإضحاك العبد وإبكاءه بخلق آلات الضحك والبكاء له، لا ينافي حقيقة اللفظ وموضوعه ومعناه، من أنه جاعل الضحك والبكاء فيه، بل الجميع حق[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩ ـ ٦١].

قال عكرمة عن ابن عباس: السمود: الغناء في لغة حمير، يقال: اسمدي لنا، أي: غني لنا، وقال أبو زبيد:

وكأن العزيف فيها غناء ... للندامى من شارب مَسْمود

قال أبو عبيدة: المسمود: الذي غُني له.

وقال عكرمة: كانوا إذا سمعوا القرآن تغنوا. فنزلت هذه الآية، وهذا لا يناقض ما قيل في هذه الآية: من أن «السمود» الغفلة والسهو عن الشيء. قال المبرد: هو الاشتغال عن الشيء بهمّ أو فرح يتشاغل به وأنشد:

---

(١) الفوائد (١٩٦، ١٩٧).

(٢) شفاء العليل (٥٩).

رمى الحدثان نسوة آل حرب   بمقدار سمدن له سمودا

وقال ابن الأنباري: السامد: اللاهي، والسامد: الساهي. والسامد: المتكبر، والسامد: القائم.

وقال ابن عباس في الآية: وأنتم مستكبرون. وقال الضحاك: أشرون بطرون. وقال مجاهد: غضاب مبرطمون. وقال غيره: لاهون غافلون معرضون.

فالغناء يجمع هذا كله ويوجبه[١].



(١) إغاثة اللهفان (١/٢٥٨).

سُورَةُ القَمَرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

أيسر شيء ـ بحمد الله تعالى ـ على النفوس تحصيله وحفظه وفهمه، هو كتاب الله الذي يسَّره للذكر.

قال البخاري في صحيحه: قال مطر الوراق: هل من طالب علم فيعان عليه؟ ولم يقل: فتضيع عليه مصالحه، وتتعطل معايشه عليه.

وسنة رسوله ـ وهي بحمد الله تعالى ـ مضبوطة محفوظة، وأصول الأحكام التي تدور عليها نحو خمسمائة حديث، وفرشها وتفصيلها نحو أربعة آلاف حديث.

وإنما الذي هو في غاية الصعوبة والمشقة مقدرات الأذهان، وأغلوطات المسائل والفروع والأصول التي ما أنزل الله بها من سلطان[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

المراد به أتباعه المؤمنون به من أقاربه وغيرهم[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩].

قال سفيان عن زياد بن إسماعيل المخزومي: ثنا محمد بن عباد بن جعفر، ثنا أبو هريرة قال: جاء مشركو قريش إلى رسول الله ﷺ يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٧ ـ ٤٩]. رواه مسلم[(٣)].

---

(١) إعلام الموقعين (٢/٢٣٨).
(٢) جلاء الأفهام (١٢٤، ١٢٥).
(٣) رواه مسلم (٢٦٥٦).

وقد رواه الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «إذا كان يوم القيامة نادى مناد: أين خصماء الله وهم القدرية؟». ولكن حبيب هذا قال الدارقطني[1]: مجهول والحديث مضطرب الإسناد ولا يثبت.

والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق.

والطائفتان خصماء الله، قال عوف: من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام. إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً وخلق الخلق بقدر وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى.

وقال الإمام أحمد: القدر قدرة الله. واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جداً، وقال: هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين، وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها.

وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق السلف على تكفيرهم.

وفي تفسير علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. قال: الذين يقولون[2]: إن الله على كل شيء قدير.

وهذا من فقه ابن عباس وعلمه بالتأويل ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات، فإن أكثر أهل الكلام لا يوفون هذه الجملة حقها ولو كانوا يقرون بها، فمنكرو القدر وخلق أفعال العباد لا يقرون بها على وجهها، ومنكرو أفعال الرب القائمة به لا يقرون بها على وجهها، بل يصرحون أنه لا يقدر على فعل يقوم به، ومن لا يقر بأن الله سبحانه كل يوم هو في شأن يفعل ما يشاء، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير، ومن لا يقر بأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف يشاء

---

(١) لم أقف عليه عند الدراقطني، وإنما رواه الطبراني في الأوسط، كما أشار الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٦)، قال: رواه الطبراني في الأوسط من رواية بقية، وهو مدلس، وحبيب مجهول. وضعفه الألباني، كما في ضعيف الجامع رقم (٧٦٣)، وكذلك أشار صاحب كنز العمال أنه رواه الطبراني في الأوسط (١/ ١٢٠) رقم (٥٦٩).

(٢) في تفسير الطبري: «يعلمون» (٢٢/ ١٣٢).

وأنه سبحانه مقلب القلوب حقيقة وأنه إن شاء يقيم القلب أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه، لا يقر بأن الله على كل شيء قدير، ومن لا يقر بأنه استوى على عرشه بعد أن خلق السماوات والأرض وأنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا يقول: من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ وأنه نزل إلى الشجرة فكلم موسى كلمه منها، وأنه ينزل إلى الأرض قبل يوم القيامة حين تخلو من سكانها، وأنه يجيء يوم القيامة فيفصل بين عباده وأنه يتجلى لهم يضحك وأنه يريهم نفسه المقدسة، وأنه يضع رجله على النار فيضيق بها أهلها وينزوي بعضها إلى بعض إلى غير ذلك من شؤونه وأفعاله التي من لم يقر بها لم يقر بأنه على كل شيء قدير، فيا لها كلمة من حبر الأمة وترجمان القرآن، وقد كان ابن عباس شديداً على القدرية وكذلك الصحابة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢].

قال عطاء ومقاتل: كل شيء فعلوه مكتوب عليهم في اللوح المحفوظ، وروى حماد بن زيد عن داود بن أبي هند عن الشعبي: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ قال: كتب عليهم قبل أن يعملوه.

وقالت طائفة: المعنى: أنه يحصى عليهم في كتب أعمالهم، وجمع أبو إسحاق بين القولين فقال: مكتوب عليهم قبل أن يفعلوه ومكتوب عليهم إذا فعلوه للجزاء. وهذا أصح وبالله التوفيق(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

فسمى جنته مقعد صدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة وحملة صادقة، ومنه الكلام الصدق لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل، والصدّيق الذي يصدق قوله بالعمل، والصَّدق بالفتح الصلب من الرماح، ويقال للرجل الشجاع: إنه لذو مصدق، أي: صادق الحملة، وهذا مصداق هذا، أي: ما يصدقه.

---

(١) شفاء العليل (٢٨، ٢٩).
(٢) شفاء العليل (٤٢).

ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالَّة، ومنه صدقني القتال وصدقني المودة.

ومنه قدم صدق، ولسان صدق، ومدخل صدق ومخرج صدق، وذلك كله للحق الثابت المقصود الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته وهو لا يتضمن أمراً ثابتاً قط.

وفسر قوم قدم صدق بالجنة، وفسر بالأعمال التي تنال بها الجنة، وفسر بالسابقة التي سبقت لهم من الله، وفسر بالرسول الذي على يده وهدايته نالوا ذلك.

والتحقيق: أن الجميع حق فإنهم سبقت لهم من الله الحسنى بتلك السابقة، أي: بالأسباب التي قدرها لهم على يد رسوله وادخر لهم جزاءها يوم القيامة، ولسان الصدق وهو لسان الثناء الصادق بمحاسن الأفعال وجميل الطرائق وفي كونه لسان صدق إشارة إلى مطابقته للواقع، وأنه ثناء بحق لا بباطل ومدخل الصدق ومخرج الصدق وهو المدخل والمخرج الذي يكون صاحبه فيه ضامناً على الله وهو دخوله وخروجه بالله ولله، وهذه الدعوة من أنفع الدعاء للعبد فإنه لا يزال داخلاً في أمر وخارجاً من أمر، فمتى كان دخوله لله وبالله وخروجه كذلك كان قد أدخل مدخل صدق وأخرج مخرج صدق، والله المستعان[(١)][(٢)].



(١) حادي الأرواح (٨٩، ٩٠).

(٢) وانظر: ـ إن رغبت ـ في الموضوع تفسير الآية (٨٠) من سورة الإسراء.

سُوْرَةُ الرَّحْمنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها.

فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وخص الإنسان بالخلق لأنه موضع العبرة.

وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه صار إنساناً بخلقه فهو الذي خلقه وعلمه.

ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثاً كل منها يسمى بياناً.

أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات.

الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات ويترجم عنها فيه لغيره.

الثالث: البيان الرسمي الخطي الذي يرسم به تلك الألفاظ فيتبين للناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ.

فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب.

وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦]. وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع كقوله: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: ١٨]. وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞ﴾ [البقرة: ٧][1].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣٠١).

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ [الرحمٰن: ٧].

والميزان يراد به العدل والآلة التي يعرف بها العدل وما يضاده.

والقياس الصحيح هو الميزان فالأولى تسميته بالاسم الذي سماه الله به، فإنه يدل على العدل وهو اسم مدح واجب على كل واحد في كل حال بحسب الإمكان بخلاف اسم القياس فإنه ينقسم إلى حق وباطل وممدوح ومذموم؛ ولهذا لم يجئ في القرآن مدحه ولا ذمه ولا الأمر به ولا النهي عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وفاسد[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمٰن: ١٣ ـ ١٥].

خاطب النوعين بالخطاب المتضمن لاستدعاء الإيمان منهم وإنكار تكذيبهم بالآية، وترغيبهم في وعده وتخويفهم من وعيده، وتهديدهم بقوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣١].

وتخويفهم من عواقب ذنوبهم وأنه لعلمه بها لا يحتاج أن يسألهم عنها سؤال استعلام، بل يعرف المجرمون منهم بسيماهم فيؤخذ بنواصيهم والأقدام، ثم ذكر عقاب الصنفين وثوابهم، وهذا كله صريح في أنهم هم المكلفون المأمورون المنهيون المثابون المعاقبون.

وفي الترمذي من حديث محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمٰن من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن وكانوا أحسن مردوداً منكم: كنت كلما أتيت على آية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمٰن: ١٣] قالوا: لا شيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[(٢)].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٠).

(٢) حديث حسن، رواه الترمذي (٥/ ٣٧٢) في التفسير، باب: ومن سورة الرحمٰن، والطبري في التفسر (٢٧/ ١٢٣)، والبزار (٣/ ٧٤) كلهم من حديث ابن عمر ﵄، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١١٧): رواه البزار عن شيخه عمرو بن مالك الراسبي، وثقه ابن حبان وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح، والحاكم (٢/ ٢٧٣) من حديث جابر بن عبد الله ﵄ وقال: «صحيح على شرطهما»، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني، كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢١٥٠).

وهذا يدل على ذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بمؤنة الخطاب، وعلمهم أنهم مقصودون به، وقوله في هذه السورة: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ وعيد للصنفين المكلفين بالشرائع.

قال قتادة: معناه: فراغ الدنيا وانقضاؤها، ومجيء الآخرة والجزاء فيها، والله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء، والفراغ في اللغة على وجهين: فراغ من الشغل وفراغ بمعنى: القصد، وهو في هذا الموضوع بالمعنى الثاني؛ وقد قصد لمجازاتهم بأعمالهم يوم الجزاء.

* * *

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [**الرحمٰن**: ١٧ ـ ١٨].

مجيء المشرق والمغرب في القرآن تارة مجموعتين، وتارة مثنيين، وتارة مفردين لاختصاص كل محل بما يقتضيه من ذلك.

فالأول كقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠].

والثاني كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والثالث كقوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

فتأمل هذه الحكمة البالغة في تغاير هذه المواضع في الإفراد والجمع والتثنية بحسب موادها يطلعك على عظمة القرآن وجلالته وأنه تنزيل من حكيم حميد.

فحيث جمعت كان المراد بها مشارق الشمس ومغاربها في أيام السنة وهي متعددة.

وحيث أفردا كان المراد أفقي المشرق والمغرب.

وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها ومغربيهما، فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء؛ فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً، ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً، ويقابلها مغرباها.

فهذا وجه اختلاف هذه في الإفراد والتثنية والجمع.

وأما وجه اختصاص كل موضع بما وقع فيه فلم أر أحداً تعرض له، ولا فتح بابه وهو بحمد الله بيّن من السياق.

فتأمل وروده مثنى في سورة الرحمٰن لما كان مساق السورة مساق المثاني المزدوجات، فذكر أولاً نوعي الإيجاد وهما الخلق والتعظيم، ثم ذكر سراجي

العالم ومظهري نوره وهما الشمس والقمر، ثم ذكر نوعي النبات ما قام منه على ساق وما انبسط منه على وجه الأرض وهما النجم والشجر، ثم ذكر نوعي السماء المرفوعة والأرض الموضوعة، وأخبر أنه رفع هذه، ووضع هذه ووسط، بينما ذكر الميزان ثم ذكر العدل والظلم في الميزان، فأمر بالعدل ونهى عن الظلم، ثم ذكر نوعي الخارج من الأرض وهما الحبوب والثمار، ثم ذكر خلق نوعي المكلفين وهما نوع الإنسان ونوع الجان، ثم ذكر نوعي المشرقين ونوعي المغربين، ثم ذكر بعد ذلك البحرين الملح والعذب.

فتأمل حسن تثنية المشرق والمغرب في هذه السورة، وجلالة ورودهما لذلك، وقدر موضعهما[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦].

ولم يقل: «فيها» لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٩].

يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويكشف غماً وينصر مظلوماً ويأخذ ظالماً ويفك عانياً ويغني فقيراً ويجبر كسيراً ويشفي مريضاً ويقيل عثرة ويستر عورة ويعز ذليلاً ويذل عزيزاً ويعطي سائلاً ويذهب بدولة ويأتي بأخرى ويداول الأيام بين الناس ويرفع أقواماً ويضع آخرين.

يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه وسبق به علمه.

فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك لا ينازعه في ملكه منازع ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث الحماني: حدثنا إسحاق بن سليمان عن معاوية بن يحيى عن يونس بن ميسرة عن أبي إدريس

(١) بدائع الفوائد (١/ ١٢١).
(٢) بدائع الفوائد (٤/ ٢١٠).

عن أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾؟ فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: «من شأنه أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع أقواماً ويضع آخرين»(١).

وفيه أيضاً من حديث حماد بن سلمة، حدثنا الزبير أبو عبد السلام عن أيوب بن عبد الله بن مكرز عن أبيه قال: قال عبد الله بن مسعود: إن ربكم ﷻ ليس عنده ليل ولا نهار نور السماوات من نور وجهه، أيامكم عنده ثنتا عشرة ساعة، تعرض عليه أعمالكم بالأمس ثلاث ساعات من أول النهار فيطلع منها على ما يكره فيغضب فيكون أول من يعلم بغضبه حملة العرش فتسبح حملة العرش وسرادقات العرش والملائكة المقربون وسائر الملائكة، وينفخ جبريل في القرن فلا يبقى خلق لله في السماوات ولا في الأرض إلا سمعه إلا الثقلين ويسبحون لذلك [ثلاث ساعات] حتى يمتلئ الرحمٰن رحمة، فتلك ست ساعات ثم يدعو بالأرحام فينظر فيها ثلاث ساعات ﴿يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦]. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ [الشورى: ٤٩]. فتلك تسع ساعات ثم يدعو بالأرزاق فينظر فيها ثلاث ساعات ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الإسراء: ٣٠]. فتلك ثنتا عشرة ساعة، ثم قرأ عبد الله ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾. ثم قال: هذا شأنكم وشأن ربكم ﷻ، وذكره الطبراني(٢) في المعجم الكبير من وجه آخر، وهذا من تمام تصرفه في ملكه سبحانه، فلو قصر تصرفه على وجه واحد ونمط واحد لم يكن تصرفاً تاماً(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

فيها قولان:

---

(١) حديث صحيح، ذكره البخاري معلقاً عن أبي الدرداء في التفسير، سورة الرحمٰن، عقب الحديث (٤٨٧٧).

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٠)، وقال الهيثمي: وفيه أبو عبد السلام، قال أبو حاتم: مجهول، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وعبد الله بن مكرز أو عبيد الله على الشك لم أر من ذكره، مجمع الزوائد (١/ ٨٥).

(٣) طريق الهجرتين (١١٥/ ١١٦).

أحدهما: إن استطعتم أن تنفذوا ما في السماوات والأرض علماً ـ أي: أن تعلموا ما فيهما ـ فاعلموه، ولن تعلموه إلا بسلطان، أي: إلا ببينة من الله، وعلى هذا فالنفوذ هاهنا نفوذ علم الثقلين في السماوات والأرض.

الثاني: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل سلطانه ومملكته بنفوذكم من أقطار السماوات والأرض وخروجكم عن محل حكم الله وسلطانه فافعلوا، ومعلوم أن هذا من الممتنع عليكم، فإنكم تحت سلطاني وفي محل ملكي وقدرتي أين كنتم، وقال الضحاك: معنى الآية: إن استطعتم أن تهربوا عند الموت فاهربوا فإنه مدرككم.

وهذه الأقوال على أن يكون الخطاب لهم بهذا القول في الدنيا، وفي الآية تقرير آخر وهو أن يكون هذا الخطاب لهم في الآخرة إذا أحاطت الملائكة بأقطار الأرض وأحاط سرادق النار بالآفاق فهرب الخلائق فلا يجدون مهرباً ولا منفذاً. كما قال تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٢، ٣٣].

قال مجاهد: فارين غير معجزين. وقال الضحاك: إذا سمعوا زفير النار ندوا هرباً فلا يأتون قطراً من الأقطار إلا وجدوا الملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الذي كانوا فيه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَآ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾.

وهذا القول أظهر. والله أعلم.

فإذا بده الخلائق ولوا مدبرين يقال لهم: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟﴾، أي: إن قدرتم أن تتجاوزوا أقطار السماوات والأرض فتعجزوا ربكم حتى لا يقدر على عذابكم فافعلوا. وكأن ما قبل هذه الآية وما بعدها يدل على هذا القول، فإن قبلها ﴿سَنَفْرُغُ﴾ الآية، وهذا في الآخرة وبعدها: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ [الرحمٰن: ٣٧]. وهذا في الآخرة.

وأيضاً فإن هذا خطاب لجميع الإنس والجن، فإنه أتى فيه بصيغة العموم وهي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾، فلابد أن يشترك الكل في سماع الخطاب ومضمونه، وهذا إنما يكون إذا جمعهم الله في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، وقال تعالى: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ﴾، ولم يقل: إن استطعتما لإرادة الجماعة كما في آية أخرى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

وقال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا﴾، ولم يقل: يرسل عليكم لإرادة الصنفين، أي: لا يختص به صنف على صنف بل يرسل ذلك على الصنفين معاً، وهذا وإن كان مراداً بقوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ فخطاب الجماعة في ذلك بلفظ الجمع أحسن، أي: من استطاع منكم وحسن الخطاب بالتثنية في قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمَا﴾ أمر آخر وهو موافقة رؤوس الآي، فاتصلت التثنية بالتثنية وفيه التسوية بين الصنفين في العذاب بالتنصيص عليهما، فلا يحتمل اللفظ إرادة أحدهما، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٣٩].

فأضاف الذنوب إلى الثقلين وهذا دليل على أنهما سوياً في التكليف، واختلف في هذا السؤال المنفي.

فقيل: هو وقت البعث والمصير إلى الموقف، لا يسألون حينئذٍ، ويسألون بعد إطالة الوقوف واستشفاعهم إلى الله أن يحاسبهم ويريحهم من مقامهم ذلك.

وقيل: المنفي سؤال الاستعلام والاستخبار، لا سؤال المحاسبة والمجازاة، أي: قد علم الله ذنوبهم فلا يسألهم عنها سؤال من يريد علمها وإنما يحاسبهم عليها.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [**الرحمٰن**: ٤٦].

وهذا يدل على أن ثواب محسنهم ـ [أي: الجن] ـ الجنة من وجوه:

أحدها: أن «من» من صيغ العموم فتتناول كل خائف.

الثاني: أنه رتب الجزاء المذكور على خوف مقامه، فدل على استحقاقه به(١).

---

(١) وقد اختلف في إضافة المقام إلى الرب هل هي من إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله؟ على قولين:

أحدهما: أن المعنى: ولمن خاف مقامه بين يدي ربه فعلى هذا هو من إضافة المصدر إلى المفعول.

والثاني: أن المعنى: ولمن خاف مقام ربه عليه واطلاعه عليه، فهو من باب إضافة المصدر إلى فاعله، وكذلك القولان في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]. ونظيره قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]. =

والمقصود: أن قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ يتناول الصنفين من وجوه تقدم منها وجهان.

الثالث: قوله عقيب هذا الوعد: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الرابع: أنه ذكر في وصف نسائهم أنهن ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، وهذا والله أعلم معناه أنه: لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم ولا نساء الجن جن قبلهم[1].

□ □ □

= فهذه ثلاثة مواضع. وقد يقال: الراجح هو الأول وإن المعنى خاف مقامه بين يدي ربه لوجوه:

أحدها: أن طريقة القرآن في التخويف أن يخوفهم بالله وباليوم الآخر، فإذا خوفهم به علق الخوف به لا بقيامه عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة: ٨]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [تبارك: ١٢]. ففي هذا كله لم يذكر خشية مقامه عليهم وإنما مدحهم بخوفه وخشيته، وقد يذكر الخوف متعلقاً بعذابه كقوله تعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وأما خوف مقامه عليهم فهو وإن كان كذلك فليس طريقة القرآن.

الثاني: أن هذا نظير قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١]. فخوفهم أن يحشروا إليه هو خوفهم من مقامهم بين يديه والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

الثالث: أن خوف مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة لا يكون إلا ممن يؤمن بلقائه وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت، وهذا هو الذي يستحق الجنتين المذكورتين فإنه لا يؤمن بذلك حق الإيمان إلا من آمن بالرسل، وهو من الإيمان بالغيب الذي جاءت به الرسل، وأما مقام الله على عبده في الدنيا واطلاعه عليه وقدرته عليه فهذا يقر به المؤمن والكافر والبر والفاجر، وأكثر الكفار يخافون جزاء الله لهم في الدنيا؛ لما عاينوه من مجازاة الظالم بظلمه والمحسن بإحسانه.

وأما مقام العبد بين يدي ربه في الآخرة فلا يؤمن به إلا المؤمن بالرسل.

فإن قيل: إذا كان المعنى: أنه خاف مقام ربه عليه في الآخرة بالجزاء فقد استوى التقديران، فمن أين رجحتم أحدهما؟ قيل: التخويف بمقام العبد بين يدي ربه أبلغ من التخويف بمقام الرب على العبد: ولهذا خوفنا تعالى في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]. ولأنه مقام مخصوص مضاف إلى الله وذلك في يوم القيامة، بخلاف مقام الله على العبد فإنه كل وقت.

وأيضاً فإنه لا يقال لقدرة الله على العبد واطلاعه عليه وعلمه به: مقام الله، ولا هذا من المألوف إطلاقه على الرب، وأيضاً فإن المقام في القرآن والسنة إنما يطلق على المكان كقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]. وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣].

(١) طريق الهجرتين (٣٩١ ـ ٣٩٦).

وقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾.

قيل: هو العبد يهوى المعصية فيذكر مقام ربه عليه في الدنيا ومقامه بين يديه في الآخرة فيتركها لله[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤].

فوصف الفرش بكونها مبطنة بالإستبرق، وهذا يدل على أن ظهائرها أعلى وأحسن من بطائنها؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة.

قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن أبي هبيرة بن مريم عن عبد الله في قوله: بطائنها من إستبرق، قال: هذه البطائن قد خبرتم بها فكيف بالظهائر[٢]؟.

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٥٦ ـ ٥٨].

وصفهن سبحانه بقصر الطرف في ثلاثة مواضع:

أحدها: هذا.

والثاني: قوله تعالى في الصافات: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨].

والثالث: قوله تعالى في صٓ: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

والمفسرون كلهم على أن المعنى: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم، وقيل: قصرن طرف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن وجمالهن أن ينظروا إلى غيرهن.

وهذا صحيح من جهة المعنى، وأما من جهة اللفظ: فقاصرات صفة مضافة إلى الفاعل الحسان الوجوه وأصله قاصر طرفهن، أي: ليس بطامح متعد.

قال آدم: حدثنا ورقاء عن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قال: يقول: قاصرات الطرف على أزواجهن فلا يبغين غير أزواجهن، قال آدم: وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن، قال: قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، والله ما هن متبرجات ولا متطلعات. وقال منصور عن مجاهد: قصرن

---

(١) روضة المحبين (٣٦٥). (٢) حادي الأرواح (١٦٩).

أبصارهن وقلوبهن وأنفسهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم. وفي تفسير سعيد عن قتادة قال: وقصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم.

وأما الأتراب فجمع ترب: وهو لدة الإنسان.

قال أبو عبيدة وأبو إسحاق: أقران أسنانهن واحدة، قال ابن عباس وسائر المفسرين: مستويات على سن واحد وميلاد واحد بنات ثلاث وثلاثين سنة. وقال مجاهد: أتراب: أمثال.

وقال أبو إسحاق: هن في غاية الشباب والحسن، وسمي سن الإنسان وقرنه تربه؛ لأنه مس تراب الأرض معه في وقت واحد والمعنى: من الإخبار باستواء أسنانهن أنهن ليس فيهن عجائز قد فات حسنهن، ولا ولائد لا يطقن الوطء بخلاف الذكور فإن فيهن الولدان وهم الخدم.

وقد اختلف في مفسر الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، فقالت طائفة: مفسره الجنتان وما حوتاه من القصور والغرف والخيام. وقالت طائفة: مفسرة الفرش المذكورة في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ [الرحمٰن: ٥٤]. وفي بمعنى: على.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قال أبو عبيدة: لم يمسهن، يقال: ما طمث هذا البعير حبل قط، أي: ما مسه. وقال يونس: تقول العرب هذا جمل ما طمثه حبل قط، أي: ما مسه. وقال الفراء: الطمث الافتضاض وهو النكاح بالتدمية، والطمث هو الدم، وفيه لغتان: طَمَثَ يَطْمِثْ ويُطْمَثْ. قال الليث: طمثت الجارية إذا افترعتها، والطامث في لغتهم هي الحائض. قال أبو الهيثم: يقال للمرأة: طمثت تطمث إذا أدميت بالافتضاض، وطمثت على فعلت تطمث إذا حاضت أول ما تحيض فهي طامث. وقال في قول الفرزدق:

خرجن اللائي لم يطمثهن قبلي وهن أصح من بيض النعام

أي: لم يمسسن.

قال المفسرون: لم يطأهن ولم يغشهن ولم يجامعهن، هذه ألفاظهم. وهم مختلفون في هؤلاء فبعضهم يقول: هن اللواتي أنشئن في الجنة من حورها، وبعضهم يقول: يعني: نساء الدنيا أنشئن خلقاً آخر أبكاراً كما وصفهن.

قال الشعبي: نساء من نساء الدنيا لم يمسسن منذ أنشئن خلقاً. وقال مقاتل: لأنهن خلقن في الجنة. وقال عطاء عن ابن عباس: هن الآدميات اللائي متن أبكاراً. وقال الكلبي: لم يجامعهن في هذا الخلق الذي أنشئن فيه إنس ولا جان.

قلت: ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن، والآية تدل على ذلك.

وقال أبو إسحاق: وفي هذه الآية دليل على أن الجن يغشى كما أن الإنس تغشى ويدل على أنهن الحور اللائي خلقن في الجنة، أنه سبحانه جعلهن مما أعده الله في الجنة لأهلها من الفواكه والثمار والأنهار والملابس وغيرها، ويدل عليه أيضاً الآية التي بعدها وهي قوله تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٢]. ثم قال: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ [الرحمٰن: ٧٤].

والضمير في قوله: ﴿قَبْلَهُمْ﴾ للمعنيين بقوله: متكئين وهم أزواج هؤلاء النسوة.

وقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قال الحسن وعامة المفسرين: أراد صفاء الياقوت في بياض المرجان، شبههن في صفاء اللون وبياضه بالياقوت والمرجان ويدل عليه ما قاله عبد الله: أن المرأة من نساء أهل الجنة لتلبس عليها سبعين حلة من حرير فيرى بياض ساقيها من ورائهن، ذلك بأن الله يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، ألا وإن الياقوت حجر لو جعلت فيه سلكاً ثم استصفيته نظرت إلى السلك من وراء الحجر[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢].

قال تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾. فذكرهما ثم قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾.

فهذه أربع قد اختلف في قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ هل المراد به أنهما فوقهما أو تحتهما؟ على قولين:

فقالت طائفة: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: أقرب منهما إلى العرش فيكونان فوقهما.

وقالت طائفة: بل معنى من دونهما: تحتهما. قالوا: وهذا المنقول في لغة العرب إذ قالوا: هذا دون هذا، أي: دونه في المنزلة. كما قال بعضهم لمن بالغ في مدحه: أنا دون ما تقول فوق ما في نفسك. وفي الصحاح دون نقيض فوق وهو تقصير عن الغاية، ثم قال: ويقال: هذا دون هذا أي أقرب منه.

---

(١) حادي الأرواح (١٨٠ ـ ١٨٢).

والسياق يدل على تفضيل الجنتين الأوليين من عشرة أوجه:

أحدها: قوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٤٨] وفيه قولان: **أحدهما**: أنه جمع فنن وهو الغصن. **والثاني**: أنه جمع فن وهو الصنف، أي: ذواتا أصناف شتى من الفواكه وغيرها ولم يذكر ذلك في اللتين بعدهما.

الثاني: قوله: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٠]. وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٦].

والنضاخة: هي الفوارة والجارية السارحة وهي أحسن من الفوارة فإنها تتضمن الفوران والجريان.

الثالث: أنه قال: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ [الرحمٰن: ٥٢]، وفي الأخريين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [الرحمٰن: ٦٨]. ولا ريب أن وصف الأولين أكمل واختلف في هذين الزوجين بعد الاتفاق على أنهما صنفان، فقالت طائفة: الزوجان الرطب واليابس الذي لا يقصر في فضله وجودته عن الرطب وهو يتمتع به كما يتمتع باليابس وفيه نظر لا يخفى، وقالت طائفة: الزوجان صنف معروف وصنف من شكله غريب، وقالت طائفة: نوعان ولم تزد.

الظاهر والله أعلم: أنه الحلو والحامض والأبيض والأحمر؛ وذلك لأن اختلاف أصناف الفاكهة أعجب وأشهى وألذ للعين والفم.

الرابع: أنه قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤].

وهذا تنبيه على فضل الظهائر وخطرها، وفي الأخريين قال: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٧٦]. وفسر الرفرف بالمحابس والبسط، وفسر بالفرش، وفسر بالمحابس فوقها وعلى كل قول فلم يصفه بما وصف به فرش الجنتين الأوليين.

الخامس: أنه قال: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٥٤] أي: قريب وسهل يتناولونه كيف شاؤوا ولم يذكر ذلك في الأخريين.

السادس: أنه قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ [الرحمٰن: ٥٦] أي: قد قصرن طرفهن على أزواجهن فلا يرون غيرهم لرضاهن بهم ومحبتهن لهم، وذلك يتضمن قصر أطراف أزواجهن عليهن فلا يدعهم حسنهن أن ينظروا إلى غيرهن، وقال في الأخريين: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٢] ومن قصرت طرفها على زوجها باختيارها أكمل ممن قصرت بغيرها.

السابع: أنه وصفهن بشبه الياقوت والمرجان في صفاء اللون وإشراقه وحسنه ولم يذكر ذلك في التي بعدها.

الثامن: أنه قال سبحانه في الجنتين الأوليين: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمٰن: ٦٠]. وهذا يقتضي أن أصحابهما من أهل الإحسان المطلق الكامل فكان جزاؤهم بإحسان كامل.

التاسع: أنه بدأ بوصف الجنتين الأوليين، وجعلهما جزاءً لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين.

العاشر: أنه قال: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمٰن: ٦٢] . والسياق يدل على أنه نقيض فوق، كما قال الجوهري، فإن قيل: فكيف انقسمت هذه الجنان الأربع على من خاف مقام ربه؟ قيل: لما كان الخائفون نوعين كما ذكرنا كان للمقربين منهم الجنتان العاليتان، ولأصحاب اليمين الجنتان اللتان دونهما

فإن قيل: فهل الجنتان لمجموع الخائفين يشتركون فيهما أم لكل واحد جنتان وهما البستانان؟

قيل: هذا فيه قولان للمفسرين، ورجح القول الثاني بوجهين:

أحدهما: من جهة النقل.

والثاني: من جهة المعنى، فأما الذي من جهة النقل فإن أصحاب هذا القول رووا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هما بستانان في رياض الجنة»(١). وأما الذي من جهة المعنى فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر، والثانية: جزاء اجتناب المحارم.

فإن قيل: فكيف قال في ذكر النساء: ﴿فِيهِنَّ﴾ في الموضعين ولما ذكر غيرهن قال: ﴿فِيهِمَا﴾؟ قيل: لما ذكر الفرش قال بعدها: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧٠] ، ثم أعاده في الجنتين الأخريين بهذا اللفظ، ليتشاكل اللفظ والمعنى... والله أعلم(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمٰن: ٧٠].

فالخيرات جمع خيرة وهي مخففة من خيرة كسيدة ولينة، وحسان: جمع حسنة فهن خيرات الصفات والأخلاق والشيم، حسان الوجوه.

---

(١) لم أقف عليه إلا عند القرطبي ذكره عن المهدوي والثعلبي (٧/ ٦٣٤٧).
(٢) حادي الأرواح (٩١، ٩٢).

قال وكيع: حدثنا سفيان عن جابر عن القاسم عن أبي بزة عن أبي عبيدة عن مسروق عن عبد الله قال: لكل مسلم خيرة، ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك[١].

* * *

قول تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢].

المقصورات المحبوسات. قال أبو عبيدة: خدرن في الخيام وكذلك قال: وفيه معنى آخر، وهو أن يكون المراد أنهن محبوسات على أزواجهن، لا يرون غيرهم وهم في الخيام، وهذا معنى قول من قال: قصرن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، ولا يطمحن إلى من سواهم وذكره الفراء.

قلت: وهذا معنى ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ لكن أولئك قاصرات بأنفسهن وهؤلاء مقصورات، وقوله: ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ على هذا القول: صفة لحور، أي: هن في الخيام، وليس معمولاً للمقصورات وكأن أرباب هذا القول فسروا بأن يكن محبوسات في الخيام لا يفارقنها إلى الغرف والبساتين.

وأصحاب القول الأول يجيبون عن هذا: بأن الله سبحانه وصفهن بصفات النساء المخدرات والمصونات، وذلك أجمل في الوصف ولا يلزم من ذلك أنهن لا يفارقن الخيام إلى الغرف والبساتين، كما أن نساء الملوك ودونهم من النساء المخدرات المصونات لا يمنعن أن يخرجن في سفر وغيره إلى منتزه وبستان ونحوه، فوصفهن اللازم لهن القصر في البيت ويعرض لهن مع الخدم الخروج إلى البساتين ونحوها.

وأما مجاهد فقال: مقصورات قلوبهن على أزواجهن في خيام اللؤلؤ، وقد تقدم وصف النسوة الأول بكونهن قاصرات الطرف، وهؤلاء بكونهن مقصورات، والوصفان لكلا النوعين فإنهما صفتا كمال، فتلك الصفة قصر الطرف عن طموحه إلى غير الأزواج، وهذه الصفة قصر الرجل على التبرج والبروز والظهور للرجال[٢].

* * *

(١) حادي الأرواح (١٨٣).

(٢) حادي الأرواح (١٨٢، ١٨٣).

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٧٦].

وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ [الغاشية: ١٣ ـ ١٦].

وذكر هشام عن أبي بشر عن سعيد بن جبير قال: (الرفرف) رياض الجنة و(العبقري) عتاق الزرابي. وذكر إسماعيل بن علية عن أبي رجاء عن الحسن في قوله تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾، قال: هي البسط، قال: وأهل المدينة يقولون: هي البسط، وأما النمارق فقال الواحدي: هي الوسائد في قول الجميع واحدها: نمرقة بضم النون، وحكى الفراء نمرقة بكسرها، وأنشد أبو عبيدة:

إذا ما بساط اللهو مد وقربت   للذاته أنماطه ونمارقه

قال الكلبي: وسائد مصفوفة بعضها إلى بعض. وقال مقاتل: هو الوسائد مصفوفة على الطنافس، وزرابي: بمعنى: البسط والطنافس واحدها زربية، في قول جميع أهل اللغة والتعبير، ومبثوثة: مبسوطة منشورة.

□ □ □

وأما الرفرف فقال الليث: ضرب من الثياب خضر تبسط، الواحد: رفرفة، وقال أبو عبيدة: الرفارف البسط وأنشد لابن مقبل:

وإنا لنَزَّالون تغشى نعالنا   سواقط من أصناف ريط ورفرف

وقال أبو إسحاق: قالوا: الرفرف هاهنا رياض الجنة، وقالوا: الرفرف الوسائد، وقالوا: الرفرف المحابس، وقالوا: فضول المحابس للفرش، وقال المبرد: هو فضول الثياب التي تتخذ الملوك في الفرش وغيره.

قال الواحدي: وكأن الأقرب هذا؛ لأن العرب تسمي كسر الخباء والخرقة التي تخاط في أسفل الخباء: رفرفاً، ومنه الحديث في وفاة النبي ﷺ: «فرفع الرفرف فرأينا وجهه كأنه ورقة»(١).

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ، وذكره ابن الأثير في النهاية (٢/ ٢٤٢)، ولكن عند البخاري من حديث أنس بن مالك ﷺ: «.. حتى إذا كان يوم الاثنين وهم صفوف في الصلاة فكشف النبي ﷺ ستر الحجرة ينظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف..»، فتح الباري (٢/ ١٩٣) في الأذان، باب: أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ومسلم (٢/ ٦٤) في الصلاة، باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر، وابن ماجه (الصحيح) (١/ ٢٧١) في الجنائز، =

قال ابن الأعرابي: الرفرف هاهنا طرف البساط فشبه ما فضل من المحابس عما تحته بطرف الفسطاط فسمي رفرفاً.

قلت: أصل هذه الكلمة من الطرف أو الجانب فمنه الرفرف في الحائط ومنه الرفرف وهو كسر الخباء وجوانب الدرع وما تدلى منها، الواحدة رفرفة، ومنه رفرف الطير إذا حرك جناحه حول الشيء يريد أن يقع عليه، والرفرف ثياب خضر يتخذ منها المحابس، والواحدة رفرفة، وكل ما فضل من شيء فشيء وعطف فهو رفرف، وفي حديث ابن مسعود في قوله ﷻ: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٨]، قال: رأى رفرفاً أخضر سد الأفق[1] وهو في الصحيحين[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٨].

وأصح القولين في ذلك: أن الجلال هو التعظيم، والإكرام هو الحب وهو سر قول العبد: لا إلٰه إلا الله، والله أكبر، وهذا في مسند الإمام أحمد من حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «ألظوا بيا ذا الجلال والإكرام»[3]، أي: الزموها والهجوا بها[4].

* * *

= باب: ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ، وعند الإمام أحمد (٣/ ١١٠ و١٦٣)، ومعنى: «كأنه ورقة مصحف» أي: شدة بياض وجهه وصفائه صلوات الله وسلامه عليه، والله أعلم.

(١) رواه البخاري، (٣٢٣٣).

(٢) حادي الأرواح (١٧٠، ١٧١).

(٣) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ١٧٧) والترمذي (٣٥٢٥).

(٤) جلاء الأفهام (١٠٢، ١٠٣).

سُوْرَةُ الوَاقِعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١١].

ذكر الله ـ تعالى ـ أصناف بني آدم، سعيدهم وشقيهم، قسم سعيدهم إلى قسمين: سابقين وأصحاب يمين فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾.

اختلف في تقريرها على ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه من باب التوكيد اللفظي ويكون الخبر قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾.

والثاني: أن يكون ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الأول مبتدأ، والثاني: خبر له على حد قولك: زيد زيد، أي: زيد الذي سمعت به هو زيد.

قال ابن عطية: وهذا قول سيبويه.

والثالث: أن يكون الأول غير الثاني، ويكون المعنى: السابقون في الدنيا إلى الخيرات هم السابقون يوم القيامة إلى الجنات، والسابقون إلى الإيمان هم السابقون إلى الجنان، وهذا أظهر والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٖ مَّوۡضُونَةٖ ۝١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيۡهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ١٦].

فأخبر تعالى عن سررهم بأنها موضونة، والوضن في اللغة: النضيد والنسيج المضاعف يقال: وضن فلان الحجر والآجر بعضه فوق بعض فهو موضون، وقال الليث: الوضن: نسج السرير وأشباهه، ويقال: درع موضونة مقارنة النسج، وقال رجل من العرب لامرأته: ضني متاع البيت، أي: قاربي بعضه من بعضه.

قال أبو عبيدة والفراء والمبرد وابن قتيبة(٢): موضونة منسوجة مضاعفة متداخلة

---

(١) حادي الأرواح (٨٥).

(٢) انظر: غريب القرآن لابن قتيبة (٤٤٦) سورة الواقعة.

بعضها على بعض كما توضن حلق الدرع ومنه سمي الوضين وهو نطاق من سيور تنسج فيدخل بعضها على بعض، وأنشدوا للأعشى:

ومن نسج داود موضونة تساق مع الوحي عيراً فعيرا

قالوا: موضونة: منسوجة بقضبان الذهب مشتبكة بالدر والياقوت والزبرجد. قال هشيم: أنبأنا حصين عن مجاهد عن ابن عباس قال: مرمولة بالذهب. وقال مجاهد: موصولة بالذهب. وقال علي بن طلحة عن ابن عباس: موضونة: مصفوفة. قال عطاء عن ابن عباس قال: سرر من ذهب مكللة بالزبرجد والدر والياقوت والسرير مثل ما بين مكة وأيلة.

وقال الكلبي: طول السرير في السماء مائة ذراع فإذا أراد الرجل أن يجلس عليه تواضع له حتى يجلس عليه فإذا جلس ارتفع إلى مكانه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [**الواقعة: ٢٥، ٢٦**].

وهذا فيه نفي لسماع اللغو والتأثيم وإثبات لضده وهو السلام المنافي لهما فالمقصود به نفي شيء وإثبات ضده.

وعلى هذا فلا حاجة إلى تكلف دخوله تحت المستثنى منه؛ لأنه يتضمن زوال هذه الفائدة من الكلام، ومن رده إلى الأول. قال: لما نفى عنهم سماع اللغو والتأثيم وهما مما يقال فكأن النفس تشوفت إلى أنه هل يسمع فيها شيء غيره؟ فقال: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ فعاد المعنى إلى لا يسمعون فيها شيئاً ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾.

وأنت إذا تأملت هذين التقديرين رأيت الأول أصوب فإنه نفى سماع شيء وأثبت ضده، وعلى الثاني نفى سماع كل شيء إلا السلام وليس المعنى عليه فإنهم يسمعون السلام وغيره، فتأمله[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [**الواقعة: ٢٧ ـ ٣٠**].

والمخضود: الذي قد خضد شوكه، أي: نزع وقطع فلا شوك فيه، هذا قول ابن

---

(١) حادي الأرواح (١٧٤، ١٧٥).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩، ٧٠).

عباس ومجاهد ومقاتل وقتادة وأبي الأحوص وقسامة بن زهير وجماعة، واحتج هؤلاء بحجتين:

إحداهما: أن الخضد في اللغة القطع وكل رطب قضبته فقد خضدته، وخضدت الشجر إذا قطعت شوكة، فهو خضيد ومخضود ومنه الخضد على مثال الثمر، وهو كل ما قطع من عود رطب خضد بمعنى: مخضود كقبض وسلب، والخضاد شجر رخو لا شوك فيه.

الحجة الثانية: قال ابن أبي داود: حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا محمد بن المبارك حدثنا يحيى بن حمزة، حدثنا ثور بن يزيد، حدثني حبيب بن عبيد عن عتبة ابن عبيد السلمي قال: كنت جالساً مع رسول الله ﷺ فجاء أعرابي فقال: يا رسول الله أسمعك تذكر في الجنة شجرة لا أعلم شجرة أكثر شوكاً منها. يعني: الطلح. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله جعل مكان كل شوكة منها ثمرة مثل خصوة التيس الملبود، فيها سبعون لوناً من الطعام لا يشبه لون الآخر»[١]، الملبود: الذي قد اجتمع شعره بعضه على بعض.

وقال عبد الله بن المبارك: أنبأنا صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله ذكر الله في الجنة شجرة مؤذية، وما كنت أرى في الجنة شجرة تؤذي صاحبها، قال رسول الله ﷺ: «وما هي؟»، قال: السدر فإن له شوكاً مؤذياً، قال: «أليس الله يقول: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ خضد الله شوكة فجعل مكان كل شوكة ثمرة»[٢].

وقالت طائفة: المخضود هو: الموقر حملاً. وأنكر عليهم هذا القول، وقالوا: لا يعرف في اللغة الخضد بمعنى: الحمل، ولم يصب هؤلاء الذين أنكروا هذا القول، بل هو قول صحيح وأربابه ذهبوا إلى أن الله ﷻ لما خضد شوكه وأذهبه

---

(١) حديث صحيح، رواه أبو بكر بن أبي داود برقم (٦٩)، والطبراني في الكبير (١٧/ ١٣٠) برقم، وقال الهيثمي: ورجاله رجال الصحيح، المجمع (١٠/ ٤١٤).

(٢) رواه الإمام ابن المبارك (٧٤، ٧٥) في زيادات الزهد من رواية نعيم بن حماد، ورواه الحاكم بسنده عن سليم بن عامر ـ وهو تابعي ثقة ـ عن أبي أمامة ؓ (٢/ ٤٧٦)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في البعث والنشور، ص(١٨٧)، وذكره ابن كثير من رواية الحافظ أبي بكر أحمد بن سلمان النجاد (٤/ ٣٠٨).

وجعل مكان كل شوكة ثمرة أوقرت بالحمل، والحديثان المذكوران يجمعان القولين وكذلك قول من قال: المخضود الذي لا يعقر اليد، ولا يرد اليد عنه شوك ولا أذى فيه. فسره بلازم المعنى، وهكذا غالب المفسرين يذكرون لازم المعنى المقصود تارة وفرداً من أفراده تارة ومثالاً من أمثلته فيحكيها الجماعون للغث والسمين أقوالاً مختلفة ولا اختلاف بينها.

□ □ □

وأما الطلح فأكثر المفسرين قالوا: إنه شجرة الموز، قال مجاهد: أعجبهم طلح (وَجٍّ)[(١)] وحُسْنه، فقيل لهم: ﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ وهذا قول علي بن أبي طالب وابن عباس وأبي هريرة وأبي سعيد الخدري.

وقالت طائفة أخرى: بل هو شجر عظام طوال وهو شجر البوادي الكثير الشوك عند العرب قال حاديهم:

بشرها دليلها وقالا غداً ترين الطلح والجبالا

ولهذا الشجر رائحة وظل وظليل، وقد نضد بالحمل والثمر مكان الشوك..

والظاهر أن من فسر الطلح المنضود بالموز إنما أراد التمثيل به؛ لحسن نضده وإلا فالطلح في اللغة: هو الشجر العظام من شجرة البوادي، والله أعلم[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ [**الواقعة**: ٣٥ ـ ٣٨].

قال ابن عباس: يريد نساء الآدميات. وقال الكلبي ومقاتل: يعني: نساء أهل الدنيا العجز الشمط يقول تعالى: خلقناهن بعد الكبر والهرم بعد الخلق الأول في الدنيا، ويؤيد هذا التفسير حديث أنس المرفوع: «هن عجائزكم العمش الرمص»[(٣)].

---

(١) وَجٍّ هي الطائف، انظر: معجم البلدان لياقوت (٤/ ٨) و(٥/ ٣٦١).

(٢) حادي الأرواح (١٣٦ ـ ١٣٨).

(٣) رواه الترمذي (٥/ ٣٧٥) في التفسير، باب: سورة الواقعة، وقال: حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث موسى بن عبيد، وهو يزيد بن أبان يضعفان في الحديث. ورواه الطبري (٢٧/ ١٨٥)، والبيهقي في البعث عنهما، ص(٢١٧)، قال صاحب تحفة الأحوذي: (عُمشاً) بضم فسكون جمع عمشاء، من العمش في العين محركة، وهو ضعف الرؤية مع سيلان دمعها في أكثر أوقاتها، (رمصاً): جمع رمصاء، من الرمص، محركة، وهو وسخ أبيض يجتمع في الموق..» (٩/ ١٨٣).

رواه الثوري عن موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي عنه ويؤيده ما رواه يحيى الحماني: حدثنا ابن إدريس عن ليث عن مجاهد عن عائشة: أن رسول الله ﷺ دخل عليها وعندها عجوز فقال: من هذه؟ فقالت: إحدى خالاتي، قال: «أما إنه لا يدخل الجنة العجوز فدخل على العجوز من ذلك ما شاء الله». فقال النبي ﷺ: «﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ خلقاً آخر يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلاً وأول من يكسى إبراهيم خليل الله» ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾[1].

قال آدم بن أبي إياس: حدثنا شيبان عن الزهري عن جابر الجعفي عن يزيد بن مرة عن سلمة بن يزيد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في قوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ قال: «يعني: الثيب والأبكار اللاتي كن في الدنيا»[2].

قال آدم: وحدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة العُجَّز»، فبكت عجوز، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروها أنها يومئذٍ ليست بعجوز، إنها يومئذٍ شابة، إن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾[3].

وقال ابن أبي شيبة حدثنا أحمد بن طارق، حدثنا مسعدة بن اليسع، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن عائشة: أن النبي ﷺ أتته عجوز من الأنصار فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يدخلني الجنة، فقال نبي الله ﷺ: «إن الجنة لا يدخلها عجوز»، فذهب نبي الله ﷺ فصلى ثم رجع إلى عائشة فقالت عائشة: لقد لقيت من كلمتك مشقة وشدة، فقال ﷺ: «إن ذلك كذلك إن الله تعالى إذا أدخلهن الجنة حوَّلهن أبكاراً».

□ □ □

---

(١) رواه البيهقي في البعث والنشور، ص(٢١٦)، وأبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢/ ١٠٧).

(٢) رواه أبو داود الطيالسي رقم (١٣٠٧)، والطبري في تفسيره (٢٧/ ١٨٥)، وابن أبي حاتم، كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٣١١)، والطبراني في الكبير (٧/ ٤٠)، والبيهقي في البعث رقم (٣٤٥)، ص(٢١٧)، كلهم من طريق: جابر الجعفي، عن يزيد بن مرة، عن سلمة بن يزيد.. فذكره. وجابر الجعفي ضعيف، ولم أوفق لمعرفة (يزيد بن مرة) هذا ولم أجد في الرواة في المصادر المشهورة غير (يزيد بن مرة الذراع)، ذكره ابن حبان في الثقات (٩/ ٢٧٤)، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٩/ ٢٩٠)، وقال: (ثقة صدوق)، وقال: (سمع منه أبي).اهـ. وهو قطعاً غير يزيد هنا، وقريب من اسمه «يزيد الهاشمي أبو مرة مولى عقيل ويقال: مولى هانئ، روى عن طائفة من الصحابة»، تهذيب التهذيب (١١/ ٣٧٤)، والله أعلم.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل (مختصر الألباني) رقم (٢٠٥)، وقال الألباني: إسناده ضعيف.

وذكر مقاتل قولاً آخر وهو اختيار الزجاج أنهن الحور العين التي ذكرهن قيل: أنشأهن الله ﷻ لأوليائه لم يقع عليهن ولادة، والظاهر أن المراد أنشأهن الله تعالى في الجنة إنشاء ويدل عليه وجوه:

أحدها: أنه قد قال في حق السابقين: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ١٧ ـ ٢٣] فذكر سررهم وآنيتهم وشرابهم وفاكهتهم وطعامهم وأزواجهم من الحور العين، ثم ذكر أصحاب الميمنة وطعامهم وشرابهم وفرشهم ونساءهم، والظاهر أنهن مثل نساء من قبلهن خلقهن في الجنة.

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ وهذا ظاهر أنه إنشاء أول لا ثان؛ لأنه سبحانه حيث يريد الإنشاء الثاني يقيده بذلك، كقوله: ﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٧].

الثالث: أن الخطاب بقوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ [الواقعة: ٧]، إلى آخره للذكور والإناث والنشأة الثانية أيضاً عامة للنوعين وقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾. ظاهره اختصاصهن بهذا الإنشاء، وتأمل تأكيده بالمصدر والحديث لا يدل على اختصاص العجائز المذكورات بهذا الوصف، بل يدل على مشاركتهن للحور العين في هذه الصفات المذكورة فلا يتوهم انفراد الحور العين عنهن بما ذكر من الصفات بل هي أحق به منهن، فالإنشاء واقع على الصنفين، والله أعلم.

□ □ □

وقوله: ﴿عُرُبًا﴾ جمع عروب وهن المتحببات إلى أزواجهن، قال ابن الأعرابي: العروب من النساء المطيعة لزوجها المتحببة إليه. وقال أبو عبيدة: العروب: الحسنة التبعل. قلت: يريد حسن مواقعتها وملاطفتها لزوجها عند الجماع. وقال المبرد: هي العاشقة لزوجها، وأنشد للبيد:

وفي الحدوج عروب غير فاحشة ريا الروادف يعشى دونها البصر

وذكر المفسرون في تفسير (العُرُب): أنهن العواشق المتحببات الغنجات الشكلات، المتعشقات، الغلمات، المغنوجات، كل ذلك من ألفاظهم، وقال البخاري في صحيحه: عُرُباً مثقلة واحدها عروب ـ مثل صبور وصبرُ ـ تسميها أهل مكة: العَرِبة، وأهل المدينة: الغنجة، وأهل العراق: الشكلة. (والعُرَب): المتحببات إلى أزواجهن. هكذا ذكره في كتاب (بدء الخلق)[١].

(١) فتح الباري (٦/ ٣٦٥) كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة.

قلت: فجمع سبحانه بين حسن صورتها وحسن عشرتها، وهذه غاية ما يطلب من النساء وبه تكمل لذة الرجل بهن[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥٥].

هي الإبل العطاش، قلت: جمع أهيم هيم مثل أحمر وحمر، وهو جمع فعلاء أيضاً كصفراء وصفر[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٥٨ ـ ٦٠].

ذكر مبدأ النشأة وآخرها مستدلاً بها على النشأة الثانية بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠ ـ ٦١]، فإنكم إنما علمتم النشأة الأولى في بطون أمهاتكم ومبدأها مما تُمْنون، ولن نغلب على أن ننشئكم نشأة ثانية فيما لا تعلمون، فإذا أنتم أمثال ما كنتم في الدنيا في صوركم وهيئاتكم، وهذا من كمال قدرة الرب تعالى ومشيئته، لو تذكرتم أحوال النشأة الأولى لدلكم ذلك على قدرة منشئها على النشأة التي كذبتم بها، فأي استدلال وإرشاد أحسن من هذا وأقرب إلى العقل والفهم وأبعد من كل شبهة وشك، وليس بعد هذا البيان والاستدلال إلا الكفر بالله وما جاءت به الرسل والإيمان.

وقال في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]. فهذه النشأة الأولى ثم قال: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨]. فهذه النشأة الأخرى.

ونظير هذا: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧].

وهذا في القرآن كثير جداً يقرن بين النشأتين مذكراً للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى، وبالله التوفيق[٣].

* * *

---

(١) حادي الأرواح (١٨٣ ـ ١٨٥). (٢) روضة المحبين (٥٩).
(٣) التبيان في أقسام القرآن (١٩٩، ٢٠٠).

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣].

تذكرة تذكر بها الآخرة ومنفعة للنازلين بالقواء وهم المسافرون يقال: أقوى الرجل إذا نزل بالقي والقَوَاء وهي الأرض الخالية، وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهاً لعباده، والله أعلم بمراده من كلامه، على أنهم كلهم مسافرون وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥].

ففيها قولان: أحدهما أنها النجوم المعروفة، وعلى هذا ففي مواقعها أقوال:

أحدها: إنه انكدارها وانتشارها يوم القيامة وهذا قول الحسن، والمنجمون يكذبون بهذا ولا يقرون به.

والثاني: مواقعها: منازلها قاله عطاء وقتادة.

والثالث: إنه مغاربها.

والرابع: إنه مواقعها عند طلوعها وغروبها. حكاه ابن عطية عن مجاهد وأبي عبيدة.

والخامس: إن مواقعها: مواضعها من السماء، هذا الذي حكاه ابن الجوزي عن قتادة حكاه ابن عطية عنه فيحتمل أن يكونا واحداً وأن يكونا قولين.

السادس: إن مواقعها: انقضاضها أثر العفريت وقت الرجوم، حكاه ابن عطية أيضاً ولم يذكر أبو الفرج ابن الجوزي سوى الثلاثة الأول.

والقول الثاني: إن مواقع النجوم هي منازل القرآن ونجومه التي نزلت على النبي ﷺ في مدة ثلاث وعشرين سنة. قال ابن عطية: ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧، ٧٨]، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل.

ومن لا يتأول هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم ذكره لشهرة الأمر ووضوح المعنى كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]: و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمٰن: ٢٦] وغير ذلك.

---

(١) طرق الهجرتين (١٣١، ١٣٢).

قلت: ويؤيد القول الأول أنه أعاد الضمير بلفظ الإفراد والتذكير ومواقع النجوم جمع، فلو كان الضمير عائداً عليها لقال: إنها لقرآن كريم، إلا أن يقال: مواقع النجوم دل على القرآن فأعاد الضمير عليه؛ لأن مفسر الضمير يكتفي فيه بذلك وهو من أنواع البلاغة والإيجاز.

فإن كان المراد من القسم نجوم القرآن بطل استدلاله بالآية، وإن كان المراد الكواكب ـ وهو قول الأكثرين ـ فلما فيها من الآيات الدالة على ربوبية الله تعالى وانفراده بالخلق والإبداع فإنه لا ينبغي أن تكون الإلٰهية إلا له وحده، كما أنه وحده المنفرد بخلقها وإبداعها، وما تضمنته من الآيات والعجائب، فالإقسام بها أوضح دليل على تكذيب المشركين والمنجمين والدهرية(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٠].

ذكر سبحانه هذا القسم عقيب ذكر القيامة الكبرى وأقسام الخلق فيها، ثم ذكر الأدلة القاطعة على قدرته وعلى المعاد بالنشأة الأولى وإخراج النبات من الأرض، وإنزال الماء من السماء، وخلق النار، ثم ذكر بعد ذلك أحوال الناس في القيامة الصغرى عند مفارقة الروح للبدن، وأقسم بمواقع النجوم على ثبوت القرآن وأنه تنزيله وقد اختلف في النجوم التي أقسم بمواقعها فقيل: هي آيات القرآن، ومواقعها: نزولها شيئاً بعد شيء.

وقيل: النجوم هي الكواكب، ومواقعها مساقطها عند غروبها.

وعلى هذا فتكون المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه وهو القرآن من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدي بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٥٣٥، ٥٣٦).

والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول.

ومن قرأ (بموقع النجوم) على الإفراد، فلدلالة الواحد المضاف إلى الجمع على التعدد، والموقع اسم جنس، والمصادر إذا اختلفت جمعت، وإذا كان النوع واحداً أفردت، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. فجمع الأصوات لتعدد النوع؛ وأفرد صوت الحمير لوحدته؛ فإفراد موقع النجوم لوحدة المضاف إليه؛ وتعدد الموقع لتعدده، إذ لكل نجم موقع.

□ □ □

والمقسم عليه هاهنا قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾.

ووقع الاعتراض بين القسم وجوابه بقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ووقع الاعتراض بين الصفة والموصوف في جملة هذا الاعتراض بقوله تعالى: ﴿لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، ألطف شيء وأحسنه موقعاً.

وأحسن ما يقع هذا الاعتراض إذا تضمن تأكيداً أو تنبيهاً أو احترازاً، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأعراف: ٤٢]. فاعترض بين المبتدأ والخبر بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾ [الأنعام: ١٥٢]. لما تضمنه ذلك من الاحتراز الدافع لتوهم متوهم أن الوعد إنما يستحقه من أتى بجميع الصالحات، فرفع ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ﴾.

ومن ألطف الاعتراض وأحسنه قوله تعالى: ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]. فاعترض بقوله: (سبحانه) بين الجملتين.

وفوائد الاعتراض تختلف بحسب قصد المتكلم وسياق الكلام، من قصد الاعتناء والتقدير والتوكيد، وتعظيم المقسم به والمخبر عنه، ورفع توهم خلاف المراد، والجواب عن سؤال مقدر وغير ذلك.

□ □ □

ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ فوصفه بما يقتضي حسنه، وكثرة خيره، ومنافعه، وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم النفع، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وصف نفسه بالكرم ووصف به كلامه، ووصف به عرشه

ووصف به ما كثر خيره وحسن منظره من النبات وغيره؛ ولذلك فسر السلف الكريم بالحسن.

قال الكلبي: إنه لقرآن كريم، أي: حسن كريم على الله، وقال مقاتل: كرّمه الله وأعزه؛ لأنه كلامه. وقال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله كريم جميل الفعال، وإنه لقرآن كريم يحمد؛ لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

وبالجملة فالكريم الذي من شأنه أن يعطي الخير الكثير بسهولة ويسر، وضده اللئيم الذي لا يخرج خيره النزر إلا بعسر وصعوبة، وكذلك الكريم في الناس واللئيم.



ثم قال تعالى: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ اختلف المفسرون في هذا فقيل: هو اللوح المحفوظ. والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦]، ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾، فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه، وهذا هو الصحيح في معنى الآية، ومن المفسرين من قال: إن المراد به أن المصحف لا يمسه إلا طاهر.

والأول أرجح لوجوه:

أحدها: أن الآية سيقت تنزيهاً للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، فيستحيل على أخابث خلق الله وأنجسهم أن يصلوا إليه أو يمسوه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى الفعل وتأتيه منهم وقدرتهم عليه، فما فعلوا ذلك ولا يليق بهم، ولا يقدرون عليه، فإن الفعل قد ينتفي عمن يحسن منه، وقد يليق بمن لا يقدر عليه، فنفى عنهم الأمور الثلاثة، وكذلك قوله في سورة عبس: ﴿فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ﴾. فوصف محله بهذه الصفات بياناً أن الشيطان لا يمكنه أن يتنزل به، وتقرير هذا المعنى أهم وأجل وأنفع من بيان كون المصحف لا يمسه إلا طاهر.

الوجه الثاني: أن السورة مكية، والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين، من تقرير التوحيد والمعاد والنبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنته السور المدنية.

الثالث: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع في المصحف في خلافة أبي بكر، وهذا وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه:

الوجه الرابع: وهو قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ والمكنون المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيۡضٌ مَّكۡنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩]. وهكذا قال السلف قال الكلبي: مكنون من الشياطين. وقال مقاتل: مستور. وقال مجاهد: لا يصيبه تراب ولا غبار. وقال أبو إسحاق: مصون في السماء يوضحه:

الوجه الخامس: أن وصفه بكونه مكنوناً نظير وصفه بكونه محفوظاً فقوله: ﴿لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ كقوله: ﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوۡحٍ مَّحۡفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يوضحه:

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن، من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ بالرفع فهذا خبر لفظاً ومعنى، ولو كان نهياً لكان مفتوحاً، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره إلى معنى النهي، والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته، وليس هاهنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ ولم يقل: إلا المتطهرون، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»[1]، فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

الوجه التاسع: أنه لو أريد به المصحف الذي بأيدينا لم يكن في الإخبار عن كونه مكنوناً كبير فائدة، إذ مجرد كون الكلام مكنوناً في كتاب، لا يستلزم ثبوته، فكيف يمدح القرآن بكونه مكنوناً في كتاب، وهذا أمر مشترك؛ والآية إنما سيقت

---

(١) رواه الترمذي (١/ ٧٧) في الطهارة، باب: ما بعد الوضوء، وقال: (في إسناده اضطراب..) وصححه الألباني، انظر: الإرواء (١/ ١٣٤).

لبيان مدحه وتشريفه، وما اختص به من الخصائص، التي تدل على أنه منزل من عند الله، وأنه محفوظ مصون، لا يصل إليه شيطان بوجه ما، ولا يمس محله إلا المطهرون، وهم السفرة الكرام البررة.

الوجه العاشر: ما رواه سعيد بن منصور في سننه: حدثنا أبو الأحوص، حدثنا عاصم الأحول عن أنس بن مالك في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: المطهرون الملائكة(١)، وهذا عند طائفة من أهل الحديث في حكم المرفوع، قال الحاكم: تفسير الصحابة عندنا في حكم المرفوع، ومن لم يجعله مرفوعاً فلا ريب أنه عنده أصح من تفسيره من بعد الصحابة. والصحابة أعلم الأمة بتفسير القرآن، ويجب الرجوع إلى تفسيرهم. وقال حرب في مسائله: سمعت إسحاق في قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ قال: النسخة التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، قال الملائكة.

وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر(٢)، والحديث مشتق من هذه الآية، وقوله: «لا تمس القرآن إلا وأنت طاهر»، رواه أهل السنن من حديث الزهري عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده: أن في الكتاب الذي كتبه النبي ﷺ إلى أهل اليمن في السنن، والفرائض، والديات: «أن لا يمس القرآن إلا طاهر»، قال أحمد: أرجو أن يكون صحيحاً(٣)، وقال أيضاً: لا أشك أن رسول الله ﷺ كتبه. وقال أبو عمر بن عبد البر: هو كتاب مشهور عند أهل السير، معروف عند أهل العلم، معرفة يستغنى بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه؛ لتلقي

---

(١) ذكره في الدر المنثور (٨/ ٢٦).

(٢) قال شيخ الإسلام ﷺ في الفتاوى الكبرى (١/ ٥٦): «مذهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس المصحف إلا طاهر..».اهـ. ثم ذكر حديث عمرو بن حزم، وغيره، وهذا هو الأقرب والأليق لمقام القرآن، والله أعلم.

(٣) رواه مالك في موطئه (١/ ١٩٩)، وعبد الرزاق في مصنفه (١/ ٣٤١) رقم (١٣٢٨)، وأبو داود في مراسيله (١٢١)، والحاكم (١/ ٣٩٥)، وصححه ووافقه الذهبي، وروي عن غير عمرو بن حزم، انظر: تخريجه مفصلاً في الإزواء للشيخ الجليل الألباني (١/ ١٥٨)، وتعليق محقق المراسيل لأبي داود، الأستاذ شعيب الأرناؤوط.

الناس له بالقبول والمعرفة، ثم قال: وهو كتاب معروف عند العلماء وما فيه فمتفق عليه إلا قليلاً، وقد رواه ابن حبان في صحيحه[(١)]، ومالك في موطئه وفي المسألة آثار أخر مذكورة في غير هذا الموضع.

□ □ □

ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي، قال البخاري في صحيحه في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به[(٢)]. وهذا أيضاً من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به وبقراءته وفهمه وتدبره إلا من شهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً.

ولا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه، فمن لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج، ومن لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته، ففي قلبه منه حرج، ومن قال: إن له باطناً يخالف ظاهره، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه، ففي قلبه منه حرج، ومن قال: إنه له تأويلاً لا نفهمه ولا نعلمه، وإنما نتلوه متعبدين بألفاظه، ففي قلبه منه حرج، ومن سلط عليه آراء الآرائيين وهذيان المتكلمين، وسفسطة المسفسطين، وخيالات المتصوفين، ففي قلبه منه حرج، ومن جعله تابعاً لنحلته ومذهبه وقول من قلده دينه، ينزله على أقواله، ويتكلف حمله عليها، ففي قلبه منه حرج.

ومن لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد لحكمة أين كان، ففي قلبه منه حرج، ومن لم يأتمر بأوامره، وينزجر عن زواجره، ويصدق جميع أخباره، ويحكم أمره ونهيه وخبره، ويرد له كل أمر ونهي وخبر خالفه، ففي قلبه منه حرج.

وكل هؤلاء لم تمس قلوبهم معانيه، ولا يفهمونه كما ينبغي أن يفهم، ولا يجدون من لذة حلاوته وطعمه ما وجده الصحابة ومن تبعهم.

وأنت إذا تأملت قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وأعطيت الآية حقها من دلالة اللفظ وإيمائه وإشارته وتنبيهه، وقياس الشيء على نظيره، واعتباره بمشاكله،

---

(١) صحيح ابن حبان رقم (٨٩٣).

(٢) صحيح البخاري (١٣/٥١٧) في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ ..﴾ [آل عمران: ٩٣].

وتأملت المشابهة التي عقدها الله سبحانه وربطها بين الظاهر والباطن فهمت هذه المعاني كلها من الآية، وبالله التوفيق.

□ □ □

ثم أكد ذلك وقرره بقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكما أنه لازم لكونه قرآناً كريماً في كتاب مكنون فهو ملزوم له، فهو دليل عليه مدلول له.

وأفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما: أنه المتكلم، وأنه منه نزل، ومنه بدأ وهو الذي تكلم به. ومن هنا قال السلف: منه بدأ. ونظيره ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ [النحل: ١٠٢].

والثاني: علو الله سبحانه فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر، هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، والرب تعالى إنما يخاطب عباده بما تعرفه فطرهم، وتشهد به عقولهم، وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة تملكه لهم، وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته التامة أن يتركهم سدى، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم، ولا يثيبهم ولا يعاقبهم.

فمن أقر بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله، وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة: ٨١].

ثم وبخهم سبحانه على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون بما حقه أن يصدع به، ويفرق به ويعض عليه بالنواجذ، وتثني عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوي عنه لا يَمنة ولا يَسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طريق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به فهو روح الوجود وحياة العالم، ومدار السعادة وقائد الفلاح وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر، فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه ولم ينزل للمداهنة؟ وإنما أنزل بالحق وللحق،

والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا يمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به؟

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

لما كان قوام كل واحد من البدن والقلب إنما هو بالرزق، فرزق البدن الطعام والشراب، ورزق القلب الإيمان والمعرفة بربه وفاطره، ومحبته، والشوق إليه، والأنس بقربه، والابتهاج بذكره، وكأن لا حياة له إلا بذلك، كما أن البدن لا حياة له إلا بالطعام والشراب، أنعم سبحانه على عباده بهذين النوعين من الرزق، وجعل قيام أبدانهم وقلوبهم بهما، ثم فاوت سبحانه بينهم في قسمة هذين الرزقين، بحسب ما اقتضاه علمه وحكمته، فمنهم من وفر حظه من الرزقين، ووسع عليه فيهما، ومنهم من قتر عليه في الرزقين، ومنهم من وسع عليه رزق البدن وقتر عليه رزق القلب، وبالعكس.

وهذا الرزق إنما يتم ويكمل بالشكر والشكر مادة زيادته وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد، فإن الله تعالى تأذن أنه لا بد أن يزيد الشكور من نعمه ولا بد أن يسلبها من لم يشكرها، فلما وضعوا الكفر والتكذيب موضع الشكر والإيمان جعلوا رزقهم نفسه تكذيباً، فإن التصديق والشكر لما كانا سبب زيادة الرزق وهما رزق القلب حقيقة، فهؤلاء جعلوا مكان هذا الرزق التكذيب والكفر فجعلوا رزقهم التكذيب.

وهذا المعنى هو الذي حام حوله من قال: التقدير: وتجعلون شكر رزقكم أنكم تكذبون. وقال آخرون: التقدير وتجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون، فحذف مضافين معاً، وهؤلاء أطالوا اللفظ وقصروا بالمعنى، ومن بعض معنى الآية قوله: مطرنا بنوء كذا وكذا(١)، فهذا لا يصح أن تدل عليه الآية ويراد بها، وإلا فمعناها أوسع منه وأعم وأعلى، والله أعلم.

* * *

(١) رواه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ ـ ٨٧].

ثم ختم السورة بأحوالهم عند القيامة الصغرى، كما ذكر في أولها أحوالهم في القيامة الكبرى، وقسمهم إلى ثلاثة أقسام كما قسمهم هناك إلى ثلاثة، وذكر بين يدي هذا التقسيم الاستدلال على صحته وثبوته، بأنهم مربوبون مدبرون مملوكون، فوقهم رب قاهر مالك يتصرف فيهم بحسب مشيئته وإرادته، وقررهم على ذلك بما لا سبيل لهم إلى دفعه، ولا إنكاره.

فقال: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾.

أي: وصلت الروح إلى هذا الموضع، بحيث فارقت، ولم تفارق، فهي برزخ بين الموت والحياة، كما أنها إذا فارقت صارت في برزخ بين الدنيا والآخرة، ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم، فلولا تردونها إلى مكانها من البدن أيها الحاضرون، إن كان الأمر كما تزعمون أنكم غير مجزيين ولا مدينين، ولا مستوعبين ليوم الحساب.

فإن قيل: أي ارتباط بين هذين الأمرين حتى يلازم بينهما؟

قيل: هذا من أحسن الاستدلال وأبلغه، فإنهم إما أن يقروا بأنم مربوبون مملوكون، عبيد لمالك قادر متصرف فيهم، قاهرٍ آمرٍ، ناهٍ، أو لا يقرون بذلك.

فإن أقروا به لزمهم القيام بحقه عليهم وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يجعلوا له نداً، ولا شريكاً وهذا هو الذي جاءهم به رسوله، ونزل عليه به كتابه.

وإن أنكروا ذلك وقالوا: إنهم ليسوا بعبيد ولا مملوكين ولا مربوبين وإن الأمر إليهم يردون الأرواح إلى مقارها إذا بلغت الحلقوم، فإن المتصرف في نفسه الحاكم على روحه لا يمتنع منه ذلك، بخلاف المحكوم عليه المتصرف فيه غير المدبر له، سواء الذي هو عبد مملوك من جميع الجهات.

وهذا الاستدلال لا محيد عنه ولا مدفع له، ومن أعطاه حقه من التقرير والبيان انتفع به غاية النفع، وانقاد لأجله للعبودية وأذعن، ولم يسعه غير التسليم للربوبية والإلهية ولإقرار بالعبودية، ولله ما أحسن جزالة هذه الألفاظ وفصاحتها وبلوغها أقصى مراتب البلاغة والفصاحة، والاختصار التام، وندائها إلى معناها من أقرب مكان، واشتمالها على التوبيخ والتقرير والإلزام، ودلائل الربوبية والتوحيد، والبعث، وفصل النزاع في معرفة الروح وأنها تصعد، وتنزل، وتنتقل من مكان إلى مكان.

وما أحسن إعادة «لولا» ثانياً قبل ذكر الفعل الذي يقتضيه الأول، وجعل الحرفين يقتضيانه اقتضاء واحداً، وذكر الشرطين بين لولا الأولى والثانية وما تقتضيه من الفعل ثم الموالاة بين الشرط الأول والثاني، مع الفصل بينهما بكلمة واحدة هي الرابط بين لولا الأولى والثانية، والشرط الأول والثاني، وهذا تركيب يستحد العقل والسمع لمعناه ولفظه.

فتضمنت الآيتان تقريراً وتوبيخاً، واستدلالاً على أصول الإيمان: من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء ويردها إليهم إذا شاء، ويخلي أبدانهم منها تارة، ويجمع بينها وبينهما تارة، وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته، وتقرير عبودية الخلق.

وأتى بهذا في صورة تحضيضين، وتوبيخين، وتقريرين، وجوابين، وشرطين، وجزاءين، منتظمة أحسن الانتظام، ومتداخلة أحسن التداخل متعلقاً بعضها ببعض، وهذا كلام لا يقدر البشر على مثل نظمه ومعناه، قال الفراء: وأجيبت ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ﴾ و﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ بجواب واحد وهو: ﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال الجرجاني: قوله ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾ جواب قوله: ﴿فَلَوْلَآ﴾ المتقدمة والمتأخرة، على تأويل فلولا إذا بلغت النفس الحلقوم تردونها إلى موضعها، إن كنتم غير محاسبين ولا مجزيين، كما تزعمون.

يقول تعالى: إن كان الأمر كما تزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا جزاء، ولا إله، ولا رب يقوم بذلك، فهلَّا تردون نفس من يعز عليكم إذا بلغت الحلقوم؟ فإذا لم يمكنكم في ذلك حيلة بوجه من الوجوه، فهل دلكم ذلك على أن الأمر إلى مليك قادر قاهر، متصرف فيكم وهو الله الذي لا إله إلا هو؟ وقال أبو إسحاق: معناه: فهلا ترجعون الروح، إن كنتم غير مملوكين مدبرين؟ فهلَّا إن كان الأمر كما تزعمون في كما يقول قائلكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٦٨]، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٦]. أي: إن كنتم تقدرون أن تؤخروا أجلاً فهلَّا ترجعون الروح إذا بلغت الحلقوم؟ وهلا تردون عن أنفسكم الموت؟

قلت: وكأن هذا يلتفت إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٠، ٥١]. أي: إن كنتم كما تزعمون لا تبعثون

بعد الموت خلقاً جديداً، فكونوا خلقاً لا يفنى ولا يبلى، إما من حجارة أو من حديد أو أكبر من ذلك.

ووجه الملازمة ما تقدم ذكره، وهو إما أن تقروا بأن لكم رباً متصرفاً فيكم، ومالكاً لكم، تنفذ فيكم مشيئته وقدرته، يميتكم إذا شاء، ويحييكم إذا شاء، فكيف تنكرون قدرته على إعادتكم خلقاً جديداً بعد ما أماتكم، وإما أن تنكروا أن يكون لكم رب قادر قاهر مالك، نافذ المشيئة فيكم، والقدرة فيكم، فكونوا خلقاً لا يقبل الفناء والموت، فإذا لم تستطيعوا أن تكونوا كذلك فما تنكرون من قدرة من جعلكم خلقاً يموت ويحيا، أن يحييكم بعدما أماتكم؟ فهذا استدلال يعجزهم عن كونهم خلقاً لا يموت، والذي في الواقعة استدلال يعجزهم عن رد الروح إلى مكانها إذا قاربت الموت، وليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٨٨ ـ ٩٦].

فلما قام الدليل، ووضح السبيل، وتم البرهان على أنهم مملوكون مربوبون، مجزيون محاسبون، ذكر طبقاتهم عند الحشر الأول، والقيامة الصغرى، وهي ثلاث طبقات: طبقة المقربين، وطبقة أصحاب اليمين، وطبقة المكذبين.

فجعل تحية المقربين عند الوفاة الروح والريحان والجنة، وهذه الكرامات الثلاث التي يعطونها بعد الموت نظير الثلاث التي يعطونها يوم القيامة، فالروح الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها؛ وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان الرزق؛ وهو الأكل والشرب، والجنة المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ، وفي المعاد الثاني.

ثم ذكر الطبقة الثانية، وهي طبقة أصحاب اليمين، ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين، فقال: ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

والسلام مصدر من سلم، أي: فلك السلامة، والخطاب له نفسه، أي: يقال

لك: السلامة، كما يقال للقادم: لك الهناء، ولك السلامة، ولك البشرى، ونحو ذلك من الألفاظ، كما يقولون: خير مقدم، ونحو ذلك فهذه تحية عند اللقاء.

قال مقاتل: يسلم الله لهم أمرهم، ويتجاوز عن سيئاتهم ويتقبل حسناتهم. وقال الكلبي: يسلم عليه أهل الجنة، ويقولون: السلامة لك، وعلى هذا فقوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: هذه التحية حاصلة لك من إخوانك أصحاب اليمين، فإنه إذا قدم عليهم حيوه بهذه التحية، وقالوا: السلامة لك، وفي الآية أقوال أخر، فيها تكلف وتعسف، فلا حاجة إلى ذكرها.

ثم ذكر الطبقة الثالثة، وهي طبقة الضال في نفسه المكذب لأهل الحق، وإن له عند الموافاة نزل الحميم، وسكنى الجحيم، ثم أكد هذا الجزاء بما جعله كأنه رأي العين لمن آمن بالله ورسوله فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾. فرفع شأنه عن درجة الظن والعلم إلى اليقين، وعن درجة اليقين إلى حقه.

ثم أمره أن ينزه اسمه تبارك وتعالى عما لا يليق به، وتنزيه الاسم متضمن لتنزيه المسمى عما يقوله الكاذبون والجاحدون[١].



(١) التبيان في أقسام القرآن (٢١٩ ـ ٢٤٢).

سُورَةُ الحَدِيدِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣].

قال ابن عباس لأبي زميل سماك بن الوليد الحنفي وقد سأله: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به.

قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قلت: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله ﷻ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]. قال: فقال لي: فإذا وجدت في نفسك شيئاً، فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾.

فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق، وغني عن غيره وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه وكل شيء قائم به، موجود بذاته وكل شيء موجود به، قديم لا أول له وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باق لذاته، وبقاء كل شيء به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١١].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٤٦١، ٤٦٢).

فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً؛ حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل؛ لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليءٌ وفيٌّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن عين ماله يعود إليه ولا بد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح، أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه؛ ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها.

وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية، فإنه سماه قرضاً وأخبر أنه هو المقترض لا قرض حاجة ولكن قرض إحسان إلى المقرض واستدعاء لمعاملته؛ وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم.

وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً وذلك يجمع أموراً ثلاثة:

أحدها: أن يكون من طيب ماله لا من رديئه وخبيثه.

الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله.

الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي.

فالأول يتعلق بالمال والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله والثالث بينه وبين الآخذ[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [**الحديد**: ١٣، ١٤].

---

(١) طريق الهجرتين (٣٣٨، ٣٣٩).

وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، نعوذ بالله من غضبه وعقابه؛ وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفراً وأخبث قلوباً، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن كان البعداء متصدين لحرب المسلمين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦].

لما كان الإيمان موجباً للخشوع وداعياً إليه، دعاهم من مقام الإيمان إلى مقام الإحسان، يعني: أما آن لهم أن يصلوا إلى الإحسان بالإيمان؟ وتحقيق ذلك بخشوعهم لذكره الذي أنزله إليهم؟(٢).

قال ابن مسعود ﷺ: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين.

والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون.

والخشوع قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل والجمعية عليه(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ﴾ [الحديد: ١٩].

قيل: إن الوقف على قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ﴾، ثم يبتدئ ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ فيكون الكلام جملتين:

أخبر في إحداهما عن المؤمنين بالله ورسله أنهم هم الصديقون، والإيمان التام يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه.

---

(١) طريق الهجرتين (٣٧٥).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٥٠٩).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٥٢٠).

وأخبر في الثانية أن الشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء؛ ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين، هنا وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: «اثبت أُحد فإنما عليك نبي وصدّيق وشهيد»؛ ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق؛ ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه.

وقيل: إن الكلام كله جملة واحدة وأخبر عن المؤمنين بأنهم الصديقون والشهداء عند ربهم، وعلى هذا فالشهداء هم الذي يستشهدهم الله على الناس يوم القيامة وهو قوله تعالى: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهم المؤمنون، فوصفهم بأنهم صديقون في الدنيا وشهداء على الناس يوم القيامة، ويكون الشهداء وصفاً لجملة المؤمنين الصديقين.

وقيل: الشهداء هم الذين قتلوا في سبيل الله، وعلى هذا القول يترجح أن يكون الكلام جملتين، ويكون قوله: ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ مبتدأ خبره ما بعده؛ لأنه ليس كل مؤمن صديق شهيداً في سبيل الله، ويرجحه أيضاً أنه لو كان الشهداء داخلاً في جملة الخبر لكان قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ داخلاً أيضاً في جملة الخبر عنهم، ويكون قد أخبر عنهم بثلاثة أشياء:

أحدها: أنهم هم الصديقون.

والثاني: أنهم هم الشهداء.

والثالث: أن لهم أجرهم ونورهم.

وذلك يتضمن عطف الخبر الثاني على الأول ثم ذكر الخبر الثالث مجرداً عن العطف، وهذا كما تقول: (زيد كريم وعالم له مال)، والأحسن في هذا تناسب الأخبار بأن تجردها كلها من العطف أو تعطفها جميعاً فتقول: زيد كريم عالم له مال، أو كريم وعالم وله مال، فتأمله.

ويرجحه أيضاً أن الكلام يصير جملاً مستقلة قد ذكر فيها أصناف خلقه السعداء، وهم الصديقون والشهداء والصالحون وهم المذكورون في الآية وهم المتصدقون الذين أقرضوا الله قرضاً حسناً، فهؤلاء ثلاثة أصناف ثم ذكر الرسل في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

فيتناول ذلك الأصناف الأربعة المذكورة في سورة النساء.

فهؤلاء هم السعداء، ثم ذكر الأشقياء وهم نوعان: كفار ومنافقون، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحديد: ١٩]، وذكر المنافقون في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. فهؤلاء أصناف العالم كلهم وترك ﷻ ذكر المخلط صاحب الشائبتين على طريقة القرآن في ذكر السعداء والأشقياء دون المخلطين غالباً لسر اقتضته حكمته فليحذر صاحب التخليط فإنه لا ضمان له على الله ولا هو من أهل وعده المطلق(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا﴾ [**الحديد**: ٢٠].

فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس وتلعب بها الأبدان، واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر فيذهب ضائعاً في غير شيء.

ثم أخبر أنها زينة زُينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة ولما آثرتها على الأجل الدائم الذي هو خير وأبقى، قال الإمام: حدثنا وكيع وحدثنا المسعودي عن عمرو بن مرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ﷺ عن النبي ﷺ قال: «ما لي وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كمثل راكب قال في ظل شجرة في يوم صائف ثم راح وتركها»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [**الحديد**: ٢٢].

قال أبو داود الطيالسي: ثنا عبد المؤمن ـ هو ابن عبد الله ـ قال: كنا عند الحسن فأتاه يزيد بن أبي مريم السلولي يتوكأ على عصا فقال: يا أبا سعيد أخبرني عن قول الله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾.

---

(١) طريق الهجرتين (٣٢٨، ٣٢٩). (٢) عدة الصابرين (١٦٨، ١٦٩).

فقال الحسن: نعم والله إن الله ليقضي القضية في السماء ثم يضرب لها أجلاً أنه كائن في يوم كذا وكذا في ساعة كذا وكذا في الخاصة والعامة حتى أن الرجل ليأخذ العصا ما يأخذها إلا بقضاء وقدر. قال: يا أبا سعيد، والله لقد أخذتها وأني عنها لغني ثم لا صبر لي عنها. قال الحسن: أو لا ترى.

واختلف في الضمير في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾. فقيل: هو عائد على الأنفس؛ لقربها منه، وقيل: هو عائد على الأرض، وقيل: عائد على المصيبة، والتحقيق أن يقال: هو عائد على البرية التي تعم هذا كله ودل عليه السياق وقوله: ﴿نَّبْرَأَهَآ﴾ فينتظم التقادير الثلاثة انتظاماً واحداً، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [**الحديد**: ٢٣].

فأخبر سبحانه أنه قدر ما يصيبهم من البلاء في أنفسهم قبل أن يبرأ الأنفس أو المصيبة أو الأرض أو المجموع وهو الأحسن، ثم أخبر أن مصدر ذلك قدرته عليه وأنه يسير عليه.

وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته، ولا بد قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت فلم يأسوا عليه ولم يفرحوا بالحاصل، لعلمهم أن المصيبة مقدرة في كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه؟

ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل، ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها وعلى الصبر على مرارتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، هانت عليه وخف حملها وأنزلها منزلة الحر والبرد(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [**الحديد**: ٢٥].

---

(١) شفاء العليل (٧). (٢) شفاء العليل (١٩٤).

أخبر سبحانه أنه أرسل رسله وأنزل كتبه؛ ليقوم الناس بالقسط وهو العدل، ومن أعظم القسط التوحيد وهو رأس العدل وقوامه، وأن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم والتوحيد أعدل العدل، فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [**الحديد**: ٢٧].

«رهبانية» منصوب «بابتدعوها» على الاشتغال إما بنفس الفعل المذكور ـ على قول الكوفيين ـ وإما بمقدر محذوف مفسر بهذا المذكور ـ على قول البصريين ـ أي: وابتدعوا رهبانية، وليس منصوباً بوقوع الجعل عليه فالوقف التام عند قوله: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثم يبتدئ ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي: لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسهم ولم نكتبها عليهم.

وفي نصب قوله: ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه مفعول له، أي: لم نكتبها عليهم إلا إبتغاء رضوان الله وهذا فاسد، فإنه لم يكتبها عليهم سبحانه، كيف وقد أخبر: أنهم هم ابتدعوها؟ فهي مبتدعة غير مكتوبة. وأيضاً فإن المفعول لأجله يجب أن يكون علة لفعل الفاعل المذكور معه فيتحد السبب والغاية نحو قمت إكراماً، فالقائم هو المكرم، وفعل الفاعل ها هنا هو (الكتابة) و﴿ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ فعلهم لا فعل الله، فلا يصلح أن يكون علة لفعل الله، لاختلاف الفاعل.

وقيل: بدل من مفعول (كتبناها) أي: ما كتبناه عليهم إلا ابتغاء رضوان الله وهو فاسد أيضاً، إذ ليس ابتغاء رضوان الله عين الرهبانية فتكون بدل الشيء من الشيء، ولا بعضها، فتكون بدل بعض من كل، ولا أحدهما مشتمل على الآخر، فتكون بدل اشتمال، وليس بدل غلط.

فالصواب: أنه منصوب نصب الاستثناء المنقطع؛ أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودل على هذا قول: «ابتدعوها»، ثم ذكر الحامل لهم

---

(١) الجواب الكافي (١٩٠).

والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله، ثم ذمهم بترك رعايتها، إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه، حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع كالتزامها بالنذر كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه وهو إجماع ـ أو كالإجماع ـ في أحد النسكين.

قالوا: والالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.

وليس هذا موضع استقصاء هذه المسألة.

والقصد: أن الله ﷻ ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها، فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها(١)؟

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [**الحديد**: ٢٨].

وفي قوله: ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ إعلام بأن تصرفهم وتقلبهم الذي ينفعهم إنما هو بالنور وأن مشيهم بغير النور غير مجد عليهم ولا نافع لهم بل ضرره أكثر من نفعه، وفيه أن أهل النور هم أهل المشيء في الناس، ومن سواهم أهل الزمانة والانقطاع، فلا مشي لقلوبهم، ولا لأحوالهم، ولا لأقوالهم، ولا لأقدامهم إلى الطاعات، وكذلك لا تمشي على الصراط إذا مشت بأهل الأنوار أقدامهم.

وفي قوله: ﴿تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ نكتة بديعة وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما يمشون بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه(٢).

□ □ □

وقد ضمن لهم ـ سبحانه ـ بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته، نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٦٠).

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية (٥، ٦).

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم.

وهذا غاية التيسير، فقد جعل ـ سبحانه ـ التقوى سبباً لكل يسر، وترك التقوى سبباً لكل عسر[1].



(١) التبيان في أقسام القرآن (٣٧).

سُوْرَةُ المُجَادَلَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ **[المجادلة: ١]**.

فلا يشك صحيح الفهم البتة في هذا الخطاب أنه نص صريح لا يحتمل التأويل بوجه في إثبات صفة السمع للرب تعالى حقيقة وأنه بنفسه سمع(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ **[المجادلة: ٢ ـ ٤]**.

ثبت في (السنن) و(المسانيد)(٢): أن أوس بن الصامت ظاهر من زوجته خولة بنت مالك بن ثعلبة، وهي التي جادلت فيه رسول الله ﷺ، واشتكت إلى الله، وسمع الله شكواها مِن فوق سبع سماوات، فقالت: يا رسول الله! إن أوسَ بنَ الصامت تزوَّجني وأنا شابة مرغوب فيَّ، فلما خلا سني، ونثرت له بطني، جعلني كأمِّهِ عنده، فقال لها رسولُ الله ﷺ: «مَا عِنْدِي في أمرك شيءٌ»، فقالت: اللهم إني أشكو إليك(٣).

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٩٠).

(٢) حديث (خولة بنت مالك بن ثعلبة) صحيح، مشهور في تفسير آيات الظهار، ورواه كثير من أئمة السنة مطولاً ومختصراً، انظر: الدر المنثور (٨/ ٦٩).

(٣) روى قريباً منه ابن ماجه (الصحيح) (١/ ٣٥١) في الطلاق، باب: الظهار، والحاكم (٢/ ٤٨١)، ومعنى: ونثرت له بطني: أي: أنها ولدت له أولاداً كثيرين وهي شابة.

ورُوي أنها قالت: إن لي صبيةً صِغاراً إن ضمَّهم إليه ضاعُوا، وإن ضممتُهم إليَّ جَاعُوا، فنزلَ القرآنُ.

وقالت عائشة(١): الحمدُ لله الذي وَسِعَ سمعهُ الأصواتَ، لقد جاءت خولةُ بنتُ ثعلبة تشكو إلى رسول الله ﷺ وأنا في كِسْرِ البيت يَخْفى عليَّ بعضُ كلامِها، فأنزل الله ﷻ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾.

فقال النبيُّ ﷺ: «لِيُعْتِقْ رَقَبَةً»، قالت: لا يجد، قال: «فَيَصُومَ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ»، قالت: يا رسول الله! إنه شيخ كبير ما بِهِ مِنْ صيام، قال: «فَلْيُطْعِمْ سِتّينَ مِسْكيناً»، قالت: ما عنده من شيء يتصدَّقُ به، قالت: فأتي ساعتئذ بِعَرق مِنْ تَمْر، قلت: يا رسول الله، فإني أعينه بعرق آخرَ، قال: «أَحْسَنْتِ فَأَطْعِمي عَنْهُ سِتِّينَ مِسْكيناً وارْجِعي إلى ابْنِ عَمِّكِ»(٢).

وفي السنن: أن سلمة بن صخر البياضي ظاهر مِن امرأته مدةَ شهرِ رمضان، ثم واقعها ليلةً قبل انسلاخه، فقال له النبيُّ ﷺ: «أنتَ بِذَاكَ يَا سَلمة»، قال: قلت: أنا بِذَاكَ يا رسول الله مرتين وأنا صابر لأمر الله، فاحكمْ فيَّ بما أراك الله، قال: «حَرِّرْ رَقَبَةً»، قلت: والذي بعثك بالحقِّ نبياً ما أمِلكُ رقبة غيرَها وضربتُ صفحة رقبتي، قال: «فَصُمْ شَهْرَيْنِ متتابِعَين»، قال: وهل أصبتُ الذي أصبتُ إلا في الصيام، قال: «فأطعم وسْقاً مِن تمرٍ بين سِتينَ مسكيناً»، قلت: والَّذي بعثك بالحقِّ لقد بِتْنَا وَحْشَيْنِ ما لنا طَعَام، قال: «فانْطَلِقْ إلى صَاحِب صدَقَة بَنِي زُرَيْقٍ فَلْيَدْفَعْهَا إلَيْكَ فَأَطْعِمْ سِتِّينَ مِسْكِيناً وَسْقاً مِنْ تَمرٍ وكُلْ أَنْتَ وعِيَالُكَ بَقِيَّتَها». قال: فَرُحْتُ إلى قومي، فقلتُ: وجدت عندكم الضيقَ وسوء الرأي، ووجدتُ عندَ رسولِ الله ﷺ السَّعَةَ وحُسْنَ الرأي، وقد أمر لي بصدَقَتِكم(٣).

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦/ ٤٦)، والنسائي (٦/ ١٦٨) في الطلاق، باب: الظهار، والطبري (٢٨/ ٢)، وعلق البخاري قول عائشة ﵂ (١٣/ ٣٨٤) في التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾.

(٢) رواه الإمام أحمد (٦/ ٤١٠)، وأبو داود (الصحيح) (٢/ ٤١٨) في الطلاق، باب: في الظهار، وقال الألباني: (حسن).

(٣) حديث صحيح، رواه أبو داود (الصحيح) (٢/ ٤١٦) في الطلاق، باب: في الظهار، والترمذي (٥/ ٣٧٧) في التفسير، باب: سورة المجادلة، وقال: (حديث حسن)، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٣٥١) في الطلاق، باب: في الظهار، والحاكم (٢/ ٢٠٣)، وصححه =

وفي جامع الترمذي عن ابن عباس، أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ قد ظاهَرَ من امرأته فوقع عليها، فقال: يا رسولَ الله إني ظاهرتُ من امرأتي، فوقعتُ عليها قَبْلَ أن أكفِّر. قال: «وَمَا حَمَلَكَ علَى ذلِكَ يَرْحَمُكَ الله»؟ قال: رَأَيْتُ خَلْخَالَها في ضَوْءِ القَمَرِ، قال: «فَلَا تَقْرَبْها حَتَّى تَفْعَل مَا أَمَرَكَ الله»[1]. قال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

وفيه أيضاً: عن سلمة بن صخر، عن النبي ﷺ، في المظاهر يُواقِعُ قبل أن يُكَفِّر، فقال: «كَفَّارَةٌ وَاحِدَةٌ»[2]. وقال: حسن غريب. انتهى، وفيه انقطاع بين سليمان بن يسار، وسلمة بن صخر.

وفي مسند البزار، عن إسماعيل بن مسلم، عن عمرو بن دينار، عن طاووس، عن ابن عباس رضي الله عنه، قال: أتى رجلٌ إلى نبي الله ﷺ فقال: إني ظاهرتُ من امرأتي، ثم وقعتُ عليها قبل أن أُكفِّر. فقال رسول الله ﷺ: «ألم يقل الله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾؟» فقال: أعْجَبَتْني، فقال: «أمْسِكْ عنها حَتَّى تُكفِّرَ». قال البزار: لا نعلمه يُروى بإسناد أحسنَ من هذا، على أن إسماعيل بن مسلم قد تُكلِّم فيه، وروى عنه جماعة كثيرة من أهل العلم.



فتضمنت هذه الأحكام أموراً:

١ ـ **أحدُها**: إبطال ما كانوا عليه في الجاهلية، وفي صدر الإسلام من كون الظهار طلاقاً، ولو صرَّح بنيته له، فقال: أنتِ عليَّ كظهر أمي، أعني به: الطلاق، لم يكن طلاقاً وكان ظهاراً، وهذا بالاتفاق إلا ما عساه من خلاف شاذ، وقد نصَّ عليه أحمد والشافعي وغيرهما. قال الشافعي: ولو ظاهر يُريد طلاقاً، كان ظهاراً،

= ووافقه الذهبي، وراجع: الإرواء (٧/ ١٧٦).

(١) رواه الترمذي (٣/ ٥٠٢) في الطلاق، باب: ما جاء في المظاهر يواقع قبل أن يكفر، وقال: (حسن غريب صحيح)، وابن ماجه (الصحيح) (١/ ٣٥٢) في الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفِّر، والنسائي (٦/ ١٦٧) في الطلاق، باب: الظهار، وانظر: الإرواء (٧/ ١٧٩).

(٢) رواه الترمذي (الصحيح) (١/ ٣٥٢) في الطلاق، باب: في المظاهر يواقع قبل أن يكفِّر، وقال: (حسن غريب، والعمل عليه...)، وصححه الألباني، وابن ماجه (الصحيح) (١/ ٣٥٢) في الطلاق، باب: المظاهر يجامع قبل أن يكفِّر.

أو طلَّق يُريد ظهاراً كان طلاقاً، هذا لفظه، فلا يجوز أن يُنسب إلى مذهب خلافُ هذا، ونص أحمد على أنه إذا قال: أنت عليَّ كظهر أمي أعني به الطلاقَ أنه ظهار، ولا تُطلق به؛ وهذا لأن الظهار كان طلاقاً في الجاهلية، فنسخ، فلم يجزْ أن يُعاد إلى الحكم المنسوخ.

وأيضاً فأوس بن الصامت إنما نوى به الطلاقَ على ما كان عليه، وأجرى عليه حكم الظهار دون الطلاق.

وأيضاً فإنه صريح في حكمه، فلم يجز جعلُه كناية في الحكم الذي أبطله ﷻ بشرعه، وقضاء الله أحقُّ، وحكم الله أوجبُ.

٢ ـ **ومنها**: أن الظهار حرام لا يجوزُ الإقدامُ عليه، لأنه كما أخبر الله عنه منكر من القول وزور، وكلاهما حرام، والفرقُ بين جهة كونه منكراً وجهةِ كونه زوراً أن قوله: أنت عليَّ كظهر أمي يتضمنُ إخباره عنها بذلك، وإنشاءه تحريمها، فهو يتضمن إخباراً وإنشاءً فهو خبرٌ زورٌ وإنشاءٌ منكرٌ، فإن الزور هو الباطل خلاف الحق الثابت، والمنكر خلاف المعروف، وختم سبحانه الآية بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

وفيه إشعار بقيام سبب الإثم الذي لولا عفوُ الله ومغفرته لآخذ به.

٣ ـ **ومنها**: أن الكفارة لا تجب بنفسِ الظهار، وإنما تجبُ بالعود، وهذا قولُ الجمهور.

٤ ـ **ومنها**: أن من عجز عن الكفارة، لم تسقط عنه، فإن النبيَّ ﷺ أعان أوس بن الصامت بِعَرَقٍ من تمر، وأعانته امرأته بمثله، حتى كفَّر، وأمر سلمةَ بن صخر أن يأخذ صدقةَ قومه، فيكفِّر بها عن نفسه، ولو سقطت بالعجز، لما أمرهما بإخراجها، بل تبقى في ذمته ديناً عليه، وهذا قول الشافعي، وأحد الروايتين عن أحمد.

وذهبت طائفة إلى سقوطِها بالعجز، كما تسقط الواجبات بعجزه عنها، وعن إبدالها.

وذهبت طائفة أن كفارةَ رمضان لا تبقى في ذمته بل تسقط، وغيرُها من الكفارات لا تسقط، وهذا الذي صححه أبو البركات ابن تيمية.

واحتجَّ من أسقطها بأنها لو وجبت مع العجز، لما صُرِفَتْ إليه، فإن الرجل لا يكونُ مَصْرِفاً لكفارته، كما لا يكون مَصْرِفاً لزكاته، وأربابُ القول الأول يقولون:

إذا عجز عنها، وكفر الغيرُ عنه، جاز أن يَصْرِفَهَا إليه، كما صرف النبي ﷺ كفارةَ من جامع في رمضان إليه وإلى أهله، وكما أباح لسلمة بن صخر أن يأكُل هو وأهلُه من كفارته التي أخرجها عنه من صدقة قومه، وهذا مذهبُ أحمد، رواية واحدة عنه في كفارة من وطئ أهله في رمضان، وعنه في سائر الكفارات روايتان.

والسنة تَدُلُّ على أنه إذا أعسر بالكفارة، وكفَّرَ عنه غيرُه، جاز صرف كفارته إليه، وإلى أهله.

فإن قيل: فهل يجوز له إذا كان فقيراً له عيال وعليه زكاة يحتاج إليها أن يصرفها إلى نفسه وعياله؟ قيل: لا يجوز ذلك لعدم الإخراج المستحق عليه، ولكن للإمام أو الساعي أن يدفع زكاتَه إليه بعد قبضها منه في أصحِّ الروايتين عن أحمد.

٥ ـ ومنها: أنه لا يجوز وطء المظاهر منها قبل التكفير، وقد اختلف هاهنا في موضعين:

أحدهما: هل له مُبَاشَرتها دُونَ الفرج قبل التكفير، أم لا؟

والثاني: أنه إذا كانت كفارتُهُ الإطعام، فهل له الوطء قبلَهُ أم لا؟ وفي المسألتين قولان للفقهاء، وهما روايتانِ عن أحمد، وقولان للشافعي.

ووجه منع الاستمتاع بغير الوطء، ظاهرُ قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾.

وأما المسألةُ الثانية وهي وطؤها قبل التكفير إذا كان بالإطعام، فوجه الجواز أن الله سبحانه قيَّد التكفيرَ بكونه قبل المسيس في العتق والصيام، وأطلقه في الإطعام، ولكل منهما حِكمة، فلو أراد التقييدَ في الإطعام لذكره كما ذكره في العتق والصيام، وهو سبحانه لم يقيد هذا ويطلق هذا عبثاً، بل لِفائدة مقصودة، ولا فائدة إلا تقييد ما قيَّده، وإطلاقُ ما أطلقه، ووجهُ المنع استفادةُ حكم ما أطلقه مما قيده، إما بياناً على الصحيح، وإما قياساً قد ألغي فيه الفارق بين الصورتين، وهو سبحانه لا يُفرِّقُ بين المتماثلين، وقد ذكر: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ مرتين؛ فلو أعاده ثالثاً لطال به الكلام، ونبَّه بذكره مرتين على تكرر حكمه في الكفارات، ولو ذكره في آخر الكلام مرةً واحدةً؛ لأوهم اختصاصه بالكفارة الأخيرة، ولو ذكره في أول مرة لأوهم اختصاصه بالأولى، وإعادته في كُلِّ كفارة تطويل، وكان أفصحَ الكلام وأبلغه وأوجزه ما وقع.

وأيضاً فإنه نبه بالتكفير قبل المسيس بالصوم مع تطاول زمنه، وشدة الحاجة إلى مسيس الزوجة على أن اشتراط تقدمه في الإطعام الذي لا يطول زمنه أولى.

٦ ـ ومنها: أنه سبحانه أمر بالصيام قبل المسيس، وذلك يعمُّ المسيس ليلاً ونهاراً، ولا خلاف بين الأئمة في تحريم وطئها في زمن الصوم ليلاً ونهاراً وإنما اختلُفوا هل يبطل التتابُع به؟ فيه قولان:

أحدهما: يبطل وهو قولُ مالك، وأبي حنيفة، وأحمد في ظاهر مذهبه.

والثاني: لا يبطل، وهو قولُ الشافعي، وأحمد في رواية أخرى عنه.

والذين أبطلوا التتابع معهم ظاهرُ القرآن، فإنه سبحانه أمر بشهرين متتابعين قبل المسيسِ، ولم يُوجد؛ ولأن ذلك يتضمَّن النهي عن المسيس قبل إكمال الصيام وتحريمه، وهو يُوجب عدم الاعتدادِ بالصوم؛ لأنه عمل ليس عليه أمْر رسول الله ﷺ فيكون رداً.

وسر المسألة أنه سبحانه أوجب أمرين:

أحدهما: تتابع الشهرين.

والثاني: وقوعُ صيامهما قبل التماس، فلا يكون قد أتى بما أمر به إلا بمجموع الأمرين.

٧ ـ ومنها: أنه ﷺ أطلق إطعام المساكين ولم يُقيده بقدر، ولا تتابع، وذلك يقتضي أنه لو أطعمهم فغدَّاهم وعشاهم من غير تمليك حبٍّ أو تمر جاز، وكان ممتثلاً لأمر الله، وهذا قول الجمهور ومالك، وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين، عنه، وسواء أطعمهم جملة أو متفرقين.

٨ ـ ومنها: أنه لا بُدَّ من استيفاء عدد الستين، فلو أطعم واحداً ستين يوماً لم يجزه إلَّا عن واحدٍ، هذا قول الجمهور: مالك، والشافعي، وأحمد في إحدى الروايتين عنه.

والثانية: أن الواجب إطعام ستين مسكيناً، ولو لواحدٍ وهو مذهب أبي حنيفة.

والثالثة: إن وجد غيره لم يجزِ، وإلا أجزأه، وهو ظاهرُ مذهبه، وهي أصح الأقوال.

٩ ـ ومنها: أنه لا يجزئه دفعُ الكفارة إلا إلى المساكين، ويدخُلُ فيهم الفقراء كما يدخل المساكينُ في لفظ الفقراء عند الإطلاق، وعمم أصحابُنا وغيرهم الحكمَ في كلٍّ من يأخذ من الزكاة لحاجته، وهم أربعة: الفقراء، والمساكين، وابنُ السبيل، والغارمُ لمصلحته، والمكاتب. وظاهر القرآن اختصاصها بالمساكين، فلا يتعدَّاهم.

١٠ ـ ومنها: أن الكفارة لا تسقُط بالوطء قبلَ التكفير، ولا تتضاعف، بل هي بحالها كفارةٌ واحدة، كما دل عليه حكمُ رسول الله ﷺ الذي تقدم، قال الصلتُ بنُ دينار: سألتُ عشرة من الفقهاء عن المظاهر يُجامع قبل أن يكفر، فقالوا: كفارة واحدة. قال: وهم الحسنُ، وابنُ سيرين، ومسروق، وبكر، وقتادة، وعطاء، وطاووس، ومجاهد، وعكرمة. قال: والعاشر أراه نافعاً، وهذا قولُ الأئمة الأربعة[(١)].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

إن قيل: فما تقولون في قول المظاهر: أنت عليّ كظهر أمي؟ هل هو إنشاء أو إخبار؟

فالجواب وفصل الخطاب: أن قوله: أنت علي كظهر أمي، يتضمن إنشاءً وإخباراً، فهو إنشاء من حيث قصد التحريم بهذا اللفظ، وإخبار من حيث تشبيهها بظهر أمه؛ ولهذا جعله الله منكراً من القول وزوراً، فهو منكر باعتبار الإنشاء، وزور باعتبار الإخبار[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ [المجادلة: ٥].

والكبت: الإذلال والخزي والتصريع على الوجه. قال النضر وابن قتية[(٣)]: هو الغيظ والحزن.

وقال أهل التفسير: كبتوا: أهلكوا وأخزوا وحزنوا. وإذا كان المحاد مكبوتاً فلو كان آمناً على نفسه وماله لم يكن مكبوتاً بل مسروراً جذلاً يشفي صدره من الله ورسوله، آمناً على دمه وماله فأين الكبت إذن؟ ويدل عليه قوله: ﴿كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾ فخوفهم بكبت نظير كبت من قبلهم وهو: الإهلاك من عنده أو بأيدي عباده وأوليائه.

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٣٢٢ ـ ٣٤٢). (٢) بدائع الفوائد (١/ ١١ ـ ١٥).

(٣) انظر: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، ص(١١٠ و٤٥٧).

وقوله: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ﴾ [المجادلة: ٢١] عقيب قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ دليل على أن المحاداة مغالبة ومعاداة حتى يكون أحد المحادين غالباً، إنما يكون بين أهل الحرب لا أهل السلم، فعلم أن المحاد لس بمسالم فلا يكون له أمان مع المحادة، وقد جرت سنة الله سبحانه أن الغلبة لرسله بالحجة والقهر، فمن أمر منهم بالحرب نصر على عدوه، ومن لم يؤمر بالحرب أهلك عدوه.

يوضحه أن المحادة مشاقة؛ لأنها من الحد والفصل والبينونة، وكذلك المشاقة من الشق، وكذلك المعاداة من العُدْوة وهي الجانب يكون أحد العدوين في شق وجانب وحد، وعدوه الآخر في غيرها، والمعنى في ذلك كله: معنى المقاطعة والمفاصلة وذلك لا يكون إلا مع انقطاع الحبل الذي بيننا وبين أهل العهد، لا يكون مع اتصال الحبل أبداً، يوضحه أن الحبل وصلة وسبب فلا يجامع المفاصلة والمباينة، وأيضاً فإنها إذا كانت بمعنى المشاقة فقد قال تعالى: ﴿فَٱضْرِبُواْ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ١٢ ـ ١٣] فأمر بضرب أعناقهم؛ وعلل ذلك بمشاقتهم ومحادتهم، وكل من فعل ذلك وجب أن يضرب عنقه[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ﴾ [**المجادلة**: ١١].

واللام في العلم ليست للاستغراق، وإنما هي للعهد، أي: العلم الذي بعث الله به نبيه ﷺ، وإذا كانوا قد أوتوا هذا العلم كان اتباعهم واجباً[(٢)].

* * *

(١) أحكام أهل الذمة (٢/ ٨٢٦ ـ ٨٢٨).

(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٦٥).

سُورَةُ الحَشرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ **[الحشر: ٢].**

الاعتبار: هو أن يعبر نظره من الأثر إلى المؤثر، ومن الصنعة إلى الصانع، ومن الدليل إلى المدلول، فينتقل إليه بسرعة لطف إدراك، فينتقل ذهنه من الملزوم إلى لازمه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٧) لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (٨) وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ ...﴾ **إلى آخر الآية [الحشر: ٧ ـ ١٠].**

فأخبر سبحانه أن ما أفاء على رسوله بجملته لمن ذكر في هذه الآيات، ولم يخص منه خمسه بالمذكورين، بل عمم وأطلق واستوعب ويصرف على المصارف الخاصة وهم أهل الخمس، ثم على المصارف العامة وهم المهاجرون والأنصار وأتباعهم إلى يوم الدين، فالذي عمل به هو وخلفاؤه الراشدون هو المراد من هذه الآيات، ولذلك قال عمر بن الخطاب ﵁ فيما رواه أحمد ﵀ وغيره عنه: «ما أحد أحق بهذا المال من أحد، وما أنا أحق به من أحد، والله ما من المسلمين أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبد مملوك، ولكنا على منازلنا من كتاب الله، وقسمنا من رسول الله ﷺ، فالرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في

(١) مدارج السالكين (٣/ ٣٥٧).

الإسلام، والرجل وعناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته، ووالله لئن بقيت لهم ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه»[١].

فهؤلاء المسمون في آية الفيء، هم المسمون في آية الخمس، ولم يدخل المهاجرون والأنصار وأتباعهم في آية الخمس؛ لأنهم المستحقون لجملة الفيء، وأهل الخمس لهم استحقاقان: استحقاق خاص من الخمس، واستحقاق عام من جملة الفيء فإنهم داخلون في النصيبين.

وكما أن قسمته من جملة الفيء بين من جعل له، ليس قسمة الأملاك التي يشترك فيها المالكون؛ كقسمة المواريث، والوصايا، والأملاك المطلقة، بل بحسب الحاجة والنفع والغناء في الإسلام والبلاء فيه فكذلك قسمة الخمس في أهله، فإن مخرجهما واحد في كتاب الله.

والتنصيص على الأصناف الخمسة يفيد تحقيق إدخالهم وأنهم لا يخرجون من أهل الفيء بحال، وأن الخمس لا يعدوهم إلى غيرهم كأصناف الزكاة لا تعدوهم إلى غيرهم، كما أن الفيء العام في آية الحشر للمذكورين فيها لا يتعداهم إلى غيرهم؛ ولهذا أفتى أئمة الإسلام كمالك، والإمام أحمد، وغيرهما أن الرافضة لا حق لهم في الفيء؛ لأنهم ليسوا من المهاجرين ولا من الأنصار ولا من الذين جاؤوا من بعدهم ويقولون: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾، وهذا مذهب أهل المدينة، واختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، وعليه يدل القرآن وفعل رسول الله ﷺ وخلفائه الراشدين.

□ □ □

وقد اختلف الناس في آية الزكاة وآية الخمس فقال الشافعي: تجب قسمة الزكاة والخمس على الأصناف كلها ويعطى من كل صنف من يطلق عليه اسم الجمع.

وقال مالك رحمه الله وأهل المدينة: بل يعطى في الأصناف المذكورة فيهما ولا يعدوهم إلى غيرهم، ولا تجب قسمة الزكاة ولا الفيء في جميعهم.

وقال الإمام أحمد وأبو حنيفة بقول مالك رحمه الله في آية الزكاة، وبقول الشافعي رحمه الله في آية الخمس.

ومن تأمل النصوص، وعمل رسول الله ﷺ وخلفائه وَجَدَه يدل على قول أهل

---

(١) رواه الإمام أحمد (١/ ٢٨١) برقم (٢٩٢)، بتحقيق: أحمد شاكر وصححه.

المدينة؛ فإن الله سبحانه جعل أهل الخمس هم أهل الفيء؛ وعينهم اهتماماً بشأنهم وتقديماً لهم، ولما كانت الغنائم خاصة بأهلها لا يشركهم فيها سواهم، نص على خمسها لأهل الخمس، ولما كان الفيء لا يختص بأحد دون أحد، جعل جملته لهم وللمهاجرين والأنصار وتابعيهم، فسوى بين الخمس وبين الفيء في المصرف، وكان رسول الله ﷺ يصرف سهم الله وسهمه في مصالح الإسلام، وأربعة أخماس الخمس في أهلها مقدماً للأهم فالأهم والأحوج فالأحوج، فيزوج منه عزَّابهم، ويقضي منه ديونهم، ويعين ذا الحاجة منهم، ويعطي عزبهم حظاً ومتزوجهم حظين، ولم يكن هو ولا أحد من خلفائه يجمعون اليتامى والمساكين وأبناء السبيل وذوي القربى ويقسمون أربعة أخماس الفيء بينهم على السوية ولا على التفضيل، كما لم يكونوا يفعلون ذلك في الزكاة، فهذا هديه وسيرته وهو فصل الخطاب، ومحض الصواب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

فأخبر أن إيثارهم إنما هو بالشيء الذي إذا وقي الرجل الشح به كان من المفلحين، وهذا إنما هو فضول الدنيا لا الأوقات المصروفة في الطاعات، فإن الفلاح كل الفلاح في الشح بها، فمن لم يكن شحيحاً بوقته تركه الناس على الأرض عياناً مفلساً، فالشح بالوقت هو عمارة القلب وحفظ رأس ماله، ومما يدل على هذا أنه سبحانه أمر بالمسابقة في أعمال البر والتنافس فيها والمبادرة إليها وهذا ضد الإيثار بها(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍۖ﴾ [الحشر: ١٨].

فأمر سبحانه العبد أن ينظر ما قدم لغد، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك والنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح؟.

والمقصود من هذا النظر: ما يوجبه ويقتضيه من كمال الاستعداد ليوم المعاد،

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٨٤ ـ ٨٧).
(٢) طريق الهجرتين (٢٧٨).

وتقديم ما ينجيه من عذاب الله، ويبيض وجهه عند الله، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر»[1]، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، أو قال: «على من لا تخفى عليه أعمالكم»[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ **[الحشر: ١٩]**.

فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم كما قال الله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين:

إحداهما: أنه سبحانه نسيه.

والثانية: أنه أنساه نفسه.

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته، فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها، وما تكمل به، ينسيه ذلك جميعه فلا يخطره بباله ولا يجعله على ذكره ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه، فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره، وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها فلا يخطر بباله إزالتها.

وأيضاً: ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها فلا يخطر بقلبه مداواتها، ولا السعي في إزالة عللها وأمراضها التي تؤول به إلى الفساد والهلاك، فهو مريض مثخن بالمرض، ومرضه مترام به إلى التلف، ولا يشعر بمرضه ولا يخطر بباله مداواته، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة، فأي عقوبة أعظم من عقوبة من أهمل نفسه وضيعها ونسي مصالحها وداءها ودواءها وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وحياتها الأبدية في النعيم المقيم؟[3].

□ □ □

---

(١) ذكره ابن الجوزي في تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١٧٦، ١٧٧)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٥٢). وقال الألباني: إسناده جيد إن كان ثابت سمعه من عمر... الضعيفة (٣/ ٣٤٦) رقم (١٢٠١).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٧٠).

(٣) الجواب الكافي (١٥٠، ١٥١).

وإذا نسي العبد نفسه أعرض عن مصالحها ونسيها واشتغل عنها فهلكت وفسدت ولا بد، كمن له زرع أو بستان أو ماشية أو غير ذلك مما صلاحه وفلاحه بتعاهده والقيام عليه، فأهمله ونسيه واشتغل بغيره، وضيع مصالحه فإنه يفسد ولا بد.

هذا مع إمكان قيام غيره مقامه فيه، فكيف الظن بفساد نفسه وهلاكها وشقائها إذا أهملها ونسيها واشتغل عن مصالحها وعطل مراعاتها وترك القيام عليها بما يصلحها، فما شئت من فساد وهلاك وخيبة وحرمان، وهذا هو الذي صار أمره كله فرطاً، فانفرط عليه أمره وضاعت مصالحه وأحاطت به أسباب القطوع والخيبة والهلاك.

ولا سبيل إلى الأمان من ذلك إلا بدوام ذكر الله تعالى واللهج به وأن لا يزال اللسان رطباً به، وأن ينزله منزلة حياته التي لا غنى عنها، ومنزلة غذائه الذي إذا فقده فسد جسمه وهلك، وبمنزلة الماء عند شدة العطش، وبمنزلة اللباس في الحر والبرد، وبمنزلة الكن في شدة الشتاء والسموم.

فحقيق بالعبد أن ينزل ذكر الله منه بهذه المنزلة وأعظم، فأين هلاك الروح والقلب وفسادهما من هلاك البدن وفساده، هذا هلاك لا بد منه وقد يعقبه صلاح لا بد، وأما هلاك القلب والروح فهلاك لا يرجى معه صلاح ولا فلاح ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ولو لم يكن في فوائد الذكر وإدامته إلا هذه الفائدة وحدها لكفى بها، فمن نسي الله تعالى أنساه نفسه في الدنيا ونسيه في العذاب يوم القيامة[١].



(١) الوابل الصيب (٦٧، ٦٨).

سُورَةُ المُمْتَحَنةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة: ٥].

قال مجاهد: المعنى، لا تعذبنا بأيديهم، ولا بعذاب من عندك، فيقولون: لو كان هؤلاء على الحق ما أصابهم هذا.

وقال الزجاج: معناه، لا يظهرهم علينا، فيظنوا أنهم على حق، فيفتنوا بذلك[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨ ـ ٩].

فإن الله سبحانه لما نهى في أول السورة عن اتخاذ المسلمين الكفار أولياء وقطع المودة بينهم وبينهم، توهم بعضهم أن برهم والإحسان إليهم من الموالاة والمودة، فبين الله سبحانه أن ذلك ليس من الموالاة المنهي عنها، وأنه لم ينه عن ذلك بل هو الإحسان الذي يحبه ويرضاه وكتبه على كل شيء، وإنما المنهي عنه تولي الكفار والإلقاء إليهم بالمودة[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٠].

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٣).

(٢) أحكام أهل الذمة (١/ ٣٠١).

صالح النبي ﷺ قريشاً على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين على أن من جاءه منهم مسلماً رده إليهم، ومن جاءهم من عنده لا يردونه إليه.

وكان اللفظ عاماً في الرجال والنساء، فنسخ الله ذلك في حق النساء وأبقاه في حق الرجال.

وأمر الله نبيه والمؤمنين أن يمتحنوا من جاءهم من النساء فإن علموها مؤمنة لم يردوها إلى الكفار، وأمرهم برد مهرها إليهم لما فات على زوجها من منفعة بضعها، وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم رد مهر المهاجرة فيردونه إلى من ارتدت امرأته ولا يردونها إلى زوجها المشرك، فهذا هو العقاب وليس من العذاب في شيء.

وكان في هذا دليل على أن خروج البضع من ملك الزوج متقوم، وأنه متقوم بالمسمى الذي هو ما أنفق الزوج لا بمهر المثل وأن أنكحة الكفار لها حكم الصحة، لا يحكم عليها بالبطلان، وأنه لا يجوز ردّ المسلمة المهاجرة إلى الكفار ولو شرط ذلك، وأن المسلمة لا يحل لها نكاح الكافر.

وأن المسلم له أن يتزوج المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها وآتاها مهرها، وفي هذا أبين دلالة على خروج بضعها من ملك الزوج وانفساخ نكاحها منه بالهجرة والإسلام.

وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم كما حرم نكاح المسلمة على الكافر.

وهذه أحكام استفيدت من هاتين الآيتين وبعضها مجمع عليه، وبعضها مختلف فيه وليس مع من ادعى نسخها حجة البتة، فإن الشرط الذي وقع بين النبي ﷺ وبين الكفار في رد من جاءه مسلماً إليهم إن كان مختصاً بالرجال لم تدخل النساء فيه، وإن كان عاماً للرجال والنساء فالله ﷻ خصص منه رد النساء ونهاهم عن ردهن وأمرهم برد مهورهن، وأن يردوا منها على من ارتدت امرأته إليهم من المسلمين المهر الذي أعطاها.

ثم أخبر أن ذلك حكمه الذي يحكم به بين عباده وأنه صادر عن علمه وحكمته، ولم يأت عنه ما ينافي هذا الحكم ويكون بعده حتى يكون ناسخاً[1].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ١٤٠، ١٤١).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [الممتحنة: ١٢].

قالت عائشة: فمن أقرت بهذا من المؤمنات فقد أقرت بالمحنة، وكان رسول الله ﷺ إذا أقررن بذلك من قولهن، قال لهن رسول الله ﷺ: «انطلقن فقد بايعتكن»، ولا والله ما مسَّت يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط، غير أنه بايعهن بالكلام.

قالت عائشة: والله ما أخذ رسول الله ﷺ على النساء قط إلا بما أمره الله، وما مسَّت كف رسول الله ﷺ كف امرأة قط، وكان يقول لهن إذا أخذ عليهن: «قد بايعتكن» كلاماً[1].



(١) بدائع الفوائد (٣/١٠٦).

سورة الصَّفِّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [الصف: ٥].

أصل الزيغ: الميل، ومنه زاغت الشمس إذا مالت، فإزاغة القلب إمالته، وزيغه ميله عن الهدى إلى الضلال، والزيغ يوصف به القلب والبصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب: ١٠]. وقال قتادة ومقاتل: شخصت فرقاً. وهذا تقريب للمعنى فإن الشخوص غير الزيغ وهو أن يفتح عينيه ينظر إلى الشيء فلا يطرف، ومنه شخص بصر الميت، ولما مالت الأبصار عن كل شيء فلم تنظر إلا إلى هؤلاء الذين أقبلوا إليهم من كل جانب اشتغلت عن النظر إلى شيء آخر فمالت عنه، وشخصت بالنظر إلى الأحزاب.

وقال الكلبي: مالت أبصارهم إلا من النظر إليهم. وقال الفراء: زاغت عن كل شيء فلم تلتفت إلا إلى عدوها متحيرة تنظر إليه.

قلت: القلب إذا امتلأ رعباً شغله ذلك عن ملاحظة ما سوى المخوف؛ فزاغ البصر عن الوقوع عليه وهو مقابله[١].

وتأمل قوله: ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، فإنها جملة في موضع الحال، أي: أتؤذونني وأنتم تعلمون أني رسول الله إليكم؟ وذلك أبلغ من العناد[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ

---

(١) شفاء العليل (١٠٠).

(٢) إغاثة اللهفان (٢/ ٣٤٢).

ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ ـ ١٣].

فتشوقت النفوس إلى هذه التجارة الرابحة، التي دلَّ عليها رب العالمين العليم الحكيم فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾. فكأن النفوس ضنت بحياتها وبقائها فقال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة والسلامة فكأنها قالت: فما لنا في الجهاد من الحظ؟ فقال: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ ومع المغفرة ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فكأنها قالت: هذا في الآخرة فما لنا في الدنيا؟ فقال: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

فللّه ما أحلى هذه الألفاظ وما ألصقها بالقلوب وما أعظمها جذباً لها وتسييراً إلى ربها وما ألطف موقعها من قلب كل محب! وما أعظم غنى القلب وأطيب عيشه حين تباشره معانيها، فنسأل الله من فضله إنه جواد كريم(١).



(١) طريق الهجرتين (٣٣٢).

سُوْرَةُ الجُمُعَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٢ ـ ٤].

يعني: وبعث في آخرين منهم لما يلحقوا بهم، وقد اختلف في هذا اللحاق المنفي، فقيل: هو اللحاق في الزمان، أي: يتأخر زمانهم عنهم، وقيل: هو اللحاق في الفضل والسبق، وعلى التقديرين فامتن عليهم سبحانه بأن علمهم بعد الجهل، وهداهم بعد الضلالة، ويا لها من منة عظيمة فاقت المنن وجلت أن يقدر العباد لها على ثمن(١)!.

* * *

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ﴾ [الجمعة: ٥].

من جهلهم أن الله سبحانه شبههم في حملهم التوراة، وعدم الفقه فيها والعمل بها بالحمار يحمل أسفاراً، وفي هذا التشبيه من النداء على جهالتهم وجوه متعددة:

منها: أن الحمار من أبلد الحيوانات التي يضرب بها المثل في البلادة.

ومنها: أنه لو حمل غير الأسفار من طعام أو علف أو ماء لكان له به شعور بخلاف الأسفار.

ومنها: أنهم حُمِّلوها لا أنهم حملوها طوعاً واختياراً بل كانوا كالمكلفين لما حملوه لم يرفعوا به رأساً.

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٢، ٦٣).

ومنها: أنهم حيث حملوها تكليفاً وقهراً لم يرضوا بها ولم يحملوها رضاً واختياراً، وقد علموا أنهم لا بد لهم منها، وأنهم إن حملوها اختياراً كانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ومنها: أنها مشتملة على مصالح معاشهم ومعادهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة، فإعراضهم عن التزام ما فيه سعادتهم وفلاحهم إلى ضده من غاية الجهل والغباوة وعدم الفطانة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وهذه أحسن من قراءة من قرأ: (فامضوا إلى ذكر الله)، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وائتوها تمشون وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا»[٢]. فلم ينه عن السعي إليها؛ بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه، والإتيان فعل البدن، وسعيه عَدْو البدن وهو منهي عنه.

وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها[٣].

* * *

---

(١) هداية الحيارى (٢٨٦، ٢٨٧).

(٢) رواه البخاري (٩٠٨)، ومسلم (٦٠٢).

(٣) التبيان في أحكام القرآن (٧).

سُورَةُ المنافِقُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

ومثل هذا اللفظ يقتضي الحصر، أي: لا عدو إلا هم، ولكن لم يرد هاهنا حصر العداوة فيهم وأنهم لا عدو للمسلمين سواهم؛ بل هذا من إثبات الأولوية والأحقية لهم في هذا الوصف وأنه لا يتوهم بانتسابهم إلى المسلمين ظاهراً وموالاتهم لهم ومخالطتهم إياهم أنهم ليسوا بأعدائهم، بل هم أحق بالعداوة ممن باينهم في الدار ونصب لهم العداوة وجاهرهم بها، فإن ضرر هؤلاء المخالطين لهم المعاشرين لهم ـ وهم في الباطن على خلاف دينهم ـ أشد عليهم من ضرر من جاهرهم بالعداوة وألزم وأدوم؛ لأن الحرب مع أولئك ساعة أو أياماً ثم ينقضي ويعقبه النصر والظفر، وهؤلاء معهم في الديار والمنازل صباحاً ومساءً يدلون العدو على عوراتهم ويتربصون بهم الدوائر ولا يمكنهم مناجزتهم فهم أحق بالعداوة من المباين المجاهر؛ فلهذا قيل: ﴿هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ﴾ لا على معنى: أنه لا عدو لكم سواهم بل على معنى: أنهم أحق بأن يكونوا لكم عدواً من الكفار المجاهرين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ [**المنافقون: ٨**].

هذا ما قاله رأس المنافقين ابن أبي، فبلَّغها زيد بن أرقم رسول الله ﷺ، وجاء ابن أُبي يعتذر ويحلف ما قال، فسكت عنه رسول الله ﷺ، فأنزل الله تصديق زيد في سورة المنافقين، فأخذ النبي ﷺ بأذنه فقال: «أبشر، فقد صدقك الله»، ثم قال: «هذا الذي وفى الله بأذنه» فقال له عمر: يا رسول الله، مرْ عباد بن بشر فليضرب عنقه، فقال: «فكيف إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»(٢)؟

* * *

(١) طريق الهجرتين (٣٧٤).

(٢) زاد المعاد (٢/ ٢٨٨).

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ **[المنافقون: ٩].**

المقصود: أن دوام الذكر لما كان سبباً لدوام المحبة، وكان الله سبحانه أحق بكمال الحب والعبودية والتعظيم والإجلال، كان كثرة ذكره من أنفع ما للعبد، وكان عدوه حقاً هو الصاد له عن ذكر ربه وعبوديته.

ولهذا أمر سبحانه بكثرة ذكره في القرآن، وجعله سبباً للفلاح فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤١]، وقال: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال النبي ﷺ: «سبق المُفَرِّدون»، قالوا: يا رسول الله وما المُفَرِّدون؟ قال: «الذاكرون الله كثيراً»[١].

وفي الترمذي عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على خير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من أنفاق الذهب والورق، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «ذكر الله»[٢]، وهو في الموطأ موقوف على أبي الدرداء[٣].

وقال معاذ بن جبل: ما عمل آدمي عملاً أنجى له من عذاب الله من ذكر الله[٤].

وذكر رسول الله ﷺ تبع لذكره.

والمقصود: أن دوام الذكر سبب لدوام المحبة، فالذكر للقلب كالماء للزرع بل كالماء للسمك لا حياة له إلا به وهو وأنواع:

أحدها: بأسمائه وصفاته والثناء عليه بها.

الثاني: تسبيحه وتحميده وتكبيره وتهليله وتمجيده، وهو الغالب من استعمال لفظ الذكر عند المتأخرين.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٦). (٢) حديث صحيح، رواه الترمذي (٣٣٧٧).

(٣) الموطأ (١/ ٢١١) في كتاب القرآن، برقم (٢٤).

(٤) رواه مالك في الموطأ موقوفاً عن معاذ، قال: زياد بن أبي زياد، فذكره عن معاذ (١/ ٢١١)، وورواه الإمام أحمد مرفوعاً (٥/ ٢٣٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٣): «رجاله رجال الصحيح إلا أن زياد بن أبي زياد مولى ابن عياش لم يدرك معاذاً».

الثالث: ذكره بأحكامه وأوامره ونواهيه، وهو ذكر أهل العلم بل الأنواع الثلاثة هي ذكرهم لربهم.

ومن أفضل ذكره: ذكره بكلامه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، فذكره هاهنا هو كلامه الذي أنزله على رسوله، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

ومن ذكره سبحانه: دعاؤه واستغفاره والتضرع إليه، فهذه خمسة أنواع من الذكر(١).



وفي ذلك تحذير من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله ﷻ فوقعوا في النفاق، وسئل بعض الصحابة ﷺ عن الخوارج منافقون هم؟ قال: لا. المنافقون لا يذكرون إلا قليلاً، فهذا من علامة النفاق قلة ذكر الله ﷻ، وكثرة ذكره أمان من النفاق، والله ﷻ أكرم من أن يبتلي قلباً ذاكراً بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله ﷻ(٢).



فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم، ولم يؤثرهم على الله(٣).



---

(١) جلاء الأفهام (٢٦٦ ـ ٢٦٨).
(٢) الوابل الصيب (١١٠).
(٣) طريق الهجرتين (٦٣)

سُورةُ التَّغابُنِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣].

فذكر اسم الإيمان هاهنا دون سائر أسمائهم دليل على استدعاء الإيمان للتوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد، والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والهداية(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤].

وليس المراد من هذه العداوة ما يفهمه كثير من الناس أنها عداوة البغضاء والمحادَّة؛ بل إنما هي عداوة المحبة الصادة للآباء عن الهجرة والجهاد وتعلم العلم والصدقة وغير ذلك من أمور الدين وأعمال البر.

كما في جامع الترمذي من حديث إسرائيل: حدثنا سماك عن عكرمة عن ابن عباس وسأله رجل عن هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ﴾، قال: هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة فأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ فأبى أزواجهم وأولادهم أن يدعوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺ رأوا الناس قد فقهوا في الدين، فهموا أن يعاقبوهم فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ الآية، قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح(٢).

---

(١) طريق الهجرتين (٢٣٨).

(٢) سنن الترمذي (٣٣١٧).

وما أكثر ما فات العبد من الكمال والفلاح بسبب زوجته وولده، وفي الحديث: «الولد مبخلة مجبنة»[١].

وقال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب قال: حدثني زيد بن واقد قال: حدثني عبد الله بن بريدة قال: سمعت أبي يقول: كان رسول الله ﷺ يخطبنا، فجاء الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه، ثم قال: «صدق الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران؛ فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما»[٢]، وهذا من كمال رحمته ﷺ ولطفه بالصغار، وشفقته عليهم، وهو تعليم منه للأمة الرحمة والشفقة واللطف بالصغار[٣].

□ □ □

وقال مقاتل: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي: بلاء وشغل عن الآخرة، قال ابن عباس: فلا تطيعوهم في معصية الله تعالى.

وقال الزجاج: أعلمهم الله ﷻ أن الأموال والأولاد مما يفتنون به وهذا عام في جميع الأولاد، فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله تعالى بسببه؛ وتناول الحرام لأجله، ووقع في العظائم إلا من عصمه الله تعالى، وقال ابن مسعود ﷺ: لا يقولن أحدكم: اللهم إني أعوذ بك من الفتنة فإنه ليس منكم أحد إلا وهو مشتمل على فتنة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾، فأيكم استعاذ فليستعذ بالله تعالى من مضلات الفتن[٤][٥].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

فالإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه. والشحيح:

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٦٦٦)، وصححه الألباني والبوصيري (٣/ ١٦٠).

(٢) رواه الإمام أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود (الصحيح) (١/ ٢٠٦) في الجمعة، باب: الإمام يقطع الخطبة للأمر يحدث، والترمذي (الصحيح) (٣/ ٢٢٤) في المناقب، باب: مناقب الحسن والحسين ﷺ، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٨٣) في اللباس، باب: لبس الأحمر للرجال.

(٣) عدة الصابرين (٦٤، ٦٥).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٩/ ٢١٨).

(٥) إغاثة اللهفان (٢/ ١٦٠).

حريص على ما ليس بيده، فإذا حصل بيده شيء شح عليه وبخل بإخراجه فالبخل ثمرة الشح، والشح يأمر بالبخل، كما قال النبي ﷺ: «إياكم والشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا»[١]، فالبخيل: من أجاب داعي الشح، والمؤثر: من أجاب داعي الجود، كذلك السخاء عما في أيدي الناس هو السخاء، وهو أفضل من سخاء البذل، قال عبد الله بن المبارك: سخاء النفس عما في أيدي الناس أفضل من سخاء النفس بالبذل[٢].



(١) رواه أبو داود (١٦٩٨).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩١).

سُوْرَةُ الطَّلَاقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا۟ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق: ١ ـ ٢].

إنه ﷺ إنما شرع أن تطلق لعدتها؛ أي: لاستقبال عدتها، فتطلق طلاقاً يعقبه شروعها في العدة؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر ﵄ لما طلق امرأته في حيضها أن يراجعها، وتلا هذه الآية تفسيراً للمراد بها، وأن المراد بها الطلاق في قبل العدة، وكذلك كان يقرؤها عبد الله بن عمر.

ولهذا قال كل من قال: بتحريم جمع الثلاث: إنه لا يجوز له أن يردف الطلقة بأخرى في ذلك الطهر؛ لأنه غير مطلق للعدة؛ فإن العدة قد استقبلت من حين الطلقة الأولى، فلا تكون الثانية للعدة[(١)].

□ □ □

فأمر الله سبحانه الأزواج الذين لهم عند بلوغ الأجل الإمساك والتسريح بأن لا يخرجوا أزواجهم من بيوتهم، وأمر أزواجهن أن لا يخرجن، فدل على جواز إخراج من ليس لزوجها إمساكها بعد الطلاق، فإنه سبحانه ذكر لهؤلاء المطلقات أحكاماً متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض.

أحدها: أن الأزواج لا يخرجوهن من بيوتهن.

والثاني: أنهن لا يخرجن من بيوت أزواجهن.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٠٢، ٣٠٣).

والثالث: أن لأزواجهن إمساكهن بالمعروف قبل انقضاء الأجل، وترك الإمساك فيسرِّحوهن بإحسان.

والرابع: إشهاد ذوي عدل، وهو إشهاد على الرجعة إما وجوباً وإما استحباباً، وأشار سبحانه إلى حكمة ذلك وأنه في الرجعيات خاصة بقوله: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ والأمر الذي يرجى إحداثه هاهنا هو المراجعة، هكذا قال السلف ومن بعدهم.

قال ابن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن داود الأودي، عن الشعبي: ﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾، قال: لعلك تندم فيكون لك سبيل إلى الرجعة[١]. وقال الضحاك: ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ قال: لعله أن يراجعها في العدة[٢]. وقاله عطاء وقتادة والحسن وقد تقدم قول فاطمة بنت قيس، أي أمر يحدث بعد الثلاث؟

فهذا يدل على أن الطلاق المذكور هو الرجعي الذي ثبتت فيه هذه الأحكام، وأن حكمة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين اقتضته لعل الزوج أن يندم ويزول الشر الذي نزغه الشيطان بينهما، فتتبعها نفسه فيراجعها، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: لو أن الناس أخذوا بأمر الله في الطلاق، ما تتبع رجل نفسه امرأة يطلقها أبداً[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ [**الطلاق**: ٢ ـ ٣].

قال الربيع بن خثيم: يجعل له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس. وقال أبو العالية: مخرجاً من كل شدة. وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة، ومضايق الدنيا والآخرة، فإن الله يجعل للمتقي من كل ما ضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجاً.

وقال الحسن: مخرجاً مما نهاه عنه:

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة (٥/ ٢٦٢).

(٢) النسائي (٦/ ١٤٤) في الطلاق، باب: الرخصة في ذلك، وصححه إسناده ابن القيم، كما في زاد المعاد (٥/ ٥٢٦).

(٣) زاد المعاد (٥/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، أي: كافي من يثق به في نوائبه ومهماته، يكفيه كل ما أهمه والحسب الكافي[١].

□ □ □

ففرق بين الجزاءين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه[٢].

□ □ □

وجعل التوكل بعد التقوى الذي هو قيام الأسباب المأمور بها، فحينئذ إن توكل على الله فهو حسبه، وكما قال في موضع آخر: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المائدة: ١١]. فالتوكل والحسب بدون قيام الأسباب المأمور بها عجز محض، فإن كان مشوباً بنوع من المتوكل فهو توكل عجز، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا يجعل عجزه توكلاً؛ بل يجعل توكله من جملة الأسباب المأمور بها التي لا يتم المقصود إلا بها كلها.

ومن هاهنا غلط طائفتان من الناس:

إحداهما: زعمت أن التوكل وحده سبب مستقل كافٍ في حصول المراد، فعطلت له الأسباب التي اقتضتها حكمة الله الموصلة إلى مسبباتها، فوقعوا في نوع تفريط وعجز بحسب ما عطلوا من الأسباب، وضعف توكلهم من حيث ظنوا قوته بانفراده عن الأسباب فجمعوا الهم كله وصيروه هماً واحداً، وهذا وإن كان فيه قوة من هذا الوجه ففيه ضعف من جهة أخرى، فكلما قوي جانب التوكل بإفراده، أضعفه التفريط في السبب الذي هو محل التوكل، فإن التوكل محله الأسباب، وكماله بالتوكل على الله فيها.

وهذا كتوكل الحراث الذي شق الأرض وألقى فيها البذر فتوكل على الله في زرعه وإنباته، فهذا قد أعطى التوكل حقه، ولم يضعف توكله بتعطيل الأرض وتخليتها بوراً.

وكذلك توكل المسافر في قطع المسافة مع جِدِّه في السير.

وتوكل الأكياس في النجاة من عذاب الله والفوز بثوابه مع اجتهادهم في طاعته.

فهذا هو التوكل الذي يترتب عليه أثره، ويكون الله حَسْبَ من قام به، وأما توكل

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧١). (٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٧٣).

العجز والتفريط فلا يترتب عليه أثره، وليس الله حَسْبَ صاحبه، فإن الله إنما يكون حَسْبَ المتوكل عليه إذا اتقاه، وتقواه فعل الأسباب المأمور بها لا إضاعتها.

والطائفة الثانية: التي قامت بالأسباب ورأت ارتباط المسببات بها شرعاً وقدراً، وأعرضت عن جانب التوكل، وهذه الطائفة وإن نالت بما فعلته من الأسباب ما نالته؛ فليس لها قوة أصحاب التوكل، ولا عون الله لهم، وكفايته إياهم ودفاعه عنهم، بل هي مخذولة عاجزة بسبب ما فاتها من التوكل.

فالقوة كل القوة في التوكل على الله، كما قال بعض السلف: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، فالقوة مضمونة للمتوكل والكفاية والحسب والدفع عنه، وإنما ينقص عليه من ذلك بقدر ما ينقص من التقوى والتوكل، وإلا فمع تحققه بهما لا بد أن يجعل الله له مخرجاً من كل ما ضاق على الناس ويكون الله حسبه وكافيه(١).



فلما ذكر كفايته للمتوكل عليه، فربما أوهم ذلك تعجل الكفاية وقت التوكل، فعقبه بقوله: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ أي: وقتاً لا يتعداه، فهو يسوقه إلى وقته الذي قدره له، فلا يستعجل المتوكل ويقول: قد توكلت ودعوت فلم أر شيئاً ولم تحصل لي الكفاية، فالله بالغ أمره في وقته الذي قدر له.

وهذا كثير جداً في القرآن والسنة، وهو باب لطيف من أبواب فهم النصوص(٢).



قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

هذا الباب [في حكم العدة] قد تولى الله سبحانه بيانه في كتابه أتم بيان وأوضحه وأجمعه، بحيث لا تشذ عنه معتدة، فذكر أربعة أنواع من العدد وهي جملة أنواعها:

النوع الأول: عدة الحامل، بوضع الحمل مطلقاً بائنة كانت أو رجعية، مفارقة في الحياة أو متوفى عنها فقال: ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾، وهذا فيه عموم من ثلاث جهات:

أحدها: عموم المخبر عنه وهو أولات الأحمال، فإنه يتناول جميعهن.

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٦٤).
(٢) إعلام الموقعين (٤/ ٢٠٥).

الثاني: عموم الأجل فإنه أضافه إليهن، وإضافة اسم الجمع إلى المعرفة يعم، فجعل وضع الحمل جميع أجلهن.

الثالث: أن المبتدأ والخبر معرفتان، أما المبتدأ: فظاهر، وأما الخبر: وهو قوله تعالى: ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ ففي تأويل مصدر مضاف، أي: أجلهن وضع حملهن، والمبتدأ والخبر إذا كانا معرفتين اقتضى ذلك حصر الثاني في الأول كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

وبهذا احتج جمهور الصحابة على أن الحامل المتوفى عنها زوجها عدتها وضع حملها، ولو وضعته والزوج على المغتسل كما أفتى به النبي ﷺ لسبيعة الأسلمية وكان هذا الحكم والفتوى منه مشتقاً من كتاب الله مطابقاً له.

□ □ □

النوع الثاني: عدة المطلقة التي تحيض وهي ثلاثة قروء، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

النوع الثالث: عدة التي لا حيض لها وهي نوعان: صغيرة لا تحيض، وكبيرة قد يئست من الحيض، فبيّن الله سبحانه عدة النوعين بقوله: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾. أي: فعدتهن كذلك.

النوع الرابع: المتوفى عنها زوجها فبيّن عدتها سبحانه بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهذا يتناول المدخول بها وغيرها، والصغيرة والكبيرة، ولا تدخل فيه الحامل؛ لأنها خرجت بقوله: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ فجعل وضع حملهن جميع أجلهن، وحصره فيه بخلاف قوله في المتوفى عنهن: [يتربصن] فإنه فعل مطلق لا عموم له، وأيضاً فإن قوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ متأخر في النزول عن قوله: [يتربصن]، وأيضاً، فإن قوله: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ في غير الحامل بالاتفاق فإنها لو تمادى حملها فوق ذلك تربصته، فعمومها مخصوص اتفاقاً وقوله: ﴿أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ غير مخصوص بالاتفاق، هذا لو لم تأتِ السنة الصحيحة بذلك، ووقعت الحوالة على القرآن، فكيف والسنة الصحيحة موافقة لذلك مقررة له؟

فهذه أصول العدد في كتاب الله مفصلة مبينة(١).

---

(١) زاد المعاد (٥/ ٥٩٤ ـ ٦٠٠).

سُوْرَةُ التَّحْرِيمِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

إن لغة العرب متنوعة في إفراد المضاف وتثنيته وجمعه بحسب أحوال المضاف إليه، فإن أضافوا الواحد المتصل إلى مفرده أفردوه، وإن أضافوه إلى اسم جمع ظاهر أو مضمر جمعوه، وإن أضافوه إلى اسم مثنى فالأفصح في لغتهم جمعه كقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ وإنما هما قلبان، وكقوله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وتقول العرب: اضرب أعناقهما، وهذا أفصح في استعمالهم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

قال علي رضي الله عنه: علِّموهم وأدِّبوهم.

وقال الحسن: مروهم بطاعة الله، وعلموهم الخير.

وفي المسند وسنن أبي داود من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، قال رسول الله ﷺ: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع».

ففي هذا الحديث ثلاثة آداب: أمرهم بها، وضربهم عليها، والتفريق بينهم في المضاجع[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ٣٢).
(٢) تحفة المودود (١٣٣).

فأخبر أنهم لا يعصونه في أمره وأنهم قادرون على تنفيذ أوامره، ليس بهم عجز عنها، بخلاف من يترك ما أمر به عجزاً فلا يعصي الله ما أمره وإن لم يفعل ما أمر به، وكذلك البحار قد وكلت بها ملائكة تسجرها وتمنعها أن تفيض على الأرض فتغرق أهلها، وكذلك أعمال بني آدم خيرها وشرها قد وكّلت بها ملائكة تحصيها وتحفظها وتكتبها.

ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم إلا به وهي خمس: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وإذا عرف ذلك عرف أن كل حركة في العالم فسببها الملائكة، وحركتهم طاعة الله بأمره وإرادته، فيرجع الأمر كله إلى تنفيذ مراد الرب تعالى شرعاً وقدراً، والملائكة هم المنفذون ذلك بأمره؛ ولذلك سموا ملائكة من الألوكة: وهي الرسالة، فهم رسل الله في تنفيذ أوامره[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

فجعل وقاية شر السيئات وهو تكفيرها، بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات وهو حصول ما يحب العبد؛ منوطاً بحصول التوبة النصوح.

والنصوح: على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة كالشكور والصبور. وأصل مادة (ن ص ح) إخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاقٍ في الاشتقاق الأكبر لنصح: إذا خلص.

فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد، وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح: ضد الغش.

وقد اختلفت عبارات السلف عنها ومرجعها إلى شيء واحد، فقال عمر بن الخطاب وأُبي بن كعب رضي الله عنهما: التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه كما لا يعود اللبن إلى الضرع.

وقال الحسن البصري: هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على أن لا يعود فيه. وقال الكلبي: أن يستغفر باللسان ويندم بالقلب ويمسك بالبدن.

---

(١) روضة المحبين (٦٨).

وقال سعيد بن المسيب: توبة نصوحاً: تنصحون بها أنفسكم جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي: قد نصح فيها التائب ولم يشبها بغش، فهي: إما بمعنى: منصوح فيها كركوبة وحلوبة بمعنى: مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى: الفاعل، أي: ناصحة، كخالصة وصادقة.

وقال محمد بن كعب القرظي: يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان.

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار؛ بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعاً لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، **والثالث**: يتعلق بمن يتوب إليه، **والأوسط**: يتعلق بذات التائب ونفسه، فنصح التوبة: الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة... والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾

(١) مدارج السالكين (١/٣٠٩، ٣١٠).

وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٠ ـ ١٢].

فاشتملت هذه الآيات على ثلاثة أمثال: مثل للكفار ومثلين للمؤمنين.

فيتضمن مثل الكفار: أن الكافر يعاقب على كفره وعداوته لله ورسوله وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمة نسب أو وصلة صهر أو سبب من أسباب الاتصال؛ فإن الأسباب كلها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان منها متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، فلو نفعت وصلة القرابة والمصاهرة أو النكاح مع عدم الإيمان لنفعت الوصلة التي كانت بين نوح ولوط وامرأتيهما، فلما لم يغنيا عنهما من الله شيئاً وقيل: ادخلا النار مع الداخلين، قطعت الآية حينئذ طمع من ركب معصية الله وخالف أمره ورجا أن ينفعه صلاح غيره من قريب أو أجنبي، ولو كان بينهما في الدنيا أشد الاتصال، فلا اتصال فوق اتصال البنوة والأبوة والزوجية ولم يغن نوح عن ابنه، ولا إبراهيم عن أبيه، ولا نوح ولا لوط عن امرأتيهما من الله شيئاً، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ﴾ [الانفطار: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا﴾ [البقرة: ٤٨]. وقال: ﴿وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ﴾ [لقمان: ٣٣].

وهذا كله تكذيب لأطماع المشركين الباطلة أن ما تعلقوا به من دون الله من قرابة أو صهر أو نكاح أو صحبة ينفعهم يوم القيامة، أو يجيرهم من عذاب الله، أو يشفع لهم عند الله، وهذا أصل ضلال بني آدم وشركهم وهو الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الذي بعث الله جميع رسله وأنزل جميع كتبه بإبطاله ومحاربة أهله ومعاداتهم.

وأما المثلان اللذان للمؤمنين:

فأحدهما: امرأة فرعون، ووجه المثل: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئاً إذا فارقه في كفره وعمله، فمعصية الغير لا تضر المؤمن المطيع شيئاً في الآخرة وإن تضرر بها في الدنيا بسبب العقوبة التي تحل بأهل الأرض إذا أضاعوا أمر الله، فتأتي عامة، فلم يضر امرأة فرعون اتصالها به وهو من أكفر الكافرين، ولم ينفع امرأة نوح ولوط اتصالهما بهما وهما رسولا رب العالمين.

المثل الثاني للمؤمنين: مريم التي لا زوج لها لا مؤمن ولا كافر.

فذكر ثلاثة أصناف النساء: المرأة الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة

الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزب التي لا وصلة بينها وبين أحد.

فالأولى: لا تنفعها وصلتها وسببها، **والثانية**: لا تضرها وصلتها وسببها، **والثالثة**: لا يضرها عدم الوصلة شيئاً.

□ □ □

ثم في هذه الأمثال من الأسرار البديعة ما يناسب سياق السورة، فإنها سيقت في ذكر أزواج النبي ﷺ، وتحذيرهن من التظاهر عليه[١]، وأنهن إن لم يطعن الله ورسوله ويردن الدار الآخرة لم ينفعهن اتصالهن برسول الله ﷺ، كما لم ينفع امرأة نوح وامرأة لوط اتصالهما بهما.

ولهذا ضرب في هذه السورة مثل اتصال النكاح دون القرابة، قال يحيى بن سلام: ضرب الله المثل الأول يحذر عائشة وحفصة، ثم ضرب لهما المثل الثاني يحرضهما على التمسك بالطاعة، وفي ضرب المثل للمؤمنين بمريم أيضاً: اعتبار آخر وهو أنها لم يضرها عند الله شيئاً قذف أعداء الله اليهود لها ونسبتهم إياها وابنها إلى ما برأهما الله منه، مع كونها الصديقة الكبرى المصطفاة على نساء العالمين.

فلا يضر الرجل الصالح قدح الفجار والفساق فيه.

وفي هذه أيضاً تسلية لعائشة أم المؤمنين، إن كانت السورة نزلت بعد قصة الإفك، وتوطين نفسها على ما قال فيها الكاذبون إن كانت قبلها، كما في ذكر التمثيل بامرأة نوح ولوط تحذير لها ولحفصة مما تعمدتاه في حق النبي ﷺ، فتضمنت هذه الأمثال التحذير لهن والتخويف والتحريض لهن على الطاعة والتوحيد، والتسلية وتوطين النفس لمن أوذي منهن وكذب عليهن.

وأسرار التنزيل فوق هذا وأجلّ منه ولا سيما أسرار الأمثال التي لا يعقلها إلا العالمون[٢].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم، والله تعالى أعلم بالصواب[٣].

❀ ❀ ❀

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤١٠) عند تفسير الآية.

(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٨). (٣) روضة المحبين (٧٥).

سُوْرَةُ المُلكِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

البركة نوعان:

أحدهما بركة هي فعله ـ سبحانه ـ والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها مبارك، وهو ما جعل كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها «تبارك» ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له ﷻ، فهو ـ سبحانه ـ المبارك، وعبده ورسوله المبارَك. كما قال المسيح: ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن بارك الله فيه وعليه فهو المبارَك.

وأما صفته تبارك فمختصة به ـ تعالى ـ كما أطلقها على نفسه بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤][١].

ومن هنا قيل: معناه: تعالى وتعاظم، وقيل: تبارك: تقدس، والقدس: الطهارة، وقيل: تبارك أي: باسمه يبارك في كل شيء.

وحقيقة اللفظة: أن البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفاً وفعلاً منه تبارك وتعالى[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤].

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٥).

وهذا من أبلغ التقرير فإن الخالق لا بد أن يعلم مخلوقه، والصانع يعلم مصنوعه، وإذا كنتم مقرين بأنه خالقكم وخالق صدوركم وما تضمنته فكيف تخفى عليه وهي خلقه؟! وهذا التقرير مما يصعب على القدرية فهمه، فإنه لم يخلق عندهم ما في الصدور، فلم يكن في الآية على أصولهم دليل على علمه بها؛ ولهذا طرد غلاة القوم ذلك ونفوا علمه، فأكفرهم السلف قاطبة.

وهذا التقرير من الآية صحيح على التقديرين، أعني: تقدير أن تكون (من) في محل رفع على الفاعلية وفي محل نصب على المفعولية.

فعلى التقدير الأول: ألا يعلم الخالق الذي شأنه الخلق، وعلى التقدير الثاني: ألا يعلم الرب مخلوقه ومصنوعه.

ثم ختم الحجة باسمين مقتضيين لثبوتها وهما اللطيف الذي لطف صنعه وحكمته ودق، حتى عجزت عنه الأفهام، والخبير الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها، فكيف تخفى على اللطيف الخبير ما تحويه الضمائر وتخفيه الصدور[(١)].

وذات الصدور: كلمة لما يشتمل عليه الصدر من الاعتقادات والإرادات والحب والبغض؛ أي: صاحبة الصدور فإنها لما كانت قائمة بها نسبت إليها نسبة الصحبة والملازمة[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [**الملك**: ١٥].

أخبر سبحانه أنه جعل الأرض ذلولاً منقادة للوطء عليها، وحفرها وشقها والبناء عليها، ولم يجعلها مستصعبة ممتنعة على من أراد ذلك منها، وأخبر سبحانه أنه جعلها مهاداً وفراشاً وبساطاً وقراراً وكفاتاً، وأخبر أنه دحاها وطحاها وأخرج منها ماءها ومرعاها، وثبتها بالجبال، ونهج فيها الفجاج والطرق وأجرى فيها الأنهار والعيون، وبارك فيها وقدر فيها أقواتها.

ومن بركتها أن الحيوانات وأرزاقها وأقواتها تخرج منها، ومن بركتها أنك تودع فيها الحب فتخرجه لك أضعاف أضعاف ما كان، ومن بركتها أنها تحمل الأذى

(١) الصواعق المرسلة (٢/ ٤٩١). (٢) شفاء العليل (٥٥).

على ظهرها وتخرج لك من بطنها أحسن الأشياء وأنفعها، فتواري منه كل قبيح وتخرج له كل مليح.

ومن بركتها أنها تستر قبائح العبد، وفضلات بدنه، وتواريها وتضمه وتؤويه وتخرج له طعامه وشرابه فهي أحمل شيء للأذى، وأعوده بالنفع عليه.

والمقصود: أنه سبحانه جعل لنا الأرض كالجمل الذلول كيفما يقاد ينقاد.

وحسن التعبير بمناكبها عن طرقها وفجاجها لما تقدم من وصفها بكونها ذلولاً، فالماشي عليها يطأ على مناكبها وهو أعلى شيء فيها؛ ولهذا فسرت المناكب بالجبال كمناكب الإنسان وهي أعاليه، قالوا: وذلك تنبيه على أن المشي في سهولها أيسر، وقالت طائفة: بل المناكب الجوانب والنواحي، ومنه مناكب الإنسان لجوانبه، والذي يظهر: أن المراد بالمناكب الأعالي، وهذا الوجه الذي يمشي عليه الحيوان هو العالي من الأرض دون الوجه المقابل له فإن سطح الكرة أعلاها، والمشي إنما يقع في سطحها وحسن التعبير عنه بالمناكب لما تقدم من وصفها بأنها ذلول.

ثم أمرهم أن يأكلوا من رزقه الذي أودعه فيها فذللها لهم ووطأها وفتق فيها السبل والطرق التي يمشون فيها وأودعها رزقهم، فذكر تهيئة المسكن للانتفاع والتقلب فيه بالذهاب والمجيء والأكل مما أودع فيه للساكن ثم نبه بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ على أنا في هذا المسكن غير مستوطنين ولا مقيمين بل دخلناه عابري سبيل، فلا يحسن أن نتخذه وطناً ومستقراً، وإنما دخلناه لنتزود منه إلى دار القرار فهو منزل عبور لا مستقر حبور، ومعبر وممر لا وطن.

فتضمنت الآية الدلالة على ربوبيته ووحدانيته وقدرته وحكمته ولطفه والتذكير بنعمه وإحسانه والتحذير من الركون إلى الدنيا واتخاذها وطناً ومستقراً، بل نسرع فيها السير إلى داره وجنته، فلله ما في ضمن هذه الآية من معرفته وتوحيده والتذكير بنعمه، والحث على السير إليه والاستعداد للقائه، والقدوم عليه، والإعلام بأنه سبحانه يطوي هذه الدار كأن لم تكن، وأنه يحيي أهلها بعدما أماتهم وإليه النشور(١).

* * *

---

(١) الفوائد (٢٠، ٢١).

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ۝٢٠ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠ ـ ٢١].

جمع ـ سبحانه ـ بين النصر والرزق، فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برزقه، فلا بد له من ناصر ورازق.

والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين، ومن كمال فطنة العبد ومعرفته: أن يعلم أنه إذا مسه الله بسوء لم يرفعه عنه غيره، وإذا ناله بنعمة لم يرزقه إياها سواه(١).



(١) إغاثة اللهفان (١/ ٣٣).

سُوْرَةُ القَلَم

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ **[القلم: ١ ـ ٢]**.

الصحيح أن (ن) و(ق) و(ص) من حروف الهجاء التي يفتتح بها الرب سبحانه بعض السور وهي أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية ولم تجاوز الخمسة ولم تذكر قط في أول سورة إلا وعقبها بذكر القرآن إما مقسماً به، وإما مخبراً عنه، ما خلا سورتين سورة (كهيعص) و(ن)، كقوله: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢]، ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١ ـ ٣]، ﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١ ـ ٢]، ﴿الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ١]، وهكذا إلى آخره.

ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها، إذ هي مباني كلامه وكتبه التي تكلم سبحانه بها وأنزلها على رسله وهدى بها عباده وعرَّفهم بواسطتها نفسه وأسماءه وصفاته وأفعاله وأمره ونهيه ووعيده ووعده، وعرَّفهم بها الخير والشر والحسن والقبيح، وأقدرهم على التكلم بها بحيث يبلغون بها أقصى ما في أنفسهم بأسهل طريق وقلة كلفة ومشقة، وأوصله إلى المقصود وأدله عليه.

وهذا من أعظم نعمه عليهم كما هو من أعظم آياته؛ ولهذا امتن على عباده بأن أقدرهم على البيان بها بالتكلم، فكان في ذكر هذه الحروف التنبيه على كمال ربوبيته، وكمال إحسانه وإنعامه.

فهي أولى أن يقسم بها من الليل والنهار والشمس والقمر والسماء والنجوم وغيرها من المخلوقات، فهي دالة أظهر دلالة على وحدانيته وقدرته وحكمته وكماله وكلامه وصدق رسله، وقد جمع سبحانه بين الأمرين أعني: القرآن ونطق اللسان، وجعل تعليمها من تمام نعمته وامتنانه، كما قال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمٰن: ١ ـ ٤].

فبهذه الحروف علم القرآن وبها علم البيان، وبها فضل الإنسان على سائر أنواع الحيوان، وبها أنزل كتبه، وبها أرسل رسله، وبها جمعت العلوم وحفظت، وبها انتظمت مصالح العباد في المعاش والمعاد، وبها يتميز الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، وبها جمعت أشتات العلوم، وبها أمكن تنقلها في الأذهان.

وكم جلب بها من نعمة، ودفع بها من نقمة، وأقيلت بها من عثرة، وأقيمت بها من حرمة، وهدي بها من ضلالة، وأقيم بها من حق، وهدم بها من باطل، فآياته سبحانه في تعليم البيان كآياته في خلق الإنسان، ولولا عجائب صنع الله ما ثبتت تلك الفضائل في لحم ولا عصب.

فسبحان من هذا صنعه في هواء يخرج من قصبة الرئة، فينضم في الحلقوم وينفرش في أقصى الحلق، ووسطه، وآخره، وأعلاه، وأسفله، وعلى وسط اللسان وأطرافه وبين الثنايا، وفي الشفتين، والخيشوم، فيسمع له عند كل مقطع من تلك المقاطع صوت غير صوت المقطع المجاور له، فإذا هو حرف.

فألهم سبحانه الإنسان بضم بعضها إلى بعض فإذا هي كلمات قائمة بأنفسها، ثم ألهمهم تأليف تلك الكلمات بعضها إلى بعض، وإذا هي كلام دال على أنواع المعاني، أمراً ونهياً وخبراً، واستخباراً ونفياً، وإثباتاً، وإقراراً وإنكاراً، وتصديقاً، وتكذيباً، وإيجاباً، واستحباباً، وسؤالاً، وجواباً، إلى غير ذلك من أنواع الخطاب، نظمه ونثره، ووجيزه ومطوله، على اختلاف لغات الخلائق كل ذلك صنعته تبارك وتعالى في هواء مجرد خارج من باطن الإنسان إلى ظاهره، في مجارٍ قد هيئت وأعدت لتقطيعه وتفصيله، ثم تأليفه وتوصيله، فتبارك الله رب العالمين، وأحسن الخالقين، فهذا شأن الحرف المخلوق.

وأما الحرف الذي به تكون المخلوقات فشأنه أعلى وأجل، وإذا كان هذا شأن الحروف فحقيق أن تفتتح بها السور، كما افتتحت بالأقسام لما فيها من آيات الربوبية وأدلة الوحدانية، فهي دالة على كمال قدرته سبحانه، وكمال علمه، وكمال حكمته، وكمال رحمته، وعنايته بخلقه، ولطفه وإحسانه، وإذا أعطيت الاستدلال بها حقه استدللت بها على المبدأ والمعاد، والخلق والأمر، والتوحيد والرسالة، فهي من أظهر أدلة شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأن القرآن كلام الله، تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً، وبلغه كما أوحي إليه صدقاً.

ولا تهمل الفكرة في كل سورة افتتحت بهذه الحروف، واشتمالها على آيات هذه المطالب وتقريرها، وبالله التوفيق.

□ □ □

ثم أقسم سبحانه بـ﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بالكتاب وآلته وهو القلم الذي هو إحدى آياته وأول مخلوقاته الذي جرى به قدره وشرعه وكتب به الوحي، وقيد به الدين، وأثبتت به الشريعة وحفظت به العلوم، وقامت به مصالح العباد في المعاش والمعاد، فوطدت به الممالك، وأمنت به السبل والمسالك، وأقام في الناس أبلغ خطيب وأفصحه، وأنفعه لهم وأنصحه، وواعظاً تشفي مواعظه القلوب من السقم، وطبيباً يبرئ بإذنه من أنواع الألم، يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد، ويخاف سطوته وبأسه ذو البأس الشديد، وبالأقلام تدبر الأقاليم وتساس الممالك، والعلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الأسماع، فنسج حلل المعاني في الطرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم، ويودعها حكمه فتصير بوادر الفهوم، والأقلام نظام للأفهام، وكما أن اللسان بريد القلب فالقلم بريد اللسان، وتولد الحروف المسموعة عن اللسان كتولد الحروف المكتوبة عن القلم، والقلم بريد القلب ورسوله وترجمانه ولسانه الصامت.

□ □ □

والأقلام متفاوتة في الرتب، فأعلاها وأجلها قدراً قلم القدر السابق الذي كتب الله به مقادير الخلائق، كما في سنن أبي داود عن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، قال: يا رب، وما أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»[(١)]، واختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني، أصحهما أن العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السمٰوات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء»[(٢)]، فهذا صريح أن التقدير وقع قبل خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم؛ لحديث عبادة هذا.

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥، ٣٣١٩).
(٢) صحيح مسلم (٢٦٥٣).

ولا يخلو قوله: «إن أول ما خلق الله القلم» إلى آخره، إما أن يكون جملة أو جملتين، فإن كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان معناه: أنه عند أول خلقه قال له: اكتب كما في لفظ: «أول ما خلق الله القلم قال له اكتب» بنصب أول، والقلم، فإن كان جملتين وهو مروي برفع أول والقلم، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتفق الحديثان، إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أن العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «لما خلق الله القلم قال له اكتب».

فهذا القلم أول الأقلام، وأفضلها، وأجلها، وقد قال غير واحد من أهل التفسير: إنه القلم الذي أقسم الله به.



القلم الثاني: قلم الوحي وهو الذي يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم، والعالم خدم لهم، وإليهم الحل والعقد، والأقلام كلها خدم لأقلامهم، وقد رفع النبي ﷺ ليلة الإسراء إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، فهذه الأقلام هي التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الأمور التي يدبر بها أمر العالم العلوي والسفلي.

والقلم الثالث: قلم التوقيع عن الله ورسوله، وهو قلم الفقهاء والمفتين، وهذا القلم أيضاً حاكم غير محكوم عليه، فإليه التحاكم في الدماء، والأموال، والفروج، والحقوق، وأصحابه مخبرون عن الله بحكمه الذي حكم به بين عباده، وأصحابه حكام وملوك على أرباب الأقلام، وأقلام العالم خدم لهذا القلم.

القلم الرابع: قلم طب الأبدان التي تحفظ بها صحتها الموجودة، وترد إليها صحتها المفقودة، وتدفع به عنها آفاتها وعوارضها المضادة لصحتها، وهذا القلم أنفع الأقلام بعد قلم طب الأديان، وحاجة الناس إلى أهله تلتحق بالضرورة.

القلم الخامس: التوقيع عن الملوك ونوابهم، وسياس الملك؛ ولهذا كان أصحابه أعز أصحاب الأقلام، والمشاركون للملوك في تدبير الدول، فإن صلحت أقلامهم صلحت المملكة، وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة، وهم وسائط بين الملوك ورعاياهم.

القلم السادس: قلم الحساب، وهو القلم الذي تضبط به الأموال، مستخرجها ومصروفها ومقاديرها، وهو قلم الأرزاق، وهو قلم الكم المتصل والمنفصل، الذي

تضبط به المقادير وما بينها من التفاوت والتناسب، ومبناه على الصدق والعدل، فإذا كذب هذا القلم وظلم فسد أمر المملكة.

القلم السابع: قلم الحكم الذي تثبت به الحقوق، وتنفذ به القضايا، وتراق به الدماء، وتؤخذ به الأموال والحقوق من اليد العادية فترد إلى اليد المحقة، ويثبت به الإنسان، وتنقطع به الخصومات، وبين هذا القلم وقلم التوقيع عن الله عموم وخصوص، فهذا له النفوذ واللزوم وذاك له العموم والشمول، وهو قلم قائم بالصدق فيما يثبته، وبالعدل فيما يمضيه وينفذه.

القلم الثامن: قلم الشهادة، وهو القلم الذي تحفظ به الحقوق، وتصان عن الإضاعة، وتحول بين الفاجر وإنكاره، ويصدق الصادق، ويكذب الكاذب، ويشهد للمحق بحقه، وعلى المبطل بباطله، وهو الأمين على الدماء، والفروج، والأموال، والأنساب، والحقوق، ومتى خان هذا القلم فسد العالم أعظم فساد، وباستقامته يستقيم أمر العالم ومبناه على العلم وعدم الكتمان.

القلم التاسع: قلم التعبير، وهو كاتب وحي المنام، وتفسيره، وتعبيره، وما أريد منه. وهو قلم شريف جليل مترجم للوحي المنامي، كاشف له، وهو من الأقلام التي تصلح للدنيا والدين، وهو يعتمد طهارة صاحبه ونزاهته، وأمانته، وتحريه للصدق، والطرائق الحميدة، والمناهج السديدة، مع علم راسخ، وصفاء باطن، وحس مؤيد بالنور الإلٰهي، ومعرفة بأحوال الخلق وهيئاتهم وسيرهم وهو من ألطف الأقلام، وأعمها جولاناً، وأوسعها تصرفاً، وأشدها تشبثاً بسائر الموجودات علويها وسفليها، والماضي والحال والمستقبل، فتصرف هذا القلم في المنام هو محل ولايته وكرسي مملكته وسلطانه.

القلم العاشر: قلم تواريخ العالم ووقائعه، وهو القلم الذي تضبط به الحوادث وتنقل من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، فيحصر ما مضى من العالم وحوادثه في الخيال، وينقشه في النفس، حتى كأن السامع يرى ذلك ويشهده، فهو قلم المعاد الروحاني، وهذا القلم قلم العجائب فإنه يعيد لك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك، وتشاهده ببصيرتك.

القلم الحادي عشر: قلم اللغة، وتفاصيلها من شرح معاني ألفاظها، ونحوها، وتصريفها، وأسرار تراكيبها، وما يتبع ذلك من أحوالها ووجوهها، وأنواع دلالتها على المعاني، وكيفية الدلالة، وهو قلم التعبير عن المعاني باختيار أحسن الألفاظ

وأعذبها وأسهلها وأوضحها، وهذا القلم واسع التصرف جداً بحسب سعة الألفاظ وكثرة مجاريها وتنوعها.

القلم الثاني عشر: القلم الجامع، وهو قلم الرد على المبطلين، ورفع سنة المحقين، وكشف أباطيل المبطلين على اختلاف أنواعها وأجناسها، وبيان تناقضهم، وتهافتهم، وخروجهم عن الحق، ودخولهم في الباطل، وهذا القلم في الأقلام نظير الملوك في الأنام، وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جاءت به الرسل، المحاربون لأعدائهم، وهم الداعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، المجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال، وأصحاب هذا القلم حرب لكل مبطل، وعدو لكل مخالف للرسل، فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الأقلام في شأن.

فهذه الأقلام التي فيها انتظام مصالح العالم، ويكفي في جلالة القلم أنه لم تكتب كتب الله إلا به، وأن الله سبحانه أقسم به في كتابه، وتعرف إلى غيره بأن علم بالقلم، وإنما وصل إلينا ما بعث به نبينا ﷺ بواسطة القلم.



والمقسم عليه بالقلم والكتابة في هذه السورة تنزيه نبيه ورسوله عما يقول فيه أعداؤه، وهو قوله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾، وأنت إذا طابقت بين هذا القسم والمقسم به وجدته دالاً عليه أظهر دلالة وأبينها، فإن ما سطر الكاتب بالقلم من أنواع العلوم التي يتلقاها البشر بعضهم عن بعض لا تصدر من مجنون، ولا تصدر إلا من عقل وافر، فكيف يصدر ما جاء به الرسول من هذا الكتاب الذي هو في أعلى درجات العلوم؟ بل العلوم التي تضمنها ليس في قوى البشر الإتيان بها، ولا سيما من أمي لا يقرأ كتاباً ولا يخط بيمينه، مع كونه في أعلى أنواع الفصاحة، سليماً من الاختلاف، بريئاً من التناقض، يستحيل من العقلاء كلهم لو اجتمعوا في صعيد واحد أن يأتوا بمثله، ولو كانوا في عقل رجل واحد منهم، فكيف يتأتى ذلك من مجنون لا عقل له يميز به ما عسى كثير من الحيوان أن يميزه، وهل هذا إلا من أقبح البهتان وأظهر الإفك؟.

فتأمل شهادة هذا المقسم به للمقسم عليه ودلالته عليه أتم دلالة، ولو أن رجلاً أنشأ رسالة واحدة بديعة منتظمة الأول والآخر، متساوية الأجزاء يصدق بعضها بعضاً، أو قال قصيدة كذلك، أو صنف كتاباً كذلك، لشهد له العقلاء بالعقل، ولما

استجاز أحد رميه بالجنون مع إمكان ـ بل وقوع ـ معارضتها ومشاكلتها والإتيان بمثلها أو أحسن منها، فكيف يرمى بالجنون من أتى بما عجزت العقلاء كلهم قاطبة عن معارضته ومماثلته، وعرفهم من الحق ما لا تهتدي عقولهم إليه بحيث أذعنت له عقول العقلاء، وخضعت له ألباب الأولياء، وتلاشت في جنب ما جاء به بحيث لم يسعها إلا التسليم له والانقياد والإذعان، طائعة مختارة وهي ترى عقولها أشد فقراً وحاجة إلى ما جاء به، ولا كمال له إلا بما جاء به؟.

فهو الذي كمل عقولها كما يكمل الطفل برضاع الثدي؛ ولهذا فإن أتباعه أعقل الخلق على الإطلاق، وهذه مؤلفاتهم وكتبهم في الفنون إذا وازنت بينها وبين مؤلفات مخالفيه ظهر كل التفاوت بينها، ويكفي في عقولهم أنهم عمروا الدنيا بالعلم والعدل، والقلوب بالإيمان والتقوى، فكيف يكون متبوعهم مجنوناً وهذا حال كتابه وهديه، وسيرته وحال أتباعه؟ وهذا إنما حصل له ولأتباعه بنعمة الله عليه وعليهم، فنفى عنه الجنون بنعمته عليه.



وقد اختلف في تقدير الآية.

فقالت فرقة: الباء في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ باء القسم، فهو قسم آخر اعتراض بين المحكوم به والمحكوم عليه، كما يقول: ما أنت بالله بكاذب، وهذا التقدير ضعيف جداً؛ لأنه قد تقدم القسم الأول، فكيف يقع القسم الثاني في جوابه؟ ولا يحسن أن تقول: والله ما أنت بالله بقائم، وليس هذا من فصيح الكلام، ولا عهد في كلامهم.

وقالت فرقة: العامل في ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ أداة معنى النفي، أو معنى أنفي عنك الجنون بنعمة ربك، ورد أبو عمر بن الحاجب وغيره هذا القول بأن الحروف لا تعمل معانيها، وإنما تعمل ألفاظها.

وقال الزمخشري(١): يتعلق ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ منفياً كما يتعلق بعاقل مثبتاً، في قولك: أنت بنعمة الله عاقل يستوي في ذلك الإثبات والنفي، استواءهما في قولك: ضرب زيد عمراً، وما ضرب زيد عمراً، يعمل الفعل مثبتاً ومنفياً إعمالاً واحداً، ومحله النصب على الحال، أي: ما أنت بمجنون منعماً عليك بذلك، ولم تمنع الباء أن يعمل مجنون فيما قبله؛ لأنها زائدة لتأكيد النفي.

---

(١) تفسير الزمخشري (٤/ ١٢٦).

واعترض عليه بأن العامل إذا تسلط على محكوم به وله معمول فإنه يجوز فيه وجهان:

أحدهما: نفي ذلك المعمول فقط، نحو قولك: ما زيد بذاهب مسرعاً، فإنه ينتفي الإسراع دون القيام، ولا يمتنع أن يثبت له ذهاب في غير إسراع.

والثاني: ينفي المحكوم به، فينتفي معموله بانتفائه، فينتفي الذهاب في هذه الحال، فينتفي الإسراع بانتفائه، فإذا جعل ﴿بِنِعْمَةِ رَبِّكَ﴾ معمولاً لمجنون لزم أحد الأمرين، وكلاهما منتفٍ جزماً.

وهذا الاعتراض هنا فاسد؛ لأن المعنى: إذا حصل ما أنت بمجنون منعماً عليك لزم من صدق هذا الخبر نفيها قطعاً، ولا يصح نفي المعمول وثبوت العامل في هذا الكلام، ولا يفهم منه من له آلة الفهم، وإنما يفهم الآدمي من هذا الكلام أن الجنون انتفى عنك بنعمة الله عليك، وانتفى عنا ما فهمه هذا المعترض بنعمة الله علينا.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣].

أي: غير مقطوع، بل هو دائم مستمر، ونكّر الأجر تنكير تعظيم، كما قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً﴾ [آل عمران: ١٣]، و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ [البقرة: ٢٤٨]. و﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢١]. و﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]. و﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ [ص: ٤٠]. وهو كثير، وإنما كان التنكير للتعظيم؛ لأنه صور للسامع بمنزلة أمر عظيم لا يدركه الوصف، ولا يناله التعبير، ثم قال:

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهذه من أعظم آيات نبوته ورسالته، لمن منحه الله فهماً، ولقد سئلت أم المؤمنين عن خلقه ﷺ، فأجابت بما شفى وكفى، فقالت: كان خلقه القرآن[1]. فهمّ سائلها أن يقوم لا يسألها شيئاً بعد ذلك، ومن هذا قال ابن عباس وغيره: أي: على دين عظيم، وسمي الدين خلقاً؛ لأن الخلق هيئة مركبة من علوم صادقة، وإرادات زاكية، وأعمال ظاهرة وباطنة، موافقة للعدل، والحكمة، والمصلحة،

---

(١) رواه مسلم (٧٤٦).

وأقوال مطابقة للحق، تصدر تلك الأقوال والأعمال عن تلك العلوم والإرادات، فتكتسب النفس بها أخلاقاً، هي أزكى الأخلاق وأشرفها، وأفضلها.

فهذه كانت أخلاق رسول الله ﷺ المقتبسة من مشكاة القرآن، فكان كلامه مطابقاً للقرآن تفصيلاً له، وتبييناً، وعلومه علوم القرآن، وإرادته وأعماله ما أوجبه وندب إليه القرآن، وإعراضه وتركه لما منع منه القرآن، ورغبته فيما رغب فيه، وزهده فيما زهد فيه، وكراهته لما كرهه، ومحبته لما أحبه، وسعيه في تنفيذ أوامره، وتبليغه، والجهاد في إقامته.

فترجمت أم المؤمنين لكمال معرفتها بالقرآن وبالرسول ﷺ، وحسن تعبيرها عن هذا كله بقولها: كان خلقه القرآن، وفهم هذا السائل لها عن هذا المعنى، فاكتفى به واشتفى.

فإذا كانت أخلاق العباد، وعلومهم، وإراداتهم، وأعمالهم، مستفادة من القلم وما يسطرون، وكان في خلق القلم والكتابة إنعام عليهم وإحسان إليهم، إذ وصلوا به إلى ذلك، فكيف ينكرون إنعامه وإحسانه على عبده ورسوله الذي أعطاه أعلى الأخلاق، وأفضل العلوم، والأعمال، والإرادات، التي لا تهتدي العقول إلى تفاصيلها من غير قلم ولا كتابة، فهل هذا إلا من أعظم آيات نبوته وشواهد صدق رسالاته؟ وسيعلم أعداؤه المكذبون له أيهم المفتون، هو أم هم؟ وقد علموا هم والعقلاء ذلك في الدنيا، ويزداد علمهم في البرزخ، وينكشف، ويظهر كل الظهور في الآخرة، بحيث تتساوى أقدام الخلائق في العلم به.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ [القلم: ٥ ـ ٦].

فقال أبو عثمان المازني: هو كلام مستأنف، والمفتون عنده مصدر، أي: بأيكم الفتنة، والاستفهام عن أمر دائر بين اثنين قد علم انتفاؤه عن أحدهما قطعاً، فتعين حصوله للآخر.

والجمهور على خلاف هذا التقدير، وهو عندهم متصل بما قبله، ثم لهم فيه أربعة أوجه:

أحدها: أن الباء زائدة، والمعنى: أيكم المفتون. وزيدت في المبتدأ كما زيدت في قولك: بحسبك أن تفعل، قاله أبو عبيد.

الثاني: أن المفتون بمعنى: الفتنة، أي: ستبصر ويبصرون بأيكم الفتنة. والباء على هذا ليست بزائدة، قاله الأخفش.

الثالث: أن المفتون مفعول على بابه، ولكن هنا مضاف محذوف تقديره: بأيكم فتون المفتون، وليست الباء زائدة، قاله الأخفش أيضاً.

الرابع: أن الباء بمعنى: في، والتقدير: في أي فريق منكم النوع المفتون، والباء على هذا ظرفية.

وهذه الأقوال كلها تكلف ظاهر لا حاجة إلى شيء منه، و﴿فَسَتُبْصِرُ﴾ مضمن معنى: تشعر وتعلم، فعدى بالباء كما تقول: ستشعر بكذا وتعلم به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤]، وإذا دعاك اللفظ إلى المعنى من مكان قريب فلا تجب من دعاك إليه من مكان بعيد[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [القلم: ١٧ ـ ٢٧].

إن الله سبحانه أخبر عن أهل الجنة الذين بلاهم بما بلاهم به وهم قوم كان للمساكين حق في أموالهم إذا جذوا نهاراً بأن يلتقط المساكين ما يتساقط من التمر فأرادوا أن يجذوا ليلاً ليسقط ذلك الحق، ولئلا يأتيهم مسكين، وأنه عاقبهم بأنه أرسل على جنتهم طائفاً وهم نائمون فأصبحت كالصريم، وذلك لما تحيلوا على إسقاط نصيب المساكين بأن يصرموها مصبحين قبل مجيء المساكين، فكان في ذلك عبرة لكل محتال على إسقاط حق من حقوق الله تعالى أو حقوق عباده[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦].

فأنكر عليهم الحكم بهذا وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار؛ لينبه العقول

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٠٦ ـ ٢١٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٤٢، ٣٤٣).

على أن هذا مما تحيله الفطر وتأباه العقول السليمة[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨].

وهٰهنا سؤال نافع وهو أن يقال: ما العامل في الظرف وهو قوله: ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾، ولا يمكن أن يكون الفعل المنهي عنه إذ يصير المعنى: لا تكن مثله في ندائه، وقد أثنى الله سبحانه عليه في هذا النداء، فأخبر أنه نجاه به فقال: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]. وفي الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «دعوة أخي ذي النون إذ دعا بها في بطن الحوت، ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه: لا إلٰه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين»[٢].

فلا يمكن أن ينهى عن التشبه به في هذه الدعوة وهي النداء الذي نادى به ربه، وإنما نهى عن التشبه به في السبب الذي أفضى به إلى هذه المناداة، وهي مغاضبته التي أفضت به إلى حبسه في بطن الحوت، وشدة ذلك عليه حتى نادى ربه وهو مكظوم.

والكظيم والكاظم: الذي قد امتلأ غيظاً وغضباً وهماً وحزناً، وكظم عليه فلم يخرجه.

فإن قيل: وعلى ذلك فما العامل في الظرف؟

قيل: ما في صاحب الحوت من معنى الفعل.

فإن قيل: فالسؤال بعدُ قائم، فإنه إذا قيد المنهي بقيد أو زمن كان داخلاً في حيز النهي، فإن كان المعنى: لا تكن مثل صاحب الحوت في هذه الحال أو هذا الوقت، كان نهياً عن تلك الحالة.

قيل: لما كان نداؤه مسبباً عن كونه صاحب الحوت فنهى أن يتشبه به في الحال التي أفضت به إلى صحبته الحوت والنداء وهي ضعف العزيمة والصبر لحكمه تعالى، ولم يقل تعالى: ولا تكن كصاحب الحوت إذ ذهب مغاضباً فالتقمه الحوت

---

(١) طريق الهجرتين (٩٧).

(٢) رواه الترمذي (٣٥٠٥).

فنادى، بل طوى القصة واختصرها وأحال بها على ذكرها في الموضع الآخر، واكتفى بغايتها وما انتهت إليه.

فإن قيل: فما منعك بتعويض الظرف بنفس الفعل المنهي عنه، أي: لا تكن مثله في ندائه وهو ممتلئ غيظاً وهماً وغماً، بل يكون نداؤك نداء راضٍ بما قضى عليه قد تلقاه بالرضا والتسليم وسعة الصدر لا نداء كظيم؟

قيل: هذا المعنى وإن كان صحيحاً إلا أن النهي لم يقع عن التشبه به في مجرده، وإنما نهى عن التشبه به في الحال التي حملته على ذهابه مغاضباً حتى سجن في بطن الحوت، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ أي: في ضعف صبره لحكم ربه فإن الحالة التي نهي عنها هي ضد الحالة التي أمر بها.

فإن قيل: فما منعك أن تصبر حيث أمر بالصبر لحكمه الكوني القدري الذي يقدره عليه، ولا تكن كصاحب الحوت حيث لم يصبر عليه، بل نادى وهو كظيم لكشفه فلم يصبر على احتماله والسكون تحته؟

قيل: منع من ذلك أن الله سبحانه أثنى على يونس وغيره من أنبيائه بسؤالهم إياه كشف ما بهم من الضر، وقد أثنى عليه سبحانه بذلك في قوله: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فكيف ينهى عن التشبه به فيما يثني عليه ويمدحه به، وكذلك أثنى على أيوب بقوله: ﴿مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]. وعلى يعقوب بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦]. وعلى موسى بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

وقد شكا إليه خاتم رسله بقوله: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي».

فالشكوى إليه سبحانه لا تنافي الصبر الجزيل؛ بل إعراض عبده عن الشكوى إلى غيره جملة وجعل الشكوى إليه وحده هو الصبر؛ والله تعالى يبتلي عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعاءه.

وقد ذم سبحانه من لم يتضرع إليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٦].

والعبد أضعف من أن يتجلد على ربه، والرب تعالى لم يرد من عبده أن يتجلد

عليه؛ بل أراد منه أن يستكين له ويتضرع إليه، وهو تعالى يمقت من يشكوه إلى خلقه، ويحب من يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه؟ فقال: ربي يرضى ذل العبد إليه.

والمقصود: أنه سبحانه أمر رسوله أن يصبر صبر أولي العزم الذين صبروا لحكمه اختياراً، وهذا أكمل الصبر؛ ولهذا دارت قصة الشفاعة يوم القيامة على هؤلاء حتى ردوها إلى أفضلهم وخيرهم وأصبرهم لحكم الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].



(١) عدة الصابرين (٣٤ ـ ٣٦).

سُورَةُ الحَاقّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١١ ـ ١٢].

قال قتادة: أذن سمعت وعقلت عن الله ما سمعت.

وقال الفراء: لتحفظها كل أذن، فتكون عظة لمن يأتي بعد، فالوعي توصف به الأذن، كما يوصف به القلب، يقال: قلب واعٍ، وأذن واعية، لما بين الأذن والقلب من الارتباط، فالعلم يدخل من الأذن إلى القلب، فهي بابه والرسول والموصل إليه العلم، كما أن اللسان رسوله المؤدي عنه، ومن عرف ارتباط الجوارح بالقلب علم أن الأذن أحقها أن توصف بالوعي، وأنها إذا وعت وعى القلب(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة: ٣٨ ـ ٤٠].

قال مقاتل: بما تبصرون من الخلق وما لا تبصرون منه، وقال قتادة: أقسم بالأشياء كلها بما يبصر منها وما لا يبصر. وقال الكلبي: تبصرون من شيء ولا تبصرون من شيء...

وهذا أعم قسم وقع في القرآن فإنه يعم العلويات والسفليات والدنيا والآخرة، وما يرى وما لا يرى ويدخل في ذلك الملائكة والجن والإنس والعرش والكرسي، وكل مخلوق وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته، وهو سبحانه يصرف الآيات، ففي ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية، ودليل على صدق رسوله وأن ما

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٢٥).

جاء به هو من عند الله وهو كلامه، لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن.

ومن تأمل المخلوقات ما يراه منها وما لا يراه، واعتبر ما جاء به الرسول بها ونقل فكرته في مجاري الخلق والأمر ظهر له أن هذا القرآن من عند الله، وأنه كلامه وهو أصدق الكلام، وأنه حق ثابت كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣]، أي: إن كان نطقكم حقيقة وهو أمر موجود لا تمارون فيه ولا تشكون، فهكذا ما أخبرتكم به من التوحيد والمعاد والنبوة حق، كما في الحديث: «إنه لحق مثل ما أنك هاهنا».

فكأنه سبحانه يقول: إن القرآن حق، كما أن ما شاهدوه من الخلق وما لا يشاهدونه حق موجود، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق ويكفي الإنسان من جميع ما يبصره، وما لا يبصره بعينه: مبدأ خلقه ونشأته، وما يشاهده من أحواله ظاهراً وباطناً، ففي ذلك أبين دلالة على وحدانية الرب، وثبوت صفاته، وصدق ما أخبر به رسوله، وما لم يباشر قلبه ذلك حقيقة لم تخالط بشاشة الإيمان قلبه.

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، وهذا رسوله البشري محمد ﷺ، وفي إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل، فمن أنكر أن يكون الله تكلم بالقرآن فقد أنكر حقيقة الرسالة، ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً، ولناقض ذلك إضافته إلى رسوله الملكي في سورة التكوير.

* * *

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ **[الحاقة: ٤٣]**.

ثم أخبر سبحانه أنهَ تنزيل من رب العالمين، وذلك يتضمن أموراً:

أحدها: أنه تعالى فوق خلقه كلهم، وأن القرآن نزل من عنده.

والثاني: أنه تكلم به حقيقة لقوله: ﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. ولو كان غيره هو المتكلم به لكان من ذلك الغير. ونظير هذا قوله: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣]. ونظيره قوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، وقوله: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، وما كان من الله فليس بمخلوق.

وتأمل كيف أضافه سبحانه إلى الرسول بلفظ القول، وأضافه إلى نفسه بلفظ الكلام في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فإن الرسول يقول للمرسل إليه ما أمر بقوله فيقول: قلت: كذا وكذا، وقلت له ما أمرتني أن أقوله، كما قال المسيح: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ [المائدة: ١١٧]. والمرسل يقول للرسول: قل لهم: كذا وكذا، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]، ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، ونظائره.

فإذا بلغ الرسول ذلك صح أن يقال: قال الرسول كذا، وهذا قول الرسول ـ أي: قاله مبلغاً ـ وهذا قوله مبلغاً عن مرسله، ولا يجيء في شيء من ذلك تكلم لهم بكذا وكذا، ولا تكلم الرسول بكذا وكذا، ولا أنه بكلام رسول كريم، ولا في موضع واحد، بل قيل للصديق ـ وقد تلا آية ـ هذا كلامك وكلام صاحبك فقال: ليس بكلامي ولا كلام صاحبي، هذا كلام الله.

الأمر الثالث: ما تضمنه قوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى لا يأمرهم، ولا ينهاهم، ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم، ويحذرهم ما يضرهم، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة، فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦].

ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله، وأنه لم يتقوّل عليه فيما قاله، وأنه لو تقوّل عليه لما أقره، ولعاجله بالإهلاك، فإن كمال علمه وقدرته وحكمته تأبى أن يقر من تقوّل عليه، وافترى عليه، وأضل عباده، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم، وأظهر في الأرض الفساد والجور والكذب، وخالف الخلق.

فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وأقدر القادرين أن يقر على ذلك؟ بل كيف يليق به أن يؤيده، وينصره، ويعليه، ويظهره، ويظفره بأهل الحق، يسفك دماءهم، ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم، قائلاً: إن الله أمرني بذلك وأباحه لي؟ بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها، فيصدقه بإقراره، وبالآيات المستلزمة لصدقه التي دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها، فكل آية على انفرادها مصدقة له، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها، ثم يعجز الخلق عن

معارضته، ثم يصدقه بكلامه وقوله، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله، فمن أعظم المحال، وأبطل الباطل، وأبين البهتان أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفتري عليه، الذي هو شر الخلق على الإطلاق، فمن جوز على الله أن يفعل هذا بشر خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعاً ولا عرف الله، ولا هذا هو رب العالمين، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة وحجى، ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه، ونادى على جهله.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾ **[الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧]**.

يقول سبحانه: لو تقول علينا قولاً واحداً من تلقاء نفسه لم نقله ولم نوجه إليه لما أقررناه، ولأخذنا بيمينه ثم أهلكناه، هذا أحد القولين.

قال ابن قتيبة: في هذا قولان:

أحدهما: إن اليمين القوة والقدرة، وأقام اليمين مقام القوة؛ لأن قوة كل شيء في ميامنه. قلت: وعلى هذا تكون اليمين من صفة الأخذ، وهذا قول ابن عباس في اليمين.

قال: ولأهل اللغة في هذا مذهب آخر، وهذا أن الكلام ورد على ما اعتاده الناس من الأخذ بيد من يعاقب، وهو قولهم إذا أرادوا عقوبة رجل: خذ بيده، وأكثر ما يقوله السلطان والحاكم بعد وجوب الحكم: خذ بيده، وأسفع بيده، فكأن قال: لو كذب علينا في شيء (مما بلغ) إليكم عنا لأخذنا بيمينه، ثم عاقبناه بقطع الوتين، وإلى هذا المعنى ذهب الحسن. اهـ.

فقد أخبر سبحانه أنه لو تقول عليه شيئاً من الأقاويل لما أقره ولعاجله بالعقوبة، فإن كذباً على الله ليس ككذب على غيره، ولا يليق به أن يقر الكاذب عليه فضلاً عن أن ينصره ويؤيده ويصدقه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾.

والوتين: نياط القلب، وهو عرق يجري في الظهر حتى يتصل بالقلب، إذا انقطع بطلت القوى ومات صاحبه، هذا قول جميع أهل اللغة.

قال ابن قتيبة(١): ولم يرد أنا نقطع ذلك العرق بعينه، ولكنه أراد لو كذب علينا لأمتناه أو قتلناه، فكان كمن قطع وتينه، قال: ومثله قوله ﷺ: «ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان قطعت أبهري»(٢)، والأبهر: عرق يتصل بالقلب فإذا انقطع مات صاحبه، فكأنه قال: فهذا أوان قتلني السم فكنت كمن انقطع أبهره.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ﴾.

أي: لا يحجزه مني أحد ولا يمنعه مني.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الحاقة: ٤٨].

ثم أخبر سبحانه أن القرآن تذكرة للمتقين يتذكر به المتقي، فيبصر ما ينفعه فيأتيه، وما يضره فيجتنبه، ويتذكر به أسماء الرب تعالى وصفاته وأفعاله فيؤمن، ويتذكر به ثوابه وعقابه ووعيده وأمره ونهيه وآياته في أوليائه وأعدائه ونفسه، وما يزكيها ويطهرها ويعليها، وما يدسيها ويخفيها ويحقرها، ويذكر به علم المبدأ والمعاد والجنة والنار، وعلم الخير والشر، فهو التذكرة على الحقيقة، تذكرة حجة للعالمين، ومنفعة وهداية للمتعلمين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ۝٤٩ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٠ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ [الحاقة: ٤٩ ـ ٥١].

أي: لا يخفون علينا، فسنجازيهم بتكذيبهم.

ثم أخبر سبحانه أن رسوله وكلامه حسرة على الكافرين إذا عاينوا حقيقة ما أخبر به كان تكذيبهم عليه من أعظم الحسرات، حين لا ينفعهم التحسر، وهكذا كل من كذب بحق، وصدق بباطل فإنه إذا انكشف له حقيقة ما كذب به وصدق به كان تكذيبه وتصديقه حسرة عليه، كمن فرط فيما ينفعه وقت تحصيله، حتى إذا اشتدت حاجته إليه وعاين فوز المحصلين صار تفريطه عليه حسرة.

ثم أخبر سبحانه أن القرآن والرسول حق اليقين، فقيل: هو من باب إضافة

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (١٥٤).

(٢) رواه البخاري (٧/ ٧٣٧) في المغازي، باب: مرض النبي ﷺ ووفاته، والدارمي (١/ ٣٤) في المقدمة، باب: ما أكرم به نبيه ﷺ من كلام الموتى.

الموصوف إلى صفته ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾، أي: الحق اليقين، نحو مسجد الجامع، وصلاة الأولى، وهذا موضع يحتاج إلى تحقيق فنقول، وبالله التوفيق:

ذكر الله سبحانه في كتابه مراتب اليقين وهي ثلاث: حق اليقين، وعلم اليقين، وعين اليقين.

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٥ ـ ٧]، فهذه ثلاث مراتب لليقين.

أولها: علمه، وهو التصديق التام به، بحيث لا يعرض له شك ولا شبهة تقدح في تصديقه، كعلم اليقين بالجنة مثلاً، وتيقنهم أنها دار المتقين ومقر المؤمنين، فهذه مرتبة العلم، كيقينهم أن الرسل أخبروا بها عن الله، وتيقنهم صدق المخبر.

المرتبة الثانية: عين اليقين وهي مرتبة الرؤية والمشاهدة، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، وبين هذه المرتبة والتي قبلها فرق ما بين العلم والمشاهدة، فاليقين للسمع، وعين اليقين للبصر.

وفي المسند للإمام أحمد مرفوعاً: «ليس الخبر كالمعاين»، وهذه المرتبة هي التي سألها إبراهيم الخليل ربه أن يريه كيف يحيي الموتى؛ ليحصل له مع علم اليقين عين اليقين، فكان سؤاله زيادة لنفسه، وطمأنينة لقلبه، فيسكن القلب عند المعاينة ويطمئن لقطع المسافة التي بين الخبر والعيان، وعلى هذه المسافة أطلق النبي ﷺ لفظ الشك حيث قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم»[1]، ومعاذ الله أن يكون هناك شك ولا من إبراهيم، وإنما هو عين بعد علم، وشهود بعد خبر، ومعاينة بعد سماع.

المرتبة الثالثة: مرتبة حق اليقين، وهي مباشرة الشيء بالإحساس به، كما إذا أدخلوا الجنة وتمتعوا بما فيها فهم في الدنيا في مرتبة علم اليقين، وفي الموقف حين تزلف وتقرب منهم حتى يعاينوها في مرتبة عين اليقين، وإذا دخلوها وباشروا نعيمها في مرتبة حق اليقين.



إن القلب يباشر الإيمان به ويخالطه كما يباشر بالحواس ما يتعلق بها، فحينئذٍ يخالط بشاشته القلوب ويبقى لها حق اليقين، وهذه أعلى مراتب الإيمان، وهي الصديقية التي تتفاوت فيها مراتب المؤمنين.

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

وقد ضرب بعض العلماء للمراتب الثلاث مثالاً فقال: إذا قال لك من تجزم بصدقه: عندي عسل أريد أن أطعمك منه فصدقته، كان ذلك علم يقين، فإذا أحضره بين يديك صار ذلك عين اليقين، فإذا ذقته صار ذلك حق اليقين.

وعلى هذا فليست هذه الإضافة من باب إضافة الموصوف إلى صفته بل من إضافة الجنس إلى نوعه.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [**الحاقة: ٥٢**].

ختم السورة بذلك وهي جديرة بهذه الخاتمة لما تضمنته من الإخبار عن عظمة الرب تعالى وجلاله، وذكر عظمة ملكه وجريان حكمه بالعدل على عباده في الدنيا والآخرة، وذكر عظمته تعالى في إرسال رسوله وإنزال كتابه.

وأنه تعالى أعظم وأجل وأكبر عند أهل سماواته والمؤمنين من عباده من أن يقر كذباً متقولاً عليه، مفترى عليه، ويبدل دينه وينسخ شرائعه، ويقتل عباده ويخبر عنه بما لا حقيقة له، وهو سبحانه مع ذلك يؤيده وينصره ويجيب دعواته ويأخذ أعداءه، ويرفع قدره ويعلي ذكره، فهو سبحانه العظيم الذي تأبى عظمته أن يفعل ذلك بمن أتى بأقبح أنواع الكذب والظلم، فسبحان ربنا العظيم وتعالى عما ينسبه إليه الجاهلون علواً كبيراً[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٧٥ ـ ١٩٤).

سُوْرَةُ المعَارِجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٦].

في الآية تفسيران مشهوران:

أحدهما: أن الشوى الأطراف التي ليست مقاتل كاليدين والرجلين تنزعها عن أماكنها، ومنه قولهم: رمى الصيد فأشواه إذا أصاب أطرافه دون مقاتله، فإن أصاب مقتله فمات موضعه قيل: رماه فأصماه، فإن حمل السهم وفر به ثم مات في موضع آخر قيل: رماه فأنحاه.

والتفسير الثاني: أن الشوى جمع شواه وهي جلدة الرأس وفروته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢٢].

فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وأن من كان على غيرها فلأجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه[(٢)].

وتفسير الهلوع: قال الجوهري: الهلع أفحش الجزع، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع. وفي الحديث: «شر ما في العبد شح هالع وجبن خالع»[(٣)].

قلت: هنا أمران: أمر لفظي وأمر معنوي.

فأما اللفظ فإنه وصف الشح بكونه هالعاً، والهالع صاحبه، وأكثر ما يسمى هلوعاً ولا يقال: هالع له، فإنه لا يتعدى ففيه وجهان:

أحدهما: أنه على النسب كقولهم: ليل نائم وسر كاتم ونهار صائم ويوم عاصف، كله عند سيبويه على النسب، أي: ذو كذا، كما قالوا: تامر ولابن.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤، ١١٥). (٢) طريق الهجرتين (١٠١).

(٣) رواه أبو داود (الصحيح) (٢/ ٤٧٧) في الجهاد، باب: في الجرأة والجبن.

والثاني: أن اللفظة غيرت عن بابها للازدواج مع خالع وله نظير.

وأما المعنوي: فإن الشح والجبن أردى الصفتين في العبد، ولا سيما إذا كان شحه هالعاً، أي: ملق له في الهلع وجبنه خالعاً، أي: قد خلع قلبه من مكانه فلا سماحة ولا شجاعة ولا نفع بماله، ولا ببدنه، كما يقال: لا طعنة، ولا جفنة، ولا يطرد، ولا يشرد بل قد قمعه، وصغره، وحقره، ودساه الشح، والخوف، والطمع، والفزع.

وإذا أردت معرفة الهلوع فهو الذي إذا أصابه الجوع مثلاً أظهر الاستجاعة وأسرع بها، وإذا أصابه الألم أسرع الشكاية وأظهرها، وإذا أصابه القهر أظهر الاستكانة، وباء بها سريعاً، وإذا أصابه الجوع أسرع الانطراح على جنبه وأظهر الشكاية، وإذا بدا له مأخذ طمع طار إليه سريعاً، وإذا ظفر به أحله من نفسِه محل الروح، فلا احتمال ولا إفضال، وهذا كله من صغر النفس ودناءتها، وتدسيسها في البدن، وإخفائها، وتحقيرها، والله المستعان[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٣].

السكون في الصلاة هو الدوام. قال عبد الله بن المبارك عن ابن لهيعة: حدثني يزيد بن أبي حبيب: أنا أبا الخير أخبره قال: سألنا عقبة بن عامر عن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ أهم الذين يصلون دائماً؟ قال: لا، ولكنه إذا صلى لم يلتفت عن يمينه ولا عن شماله ولا خلفه.

قلت: هما أمران: الدوام عليها، والمداومة عليها، فهذا الدوام، والمداومة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: ٣٤]، وفسر «الدوام» بسكون الأطراف والطمأنينة[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ٣٣].

فيكون قائماً بشهادته في باطنه وظاهره، وفي قلبه وقالبه. فإن من الناس من تكون شهادته ميتة، ومنهم من تكون نائمة إذا نبهت انتبهت، ومنهم من تكون مضطجعة، ومنهم من تكون إلى القيام أقرب، وهي في القلب بمنزلة الروح من

---

(١) عدة الصابرين (٢٧٤، ٢٧٥). (٢) مدارج السالكين (٢/ ٣٨٤).

البدن، فروح ميتة، وروح مريضة إلى الموت أقرب، وروح إلى الحياة أقرب، وروح صحيحة قائمة بمصالح البدن.

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبد عند الموت إلا وجدت روحه لها رَوْحاً»، فحياة هذا الروح بهذه الكلمة، فكما أن حياة البدن بوجود الروح فيه، وكما أن من مات على هذه الكلمة فهو في الجنة يتقلب فيها، فمن عاش على تحقيقها والقيام بها فروحه تتقلب في جنة المأوى وعيشها أطيب عيش. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

فالجنة مأواه يوم اللقاء، وجنة المعرفة والمحبة والأنس بالله، والشوق إلى لقائه، والفرح به، والرضى عنه وبه، مأوى روحه في هذه الدار(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ [المعارج: ٣٨، ٣٩].

وأنت إذا تأملت ارتباط إحدى الجملتين بالأخرى وجدت تحتها كنزاً عظيماً من كنوز المعرفة والعلم.

فأشار سبحانه بمبدأ خلقه مما يعلمون من النطفة وما بعدها إلى موضع الحجة، والآية الدالة على وجوده ووحدانيته وكماله وتفرده بالربوبية والإلهية، وأنه لا يحسن به مع ذلك أن يتركهم سدى لا يرسل إليهم رسولاً ولا ينزل عليهم كتاباً، وأنه لا يعجز مع ذلك أن يخلقهم بعدما أماتهم خلقاً جديداً، ويبعثهم إلى دار يوفيهم فيها أعمالهم من الخير والشر.

فكيف يطمعون في دخول الجنة وهم يكذبونني، ويكذبون رسلي ويعدلون بي خلقي وهم يعلمون من أي شيء خلقتهم.

ويشبه هذا قوله: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، وهم كانوا مصدقين بأنه خالقهم، ولكن احتج عليهم بخلقه لهم على توحيده ومعرفته وصدق رسله، والإيمان بالمعاد(٢).

* * *

(١) الجواب الكافي (٢٦٦).
(٢) شفاء العليل (٣٦).

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١].

أقسم سبحانه برب المشارق والمغارب، وهي إما مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، وأن كل موضع من الجهة مشرق ومغرب، فكذلك جمع في موضع وأفرد في موضع وثنى في موضع آخر فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ [الرحمٰن: ١٧]، فقيل: هما مشرقا الصيف والشتاء، وجاء في كل موضع ما يناسبه فجاء في سورة الرحمٰن: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾؛ لأنها سورة ذكرت فيها المزدوجات فذكر فيها الخلق والتعليم، والشمس والقمر، والنجوم والشجر، والسماء والأرض، والحب والثمر، والجن والإنس، ومادة أبي البشر وأبي الجن، والبحرين والجنة والنار، وقسم الجنة إلى جنتين عاليتين وجنتين دونهما، وأخبر أن في كل جنة عينين، فناسب كل المناسبة أن يذكر المشرقين والمغربين، وأما سورة: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ﴾ [المعارج: ١] فإنه أقسم سبحانه على عموم قدرته وكمالها وصحة تعلقها بإعادتها بعد العدم، فذكر المشارق والمغارب بلفظ الجمع، إذ هو أدل على المقسم عليه سواء أريد مشارق النجوم ومغاربها، أو مشارق الشمس ومغاربها، أو كل جزء من جهتي المشرق والمغرب.

فكل ذلك آية ودلالة على قدرته تعالى على أن يبدل أمثال هؤلاء المكذبين وينشئهم فيما لا يعلمون فيأتي بهم في نشأة أخرى كما يأتي بالشمس كل يوم من مطلع ويذهب بها في مغرب.

وأما في سورة المزمل فذكر المشرق والمغرب بلفظ الإفراد؛ لما كان المقصود ذكر ربوبيته ووحدانيته، وكما أنه تفرد بربوبية المشرق والمغرب وحده، فكذلك يجب أن يتفرد بالربوبية والتوكل عليه وحده.

فليس للمشرق والمغرب رب سواه، فكذلك ينبغي أن لا يتخذ إلٰه ولا وكيل سواه، وكذلك قال موسى لفرعون حين سأله: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، فقال: ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

وفي ربوبيته سبحانه للمشارق والمغارب تنبيه على ربوبيته السماوات وما حوته من الشمس والقمر، والنجوم، وربوبيته ما بين الجهتين، وربوبيته الليل والنهار وما تضمناه.

ثم قال: ﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ﴾.

أي: لقادرون على أن نذهب بهم ونأتي بأطوع لنا منهم وخيراً منهم، كما قال تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٣٣].

وقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: لا يفوتني ذلك إذا أردته ولا يمتنع مني وعبر عن هذا المعنى بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾؛ لأن المغلوب يسبقه الغالب إلى ما يريده فيفوت عليه؛ ولهذا عدى بعلى دون إلى، كما في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، فإنه لما ضمنه معنى مغلوبين ومقهورين عداه بعلى، بخلاف سبقه إليه، فإنه فرق بين سبقته إليه وسبقته عليه.

فالأول: بمعنى: غلبته وقهرته عليه.

والثاني: بمعنى: وصلت إليه قبله.

□ □ □

وقد وقع الإخبار عن قدرته سبحانه عن تبديلهم بخير منهم، وفي بعضها تبديل أمثالهم، وفي بعضها استبداله قوماً غيرهم ثم لا يكونوا أمثالهم.

فهذه ثلاثة أمور يجب معرفة ما بينها من الجمع والفرق.

فحيث وقع التبديل بخير منهم فهو إخبار عن قدرته على أن يذهب بهم ويأتي بأطوع وأتقى له منهم في الدنيا، وذلك قوله: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم﴾ [محمد: ٣٨]، يعني: بل يكونوا خيراً منكم. قال مجاهد: يستبدل بهم من شاء من عباده فيجعلهم خيراً من هؤلاء، فلم يتولوا بحمد الله فلم يستبدل بهم.

وأما ذكره تبديل أمثالهم، ففي سورة الواقعة وسورة الإنسان. فقال في الواقعة: ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الواقعة: ٦٠، ٦١]، وقال في سورة الإنسان: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٨].

قال كثير من المفسرين: المعنى: أنا إذا أردنا أن نخلق خلقاً غيركم لم يسبقنا سابق، ولم يفتنا ذلك.

وفي قوله: ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ إذا شئنا أهلكناهم وأتينا بأشباههم، فجعلناهم بدلاً منهم. قال المهدوي: قوماً موافقين لهم في الخلق مخالفين لهم في العمل، ولم يذكر الواحدي ولا ابن الجوزي غير هذا القول. وعلى هذا فتكون هذه

الآيات نظير قوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، فيكون استدلالاً بقدرته على إذهابهم والإتيان بأمثالهم على إتيانه بهم أنفسهم إذا ماتوا.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ۝٤٢ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ **[المعارج: ٤٢ ـ ٤٣].**

وهذا تهديد شديد يتضمن ترك هؤلاء الذين قامت عليهم حجتي فلم يقبلوها، ولم يخافوا بأسي ولا صدقوا رسالاتي في خوضهم بالباطل ولعبهم، فالخوض في الباطل ضد التكلم بالحق، واللعب ضد السعي الذي يعود نفعه على ساعيه، فالأول ضد العلم النافع، والثاني ضد العمل الصالح، فلا تكلم بالحق، ولا عمل بالصواب، وهذا شأن كل من أعرض عما جاء به الرسول لا بد له من هذين الأمرين.

ثم ذكر سبحانه حالهم عند خروجهم من القبور، فقال: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾.

أي: يسرعون، والنصب العَلَم والغاية التي تنصب فيؤمونها، وهذا من ألطف التشبيه وأبينه وأحسنه، فإن الناس يقومون من قبورهم مهطعين إلى الداعي، يؤمُّون الصوت، لا يعرجون عنه يمنة ولا يسرة كما قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [طه: ١٠٨] أي: يقبلون من كل أوب إلى صوته وناحيته، لا يعرجون عنه.

قال الفراء: وهذا كما تقول: دعوتك دعوة لا عوج لك عنها.

وقال الزجاج: المعنى: لا عوج لهم عن دعائه، أي: لا يقدرون إلا على اتباعه وقصده.

* * *

قوله تعالى: ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ **[المعارج: ٤٤].**

فوصفهم بذل الظاهر، وهو خشوع الأبصار، وذل الباطن، وهو ما يرهقهم من الذل الذي خشعت عنه أبصارهم.

وقريب من هذا قوله: ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٤، ٢٥]، ونظيره قوله: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧].

وضد هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ﴾ [طه: ١١٨]، فنفى عنه

الجوع الذي هو ذل الباطن والعري الذي هو ذل الظاهر، وضده أيضاً قوله: ﴿وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١] فالنضرة عز الظاهر وجماله، والسرور عز الباطن وجماله، ومثله أيضاً قوله: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢١]، فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، فجمع لهم بين زينة الظاهر والباطن.

ومثله قوله: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦، ٧] فزين ظاهرها بالنجوم وباطنها بالحفظ من كل شيطان رجيم.

ومثله قوله أيضاً: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، وقريب منه قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ومنه قوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

فجمع لهؤلاء بين جمال الظاهر والباطن ولأولئك بين تسويد الظاهر والباطن.

ومنه قول امرأة العزيز: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، فوصفت ظاهره بالجمال وباطنه بالعفة، فوصفته بجمال الظاهر والباطن، فكأنها قالت: هذا ظاهره، وباطنه أحسن من ظاهره، وهذا كله يدلك على ارتباط الظاهر بالباطن قدراً وشرعاً، والله أعلم بالصواب(١).



(١) التبيان في أقسام القرآن (١٩٤ ـ ٢٠٣).

سُوْرةُ نُوحٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

أي: لا تعاملونه معاملة من توقرونه، والتوقير: العظمة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَتُوَقِّـرُوهُ﴾ [الفتح: ٩]، قال الحسن: ما لكم لا تعرفون لله حقاً ولا تشكرونه؟ وقال مجاهد: لا تبالون عظمة ربكم، وقال ابن زيد: لا ترون لله طاعة، وقال ابن عباس: لا تعرفون حق عظمته.

وهذه الأقوال ترجع إلى معنى واحد وهو: أنهم لو عظموا الله وعرفوا حق عظمته وحدوده وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه بحسب وقاره في القلب، ولهذا قال بعض السلف: ليعظم وقار الله في قلب أحدكم أن يذكره عندما يستحي من ذكره، فيقرن اسمه به كما تقول: قبح الله الكلب والخنزير والنتن ونحو ذلك، فهذا من وقار الله.

ومن وقاره أن لا تعدل به شيئاً من خلقه، لا في اللفظ بحيث تقول: والله وحياتك، ما لي إلا الله وأنت، وما شاء الله وشئت، ولا في الحب والتعظيم والإجلال، ولا في الطاعة فتطيع المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله بل أعظم، كما عليه أكثر الظلمة والفجرة ولا في الخوف والرجاء، ويجعله أهون الناظرين إليه.

ولا يستهين بحقه ويقول: هو مبني على المسامحة ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه ولا يكون الله ورسوله في حد وناحية والناس في ناحية وحد، فيكون في الحد والشق الذي فيه الناس دون الحد والشق الذي فيه الله ورسوله، ولا يعطي المخلوق في مخاطبته قلبه ولبه ويعطي الله في خدمته بدنه ولسانه دون قلبه وروحه، ولا يجعل مراد نفسه مقدماً على مراد ربه.

فهذا كله من عدم وقار الله في القلب، ومن كان كذلك فإن الله لا يلقي له في

قلوب الناس وقاراً ولا هيبة بل يسقط وقاره وهيبته من قلوبهم، وإن وقروه مخافة شره، فذاك وقار بغض لا وقار حب وتعظيم.

ومن وقار الله أن يستحي من اطلاعه على سره وضميره، فيرى فيه ما يكره، ومن وقاره أن يستحي منه في الخلوة أعظم مما يستحي من أكابر الناس.

والمقصود: أن من لا يوقر الله وكلامه وما آتاه من العلم والحكمة كيف يطلب من الناس توقيره وتعظيمه؟!

القرآن والعلم وكلام الرسول ﷺ صلات من الحق وتنبيهات وروادع وزواجر واردة إليك، والشيب زاجر ورادع موقظ قائم بك، فلا ما ورد إليك وعظك! ولا ما قام بك نصحك! ومع هذا تطلب التوقير والتعظيم من غيرك! فأنت كمصاب لم تؤثر فيه مصيبته وعظاً وانزجاراً وهو يطلب من غيره أن يتعظ وينزجر بالنظر إلى مصابه، فالضرب لم يؤثر فيه زجراً وهو يريد الانزجار ممن نظر إلى ضربه[١].



وقالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة وما أحسن ما قال شيخ الإسلام في تعظيم الأمر والنهي: هو أن لا يعارضا بترخيص جاف، ولا يعرضا لتشديدٍ غالٍ، ولا يحملا على علة توهن الانقياد.

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق ﷻ تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه ﷻ برسالته التي أرسل بها رسول الله ﷺ إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله ﷻ واتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله تعالى ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والصدق، وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر[٢].



قوله تعالى: ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢١ ـ ٢٤].

---

(١) الفوائد (١٨٣، ١٨٤).

(٢) الوابل الصيب (١٠، ١١) بتحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.

قال ابن جرير: وكان من خبر هؤلاء ـ فيما بلغنا ـ ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس: أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صوَّرناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوَّروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم.

قال سفيان عن أبيه عن عكرمة قال: كان بين آدم ونوح عليه السلام عشرة قرون كلهم على الإسلام[١].

حدثنا ابن عبد الأعلى، حدثنا عبد الرزاق[٢] عن معمر عن قتادة في هذه الآية قال: كانت آلهة يعبدها قوم نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وكان سواع الهذيل، وكان يغوث لبني غطيف من مراد[٣] بالجرف، وكان يعوق لهمدان، وكان نسر لذي الكلاع من حمير.

وقال الوالبي عن ابن عباس: هذه أصنام كانت تعبد في زمان نوح عليه السلام.

وقال البخاري: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام عن ابن جريج قال: قال عطاء عن ابن عباس: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع؛ أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي[٤] العلم عُبدت.

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري (٢٩/ ٩٨، ٩٩).

(٢) هكذا في المطبوع من «إغاثة اللهفان»، وأشار محققه الشيخ حامد الفقي رحمه الله تعالى أنه كذلك في الأصول، وفي تفسير ابن جرير (٢٩/ ٩٩). «... حدثنا ابن ثور...»، وانظر: تهذيب التهذيب (١٠/ ٢٤٣)، ترجمة رقم (٤٣٩) و(٦/ ٩٦)، ترجمة رقم (١٩٩) و(٩/ ٨٧)، ترجمة رقم (١١٤).

(٣) في تفسير ابن جرير: «من مراد بالجُرف».

(٤) في البخاري: «وتَنَسَّخ» (٨/ ٥٣٥) في التفسير، سورة نوح، باب ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا ...﴾ الآية.

وقال غير واحد من السلف: كان هؤلاء قوماً صالحين في قوم نوح عليه السلام، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم.

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور وفتنة التماثيل، وهما الفتنتان اللتان أشار إليهما رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم في الحديث المتفق على صحته عن عائشة رضي الله عنها: «أن أم سلمة رضي الله عنها ذكرت لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية. فذكرت له ما رأت فيها من الصور، فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: أولئك قوم إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله تعالى»(١).

وفي لفظ آخر في الصحيحين: «أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها»(٢).

فجمع في هذا الحديث بين التماثيل والقبور، وهذا كان سبب عبادة اللات.

فروى ابن جرير بإسناده عن سفيان عن منصور عن مجاهد: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩]، قال: «كان يلت لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره»، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان يلت السويق للحاج»(٣).

فقد رأيت أن سبب عبادة ودٍّ ويغوث ويعوق ونسر واللات إنما كانت من تعظيم قبورهم، ثم اتخذوا لها التماثيل وعبدوها كما أشار إليه النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم(٤).



(١) رواه البخاري في مواضع منها: (١٣٤١)، ومسلم (٥٢٨).

(٢) صحيح البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

(٣) تفسير الطبري (٢٧/ ٥٨، ٥٩).

(٤) إغاثة اللهفان (١/ ١٨٣، ١٨٤).

سُوْرَةُ الجِنّ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ **[الجن: ٥]**.

فهذا يعرف سره من السياق، فإن هذا حكاية كلام مؤمني الجن حين سماع القرآن، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ [الجن: ١].

وكان القرآن أول ما خوطب به الإنس ونزل على نبيهم وهم أول من بدأ بالتصديق والتكذيب قبل الجن، فجاء قول مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بتقديم الإنس لتقدمهم في الخطاب بالقرآن وتقديمهم في التصديق والتكذيب، وفائدة ثالثة وهي: أن هذا حكاية كلام مؤمني الجن لقومهم بعد أن رجعوا إليهم، فأخبروهم بما سمعوا من القرآن وعظمته وهدايته إلى الرشد، ثم اعتذروا عما كانوا يعتقدونه أولاً بخلاف ما سمعوه من الرشد بأنهم لم يكونوا يظنون أن الإنس والجن يقولون على الله كذباً.

فذكرهم الإنس هنا في التقديم أحسن في الدعوة وأبلغ في عدم التهمة، فإنهم خالفوا ما كانوا يسمعونه من الإنس والجن لما تبين لهم كذبهم، فبداءتهم بذكر الإنس أبلغ في نفي الغرض والتهمة وأن لا يظن بهم قومهم أنهم ظاهروا الإنس عليهم، فإنهم أول ما أقروا بتقولهم الكذب على الله، وهذا من ألطف المعاني وأدقها، ومن تأمل مواقعه في الخطاب عرف صحته[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ **[الجن: ٦]**.

---

(١) بدائع الفوائد (١/ ٦٧).

المستعاذ به هو الله وحده رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر ـ تعالى ـ في كتابه عن من استعاذ بخلقه، أن استعاذته زادته طغياناً ورهقاً، فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

جاء في التفسير: أنه كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح.

أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً، أي: طغياناً وإثماً وشراً، يقولون: سدنا الإنس والجن.

والرهق في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ [الجن: ١١].

قال مجاهد: يعنون: مسلمين وكافرين.

وقال الحسن والسدي: أمثالكم: فمنهم قدرية ومرجئة ورافضة، وقال سعيد بن جبير: ألواناً شتى، وقال ابن كيسان: شيعاً وفرقاً.

ومعنى الكلام: أصنافاً مختلفة ومذاهب متفرقة.

ثم قيل في إعراب الآية: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ قوم دون ذلك فحذف الموصوف، وأقام صفته مقامه كقوله: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤]، أي: إلا من له مقام معلوم وكقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: فريق سماعون. وكقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، أي: فريق يحرفون.

وقولهم: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ بيان لقولهم: ﴿مِّنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، أي: كنا

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٠٣).

ذوي طرائق وهي ـ المذاهب ـ واحدها طريقة وهي: المذهب، وقدد جمع قدة كقطعة وقطع وزناً ومعنى، وهي من القد وهو القطع.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ **[الجن: ١٤]**.

فالمسلمون الذين آمنوا بالله ورسوله منهم، والقاسطون الجائرون العادلون عن الحق.

قال ابن عباس: هم الذين جعلوا لله أنداداً.

يقال: أقسط الرجل إذا عدل فهو مقسط ومنه: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: ٩].

وقسط إذا جار فهو قاسط:

قد تضمنت هذه الآيات انقسامهم إلى ثلاث طبقات: صالحين، ودون الصالحين، وكفار، وهذه الطبقات بإزاء طبقات بني آدم فإنها ثلاثة: أبرار، ومقتصدون، وكفار. فالصالحون بإزاء الأبرار ومن دونهم بإزاء المقتصدين، والقاسطون بإزاء الكفار، وهذا كما قسم سبحانه بني إسرائيل إلى هذه الأقسام الثلاثة في قوله: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فهؤلاء الناجون منهم، ثم ذكر الظالمين وهم خلف السوء الذين خلفوا بعدهم.

ولما كان الإنس أكمل من الجن وأتم عقولاً ازدادوا عليهم بثلاثة أخر، ليس شيء منها للجن، وهم: الرسل، والأنبياء، والمقربون، فليس في الجن صنف من هؤلاء، بل حيلتهم الصلاح.

وذهب شذاذ من الناس إلى أن فيهم الرسل والأنبياء محتجين على ذلك بقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، وبقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. وقد قال الله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء: ١٦٥].

وهذا قول شاذ لا يلتفت إليه ولا يعرف به سلف من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] لا يدل على أن

الرسل من كل واحدة من الطائفتين، بل إذا كانت الرسل من الإنس وقد أمرت الجن باتباعهم صح أن يقال للإنس والجن: ألم يأتكم رسل منكم؟

ونظير هذا أن يقال للعرب والعجم: ألم يجئكم رسل منكم يا معشر العرب والعجم؟ فهذا لا يقتضي أن يكون من هؤلاء رسل ومن هؤلاء.

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ [نوح: ١٦]. وليس في كل سماء قمر، وقوله تعالى: ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]. فالإنذار أعم من الرسالة والأعم لا يستلزم الأخص، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢] فهؤلاء نُذر وليسوا برسل.

قال غير واحد من السلف: الرسل من الإنس وأما الجن ففيهم النذر، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [يوسف: ١٠٩]، فهذا يدل على أنه لم يرسل جنياً ولا امرأة ولا بدوياً.

وأما تسميته تعالى الجن رجالاً في قوله: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦].

فلم يطلق عليهم الرجال بل هي تسمية مقيدة بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، فهم رجال من الجن ولا يستلزم ذلك دخولهم في الرجال عند الإطلاق كما تقول: رجال من حجارة، ورجال من خشب، ونحوه[(١)].



(١) طريق الهجرتين (٣٨٥ ـ ٣٨٧).

سُوْرَةُ المُزَّمِّلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِىَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ **[المزمل: ٦]**.

قال الجوهري: وناشئة الليل أول ساعاته.

قلت: هذا قد قاله غير واحد من السلف: إن ناشئة الليل أوله التي منها ينشأ الليل.

والصحيح: أنها لا تختص بالساعة الأولى، بل هي ساعاته ناشئة كلما انقضت ساعة نشأت بعدها أخرى.

وقال أبو عبيدة: ناشئة الليل ساعاته وآناؤه ناشئة بعد ناشئة. قال الزجاج: ناشئة الليل كل ما نشأ منه، أي: حدث منهم فهو ناشئة.

قال ابن قتيبة: هي آناء الليل وساعاته مأخوذة من نشأت تنشأ نشأ، أي: ابتدأت وأقبلت شيئاً بعد شيء، وأنشأها الله فنشأت، والمعنى: أن ساعات الليل الناشئة[1].

وقول صاحب الصحاح منقول عن كثير من السلف. قال علي بن الحسين: ناشئة الليل ما بين المغرب إلى العشاء، وهذا قول أنس وثابت وسعيد بن جبير والضحاك والحكم واختيار الكسائي قالوا: ناشئة الليل أوله، وهؤلاء راعوا معنى الأولية في الناشئة.

وفيها قول ثالث: إن الليل كله ناشئة، وهذا قول عكرمة وأبي مجلز ومجاهد والسدي وابن الزبير وابن عباس في رواية.

قال ابن مليكة: سألت ابن الزبير وابن عباس عن ناشئة الليل فقالا: الليل كله ناشئة.

فهذه أقوال من جعل ناشئة الليل زماناً، وأما من جعلها فعلاً ينشأ بالليل: فالناشئة عندهم اسم لما يفعل بالليل من القيام، وهذا قول ابن مسعود ومعاوية بن

---

(١) انظر: «تأويل مشكل القرآن» (٣٦٥).

قرة وجماعة قالوا: ناشئة الليل قيام الليل، وقال آخرون: منهم عائشة إنما يكون القيام ناشئة إذ تقدمه نوم.

قالت عائشة: ناشئة الليل القيام بعد النوم. وهذا قول ابن الأعرابي قال: إذا نمت من أول الليل نومة ثم قمت فتلك النشأة، ومنه ناشئة الليل.

فعلى قول الأولين: ناشئة الليل بمعنى من إضافة نوع إلى جنسه، أي: ناشئة منه، وعلى قول هؤلاء إضافة بمعنى في أي: طاعة ناشئة فيه.

والمقصود: أن الإنشاء ابتداء سواء تقدمه مثله كالنشأة الثانية أو لم يتقدمه كالنشأة الأولى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

و«التبتل»: الانقطاع. وهو تفعل من البتل، وهو: القطع، وسميت مريم البتول لانقطاعها عن الزواج وعن أن يكون لها نظراء من نساء زمانها. ففاقت نساء الزمان شرفاً وفضلاً. وقطعت منهن، ومصدر بتل تبتلاً كالتعلم والتفهم، ولكن جاء على التفعيل ـ مصدر تفعل ـ لسر لطيف: فإن في هذا الفعل إيذاناً بالتدريج والتكلف والتعمل والتكثر والمبالغة فأتى بالفعل الدال على أحدهما، وبالمصدر الدال على الآخر. فكأنه قيل: بتِّل نفسك إلى الله تبتيلاً، وتبتل إليه تبتلاً. ففهم المعنيان من الفعل ومصدره، وهذا كثير من القرآن، وهو من أحسن الاختصار والإيجاز(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

فأخبر سبحانه أنه أرسل محمداً ﷺ إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون وأن فرعون عصى رسوله، فأخذه أخذاً وبيلاً، فهكذا من عصى منكم محمداً ﷺ، وهذا في القرآن كثير جداً فقد فتح لك بابه(٣).

* * *

---

(١) شفاء العليل (١٣٣٢).
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٩).
(٣) إعلام الموقعين (١/ ١٨٦).

سُورَةُ المُدَّثِّر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٤].

وجمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم على أن المراد بالثياب هاهنا القلب والمراد بالطهارة: إصلاح الأعمال والأخلاق.

قال الواحدي: اختلف المفسرون في معناه، فروى عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: يعني: من الإثم ومما كانت الجاهلية تجيزه؛ وهذا قول قتادة ومجاهد، قالا: نفسك فطهرها من الذنب. ونحوه قول الشعبي وإبراهيم والضحاك والزهري، وعلى هذا القول: الثياب: عبارة عن النفس، العرب تكني بالثياب عن النفس ومنه قول الشماخ:

رموها بأثواب خفاف فلا ترى ... لها شبهاً إلا النعام المنَفَّرا

رموها يعني: الركاب[1] بأبدانهم، وقال عنترة:

فشككتُ بالرمح الأصمِّ ثيابه ... ليس الكريم على القنى بمحرم

يعني: نفسه.

وقال في رواية الكلبي: يعني: لا تغدر فتكون غادراً دنس الثياب وخبيثاً.

وقال سعيد بن جبير: كان الرجل إذا كان غادراً قيل: دنس الثياب وخبيث الثياب. وقال عكرمة: لا تلبس ثوبك على معصية ولا على فجرة، وروي ذلك عن ابن عباس واحتج بقول الشاعر:

وإني بحمد اللّه لا ثوب غادر ... لبست ولا من خِزية أتقنع

وهذا المعنى أراد من قال في هذه الآية: وعملك فأصلح. وهو قول أبي رزين ورواية منصور عن مجاهد وأبي روق، وقال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحاً:

---

(١) في هامش «إغاثة اللهفان»، وفي نسخة: «يعني: الإبل».

إنه لطاهر الثياب وإذا كان فاجراً: إنه لخبيث الثياب، قال الشاعر:

لَاهُمَّ إنَّ عامِرَ بنَ جَهْمِ أَوْذَمَ حَجّاً في ثِيَابٍ دُسْمِ(١)

يعني: أنه متدنس بالخطايا. وكما وصفوا الغادر الفاجر بدنس الثوب وصفوا الصالح بطهارة الثوب قال امرؤ القيس:

ثيابُ بَني عَوف طهَارَى نَقيَّة

يريد: أنهم لا يغدرون بل يفون.

وقال الحسن: خلقك فحسنه. وهذا قول القرطبي، وعلى هذا: الثياب عبارة عن الخُلُق، لأن خلق الإنسان يشتمل على أحواله اشتمال ثيابه على نفسه.

وروى العوفي عن ابن عباس في هذه الآية: لا تكن ثيابك التي تلبس من مكسب غير طيب. والمعنى: طهرها من أن تكون مغصوبة أو من وجه لا يحل اتخاذها منه.

وروي عن سعيد بن جبير: وقلبك ونيتك فطهر.

وقال أبو العباس: الثياب. اللباس، ويقال: القلب. وعلى هذا ينشد:

فسُلِّي ثيابي من ثيابك تَنْسلي

وذهب بعضهم في تفسير هذه الآية إلى ظاهرها، وقال: إنه أمر بتطهير ثيابه من النجاسات التي لا تجوز معها الصلاة، وهو قول ابن سيرين وابن زيد وذكر أبو إسحاق: وثيابك فقصر. قال: لأن تقصير الثوب أبعد من النجاسة، فإنه إذا انجر على الأرض لم يؤمن أن يصيبه ما ينجسه وهذا قول طاوس.

وقال ابن عرفة: معناه: نساءك طهرهن. وقد يكنى عن النساء بالثياب واللباس، قال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ويكنى عنهن بالإزار، ومنه قول الشاعر:

ألا أبلغ أبا حفص رسولاً فدى لك من أخي ثقة: إزاري

أي: أهلي، ومنه قول البراء بن معرور للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ليلة العقبة: «لنمنعك مما نمنع منه أزرنا»(٢)، أي: نساءنا.

□ □ □

(١) في هامش «الإغاثة» أو ذم الحج: أوجبه على نفسه، والدسم: جمع دسم، أي: دنس، يقول: أحرم بالحج وهو متلطخ بالذنوب.

(٢) الحديث في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٠).

قلت: الآية تعم هذا كله وتدل عليه بطريق التنبيه واللزوم، إن لم تتناول ذلك لفظاً فإن المأمور به إن كان طهارة القلب، فطهارة الثوب وطيب مكسبه تكميل لذلك، فإن خبث الملبس يكسب القلب هيئة خبيثة، كما أن خبث المطعم يكسبه ذلك؛ ولذلك حرم لبس جلود النمور والسباع بنهي النبي ﷺ عن ذلك في عدة أحاديث صحاح[(١)] لا معارض لها، لما تكسب القلب من الهيئة المشابهة لتلك الحيوانات، فإن الملابسة الظاهرة تسري إلى الباطن، ولذلك حرم لبس الحرير والذهب على الذكور لما يكتسب القلب من الهيئة التي تكون لمن ذلك لبسه من النساء وأهل الفخر والخيلاء.

والمقصود: أن طهارة الثوب وكونه من مكسب طيب هو من تمام طهارة القلب وكمالها، فإن كان المأمور به ذلك فهو وسيلة مقصودة لغيرها، فالمقصود لنفسه أولى أن يكون مأموراً به، وإن كان المأمور به طهارة القلب وتزكية النفس، فلا يتم إلا بذلك، فتبين دلالة القرآن على هذا وهذا[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

قال المفسرون من السلف ومن بعدهم: لا تعط عطاء تطلب أكثر منه وهو أن تهدي ليهدى إليك أكثر من هديتك[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ﴾ [المدثر: ٣١].

أخبر الله سبحانه عن الحكمة التي جعل لأجلها عدة الملائكة الموكلين بالنار تسعة عشر، فذكر سبحانه خمس حكم:

فتنة الكافرين فيكون ذلك زيادة في كفرهم وضلالهم.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٤/ ١٠١) عن معاوية رضي الله عنه (٥/ ٧٤) من حديث أبي المليح عن أبيه أسامة الهذلي رضي الله عنه، والترمذي (٤/ ٢١٢) في اللباس، باب: ما جاء في النهي عن جلود السباع، وأبو داود (الصحيح) (٢/ ٧٧٨) في اللباس، باب: في جلود النمور، والنسائي (٧/ ١٧٦) في اللباس، باب: النهي عن الانتفاع بجلود السباع.

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٥٢ ـ ٥٥).

(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٢٢٥).

وقوة يقين أهل الكتاب فيقوى يقينهم بموافقة الخبر بذلك، لما عندهم عن أنبيائهم من غير تلقٍّ من رسول الله ﷺ عنهم، فتقوم الحجة على معاندهم وينقاد للإيمان من يرد الله أن يهديه.

وزيادة إيمان الذين آمنوا بكمال تصديقهم بذلك والإقرار به.

وانتفاء الريب عن أهل الكتاب لجزمهم بذلك، وعن المؤمنين لكمال تصديقهم به.

فهذه أربع حكم: فتنة الكفار، ويقين أهل الكتاب، وزيادة إيمان المؤمنين، وانتفاء الريب عن المؤمنين وأهل الكتاب.

والخامسة: حيرة الكافر ومن في قلبه مرض وعمي قلبه عن المراد بذلك، فيقول: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۚ﴾ وهذا حال القلوب عند ورود الحق المنزل عليها: قلب يفتتن به كفراً وجحوداً، وقلب يزداد به إيماناً وتصديقاً، وقلب يتيقنه فتقوم عليه به الحجة، وقلب يوجب له حيرة وعمى، فلا يدري ما يراد به.

واليقين وعدم الريب في هذا الموضع إن رجعا إلى شيء واحد كان ذكر عدم الريب مقرراً لليقين، ومؤكداً له، ونافياً عنه ما يضاده بوجه من الوجوه، وإن رجعا إلى شيئين بأن يكون اليقين راجعاً إلى الخبر المذكور عن عدة الملائكة وعدم الريب عائداً إلى عموم ما أخبر الرسول به، لدلالة هذا الخبر الذي لا يعلم إلا من جهة الرسل على صدقه، فلا يرتاب من قد عرف صحة هذا الخبر بعد صدق الرسول ﷺ فظهرت فائدة ذكره(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ **[المدثر: ٣٢ ـ ٣٧].**

أقسم سبحانه بالقمر الذي هو آية الليل، وفيه من الآيات الباهرة الدالة على ربوبية خالقه وبارئه وحكمته وعلمه وعنايته بخلقه ما هو معلوم بالمشاهدة، وهو سبحانه أقسم بالسماء وما فيها بما لا نراه من الملائكة، وما فيها مما نراه من الشمس والقمر والنجوم، وما يحدث بسبب حركات الشمس والقمر من الليل والنهار وكل ذلك آية من آياته ودلالة من دلائل ربوبيته.

---

(١) إغاثة اللهفان (١٤، ١٥).

ومن تدبر أمر هذين النيرين العظيمين؛ وجدهما من أعظم الآيات في خلقهما وجرمهما ونورهما وحركتهما على نهج واحد لا ينيان ولا يفتران، دائبين ولا يقع في حركتهما اختلاف بالبطء والسرعة والرجوع والاستقامة والانخفاض والارتفاع، ولا يجري أحدهما في فلك صاحبه، ولا يدخل عليه في سلطانه، ولا تدرك الشمس القمر ولا يجيء الليل قبل انقضاء النهار، بل لكل حركة مقدرة، ونهج معين لا يشركه فيه الآخر، كما أن له تأثيراً ومنفعة لا يشركه فيها الآخر.

وذلك مما يدل من له أدنى عقل على أنه بتسخير مسخر، وأمر آمر، وتدبير مدبر بهرت حكمته العقول، وأحاط علمه بكل دقيق وجليل، وفوق ما علمه الناس من الحكم التي في خلقهما ما لا تصل إليه عقولهم، ولا تنتهي إلى مباديها أوهامهم، فغايتنا الاعتراف بجلال خالقهما وكمال حكمته ولطف تدبيره، وأن نقول ما قاله أولو الألباب قبلنا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١].

ولو أن العبد وصف له جرم أسود مستدير عظيم الخلق، يبدو فيه النور كخيطٍ متسخنٍ، ثم يتزايد كل ليلة حتى يتكامل نوره فيصير أضوأ شيء وأحسنه وأجمله، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود إلى حاله الأول، فيحصل بسبب ذلك معرفة الأشهر والسنين، وحساب آجال العالم: من مواقيت حجهم وصلاتهم ومواقيت أجائرهم، ومداييناتهم، ومعاملتهم التي لا تقوم مصالحهم إلا بها، فمصالح الدنيا والدين متعلقة بالأهلة.



وقد ذكر سبحانه ذلك في ثلاث آيات من كتابه: أحدها قوله: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٨٩]، والثانية قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥]، والثالثة قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢]، فلولا ما يحدثه الله سبحانه في آيات الليل من زيادة ضوئها ونقصانه لم يعلم ميقات الحج، والصوم والعدد، ومدة الرضاع، ومدة الحمل ومدة الإجارة، ومدة آجال الحاملات.



فإن قيل: كان يمكن هذا بحركة الشمس والأيام التي تحفظ بطلوع الشمس وغروبها، كما يعرف أهل الكتابين مواقيت صيامهم وأعيادهم بحساب الشمس.

قيل: هذا وإن كان ممكناً إلا أنه يعسر ضبطه ولا يقف عليه إلا الآحاد من الناس، ولا ريب أن معرفة أوائل الشهور وأوساطها وأواخرها بالقمر أمر يشترك فيه الناس، وهو أسهل من معرفة ذلك بحساب الشمس؛ وأقل اضطراباً واختلافاً، ولا يحتاج إلى تكلف حساب، وتقليد من لا يعرفه من الناس لمن يعرفه.

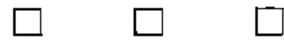
فالحكمة البالغة التي في تقدير السنين والشهور بسير القمر أظهر، وأنفع وأصلح، وأقل اختلافاً من تقديرها بسير الشمس، فالرب جل جلاله دبر الأهلة بهذا التدبير العجيب لمنافع خلقه، في مصالح دينهم ودنياهم، مع ما يتصل به من الاستدلال به على وحدانية الرب، وكمال حكمته، وعلمه وتدبيره، فشهادة الحق بتغير الأجرام الفلكية، وقيام أدلة الحدوث والخلق عليها، فهي آيات ناطقة بلسان الحال على تكذيب الدهرية، وزنادقة الفلاسفة والملاحدة القائلين: بأنها أزلية أبدية لا يتطرق إليها التغيير، ولا يمكن عدمها.

فإذا تأمل البصير القمر مثلاً، وافتقاره إلى محل يقوم به، وسيره دائباً لا يفتر، مسير، مسخر، مدبر، وهبوطه تارة، وارتفاعه تارة، وأفوله تارة، وظهوره تارة، وذهاب نوره شيئاً فشيئاً، ثم عوده إليه كذلك، وسبب ضوئه جملة واحدة حتى يعود قطعة مظلمة بالكسوف، علم قطعاً أنه مخلوق مربوب مسخر، تحت أمر خالق قاهر مسخر له كما يشاء، وعلم أن الرب سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، وأن هذه الحركة فيه لا بد أن تنتهي إلى الانقطاع والسكون، وأن هذا الضوء والنور لا بد أن ينتهي إلى ضده، وأن هذا السلطان لا بد أن ينتهي إلى العزل، وسيجمع بينهما جامع المتفرقات بعد أن لم يكونا مجتمعين، ويذهب بهما حيث شاء، ويرى المشركين من عبدتهما حال آلهتهم التي عبدوها من دونه، كما يرى عباد الكواكب انتثارها، وعباد السماء انفطارها، وعباد الشمس تكويرها، وعباد الأصنام إهانتها وإلقاءها في النار أحقر شيء وأذله وأصغره.

وهذه سنة الله التي لا تبدل، وعادته التي لا تحول: أنه يرى عابد غيره حال معبوده في الدنيا والآخرة، وإن كان المعبود غير راضٍ بعبادة غيره ويريه تبريه منه، ومعاداته له أحوج ما يكون إليه: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢]، ويعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين:

تـأمَّـل سـطـور الـكـائـنـات فـإنـهـا   من الـمَلِك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ   ألا كـل شـيء مـا خـلا الـلّـه بـاطـل

ولو شاء تعالى لأبقى القمر على حالة واحدة لا يتغير، وجعل التغيير في الشمس، ولو شاء لغيرهما معاً، ولو شاء لأبقاهما على حالة واحدة، ولكن يري عباده آياته في أنواع تصاريفها؛ ليدلهم على أنه الله الذي لا إله إلا هو الملك الحق المبين، الفعال لما يريد ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وأما تأثير القمر في ترطيب أبدان الحيوان والنبات، وفي المياه وجَزْرِ البحر ومده، وبحرانات الأمراض، وتنقلها من حال إلى حال، وغير ذلك من المنافع، فأمر ظاهر.



وأما إقسامه سبحانه بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾، فلِما في إدباره وإقبال النهار من أبين الدلالات الظاهرة على المبدأ والمعاد، فإنه مبدأ ومعاد يومي مشهود بالعيان، بينما الحيوان في سكون الليل قد هدأت حركاتهم، وسكنت أصواتهم، ونامت عيونهم، وصاروا إخوان الأموات، إذ أقبل من النهار داعيه، وأسمع الخلائق مناديه، فانتشرت منهم الحركات، وارتفعت منهم الأصوات، حتى كأنهم قاموا أحياء من القبور، يقول قائلهم: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور»، فهو معاد جديد بدأه وأعاده الذي يبدئ ويعيد، فمن ذهب بالليل وجاء بالنهار سوى الواحد القهار؟.

فمن تأمل حال الليل إذا عسعس وأدبر، والصبح إذا تنفس وأسفر، فهزم جيوش الظلام بنفسه، وأضاء أفق العالم بقبسه، وفل كتائب الكواكب بعساكره، وأضحك نواحي الأرض بتباشيره وبشائره، فيا لهما آيتان شاهدتان بوحدانية مُنشئهما، وكمال ربوبيته، وعظم قدرته وحكمته، فتبارك الذي جعل طلوع الشمس وغروبها مقيماً لسلطان الليل والنهار.

فلولا طلوعها لبطل أمر العالم كله، فكيف كان الناس يسعون في معاشهم، ويتصرفون في أمورهم، والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانت تهنيهم الحياة مع فقد لذة النور وروحه، وأي ثمار ونبات وحيوان كان يوجد؟ وكيف كانت تتم مصالح أبدان الحيوان والنبات؟

ولولا غروبها لم يكن للناس هدو ولا قرار، مع علم حاجتهم إلى الهدو، لراحة

أبدانهم، وجموم حواسهم. فلولا جثوم هذا الليل عليهم بظلمته ما هدؤوا ولا قروا ولا سكنوا، بل جعله أحكم الحاكمين سكناً ولباساً، كما جعل النهار ضياءً ومعاشاً. ولولا الليل وبرده لاحترقت أبدان النبات والحيوان من دوام شروق الشمس عليه، وكان يحرق ما عليها من نبات وحيوان.

فاقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن جعلها سراجاً يطلع على العالم في وقت حاجتهم إليه، ويغيب في وقت استغنائهم عنه. فطلوعه لمصلحتهم، وغيبته لمصلحتهم، وصار النور والظلمة على تضادهما متعاونين متضافرين على مصلحة هذا العالم وقوامه. فلو جعل الله سبحانه النهار سرمداً إلى يوم القيامة، والليل سرمداً إلى يوم القيامة لفاتت مصالح العالم، واشتدت الضرورة إلى تغيير ذلك وإزالته بضده.

وتأمل حكمته سبحانه في ارتفاع الشمس وانخفاضها لإقامة هذه الأزمنة الأربعة من السنة، وما في ذلك من مصالح الخلق: ففي الشتاء تغور الحرارة في الشجر والنبات، فيتولد منها مواد الثمار، ويكثف الهواء، فينشأ منه السحاب، وينعقد فيحدث المطر الذي به حياة الأرض ونماء أبدان الحيوان والنبات، وحصول الأفعال والقوى وحركات الطبائع. وفي الصيف يخرم الهواء، فينضج الثمار، وتشتد الحبوب، ويجفف وجه الأرض، فيتهيأ العمل، وفي الخريف يصفو الهواء، وتبرد الحرارة، ويمتد الليل، وتستريح الأرض والشجر للحمل والنبات مرة ثانية، بمنزلة راحة الحامل بين الحملين؛ ففي هذه الأزمنة مبدأ ومعاد مشهود، وشاهد بالمبدأ والمعاد الغيبي.

والمقصود: أن بحركة هذين النيرين تتم مصالح العالم، وبذلك يظهر الزمان، فإن الزمان مقدار الحركة. فالسنة الشمسية مقدار سير الشمس من نقطة الحمل إلى مثلها، والسنة القمرية مقدرة بسير القمر، وهو أقرب إلى الضبط. واشترك الناس في العلم به، وقدر أحكم الحاكمين تنقلهما في منازلهما، لما في ذلك من تمام الحكمة ولطف التدبير؛ فإن الشمس لو كانت تطلع وتغرب في موضع واحد لا تتعداه لما وصل ضوؤها وشعاعها إلى كثير من الجهات، فكان نفعها يفقد هناك، فجعل الله سبحانه طلوعها دولاً بين الأرض لينال نفعها وتأثيرها البقاع، فلا يبقى موضع من المواضع التي يمكن أن تطلع عليها إلا أخذ بقسطه من نفعها.

واقتضى هذا التدبير المحكم أن وقع مقدار الليل والنهار على أربعة وعشرين ساعة، ويأخذ كل منهما من صاحبه، ومنتهى كل منهما إذا امتد خمسة عشر ساعة، فلو

زاد مقدار النهار على ذلك إلى خمسين ساعة مثلاً أو أكثر لاختل نظام العالم وفسد أكثر الحيوان والنبات، ولو نقص مقداره عن ذلك لاختل النظام أيضاً وتعطلت المصالح، ولو استويا دائماً لما اختلفت فصول السنة التي باختلافها مصالح العباد والحيوان، فكان في هذا التقدير والتدبير المحكم من الآيات والمصالح والمنافع ما يشهد بأن ذلك تقدير العزيز العليم.

ولهذا يذكر سبحانه هذا التقدير ويضيفه إلى عزته وعلمه، كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

فهذه ثلاثة مواضع يذكر فيها أن تقدير حركات الشمس والقمر والأجرام العلوية وما ينشأ عنها كان من مقتضى عزته وعلمه، وأنه قدره بهاتين الصفتين، وفي هذا تكذيب لأعداء الله الملاحدة الذين ينفون قدرته واختياره؛ وعلمه بالمغيبات.



وأقسم سبحانه بهذه الأشياء ـ وهي القمر، والليل إذ أدبر، والصبح إذا أسفر ـ على المعاد لما في القسم من الدلالة على ثبوت المقسم عليه، فإنه يتضمن كمال قدرته وحكمته، وعنايته بخلقه، وإبداء الخلق وإعادته، كما هو مشهود في إبداء النهار والليل وإعادتهما، وفي إبداء النور وإعادته في القمر، وفي إبداء الزمان وإعادته الذي هو حاصل بسير الشمس والقمر، وإبداء الحيوان والنبات وإعادتهما، وإبداء فصول السنة وإعادتها، وإبداء ما يحدث في تلك الفصول وإعادته، فكل ذلك دليل ظاهر على المبدأ والمعاد الذي أخبرت به الرسل كلهم عنه.

فصرف سبحانه الآيات الدالة على صدق رسله ونوعها وجعلها للفطر تارة، وللسمع تارة، وللمشاهدة تارة، فجعلها آفاقية، ونفسية، ومنقولة، ومعقولة، ومشهودة بالعيان، ومذكورة بالجنان. فأبى الظالمون إلا كفوراً: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ۝٣٩ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾ [**المدثر**: ٣٨ ـ ٤٥].

ولما أقام الحجة وبين المحجة ارتهن كل نفس بكسبها، وأخذها بذنبها، واستثنى من أولئك من قبل هداه واتبع رضاه، وهم أصحاب اليمين الذين آمنوا الله وصدقوا المرسلين، وسلكوا غير سبيل المجرمين، الذين ليسوا من المصلين، ولا من مطعمي المسكين، وهم من أهل الخوض مع الخائضين، المكذبين بيوم الدين. فهذا أربع صفات أخرجتهم من زمرة المفلحين وأدخلتهم في جملة الهالكين:

الأولى: ترك الصلاة، وهي عمود الإخلاص للمعبود.

الثانية: ترك إطعام المسكين الذي هو من مراتب الإحسان للعبيد، فلا إخلاص للخلق ولا إحسان للمخلوق، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦، ٧]، وقال: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤]، وهذا ضد ما وصف به أصحاب اليمين بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الأنفال: ٣]، وقال: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، وقرن سبحانه بين هذين الأصلين في غير موضع في كتابه؛ فأمر بهما تارة، وأثنى على فاعليهما تارة، وتوعد بالويل والعقاب تاركهما تارة، فإن مدار النجاة عليهما، ولا فلاح لمن أخل بهما.

الصفة الثالثة والرابعة: الخوض بالباطل، والتكذيب بالحق.

فاجتمع لهم عدم الإخلاص والإحسان، والخوض بالباطل والتكذيب بالحق، واجتمع لأصحاب اليمين الإخلاص، والإحسان والتصديق بالحق، والتكلم به، فاستقام إخلاصهم وإحسانهم، ويقينهم وكلامهم، واستبدل أصحاب الشمال بالإخلاص شركاً، وبالإحسان إساءة، وباليقين شكاً وتكذيباً، وبالكلام النافع خوضاً في الباطل، فلذلك لم تنفعهم شفاعة الشافعين؛ أي: لم يكن لهم من شفيع فيهم، لأن الشفاعة تقع فيهم ولا تنفع، وهذا لما أعرضوا عن التذكرة ولم يرفعوا بها رأساً، وجفلوا عن سماعها كما جفل حمر الوحش من الأسد أو من الرماة.

ثم ختم السورة بأنه جمع فيها بين شرعه وقدره، وإقامة الحجة عليهم بإثبات المشيئة لهم، وبيان مقتضى التوحيد والربوبية، وأن ذلك إليه لا إليهم. فالأول

عدله، والثاني فضله، فالأول يوجب السعي والطلب والحرص على ما ينجيهم، كما يفعلون ذلك في مصالح دنياهم، بل أشد، والثاني يوجب الاستعانة والتوكل والتفويض والرغبة إلى من ذلك بيده ليسهل لهم ويوفقهم، والله المستعان، وعليه التكلان[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ **[المدثر: ٤٦، ٤٧]**.

واليقين هاهنا: هو الموت بإجماع أهل التفسير، وفي الصحيح في قصة موت عثمان بن مظعون رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه»[٢]، أي: الموت وما فيه[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ **[المدثر: ٤٩ ـ ٥١]**.

شبههم في إعراضهم ونفورهم عن القرآن بحمر رأت الأسد أو الرماة ففرت منه، وهذا من بديع القياس والتمثيل، فإن القوم في جهلهم بما بعث الله به رسوله كالحمر، وهي لا تعقل شيئاً، فإذا سمعت صوت الأسد أو الرامي نفرت منه أشد النفور، وهذا غاية الذم لهؤلاء فإنهم نفروا عن الهدى الذي فيه سعادتهم وحياتهم كنفور الحمر عما يهلكها ويعقرها.

وتحت المستنفرة معنى أبلغ من النافرة، فإنها لشدة نفورها قد استنفر بعضها بعضاً وحضه على النفور، فإن في الاستفعال من الطلب قدراً زائداً على الفعل المجرد، فكأنها تواصت النفور وتواطأت عليه، ومن قرأها بفتح الفاء فالمعنى: أن القسورة استنفرها وحملها على النفور ببأسه وشدته[٤].

❀ ❀ ❀

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٦٣ ـ ١٧٤).
(٢) رواه البخاري (٢٦٨٧).
(٣) مدارج السالكين (١/ ١٠٣، ١٠٤).
(٤) إعلام الموقعين (١/ ٢١٥، ٢١٦).

سُوْرَةُ القِيَامَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١، ٢].

فقد تضمن الإقسام ثبوت الجزاء ومستحق الجزاء، وذلك يتضمن إثبات الرسالة والقرآن والمعاد، وهو سبحانه يقسم على هذه الأمور الثلاثة ويقررها أبلغ التقرير لحاجة النفوس إلى معرفتها والإيمان بها، وأمر رسوله أن يقسم عليها، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ﴾ [يونس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ﴾ [سبأ ٣]، وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [التغابن: ٧].

فهذه ثلاثة مواضع لا رابع لها، يأمر نبيه ﷺ أن يقسم على ما أقسم عليه هو سبحانه من النبوة والقرآن والمعاد.

فأقسم سبحانه لعباده، وأمر أصدق خلقه أن يقسم لهم، وأقام البراهين القطعية على ثبوت ما أقسم عليه، فأبى الظالمون إلا جحوداً وتكذيباً.

واختلف في النفس المقسم بها هاهنا، هل هي خاصة أو عامة؟ على قولين بناءً على الأقوال الثلاثة في اللوامة.

فقال ابن عباس: كل نفس تلوم نفسها يوم القيامة، يلوم المحسن نفسه أن لا يكون ازداد إحساناً، ويلوم المسيء نفسه أن لا يكون رجع عن إساءته. واختاره الفراء قال: ليس من نفس برة ولا فاجرة إلا وهي تلوم نفسها إن كانت عملت خيراً، قالت: هلّا ازددت خيراً؟ وإن كانت عملت سوءاً قالت: يا ليتني لم أفعل.

والقول الثاني: إنها خاصة. قال الحسن: هي النفس المؤمنة، وإن المؤمن والله لا تراه إلا يلوم نفسه على كل حالة لأنه يستقصرها في كل ما تفعل، فيندم ويلوم نفسه. وإن الفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه.

والقول الثالث: إنها النفس الكافرة وحدها. قاله قتادة ومقاتل. وهي النفس الكافرة تلوم نفسها في الآخرة على ما فرطت في أمر الله.

قال شيخنا: والأظهر أن المراد نفس الإنسان مطلقاً، فإن نفس كل إنسان لوامة، كما أقسم بجنس النفس في قوله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [الشمس: ٧، ٨].

فإنه لا بد لكل إنسان أن يلوم نفسه أو غيره على أمر. ثم هذا اللوم قد يكون محموداً وقد يكون مذموماً.

كما قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ﴾ [القلم: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤]. فهذا اللوم غير محمود.

وفي الصحيحين في قصة احتجاج آدم وموسى: «أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أُخلق؟ فحج آدم موسى»[(١)].

فهو سبحانه يقسم على صفة النفس اللوامة كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، وعلى جزائها كقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، وعلى تباين عملها كقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل: ٤].

وكل نفس لوامة، فالنفس السعيدة تلوم على فعل الشر وترك الخير فتبادر إلى التوبة، والنفس الشقية بالضد من ذلك.

وجمع سبحانه في القسم بين محل الجزاء وهو يوم القيامة، ومحل الكسب وهو النفس اللوامة، ونبه سبحانه بكونها لوامة على شدة حاجتها وفاقتها وضرورتها إلى من يعرفها الخير والشر ويدلها عليه ويرشدها إليه ويلهمها إياه فيجعلها مريدة للخير، مرشدة له، كارهة للشر مجانبة له، لتخلص من اللوم ومن شر ما تلوم عليه، ولأنها متلومة مترددة لا تثبت على حال واحدة.

فهي محتاجة إلى من يعرفها ما هو أنفع لها في معاشها ومعادها، فتؤثره وتلوم نفسها عليه إذا فاتها فتتوب منه إن كانت سعيدة ولتقوم عليها حجة عدله فيكون لومها في القيامة لنفسها عليه لوماً بحق، فقد أعذر الله خالقها وفاطرها إليها فيه، ففي صفة اللوم تنبيه على ضرورتها إلى التصديق بالرسالة والقرآن وأنها لا غنى لها

(١) رواه البخاري في القدر (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

عن ذلك ولا صلاح ولا فلاح بدونه البتة، ولما كان يوم معادها هو محل ظهور هذا اللوم وترتب أثره عليه قرن بينهما في الذكر[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة: ٣ ـ ٦].

ثم أنكر على الإنسان بعد هذه الآية حسبانه وظنه أن الله لا يجمع عظامه بعدما فرقها البلى، ثم أخبر سبحانه عن قدرته على جمع غيرها من عظامه، وعلى هذا فيكون سبحانه قد احتج على فعله لما أنكره أعداؤه بقدرته عليه، وأخبر عن فعله بأنهم يلزمهم من القدرة وقوع المقدور.

والمعنى: بلى نجمعها قادرين على تسوية بنانه، ودل على هذا المعنى المحذوف قوله: ﴿بَلَىٰ﴾ فإنها حرف إيجاب لما تقدم من النفي. فلهذا يستغنى عن ذكر الفعل بذكر الحرف الدال عليه؛ فدلت الآية على الفعل، وذكرت القدرة لإبطال قول المكذبين.

وفي ذكر البنان لطيفة أخرى، وهي أنها أطرافه، وآخر ما يتم به خلقه. فمن قدر على جمع أطرافه وآخر ما يتم به خلقه، مع دقتها وصغرها ولطافتها، فهو على ما دون ذلك أقدر، فالقوم لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام، قيل: إنا نجمع ونسوي أكثرها تفرقاً، وأدقها أجزاء وآخر أطراف البدن، وهي عظام الأنامل ومفاصلها.

وقالت طائفة: المعنى نحن قادرون على أن نسوي أصابع يديه ورجليه ونجعلها مستوية شيئاً واحداً كخف البعير، وحافر الحمار لا نفرق بينهما، ولا يمكنه أن يعمل بها شيئاً مما يعمل بأصابعه المفرقة ذات المفاصل والأنامل من فنون الأعمال والبسط والقبض والتأتي لما يريد من الحوائج. وهذا قول ابن عباس وكثير من المفسرين، والمعنى على هذا القول: إنا في الدنيا قادرون على أن نجعل عظام بنانه مجموعة دون تفرق، فكيف لا نقدر على جمعها بعد تفريقها.

فهذا وجه من الاستدلال غير الأول، وهو الاستدلال بقدرته سبحانه على جمع عظامه بعد تفريقها.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤ ـ ١٨).

وهما وجهان حسنان، وكل منهما له ترجيح من وجه.

فيرجح الأول أنه هو المقصود، وهو الذي أنكره الكفار، وهو إجراء على نسق الكلام واطراده، ولأن الكلام لم يسق لجمع العظام وتفريقها في الدنيا، وإنما سيق لجمعها في الآخرة بعد تفرقها بالموت.

ويرجح القول الثاني ـ ولعله قول جمهور المفسرين، حتى إن فيهم من لم يذكر غيره ـ وأنه استدلال بآية ظاهرة مشهورة، وهي تفريق البنان مع انتظامها في كف واحد وارتباط بعضها ببعض فهي متفرقة في عضو واحد، يقبض منها واحدة ويبسط أخرى، ويحرك واحدة والأخرى ساكنة، ويعمل بواحدة والأخرى معطلة، وكلها في كف واحد، قد جمعها ساعد واحد، فلو شاء سبحانه لسواها فجعلها صفة واحدة كباطن الكف ففاته هذه المنافع والمصالح التي حصلت بتفريقها، ففي هذا أعظم الأدلة على قدرته سبحانه على جمع عظامه بعد الموت.



ثم أخبر سبحانه عن سوء حال الإنسان وإصراره على المعصية والفجور، وأنه لا يرعوي ولا يخاف يوماً يجمع الله فيه عظامه ويبعثه حياً، بل هو مريد للفجور ما عاش، فيفجر في الحال، ويريد الفجور في غد وما بعده. وهذا ضد الذي يخاف الله والدار الآخرة، فهذا لا يندم على ما مضى منه ولا يقلع في الحال، ولا يعزم في المستقبل على الترك، بل هو عازم على الاستمرار، وهذا ضد التائب المنيب.

ثم نبه سبحانه على الحامل له على ذلك، وهو استبعاده ليوم القيامة، وليس هذا استبعاداً لزمنه مع إقراره بوقوعه، بل هو استبعاد لوقوعه كما حكى عنه في موضع آخر قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]. أي: بعيد وقوعه، وليس المراد أنه واقع بعيد زمنه. هذا قول جماعة من المفسرين، ومنهم ابن عباس وأصحابه. قال ابن عباس: يقدم الذنب ويؤخر التوبة. وقال قتادة، وعكرمة: قدماً قدماً في معاصي الله لا ينزع عن فجوره.

وفي الآية قول آخر، وهو أن المعنى: بل يريد الإنسان ليكذب بما أمامه من البعث ويوم القيامة. وهذا قول ابن زيد، واختيار ابن قتيبة وأبي إسحاق. قال هؤلاء: ودليل ذلك قوله: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

ويرجح هذا القول لفظة: ﴿بَلْ﴾، فإنها تعطي أن الإنسان لم يؤمن بيوم القيامة مع هذا البيان والحجة، بل هو مريد للتكذيب به، ويرجحه أيضاً أن السياق كله في

ذم المكذب بيوم القيامة لا في ذم العاصي والفاجر. وأيضاً فإن ما قبل الآية وما بعدها يدل على المراد. فإنه قال: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾.

فأنكر سبحانه عليه حسبانه أن الله لا يجمع عظامه. ثم قرر قدرته على ذلك. ثم أنكر عليه إرادة التكذيب بيوم القيامة.

فالأول: حسبان منه أن لا يحييه بعد موته.

والثاني: تكذيب منه بيوم البعث وأنه يريد أن يكذب بما وضح وبأن دليل وقوعه وثبوته فهو مريد للتكذيب به.

ثم أخبر عن تصريحه بالتكذيب فقال: ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فالأول إرادة التكذيب، والثاني نطق بالتكذيب وتكلم به.

وهذا قول قوي كما ترى. لكن ينبغي إفراغ هذه الألفاظ في قوالب هذا المعنى. فإن لفظة (يفجر) إنما تدل على عمل الفجور لا على التكذيب، وحذف الموصول مع ما جره وإبقاء الصلة خلاف الأصل. فإن أصحاب هذا القول قالوا: تقديره: ليكفر بما أمامه. وهذا المعنى صحيح، لكن دلالة هذا اللفظ عليه ليست بالبينة.

فالجواب أن الأمر كذلك، لكن الفعل إذا ضمن معنى فعل آخر لم يلزم إعطاءه حكمه من جميع الوجوه، بل من جلالة هذه اللغة العظيمة الشأن وجزالتها أن يذكر المتكلم فعلاً، وما يضمنه معنى فعل آخر ويجري على المضمن أحكامه لفظاً وأحكام الفعل الآخر معنى، فيكون في قوة ذكر الفعلين مع غاية اختصار، ومن تدبر هذا وجده كثيراً في كلام الله تعالى.

فلفظ: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ اقتضت ﴿أَمَامَهُۥ﴾ بلا واسطة حرف ولا اسم موصول، فأعطيت ما اقتضته لفظاً واقتضى ما تضمنه الفعل من ذكر الحرف والموصول، فأعطيته معنى، فهذا وجه هذا القول لفظاً ومعنى، والله أعلم.

□ □ □

وقد ذم الله سبحانه من يؤثر العاجلة على الآجلة، وهذا لاستعجاله بالتمتع بما يفنى وإيثاره ما يبقى، ورتب كل ذم ووعيد في هذه السورة على هذا الاستعجال ومحبة العاجلة، فإرادته أن يفجر أمامه هو من استعجاله وحب العاجلة، وتكذيبه بيوم القيامة من فرط حب العاجلة، وإيثاره لها، واستعجاله بنصيبه، وتمتعه به قبل أوانه، ولولا حب العاجلة وطلب الاستعجال لتمتع به في الآجلة أكمل ما يكون،

وكذلك تكذيبه وتوليه وترك الصلاة هو من استعجاله ومحبته العاجلة، والرب سبحانه وصف نفسه بضد ذلك، فلم يعجل على عبده، بل أمهله إلى أن بلغت الروح التراقي وأيقن بالموت، وهو إلى هذه الحال المستمر على التكذيب والتولي، والرب تعالى لا يعاجله بل يمهله، ويحدث له الذكر شيئاً بعد شيء، ويصرف له الآيات ويضرب له الأمثال، وينبهه على مبدئه: من كونه نطفة من مني يمنى، ثم علقه، ثم خلقاً سوياً، فلم يعجل عليه بالخلق وهلة واحدة، ولا بالعقوبة إذ كذب خبره، وعصى أمره، بل كان خلقه وأمره وجزاؤه بعد تمهيل وتدريج وأناة، ولهذا ذم الإنسان بالعجلة بقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ [**القيامة**: ٧ ـ ١٠].

[هذا إخبار منه] سبحانه عن حال هذا الإنسان إذا شاهد اليوم الذي كذب به، فقال: فبرق بصره، أي: يشخص لما يشاهده من العجائب التي كان يكذب بها، وخسف القمر: ذهب ضوؤه وانمحى، وجمع الشمس والقمر ولم يجتمعا قبل ذلك، بل يجمعهما الذي يجمع عظام الإنسان بعد ما فرقها البلى ومزقها، ويجمع للإنسان يومئذ جميع عمله الذي قدمه وأخره من خير أو شر. ويجمع ذلك من جمع القرآن في صدر رسوله، ويجمع المؤمنين في دار الكرامة فيكرم وجوههم بالنظر إليه، ويجمع المكذبين في دار الهوان، وهو قادر على ذلك كله كما جمع خلق الإنسان من نطفة من مني يمنى، ثم جعله علقة مجتمعة الأجزاء بعدما كانت نطفة متفرقة في جميع بدن الإنسان، وكما يجمع بين الإنسان وملك الموت، ويجمع بين الساق والساق، إما ساق الميت أو ساق من يجهز بدنه من البشر، ومن يجهز روحه من الملائكة، أو يجمع عليه شدائد الدنيا والآخرة.

فكيف أنكر هذا الإنسان أن يجمع بينه وبين عمله وجزائه، وأن يجمع مع بني جنسه ليوم الجمع وأن يجمع عليه بين أمر الله ونهيه، وعبوديته فلا يترك سدى مهملاً معطلاً لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب فلا يجمع عليه ذلك.

فما أجمع هذه السورة لمعاني الجمع، والضم، وقد افتتحت بالقسم بيوم القيامة الذي يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين، وبالنفس اللوامة التي اجتمع فيها

همومها وغمومها، وإرادتها واعتقاداتها، وتضمنت ذكر المبدأ والمعاد، والقيامة الصغرى، والكبرى، وأحوال الناس في المعاد، وانقسام وجوههم إلى ناظرة منعمة، وباسرة معذبة. وتضمنت وصف الروح بأنها جسم ينتقل من مكان إلى مكان، فتجمع من تفاريق البدن حتى تبلغ التراقي.

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ **[القيامة: ١٦، ١٧]**.

تضمنت التأني والتثبت في تلقي العلم، وأن لا يحمل السامع شدة محبته وحرصه وطلبه عن مبادرة المعلم بالأخذ قبل فراغه من كلامه، بل من آداب الرب التي أدب بها نبيه ﷺ أمره بترك الاستعجال على تلقي الوحي، بل يصبر إلى أن يفرغ جبريل من قراءته، ثم يقره بعد فراغه عليه. فهكذا ينبغي لطلب العلم ولسامعه أن يصبر على معلمه حتى يقضي كلامه، ثم يعيده عليه. أو يسأل عما أشكل عليه منه، ولا يبادره قبل فراغه.

وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في ثلاثة مواضع من كتابه، هذا **أحدها**.

والثاني: قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٣، ١١٤].

والثالث: قوله: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الأعلى: ٦، ٧]. فضمن لرسوله أن لا ينسى ما أقرأه إياه. وهذا يتناول القراءة وما بعدها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ **[القيامة: ٢٢، ٢٣]**.

وأنت إذا أجرت هذه الآية من تحريفها عن مواضعها والكذب على المتكلم بها سبحانه فيما أراده منها وجدتها منادية نداءً صريحاً، أن الله سبحانه يرى عياناً بالأبصار يوم القيامة، وإن أبيت إلا تحريفها الذي يسميه المحرفون تأويلاً فتأويل نصوص المعاد والجنة والنار والميزان والحساب أسهل على أربابه من تأويلها وتأويل كل نص تضمنه القرآن والسنة كذلك، ولا يشاء مبطل على وجه الأرض أن

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤٧ ـ ١٦٣).

يتأول النصوص ويحرفها عن موضعها إلا وجد إلى ذلك من السبيل، ما وجده متأول مثل هذه النصوص، وهذا الذي أفسد الدين والدنيا.

وإضافة النظر إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين، وإخلاء الكلام من قرينة تدل على أن المراد بالنظر المضاف إلى الوجه المعدى بـ(إلى) خلاف حقيقته وموضوعه صريح في أن الله ﷻ أراد بذلك نظر العين التي في الوجه، إلى نفس الرب جل جلاله.

فإن النظر له عدة استعمالات حسب صلاته وتعديه بنفسه، فإن عدي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار كقوله: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣]. وإن عدي (بفي) فمعناه: التفكر والاعتبار كقوله: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥]. وإن عدي (بإلى) فمعناه: المعاينة بالأبصار كقوله: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩]. فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذي هو محل البصر؟!

قال يزيد بن هارون: أنبأنا مبارك عن الحسن قال: نظرت إلى ربها تبارك وتعالى فنظرت بنوره.

فاسمع الآن أيها السني تفسير النبي ﷺ وأصحابه والتابعين وأئمة الإسلام لهذه الآية.

قال ابن مردويه في تفسيره: حدثنا إبراهيم عن محمد، حدثنا صالح بن أحمد، حدثنا يزيد بن الهيثم، حدثنا محمد بن الصباح، حدثنا المصعب بن المقدام، حدثنا سفيان عن ثوير بن أبي ناجية عن أبيه عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. قال: «من البهاء والحسن»، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ قال: «في وجه الله ﷻ»[1].

قال أبو صالح عن ابن عباس، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾. قال: من النعيم، ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، قال: تنظر إلى ربها نظراً، ثم حكى عن ابن عباس مثله. وهذا قول كل مفسر من أهل السنة والحديث[2].

---

(١) حديث ضعيف، «ثوير بن أبي فاختة» ضعفوه، ورمي بالكذب والرفض، انظر: تهذيب التهذيب (٢/ ٣٦)، وقع في المطبوع من حادي الأرواح: «ثوير بن أبي ناجية»، والصواب المثبت هنا، وأحاديث الرؤية ثابتة في الصحيحين وغيرهما عن جم غفير من الصحابة، ذكر منها ابن القيم (حادي الأرواح) في هذا الباب ما يقرب من ثلاثين حديثاً، فلتراجع.

(٢) حادي الأرواح (٢٣٧، ٢٣٨).

ويستحيل فيها تأويل النظر بانتظار الثواب، فإنه أضاف النظر إلى الوجوه التي هي محله وعدَّاه بحرف إلى التي إذا اتصل بها فعل النظر كان من نظر العين ليس إلا[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنۡۜ رَاقٖ﴾ [القيامة: ٢٦ ـ ٢٧].

أي: من يرقي من هذه العلة التي أعيت على الحاضرين، أي: التمسوا له من يرقيه، والرقية آخر الطب، وقيل: من يرقى بها ويصعد، أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ فعلى الأول تكون من رقى يرقي كرمى يرمي. وعلى الثاني من رقي يرقى كشقي يشقى. ومصدره الرقاء، ومصدر الأول الرقية. والقول الأول أظهر لوجوه:

أحدها: أنه ليس كل ميت يقول حاضروه.. من يرقى بروحه. وهذا إنما يقوله من يؤمن برقي الملائكة بروح الميت وأنهم ملائكة رحمة، وملائكة عذاب بخلاف التماس الرقية وهي الدعاء فإنه قل ما يخلو منه المحتضر.

الثاني: أن الروح إنما يرقى بها الملك بعد مفارقتها وحينئذ يقال: من يرقى بها. وأما قبل المفارقة فطلب الرقية للمريض من الحاضرين أنسب من طلب علم من يرقى بها إلى الله.

الثالث: أن فاعل الرقية يمكن العلم به فيحسن السؤال عنه ويفيد السامع. وأما الراقي إلى الله فلا يمكن العلم بتعيينه حتى يسأل عنه و﴿مَنۡۜ﴾ إنما يسأل بها عن تعيين ما يمكن السائل أن يصل إلى العلم بتعيينه.

الرابع: أن مثل هذا السؤال إنما يراد به تحضيض وإثارة اهتمام إلى فعل يقع بعد نحو قوله: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ [البقرة: ٢٤٥]، أو يراد به إنكار فعل ما يذكر بعدها كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وفعل الراقي إلى الله لا يحسن فيه واحد من الأمرين هنا بخلاف فاعل الرقية إنه يحسن فيه الأول.

الخامس: أن هذا خرج على عادة العرب وغيرهم في طلب الرقية لمن وصل إلى مثل تلك الحال. فحكى الله سبحانه ما جرت عادتهم بقوله وحذف فاعل القول لأنه ليس الغرض متعلقاً بالقائل بل بالقول، ولم تجر عادة المخاطبين بأن يقولوا: من

---

(١) الصواعق المرسلة (١/ ١٩٣، ١٩٤).

يرقى بروحه، فكان حمل الكلام على ما ألف وجرت العادة بقوله أولى، إذ هو تذكير لهم بما يشاهدونه ويسمعونه.

السادس: أنه لو أريد هذا المعنى لكان وجه الكلام أن يقال من هو الراقي، ومن الراقي، ولا وجه للكلام غير ذلك، كما يقال من هو القائل منكما كذا وكذا، وفي الحديث: «من القائل كلمة كذا»(١).

السابع: أن كلمة ﴿مَنْ﴾ إنما يسأل بها عن التعيين كما يقول: من الذي فعل كذا، ومن ذا الذي قاله. فيعلم أن فاعلاً وقائلاً فعل وقال، ولا يعلم تعيينه، فيسأل عن تعيينه بمن تارة وبأي تارة، وهم لم يسألوا عن تعيين الملك الراقي بالروح إلى الله.

فإن قيل: بل علموا أن ملك الرحمة والعذاب صاعد بروحه، ولم يعلموا تعيينه فيسأل عن تعيين أحدهما. قيل: هم يعلمون أن تعيينه غير ممكن، فكيف يسألون عن تعيين ما لا سبيل للسامع إلى تعيينه، ولا إلى العلم به؟

الثامن: أن الآية إنما سيقت لبيان يأسه من نفسه ويأس الحاضرين معه وتحقق أسباب الموت، وأنه قد حضر ولم يبق شيء ينجع فيه ولا مخلص منه، بل هو قد ظن أنه مفارق لا محالة، فالحاضرون قد علموا أنه لم يبق لأسباب الحياة المعتادة تأثير في بقائه، فطلبوا أسباباً خارجة عن المقدور تستجلب بالرقى والدعوات، فقالوا: من راقٍ؟ أي: من يرقي هذا العليل من أسباب الهلاك. والرقية عندهم كانت مستعملة حيث لا يجدي الدواء.

التاسع: أن مثل هذا إنما يراد به النفي والاستبعاد، وهو أحد التقديرين في الآية، أي: لا أحد يرقي من هذه العلة بعدما وصل صاحبها إلى هذه الحال. فهو استبعاد لنفي الرقية لا طلب لوجود الراقي، كقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ

---

(١) عن رفاعة بن رافع الزرقي قال: كنا نصلي وراء النبي ﷺ، فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه. فلما انصرف قال: «من المتكلم؟...». الحديث، رواه البخاري (٢/ ٣٣٢) الأذان، باب: (١٢٦). وعند الترمذي (٢/ ٢٥٤) في الصلاة باب: ما جاء الرجل يعطس في الصلاة، بلفظ: «من المتكلم في الصلاة»، وعند أبي داود (الصحيح) (١/ ١٤٦) في الصلاة، باب: ما يستفتح به الصلاة من الدعاء بلفظ: «من المتكلم بها آنفاً؟»، وانظر: جامع الأصول (٤/ ٣٢٥، ٣٢٦)، والله أعلم.

مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، أي: لا أحد يحييها، وقد صارت إلى هذه الحال. فإن أريد بها هذا المعنى استحال أن يكون من الرقى وإن أريد بها الطلب استحال أيضاً أن يكون منه وقد بينا أنها في مثل هذا إنما تستعمل للطلب أو للإنكار. وحينئذ فنقول: في.

الوجه العاشر: أنها إما أن يراد بها الطلب أو الاستبعاد، والطلب إما أن يراد به طلب الفعل أو طلب التعيين، ولا سبيل إلى حمل واحد من هذه المعاني على الرقي؛ لما بيناه، والله أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ **[القيامة: ٣٦]**.

أي: مهملاً. قال الشافعي: لا يؤمر ولا ينهى، وقال غيره: لا يثاب ولا يعاقب. والصحيح: الأمران. فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهي. والأمر والنهي طلب العبادة وإرادتها. وحقيقة العبادة امتثالهما(٢).

فأنكر على من يحسب ذلك، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته، وأنه لا يليق به، ولهذا استدل على أنه لا يتركه سدى بقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ إلى آخر السورة، ولو كان قبحه إنما علم بالسمع لكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع وخلاف ما أعلمناه وأخبرنا به. ولم يكن إنكاره لكونه قبيحاً في نفسه، بل لكونه خلاف ما أخبر به، ومعلوم أن هذا ليس وجه الكلام(٣).

فاحتج سبحانه على أنه لا يترك الإنسان مهملاً معطلاً عن الأمر والنهي والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك، فإن من نقله من نطفة مني إلى العلقة ثم إلى المضغة، ثم خلقه وشق سمعه وبصره وركب فيه الحواس والقوى والعظام والمنافع والأعصاب والرباطات التي هي أسره، وأتقن خلقه وأحكمه غاية الإحكام وأخرجه على هذا الشكل والصورة التي هي أتم الصور وأحسن الأشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية، أم كيف تقتضي حكمته وعنايته به أن يتركه سدى، فلا يليق ذلك بحكمته ولا تعجز عنه قدرته. فانظر إلى هذا الحجاج العجيب بالقول الوجيز الذي لا يكون أوجز منه، والبيان الجليل الذي لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذي لا تقع الظنون على أقرب منه(٤).

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤٧ ـ ١٦٣). (٢) مدارج السالكين (١/ ٩٨).
(٣) مدارج السالكين (١/ ٢٣٨). (٤) الصواعق المرسلة (٤٨٠، ٤٨١).

سُوْرَةُ الإنسَانِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

يحتمل أن يكون مصدراً كالقعود، وأن يكون جمعاً كالبرود والكفور، والشكران خلاف الكفران، وتشكرت له مثل شكرت له، والشكور من الدواب ما يكفيه العلف القليل. واشتكرت السماء اشتد وقع مطرها. واشتكر الضرع امتلأ لبناً، تقول منه: شكِرت الناقة ـ بالكسر ـ تشكر شكراً فهي شكرة. وشكرت الشجرة تشكر شكراً إذا خرج منها الشكير، وهو ما ينبت حول الشجرة من أصلها.

فتأمل هذا الاشتقاق، وطابق بينه وبين الشكر المأمور به، وبين الشكر الذي هو جزاء الرب الشكور، كيف نجد في الجميع معنى الزيادة والنماء.

ويقال أيضاً: دابة شكور إذا طهرت من السِّمَن فوق ما تعطى من العلف.

وشكر العبد يدور على ثلاثة أركان لا يكون شكوراً إلا بمجموعها:

أحدها: اعترافه بنعمة الله عليه.

والثاني: الثناء عليه بها.

والثالث: الاستعانة بها على مرضاته[(١)].

إن الله تعالى وصفهم بالإخلاص وأنهم إنما قصدوا بإطعام الطعام وجهه ولم يريدوا من المطعمين جزاء ولا شكوراً[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢].

فلما كان في الصبر الذي هو حبس النفس عن الهوى خشونة وتضييق جازاهم على ذلك نعومة الحرير وسعة الجنة. وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى في

---

(١) عدة الصابرين (١٤٨).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٨٤، ٨٥).

هذه الآية: جزاهم بما صبروا عن الشهوات(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ [الإنسان: ١٥، ١٦].

فالقوارير: هي الزجاج، فأخبر ﷻ عن مادة تلك الآنية أنها من الفضة وأنها بصفة الزجاج وشفافيته، وهذا من أحسن الأشياء وأعجبها، وقطع سبحانه توهم كون تلك القوارير من زجاج قال: ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾.

قال مجاهد وقتادة ومقاتل والكلبي والشعبي: قوارير الجنة من الفضة، فاجتمع لها بياض الفضة وصفاء القوارير.

قال ابن قتيبة: كل ما في الجنة من الأنهار وسررها وفرشها وأكوابها مخالف لما في الدنيا من صنعة العباد، كما قال ابن العباس: ليس في الدنيا شيء مما في الجنة إلا الأسماء. والأكواب في الدنيا قد تكون من فضة وتكون من قوارير. فأعلمنا الله أن هناك أكواباً لها بياض الفضة وصفاء القوارير.

قال: وهذا على التشبيه، أراد قوارير كأنها فضة، وهذا كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمٰن: ٥٨]، أي: لهن ألوان المرجان في صفاء الياقوت.

وهذا مردود عليه، فإن الآية صريحة أنها من فضة، و(من) هاهنا لبيان الجنس، كما تقول: خاتم من فضة. ولا يراد بذلك أنه يشبه الفضة بل جنسه ومادته الفضة، بل ولعله أشكل عليه كونها من فضة وهي قوارير وهو الزجاج، وليس في ذلك إشكال لما ذكرناه.

وقوله: ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ التقدير: جعل الشيء بقدر مخصوص، فقدرت الصناع هذه الآنية على قدر ريهم لا يزيد عليه ولا ينقص منه، وهذا أبلغ في لذة الشارب، فلو نقص عن ريه لنقص التذاذه، ولو زاد حتى يشمئز منه حصل له ملالة وسآمة من الباقي، هذا قول جماعة من المفسرين. قال الفراء: قدروا الكأس على قدر ري أحدهم لا فضل فيه ولا عجز عن ريه وهو ألذ الشراب.

وقال الزجاج: جعلوا الإناء على قدر ما يحتاجون إليه ويريدونه.

وقال أبو عبيد: يكون التقدير الذي يسقون يقدرونها ثم يسقون، يعني: أن

---

(١) روضة المحبين (٤٣٠).

الضمير قدروا للملائكة والخدم قدروا الكأس على قدر الري فلا يزيد عليه فيثقل الكف ولا ينقص منه فتطلب النفس الزيادة كما تقدم.

وقالت طائفة: الضمير يعود على الشاربين، أي: قدروا في أنفسهم شيئاً فجاءهم الأمر بحسب ما قدروه وأرادوه.

وقول الجمهور أحسن وأبلغ، وهو مستلزم لهذا القول، والله أعلم.

وأما الكأس فقال أبو عبيدة: هو الإناء بما فيه. وقال أبو إسحاق: الكأس الإناء إذا كان فيه خمر. ويقع الكأس لكل إناء مع شرابه، والمفسرون فسروا الكأس بالخمر، وهو قول عطاء والكلبي ومقاتل، حتى قال الضحاك: كل كأس في القرآن فإنما عني به الخمر. وهذا نظر منهم إلى المعنى المقصود، فإن المقصود ما في الكأس لا الإناء نفسه، وأيضاً فإن من الأسماء ما يكون اسماً للحال والمحل مجتمعين ومنفردين كالنهر والكأس، فإن النهر اسم للماء ولمحله معاً، ولكل منهما على انفراده، وكذلك الكأس والقرية، ولهذا يجيء لفظ القرية مراداً به الساكن فقط والمسكن فقط والأمران معاً[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ **[الإنسان: ١٩]**.

قال أبو عبيدة والفراء: مخلدون لا يهرمون ولا يتغيرون قال: والعرب تقول للرجل إذا كبر ولم يشمط: إنه لمخلد وإذا لم تذهب أسنانه من الكبر قيل: هو مخلد. وقال آخرون: مخلدون مقرطون مسورون، أي: في آذانهم القرطة وفي أيديهم الأساور. وهذا اختيار ابن الأعرابي، قال: مخلدون مقرطون بالخلدة وجمعها خلد وهي القرطة. وروى عمرو عن أبيه: خلد جاريته إذا حلاها بالخلد وهي القرطة، وخلد إذا أسن ولم يشب. وكذلك قال سعيد بن جبير: مقرطون. واحتج هؤلاء بحجتين:

إحداهما: أن الخلود عام لكل من دخل الجنة فلا بد أن يكون الولدان موصوفين بتخليد مختص بهم وذلك هو القرطة.

الحجة الثانية: قول الشاعر:

---

(١) حادي الأرواح (١٦٠، ١٦١).

وَمُخَلَّداتٌ بِاللُّجَيْنِ كَأَنَّمَا أَعْجَازُهُنَّ رَوَاكِدُ الْكُثْبَانِ[١]

وقال الأولون: الخلد هو البقاء.

قال ابن عباس: غلمان لا يموتون. وقول ترجمان القرآن في هذا كاف. وهو قول مجاهد والكلبي ومقاتل، قالوا: لا يكبرون ولا يهرمون ولا يتغيرون.

وجمعت طائفة بين القولين وقالوا: هم ولدان لا يعرض لهم الكبر والهرم وفي آذانهم القراطة. فمن قال: مقرطون أراد هذا المعنى أن كونهم ولدان أمر لازم لهم.

وشبههم سبحانه باللؤلؤ المنثور لما فيه من البياض وحسن الخلقة وفي كونه منثوراً فائدتان:

إحداهما: الدلالة على أنهم غير معطلين بل مبثوثون في خدمتهم وحوائجهم.

والثانية: أن اللؤلؤ إذا كان منثوراً، ولا سيما على بساط من ذهب وحرير كان أحسن لمنظره وأبهى من كونه مجموعاً في مكان واحد.

وقد اختلف في هؤلاء الولدان، هل هم من ولدان الدنيا، أم أنشأهم الله في الجنة إنشاء. على قولين؛ فقال علي بن أبي طالب والحسن البصري: هم أولاد المسلمين الذي يموتون ولا حسنة لهم ولا سيئة لهم، يكونون خدم أهل الجنة وولدانهم، إذ الجنة لا ولادة فيها. قال الحاكم: ثنا عبد الرحمٰن بن الحسن، ثنا إبراهيم بن الحسين، ثنا آدم، ثنا المبارك عن الحسن في قوله: ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ قال: لم يكن لهم حسنات ولا سيئات فيعاقبون عليها، فوضعوا بهذا الوضع[٢].

ومن أصحاب هذا القول من قال: هم أطفال المشركين، فجعلهم الله خدماً لأهل الجنة. واحتج هؤلاء بما رواه يعقوب بن عبد الرحمٰن القاري، عن أبي حازم قال المديني، عن يزيد الرقاشي، عن أنس عن النبي ﷺ قال: «سألت ربي اللاهين من ذرية البشر أن لا يعذبهم فأعطانيهم فهم خدم أهل الجنة»[٣]، يعني: الأطفال.

---

(١) «اللجين» الفضة، والبيت عند ابن قتيبة في غريب القرآن (٤٤٧)، و«اللسان» مادة: «خلد» بلفظ: «أقاوز الكثبان»، و«الأقاويز» جمع «قوز» بالفتح، وهو: الكثيب الصغير من الرمل، وهو هنا شبه به أرداف النساء»، وانظر: تفسير ابن عطية (١٦/ ١٩١).

(٢) رواه البيهقي في البعث والنشور رقم (٣٧٠).

(٣) رواه أبو يعلى (٦/ ٣٥٧٠ و٣٦٣٦) و(٧/ ٤١٠١). قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢١٩): «رواه أبو يعلى من طرق ورجال أحدها رجال الصحيح (٣٥٧٠)، غير عبد الرحمٰن بن المتوكل، وهو ثقة»، والحديث تكلم عليه الألباني بتفصيل في سلسلة الأحاديث الصحيحة =

قال الدارقطني: ورواه عبد العزيز الماجشون، عن ابن المنكدر، عن يزيد الرقاشي، عن النبي ﷺ انتهى. ورواه فضيل بن سليمان، عن عبد الرحمٰن بن إسحاق، عن الزهري، عن أنس. وهذه الطرق ضعيفة؛ فيزيد واه، وفضيل بن سليمان متكلم فيه، وعبد الرحمٰن بن إسحاق ضعيف(١).

قال ابن قتيبة: واللاهون، من لهيت عن الشيء إذا غفلت عنه، وليس هو من لهوت(٢).

وأصحاب القول الأول لا يقولون: إن هؤلاء أولاد ولدوا لأهل الجنة فيها، وإنما يقولون: هم غلمان أنشأهم الله في الجنة كما أنشأ الحور العين.

قالوا: وأما ولدان أهل الدنيا فيكونون يوم القيامة أبناء ثلاثة وثلاثين، لما رواه ابن وهب، أنبأنا عمرو بن الحارث أن دراجاً أبا السمح حدثه عن أبي الهيثم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات من أهل الجنة من صغير أو كبير يردونَ بَني ثلاثين سنة في الجنة لا يزيدون عليها أبداً، وكذلك أهل النار»(٣)، رواه الترمذي.

والأشبه أن هؤلاء الولدان مخلوقون من الجنة كالحور العين خدماً لهم وغلماناً كما قال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ﴾ [الطور: ٢٤]. وهؤلاء غير أولادهم فإن من تمام كرامة الله تعالى لهم أن يجعل أولادهم مخدومين معهم ولا يجعلهم غلماناً لهم، وقد تقدم في حديث أنس عن النبي ﷺ: «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وفيه... يطوف علي ألف خادم كأنهم لؤلؤ مكنون»(٤)، والمكنون: المستور المصون الذي لم تبتذله الأيادي.

= رقم (١٨٨١)، وأفاد أن المقصود بـ(اللاهين) الأطفال، كما في حديث ابن عباس ﷺ عند الطبراني في الكبير (١١/ ٣٣٠) رقم (١١٩٠٦).

(١) انظر الحديث السابق ومصادر تخريجه.

(٢) قال ابن الأثير: «اللاهين» قيل: «هم البُلْه الغافلون»، وقيل: «الذين لم يتعمدوا الذنوب، وإنما فرط منهم سهواً ونسياناً»، وقيل: «هم الأطفال الذين لم يقترفوا ذنباً»، النهاية (٤/ ٢٨٣)، قلت: والصواب ما جاء في حديث الطبراني أنهم الأطفال.

(٣) حديث ضعيف، رواه الترمذي (٤/ ٥٩٩) في صفة الجنة، باب: ما جاء ما لأدنى أهل الجنة وقال: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث رشدين»، وفيه: «رشدين بن سعد، ضعيف، خلط في الحديث»، تهذيب التهذيب (٣/ ٢٧٧)، و«دراج أبو السمح» قال أبو داود: «أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد»، التهذيب (٢/ ٢٠٨)، وقال في التقريب (١/ ٢٣٥): «صدوق في حديثه عنه، أي: الهيثم، ضعيف» وضعفه غير واحد.

(٤) رواه الترمذي (٥/ ٥٤٦) في المناقب، في فضل النبي ﷺ وقال: حسن غريب، وقال =

وإذا تأملت لفظة الولدان ولفظة يطوف عليهم واعتبرتها بقوله: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ [الطور: ٢٤]. وضممت ذلك إلى حديث أبي سعيد المذكور آنفاً علمت أن الولدان غلمان أنشأهم الله تعالى في الجنة خدماً لأهلها، والله أعلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [**الإنسان**: ٢٠].

قال مجاهد: ملكاً كبيراً، قال: عظيماً، وقال: استئذان الملائكة عليهم، لا تدخل الملائكة عليهم إلا بإذن.

وقال كعب: يرسل إليهم ربهم الملائكة، فتأتي الملائكة فتستأذن عليهم الملائكة[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [**الإنسان**: ٢١].

وتأمل ما دلت عليه لفظة ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ من كون ذلك اللباس ظاهراً بارزاً يجمل ظواهرهم، ليس بمنزلة الشعار الباطن، بل الذي يلبس فوق الثياب للزينة والجمال.

وقد اختلف القراء السبعة في نصب ﴿عَٰلِيَهُمْ﴾ ورفعه على قراءتين[(٣)].

واختلف النحاة في وجه نصبه هل هو على الظرف أو على الحال؟ قولين.

واختلف المفسرون: هل ذلك للولدان الذين يطوفون عليهم فيطوفون وعليهم ثياب السندس والإستبرق، أو للسادات الذين يطوف عليهم الولدان، فيطوفون على سادتهم وعلى السادات هذه الثياب.

وليس الحال هاهنا بالبين ولا تحته ذلك المعنى البديع الرائع.

فالصواب: أنه منصوب على الظرف، فإن عالياً لما كان بمعنى فوق أجراه مجراه. قال أبو علي: وهذا الوجه أبين وهو أن عالياً صفة فجعل ظرفاً كما كان قوله: ﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٢]. كذلك، وكما قالوا: هو ناحية من الدار.

= الألباني: «إسناده ضعيف»، المشكاة (٣/ ١٦٠٥)، والدارمي (١/ ٣٠) في المقدمة، باب: ما أعطي ﷺ من الفضل.

(١) حادي الأرواح (١٧٥ ـ ١٧٧).

(٢) حادي الأرواح (١٩٤).

(٣) قرأ نافع وحمزة وأبان والمفضل عن عاصم: (عَلِيهِمْ) ساكنة الياء. وقرأ الباقون: (عَالِيَهُمْ) بفتح الياء، كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد (٦٦٤).

وأما من رفع عاليهم فعلى الابتداء، وثياب سندس خبره، ولا يمنع من هذا إفراد عال وجمع الثياب؛ لأن فاعلاً قد يراد به الكثرة كما قال:

ألا إن جيراني العشية رائح دعتهم دواع من هوى ومناوح

ومن رفع خضراً أجراه صفة للثياب، وهو الأقيس من وجوه:

أحدها: المطابقة بينهما في الجمع.

الثاني: موافقته لقوله تعالى: ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا﴾ [الكهف: ٣١].

الثالث: تخلصه من وصف المفرد بالجمع، ومن جر أجراه صفة لسندس على إرادة الجنس، كما يقال: أهلك الناس الدينار الصفر والدرهم البيض، وتترجح القراءة الأولى بوجه رابع أيضاً وهو: أن العرب تجيء بالجمع الذي هو في لفظ الواحد فيجرونه مجرى الواحد، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠]. وكقوله: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠]. فإذا كانوا قد أفردوا صفات هذا النوع من الجمع فإفراد صفة الواحد وإن كان في معنى الجمع أولى.

وفي (استبرق) قراءتان: الرفع على ثياب، والجر عطفاً على سندس.

وتأمل كيف جمع لهم بين نوعي الزينة الظاهرة من اللباس والحلي كما جمع لهم بين الظاهرة والباطنة كما تقدم قريباً، فجمل البواطن بالشراب الطهور والسواعد بالأساور والأبدان بثياب الحرير[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ **[الإنسان: ٢٢]**.

فجمع لهم سبحانه بين الأمرين أن شكر سعيهم وأثابهم عليه والله تعالى يشكر عبده إذا أحسن طاعته ويغفر له إذا تاب عليه فيجمع للعبد بين شكره لإحسانه ومغفرته لإساءته إنه غفور شكور[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ **[الإنسان: ٢٨]**.

---

(١) حادي الأرواح (١٦٣، ١٦٤).
(٢) عدة الصابرين (٢٨٠).

قال ابن عباس: أي: خلقهم، وقال أبو عبيدة: الأسر، شدة الخلق، يقال: فرس شديد الأسر، قال: وكل شيء شددته من قتب أو غيره، فهو مأسور.

وقال المبرد: الأسر: القوى كلها.

وقال الليث: الأسر: قوة المفاصل والأوصال، وشد الله أسر فلان، أي: قوّىٰ خلقه، وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر.

وقال الحسن: شددنا أوصاف لهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب[1].



(١) التبيان في أقسام القرآن (١٢٤).

سُوْرَةُ المُرْسَلاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ﴾ [**المرسلات**: ١ ـ ٧].

فسرت المرسلات بالملائكة، وهو قول أبي هريرة، وابن عباس في رواية مقاتل وجماعة، وفسرت بالرياح، وهو قول ابن مسعود وإحدى الروايتين عن ابن عباس وقول قتادة. وفسرت بالسحاب، وهو قول الحسن، وفسرت بالأنبياء، وهو رواية عطاء عن ابن عباس.

قلت: الله سبحانه يرسل الملائكة، ويرسل الأنبياء، ويرسل الرياح، ويرسل السحاب، فيسوقه حيث يشاء، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء، فإرساله واقع على ذلك كله، وهو نوعان: إرسال دين يحبه ويرضاه، كإرسال رسله وأنبيائه، وإرسال كون وهو نوعان: نوع يحبه ويرضاه، كإرسال ملائكته في تدبير أمر خلقه، ونوع لا يحبه، بل يسخطه ويبغضه كإرسال الشيطان على الكفار.

فالإرسال المقسم به هاهنا مقيد بالعرف. فإما أن يكون ضد المنكر، فهو إرسال رسله من الملائكة، ولا يدخل في إرسال الرياح، ولا الصواعق، ولا الشياطين.

وأما إرسال الأنبياء فلو أريد لقال: والمرسلين، وليس بالفصيح تسمية الأنبياء مرسلات. وتكلف الجماعات المرسلات خلاف المعهود من استعمال اللفظ، فلم يطلق في القرآن جمع ذلك إلا جمع تذكير لا جمع تأنيث، وأيضاً فاقتران اللفظة بما بعدها من الإقسام لا يناسب تفسيرها بالأنبياء، وأيضاً فإن الرسل مقسم عليهم في القرآن لا مقسم بهم كقولهم ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ [النحل: ٦٣]. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وقوله: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ١ ـ ٣].

وإن كان العرف من التابع، كعرف الفرس وعرف الديك، والناس إلى فلان

عرف واحد، أي: سابقون في قصده والتوجه إليه؛ جاز أن تكون المرسلات الرياح، ويؤيده عطف العاصفات عليه والناشرات كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وجاز أن تكون الملائكة، وجاز أن يعم النوعين لوقوع الإرسال عرفاً عليهما.

ويؤيده أن الرياح موكل بها ملائكة تسوقها وتصرفها، ويؤيد كونها الرياح عطف العاصفات عليها بفاء التعقيب والتسبب، فكأنها أرسلت فعصفت.

ومن جعل المرسلات الملائكة قال: هي تعصف في مضيها مسرعة كما تعصف الرياح.

والأكثرون على أنها الرياح، وفيها قول ثالث: إنها تعصف بروح الكافر، يقال: عصف بالشيء إذا أباده وأهلكه، قال الأعشى:

تــعــصــف بــالــدارع والــحــاســر

حكاه أبو إسحاق. وهو قول متكلف. فإن المقسم به لا بد أن يكون آية ظاهرة تدل على الربوبية، وأما الأمور الغائبة التي يؤمن بها فإنما يقسم عليه، وإنما يقسم سبحانه بملائكته وكتابه، لظهور شأنهما، ولقيام الأدلة والأعلام الظاهرة الدالة على ثبوتهما.

وأما ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾ فهو استئناف قسم آخر، ولهذا آتى به بالواو وما قبله معطوف على القسم الأول بالفاء. قال ابن مسعود، والحسن، ومجاهد وقتادة: هي الرياح تأتي بالمطر. ويدل على صحة قولهم قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٧]. يعني: أنها تنشر السحاب نشراً وهو ضد الطي.

وقال مقاتل: هي الملائكة تنشر كتب بني آدم وصحائف أعمالهم. وقاله مسروق، وعطاء عن ابن عباس.

وقالت طائفة: هي الملائكة تنشر أجنحتها في الجو عند صعودها ونزولها.

وقيل: تنشر أوامر الله في الأرض والسماء. وقيل: تنشر النفوس، فتحييها بالإيمان. وقال أبو صالح: هي الأمطار تنشر الأرض، أي: تحييها.

قلت: ويجوز أن تكون الناشرات لازماً لا مفعول له، ولا يكون المراد أنهن نشرن كذا، فإنه يقال: نشر الميت: حيي، أنشره الله: إذا أحياه، فيكون المراد بها الأنفس التي حييت بالعرف الذي أرسلت به المرسلات، أو الأشباح والأرواح

والبقاع التي حييت بالرياح المرسلات. فإن الرياح سبب لنشور الأبدان والنبات، والوحي سبب لنشور الأرواح وحياتها.

لكن هنا أمراً ينبغي التفطن له، وهو أنه سبحانه جعل الإقسام في هذه السورة نوعين وفصل أحدهما من الآخر، وجعل العاصفات معطوفاً على المرسلات بفاء التعقيب فصارا كأنهما نوع واحد، ثم جعل الناشرات، كأنه قسم مبتدأ فأتى فيه بالواو، ثم عطف عليه الفارقات والملقيات بالفاء، فأوهم هذا أن الفارقات والملقيات مرتبط بالناشرات، وأن العاصفات مرتبط بالمرسلات.

وقد اختلف في الفارقات والأكثرون على أنها الملائكة. ويدل عليه عطف الملقيات ذكراً عليها بالفاء، وهي الملائكة بالاتفاق.

وعلى هذا فيكون القسم بالملائكة التي تنشر أجنحتها عند النزول ففرقت بين الحق والباطل، فألقت الذكر على الرسل إعذاراً وإنذاراً.

ومن جعل الناشرات الرياح جعل الفارقات صفة لها. وقال: هي تفرق السحاب هاهنا وهاهنا، ولكن يأبى ذلك عطف الملقيات بالفاء عليها.

ومن قال: الفارقات أي: القرآن يفرق بين الحق والباطل فقوله يلتئم مع كون الناشرات الملائكة أكثر من التئامه إذا قيل: إنها الرياح.

ومن قال: هي جماعات الرسل فإن أراد الرسل من الملائكة فظاهر، وإن أراد الرسل من البشر فقد تقدم بيان ضعف هذا القول.

ويظهر ـ والله أعلم بما أراد من كلامه ـ أن القسم في هذه الآية وقع على النوعين: الرياح، والملائكة. ووجه المناسبة أن حياة الأرض والنبات وأبدان الحيوان بالرياح، فإنها من روح الله، وقد جعلها الله تعالى نشوراً، وحياة القلوب والأرواح بالملائكة، فبهذين النوعين يحصل نوعا الحياة. ولهذا ـ والله أعلم ـ فصل أحد النوعين من الآخر بالواو، وجعل ما هو تابع لكل نوع بعده بالفاء.

وتأمل كيف وقع القسم في هذه السورة على المعاد والحياة الدائمة الباقية وحال السعداء والأشقياء فيها، وقررها بالحياة الأولى في قوله: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

فذكر فيها المبدأ والمعاد، وأخلص السورة لذلك، فحسن الإقسام بما يحصل به نوعا الحياة المشاهدة. وهو الرياح، والملائكة. فكان في القسم بذلك أبين دليل وأظهر آية على صحة ما أقسم عليه وتضمنته السورة. ولهذا كان المكذب بعد ذلك

في غاية الجحود والعناد والكفر، فاستحق الويل بعد الويل، فتضاعف عليه الويل، كما تضاعف منه الكفر والتكذيب.

فلا أحسن من هذا التكرار في هذا الموضع، ولا أعظم منه موقعاً، فإنه تكرر عشر مرات، ولم يذكر إلا في أثر دليل أو مدلول عليه عقيب ما يوجب التصديق وما يوجب التصديق به، فتأمله[١].



(١) التبيان في أقسام القرآن (١٤٢ ـ ١٤٧).

سُوْرَةُ النّبَأ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٣ ـ ٢٥].

لما نفى ذوق البرد والشراب فربما توهم أنهم لا يذوقون غيرهما فقال: إلا حميماً وغساقاً فيكون الاستثناء من عام مقدر[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١ ـ ٣٣].

الكواعب: جمع كاعب وهي الناهد، قال قتادة ومجاهد والمفسرون: قال الكلبي: هن الفلكات اللواتي تكعب ثديهن وتفلكن، وأصل اللفظة من الاستدارة، والمراد أن ثديهن نواهد كالرمان ليست متدلية إلى أسفل ويسمين نواهد وكواعب[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ [النبأ: ٣٤].

قال الإمام أحمد: حدثنا هشيم، أنبأنا حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ قال: هي المتابعة الممتلئة، قال: وربما سمعت العباس يقول: اسقنا وادهق لنا[٣].

* * *

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٠).
(٢) حادي الأرواح (١٣٦).
(٣) حادي الأرواح (١٨٦).

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ۝٢ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبْحًا ۝٣ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ۝٤ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ١ ـ ٥].

فهذه خمسة أمور وهي صفات الملائكة.

فأقسم سبحانه بالملائكة الفاعلة لهذه الأفعال، إذ ذلك من أعظم آياته. وحذف مفعول النزع والنشط؛ لأنه لو ذكر ما تنزع وتنشط لأوهم التقيد به، وأن القسم على نفس الأفعال الصادرة من هؤلاء الفاعلين، فلم يتعلق الغرض بذكر المفعول. كقوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ [الليل: ٦] ونظائره، فكان نفس النزع هو المقصود لا عين المنزوع.

وأكثر المفسرين على أنها الملائكة التي تنزع أرواح بني آدم من أجسامهم، وهم جماعة كقوله: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]. وأما قوله: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]. فإما أن يكون واحداً وله أعوان، وإما أن يكون المراد الجنس لا الواحدة كقوله: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾ [التحريم: ١٢]، وقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨].

والنزع هو اجتذاب الشيء بقوة، والإغراق في النزع هو أن يجتذبه إلى آخره. ومنه إغراق النزع في جذب القوة، بأن يبلغ بها غاية المد، فيقال: أغرق في النزع، ثم صار مثلاً لكل من بالغ في فعل حتى وصل إلى آخره.

والغرق اسم مصدر أقيم مقامه كالعطاء والكلام، أقيم مقامه الإعطاء والتكلم.

واختلف الناس هل النازعات متعد أو لازم؟ فعلى القول الذي حكيناه يكون متعدياً، وهذا قول علي، ومسروق، ومقاتل، وأبي صالح، وعطية عن ابن عباس.

وقال ابن مسعود: هي أنفس الكفار، وهو قول قتادة، والسدي، وعطاء عن ابن

عباس. وعلى هذا فهو فعل لازم، وغرقاً على هذا معناه: نزعاً شديداً أبلغ ما يكون وأشده.

وفي هذا القول ضعف من وجوه:

أحدها: أن عطف ما بعده عليه يدل على أنها الملائكة فهي السابحات والمدبرات والنازعات.

والثاني: أن الإقسام بنفوس الكفار خاصة ليس بالبين، ولا في اللفظ ما يدل عليه.

الثالث: أن النزع مشترك بين نفوس بني آدم، والإغراق لا يختص بالكافر.

وقال الحسن: النازعات هي النجوم، تنزع من المشرق إلى المغرب، وغرقاً هو غروبها. قال: تنزع من هاهنا وتغرق هاهنا. واختاره الأخفش وأبو عبيد. وقال مجاهد: هي شدائد الموت وأهواله، التي تنزع الأرواح نزعاً شديداً. وقال عطاء وعكرمة: هي القسي، والنازعات على هذا القول بمعنى: النسب أو ذوات النزع التي ينزع بها الرامي، فهو النازع.

قلت: النازعات اسم فاعل من نزع، ويقال: نزع كذا. إذا اجتذبه بقوة، ونزع عنه: إذا خلاه وتركه، بعد ملابسته له، ونزع إليه: إذا ذهب إليه ومال إليه. وهذا إنما توصف به النفوس التي لها حركة إرادية للميل إلى الشيء أو الميل عنه، وأحق ما صدق عليه هذا الوصف الملائكة، ولأن هذه القوة فيها أكمل، وموضع الآية فيها أعظم. فهي التي تغرق في النزع إذا طلبت ما تنزعه أو تنزع إليه، والنفس الإنسانية أيضاً لها هذه القوة، والنجوم أيضاً تنزع من أفق إلى أفق.

فالنزع حركة شديدة، سواء كانت من ملك، أو نفس إنسانية، أو نجم، والنفوس تنزع إلى أوطانها، وإلى مألفها، وعند الموت تنزع إلى ربها. المنايا تنزع النفوس والقسي تنزع بالسهام، والملائكة تنزع من مكان إلى مكان، وتنزع ما وكلت بنزعه، والخيل تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها.

فالصفة واقعة على كل من له هذه الحركة التي هي آية من آيات الرب تعالى، فإنه هو الذي خلقها وخلق محلها، وخلق القوة والنفس التي بها تتحرك، ومن ذكر صورة من هذه الصور فإنما أراد التمثيل. وإن كانت الملائكة أحق من تناوله هذا الوصف.

□ □ □

فأقسم بطوائف الملائكة وأصنافهم: فهم النازعات التي تنزع الأرواح من الأجساد، والناشطات التي تنشطها أي: تخرجها بسرعة وخفة من قولهم: نشط الدلو من البئر إذا أخرجها، وأنا أنشط بكذا أي: أخف له وأسرع، ﴿وَٱلسَّٰبِحَٰتِ﴾: التي تسبح في الهواء في طريق ممرها إلى ما أمرت به، كما تسبح الطير في الهواء، ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ﴾: التي تسبق وتسرع إلى ما أمرت به لا تبطئ عنه ولا تتأخر: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ﴾ أمور العباد التي أمرها ربها بتدبيرها.

وهذا أولى الأقوال.

وقد روي عن ابن عباس: أن ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ﴾ الملائكة تنزع نفوس الكفار بشدة وعنف ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ الملائكة التي تنشط أرواح المؤمنين بيسر وسهولة واختار الفراء هذا القول، فقال: هي الملائكة تنشط نفس المؤمن فتقبضها، وتنزع نفس الكافر. قال الواحدي: إنما اختار ذلك، لما بين النشط والنزع من الفرق في الشدة واللين، فالنزع الجذب بشدة والنشط الجذب برفق ولين ﴿وَٱلنَّٰشِطَٰتِ﴾ هي النفوس التي تنشط لما أمرت به، والملائكة أحق الخلق بذلك، ونفوس المؤمنين ناشطة لما أمرت به.

قال مسروق: ومقاتل، والكلبي: ﴿فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا﴾: هي الملائكة. قال مجاهد وأبو روق: سبقت ابن آدم بالخير والعمل الصالح والإيمان والتصديق. قال مقاتل: تسبق بأرواح المؤمنين إلى الجنة.

□ □ □

وقال الفراء، والزجاج: هي الملائكة تسبق الشياطين بالوحي إلى الأنبياء إذا كانت الشياطين تسترق السمع.

وهذا القول خطأ لا يخفى فساده، إذ يقتضي الاشتراك بين الملائكة والشياطين في إلقائهم الوحي، وأن الملائكة تسبقهم به إلى الأنبياء، وهذا ليس بصحيح. فإن الوحي الذي تأتي به الملائكة إلى الأنبياء لا تسترقه الشياطين، وهم معزولون عن سماعه وإن استرقوا بعض ما يسمعونه من ملائكة السماء الدنيا من أمور الحوادث، فالله سبحانه صان وحيه إلى الأنبياء أن تسترق الشياطين شيئاً منه، وعزلهم عن سمعه ولو أن قائل هذا القول فسر السابقات بالملائكة التي تسبق الشياطين بالرجم بالشهب قبل إلقاء الكلمة التي استرقها لكان له وجه، فإن الشيطان يبدر مسرعاً بإلقائه إلى وليه، فتسبقه الملائكة في نزوله بالشهب الثواقب فتهلكه، وربما ألقى الكلمة قبل إدراك الشهاب له.

وفسرت ﴿فَالسَّبِقَتِ سَبْقًا﴾ بالأنفس السابقات إلى طاعة الله ومرضاته.

□ □ □

وأما ﴿فَالْمُدَبِّرَتِ أَمْرًا﴾ فأجمعوا على أنها الملائكة. قال مقاتل: هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت: يدبرون أمر الله تعالى في الأرض، وهم ﴿فَالْمُقَسِّمَتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

قال عبد الرحمٰن بن سابط: جبريل موكل بالرياح وبالجنود، وميكائيل موكل بالقطر والنبات، وملك الموت موكل بقبض الأنفس، وإسرافيل ينزل بأمر الله عليهم. وقال ابن عباس: هم الملائكة، وكَّلهم الله بأمور عرَّفهم العمل بها والوقوف عليها، بعضهم لبني آدم يحفظون ويكتبون، وبعضهم وكلوا بالأمطار والنبات والخسف والمسخ، والرياح والسحاب. انتهى.

وقد أخبر أن الله وكل بالرجم ملكاً، وللرؤيا ملك موكل بها، وللجنة ملائكة موكلون بعمارتها، وعمل آلاتها، وأوانيها، وغراسها وفراشها، ونمارقها وآرائكها، وللنار ملائكة موكلة بعمل ما فيها وإيقادها، وغير ذلك.

فالدنيا وما فيها، والجنة والنار، والموت وأحكام البرزخ قد وكل الله بذلك كله ملائكة يدبرون ما شاء الله من ذلك؛ ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الذي لا يتم الإيمان إلا به.

وأما من قال: إنها النجوم فليس هذا من قول أهل الإسلام، ولم يجعل الله النجوم تدبر شيئاً من الخلق، بل هي مدبرة ومسخرة، كما قال الله تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَتٍ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الأعراف: ٥٤]. فالله سبحانه هو المدبر بملائكته لأمر العالم العلوي والسفلي.

□ □ □

وجواب القسم محذوف يدل عليه السياق وهو البعث المستلزم لصدق الرسول ﷺ وثبوت القرآن.

أو أنه من القسم الذي أريد به التنبيه على الدلالة، والعبرة بالمقسم به دون أن يراد به مقسماً عليه بعينه. وهذا القسم يتضمن الجواب المقسم عليه وإن لم يذكر لفظاً، ولعل هذا مراد من قال: إنه محذوف للعلم به، لكن هذا الوجه ألطف مسلكاً. فإن المقسم به إذا كان دالاً على المقسم عليه مستلزماً استغنى عن ذكره بذكره. وهذا غير كونه محذوفاً لدلالة ما بعده عليه، فتأمله.

ولعل هذا قول من قال: إنه إنما أقسم برب هذه الأشياء، وحذف المضاف، فإن

معناه صحيح لكن على غير الوجه الذي قدروه. فإن إقسامه سبحانه بهذه الأشياء لظهور دلالتها على ربوبيته، ووحدانيته، وعلمه، وقدرته، وحكمته، فالإقسام بها في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله، فتأمله.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٤].

قيل: أول حشر الناس عند قيامهم من قبورهم في هذه الأرض التي ماتوا ودفنوا فيها، ثم يحولون إلى الأرض التي تسمى الساهرة فهذا معنى قوله: ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾.

والساهرة: هي التي يحاسبون عليها، فإذا فرغوا من الحساب، وجازوا على الصراط، وميِّز بين المجرمين والمؤمنين، ضرب بينهم بسور، فكان ما وراء السور مما يلي الجنة من أرض الجنة، وصار ما دون السور مما يلي النار من أرض جهنم، وموضع الحساب يصير من جهنم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨، ١٩].

ففي هذا من لطف الخطاب ولينه وجوه:

أحدها: إخراج الكلام مخرج العرض ولم يخرجه مخرج الأمر والإلزام وهو ألطف، ونظيره قول إبراهيم لضيفه المكرمين: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ [الذاريات: ٢٧]. ولم يقل: كلوا.

الثاني: قوله: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ والتزكي: النماء، والطهارة، والبركة والزيادة، فعرض عليه أمراً يقبله كل عاقل ولا يرده إلا كل أحمق جاهل.

الثالث: قوله: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ ولم يقل: أزكيك فأضاف التزكية إلى نفسه. وعلى هذا يخاطب الملوك.

الرابع: قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ﴾.

أي: أكون دليلاً لك، وهادياً بين يديك. فنسب الهداية إليه والتزكي إلى المخاطب، أي: أكون دليلاً لك وهادياً فتزكى أنت، كما تقول للرجل: هل لك أن أدلك على كنز تأخذ منه ما شئت؟ وهذا أحسن من قوله: أعطيك.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٠٥).

الخامس: قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ فإن في هذا ما يوجب قبول ما دل عليه وهو أنه يدعوه ويوصله إلى ربه فاطره وخالقه الذي أوجده، ورباه بنعمه: جنيناً، وصغيراً وكبيراً، وآتاه الملك، وهو نوع من خطاب الاستعطاف والإلزام. كما تقل لمن خرج عن طاعة سيده: ألا تطيع سيدك ومولاك ومالكك؟ وتقول للولد: ألا تطيع أباك الذي رباك؟

السادس: قوله: ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ أي: إذا اهتديت إليه وعرفته خشيته؛ لأن من عرف الله خافه، ومن لم يعرفه لم يخفه، فخشيته تعالى مقرونة بمعرفته، وعلى قدر المعرفة تكون الخشية.

السابع: أن في قوله: ﴿هَل لَّكَ﴾ فائدة لطيفة، وهي أن المعنى: هل لك في ذلك حاجة أو أرب؟ ومعلوم أن كل عاقل يبادر إلى قبول ذلك؛ لأن الداعي إنما يدعو إلى حاجته ومصلحته لا إلى حاجة المدعو، فكأنه يقول: الحاجة لك وأنت المتزكي، وأنا الدليل لك والمرشد لك إلى أعظم مصالحك، فقابل هذا بغاية الكفر والعناد، وادعى أنه رب العالمين، هذا، وهو يعلم أنه ليس بالذي خلق فسوى، ولا قدر فهدى، فكذب الخبر، وعصى الأمر، ثم أدبر يسعى بالخديعة والمكر، فحشر جنوده فأجابوه، ثم نادى فيهم بأنه ربهم الأعلى، واستخفهم فأطاعوه، فبطش به جبار السماوات والأرض بطشة عزيز مقتدر وأخذه نكال الآخرة والأولى، ليعتبر بذلك من يعتبر، فاعتبر بذلك من خشي ربه من المؤمنين، وحق القول على الكافرين(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

النفس تدعو إلى الطغيان، وإيثار الحياة الدنيا، والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهي النفس عن الهوى، والقلب بين الداعين، يميل إلى هذا الداعي مرة، وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء(٢).

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٣٢ ـ ١٤٢).
(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠].

وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية، فخوفه من هذا المقام: يوجب له خشوع القلب لا محالة، وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً، وإنما يفارق القلب إذا غفل عن اطلاع الله عليه ونظره إليه، والتأويل الثاني: أنه مقام العبد بين يدي ربه عند لقائه.

فعلى الأول: يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل.

وعلى الثاني: وهو أليق بالآية يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف، والله أعلم[1].



(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٢، ٥٢٣).

سُوْرَةُ عَبَسَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤ ـ ٣٢].

فجعل سبحانه نظره في إخراج طعامه من الأرض دليلاً على إخراجه هو منها بعد موته استدلالاً بالنظير على النظير(١).



(١) إعلام الموقعين (١/ ١٩٦).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [**التكوير**: ٥].

هذا هو الدليل [**الأول**] على حشر الوحوش.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: ٣٨].

الثالث: حديث مانع صدقة الإبل والبقر والغنم، وأنها تجيء يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنه، تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها، وهو متفق على صحته.

الرابع: حديث أبي ذر: أن النبي ﷺ رأى شاتين ينتطحان فقال: «يا أبا ذر أتدري فيما ينتطحان». قال: قلت: لا. قال: «لكن الله يدري وسيقضي بينهما»[1]. رواه أحمد في مسنده.

الخامس: الآثار الواردة في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠]. وإن الله تعالى يجمع الوحوش ثم يقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها: كوني تراباً فتكون تراباً فعندها يقول الكافر: ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [**التكوير**: ٧].

أي: قرن بين كل شكل وشكله في النعيم والعذاب، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه الآية: الصالح مع الصالح في الجنة والفاجر مع الفاجر في النار. وقاله الحسن وقتادة والأكثرون.

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى في مسنده (٥/ ١٦٢) وقال الألباني: «إسناده صحيح» الصحيحة (٤/ ٦١٠) عند الحديث رقم (١٩٦٧)، وأبو داود الطيالسي برقم (٤٨٠)، وصحح إسناده أيضاً الألباني كما في الصحيحة (٤/ ١١٧).

(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٣).

وقيل: زوجت أنفس المؤمنين بالحور العين وأنفس الكافرين بالشياطين، وهو راجع إلى القول الأول(١).

أي: قرن كل صاحب عمل بشكله ونظيره، فقرن بين المتحابين في الله في الجنة، وقرن بين المتحابين في طاعة الشيطان في الجحيم، فالمرء مع من أحب شاء أو أبى وفي (مستدرك الحاكم) وغيره عن النبي ﷺ: «لا يحب المرء قوماً إلا حشر معهم»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٥ ـ ١٨].

أقسم سبحانه بالنجوم في أحوالها الثلاثة، من طلوعها وجريانها وغروبها. هذا قول علي وابن عباس وعامة المفسرين، وهو الصواب.

والخنس: جمع خانس، والخنس: الانقباض والاختفاء، ومنه سمي الشيطان خناساً لانقباضه وانكماشه حين يذكر العبد ربه، ومنه قول أبي هريرة: فانخنست.

والكنس: جمع كانس وهو الداخل في كُناسه، أي: في بيته، ومنه تكنست المرأة إذا دخلت في هودجها، ومنه كنست الظباء؛ إذا أوت إلى أكناسها.

والجواري: جمع جارية كغاشية وغواشٍ. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: النجوم تخنس بالنهار وتظهر بالليل، وهذا قول مقاتل وعطاء وقتادة وغيرهم، قالوا: الكواكب تخنس بالنهار فتختفي ولا ترى وتكنس في وقت غروبها، ومعنى تخنس ـ على هذا القول ـ: تتأخر عن البصر، وتتوارى عنه بإخفاء النهار لها.

وفيه قول آخر وهو: أن خنوسها رجوعها وهي حركتها الشرقية فإن لها حركتين حركة بفعلها وحركة بنفسها، فخنوسها حركتها بنفسها راجعة.

وفيه قول ثالث: وهو أن خنوسها وكنوسها اختفاؤها وقت مغيبها، فتغيب في مواضعها التي تغيب فيها، وهذا قول الزجاج.

ولما كان للنجوم حال ظهور، وحال اختفاء، وحال جريان، وحال غروب،

---

(١) جلاء الأفهام (١٣١).

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى: (٦/ ١٤٥ ـ ١٦٠)، والحاكم في مستدركه (٤/ ٣٨٤)، وأبو يعلى (٨/ ٤٩، ٥٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٣٧): «رواه ورجاله ثقات...»، وانظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٧٥، ٣٧٦).

أقسم سبحانه بها في أحوالها كلها، ونبه بخنوسها على حال ظهورها، لأن الخنوس هو الاختفاء بعد الظهور، ولا يقال لما لا يزال مختفياً: إنه قد خنس. فذكر سبحانه جريانها وغروبها صريحاً، وخنوسها وظهورها، واكتفى من ذكر طلوعها بجريانها الذي مبدؤه الطلوع فالطلوع أول جريانها.

فتضمن القسم طلوعها، وغروبها وجريانها، واختفاءها، وذلك من آياته ودلائل ربوبيته.

وليس قول من فسرها بالظباء وبقر الوحش بالظاهر لوجوه:

أحدها: أن هذه الأحوال في الكواكب السيارة أعظم آية وعبرة.

الثاني: اشتراك أهل الأرض في معرفته بالمشاهدة والعيان.

الثالث: أن البقر والظباء ليست لها حالة تختفي فيها عن العيان مطلقاً، بل لا تزال ظاهرة في الفلوات.

الرابع: أن الذين فسروا الآية بذلك قالوا: ليس خنوسها من الاختفاء. قال الواحدي: هو من الخنس في الأنف، وهو تأخر الأرنبة وقصر القصبة، والبقر والظباء أنوفهن خنس، والبقر خنساء، والظبي أخنس. ومنه سميت الخنساء لخنس أنفها، ومعلوم أن هذا أمر خفي يحتاج إلى تأمل. وأكثر الناس لا يعرفونه، وآيات الرب التي يقسم بها لا تكون إلا ظاهرة جلية يشترك في معرفتها الخلائق، وليس الخنس في أنف البقرة والظباء بأعظم من الاستواء والاعتدال في أنف ابن آدم، فالآية فيه أظهر.

الخامس: أن كنوسها في أكنتها ليس بأعظم من دخول الطير وسائر الحيوانات في بيته الذي يأوي فيه ولا أظهر منه، حتى يتعين للقسم.

السادس: أنه لو كان جمعاً للظبي لقال: الخنس ـ بالتسكين ـ لأنه جمع أخنس، فهو كأحمر وحمر ولو أريد به جمع بقرة خنساء لكان على وزن فعلاء أيضاً، كحمراء وحمر، فلما جاء جمعه على فعل ـ بالتشديد ـ استحال أن يكون جمعاً لواحد من الظباء والبقر؛ وتعين أن يكون جمعاً لخانس، كشاهد وشهد، وصائم وصوم، وقائم وقوم، ونظائرها.

السابع: أنه ليس بالبين إقسام الرب تعالى بالبقر والغزلان، وليس هذا عرف القرآن ولا عادته، وإنما يقسم سبحانه من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس الإنسانية ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه

وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفها، وهو الليالي العشر. وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم، كقوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. وقوله: ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [النجم: ٤٥]. في قراءة رسول الله ﷺ ونحو ذلك.

الثامن: أن اقتران القسم بالليل والصبح يدل على أنها النجوم، وإلا فليس باللائق اقتران البقر والغزلان والليل والصبح في قسم واحد. وبهذا احتج أبو إسحاق على أنها النجوم. فقال: هذا أليق بذكر النجوم منه بذكر الوحش.

التاسع: أنه لو أراد ذلك سبحانه لبينه وذكر ما يدل عليه، كما أنه لما أراد بالجواري السفن قال: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وهنا ليس في اللفظ ولا في السياق ما دل على أنها البقر والظباء. وفيه ما يدل على أنها النجوم من الوجوه التي ذكرناها وغيرها.

العاشر: أن الارتباط الذي بين النجوم التي هي هداية للسالكين ورجوم للشياطين، وبين المقسم عليه ـ وهو القرآن، الذي هو هدى للعالمين، وزينة للقلوب، وداحض لشبهات الشيطان ـ أعظم من الارتباط الذي بين البقر والظباء والقرآن، والله أعلم.

□ □ □

واختلف في عسعسة الليل، هل هي إقباله أم إدباره؟ فالأكثرون على أن عسعس بمعنى: ولى وذهب وأدبر، هذا قول علي وابن عباس وأصحابه. قال الحسن: أقبل بظلامه. وهو إحدى الروايتين عن مجاهد.

فمن رجح الإقبال قال: أقسم الله ﷻ بإقبال الليل وإقبال النهار، فقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ مقابل لليل إذا عسعس. قالوا: ولهذا أقسم الله بـ ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١، ٢] وبالضحى. قالوا: فغشيان الليل نظير عسعسته، وتجلي النهار نظير تنفس الصبح، إذ هو مبدؤه وأوله.

ومن رجح أنه إدباره احتج بقوله تعالى: ﴿كَلَّا وَٱلۡقَمَرِ ۝٣٢ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ [المدثر: ٣٢ ـ ٣٤]. فأقسم بإدبار الليل وإسفار الصبح، وذلك نظير عسعسة الليل، وتنفس الصبح. قالوا: والأحسن أن يكون القسم بانصرام الليل وإقبال النهار، فإنه عقيبه من غير فصل، فهذا أعظم في الدلالة والعبرة، بخلاف إقبال

الليل وإقبال النهار، فإنه لم يعرف القسم في القرآن بهما، ولأن بينهما زمناً طويلاً، فالآية في انصرام هذا ومجيء الآخر عقيبه بغير فصل أبلغ. فذكر سبحانه حالة ضعف هذا، وإدباره، وحالة قوة هذا وتنفسه، وإقباله يطرد ظلمة الليل بتنفسه، فكلما تنفس هرب الليل وأدبر بين يديه. وهذا هو القول، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢٢].

ثم ذكر سبحانه المقسم عليه، وهو القرآن، وأخبر أنه قول رسول كريم، وهو هاهنا جبريل قطعاً؛ لأنه ذكر صفته بعد ذلك بما يعينه به.

وأما الرسول الكريم في الحاقة فهو محمد ﷺ لأنه نفى بعده أن يكون قول من زعم من أعدائه أنه قوله، فقال: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

فأضافه إلى الرسول الملكي تارة، وإلى البشري تارة، وإضافته إلى كل واحد من الرسولين إضافة تبليغ لا إضافة إنشاء من عنده، وإلا تناقضت النسبتان. ولفظ الرسول يدل على ذلك، فإن الرسول هو الذي يبلغ كلام من أرسله، وهذا صريح في أنه كلام من أرسل جبريل ومحمد ﷺ، وأن كلاً منهما بلغه عن الله، فهو قوله مبلغاً، وقول الله الذي تكلم به حقاً.

فلا راحة لمن أنكر أن يكون الله متكلماً بالقرآن وهو كلامه حقاً في هاتين الآيتين، بل هما من أظهر الأدلة على كونه كلام الرب تعالى، وأنه ليس للرسولين الكريمين منه إلا التبليغ، فجبريل سمعه من الله، ومحمد ﷺ سمعه من جبريل.

ووصف رسوله الملكي في هذه السورة بأنه كريم، قوي، مكين عند الرب تعالى، مطاع في السماوات، أمين، فهذه خمس صفات تتضمن تزكية سند القرآن، وأنه سماع محمد من جبريل من رب العالمين. فناهيك بهذا السند علواً وجلالة: قول الله سبحانه بنفسه تزكيته.

الصفة الأولى: كون الرسول الذي جاء به إلى محمد ﷺ كريماً، ليس كما يقول أعداؤه: إن الذي جاء به شيطان، فإن الشيطان خبيث مخبث، لئيم، قبيح المنظر، عديم الخير، باطنه أقبح من ظاهره، وظاهره أشنع من باطنه، وليس فيه ولا عنده خير، فهو أبعد شيء عن الكرم. والرسول الذي ألقى القرآن إلى محمد ﷺ كريم،

جميل المنظر، بهي الصورة، كثير الخير، طيب مطيب، معلم الطيبين. وكل خير في الأرض من هدى وعلم ومعرفة وإيمان وبر، فهو مما أجراه ربه على يده وهذا غاية الكرم الصوري والمعنوي.

الوصف الثاني: أنه ذو قوة كما قال في موضع آخر: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥]. وفي ذلك تنبيه على أمور:

أحدها: أنه بقوته يمنع الشياطين أن تدنو منه، وأن ينالوا منه شيئاً، وأن يزيدوا فيه أو ينقصوا منه، بل إذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أنه موال لهذا الرسول الذي كذبتموه؛ ومعاضد له، ومواد له وناصر، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. ومن كان هذا القوي وليه، ومن أنصاره، وأعوانه، ومعلمه، فهو المهدي المنصور والله هاديه، وناصره.

الثالث: أن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبه ووليه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أنه قادر على تنفيذ ما أمر به لقوته، فلا يعجز عن ذلك، مؤدٍّ له كما أمر به لأمانته، فهو القوي الأمين، وأحدكم إذا انتدب غيره في أمر من الأمور لرسالة، أو ولاية، أو وكالة أو غيرها فإنما ينتدب لها القوي عليه الأمين على فعله، وإن كان ذلك الأمر من أهم الأمور عنده انتدب له قوياً أميناً معظماً ذا مكانة عنده، مطاعاً في الناس، كما وصف الله عبده جبريل بهذه الصفات.

هذا يدل على عظمة شأن المرسِل، والرسول، والرسالة، والمرسَل إليه، حيث انتدب له الكريم القوي المكين عنده، المطاع في الملأ الأعلى، الأمين حق الأمين، فإن الملوك لا ترسل في مهماتها إلا الأشراف، ذوي الأقدار والرتب العالية.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾.

أي: له مكانة ووجاهة عنده، وهو أقرب الملائكة إليه، وفي قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ إشارة إلى علو منزلة جبريل، إذ كان قريباً من ذي العرش سبحانه.

وفي قوله: ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ [التكوير: ٢١]. إشارة إلى أن جنوده وأعوانه يطيعونه إذا ندبهم لنصر صاحبه وخليله محمد ﷺ. وفيه إشارة أيضاً إلى أن هذا الذي تكذبونه وتعادونه سيصير مطاعاً في الأرض، كما أن جبريل مطاع في السماء، وأن كلًّا من

الرسولين مطاع في محله وقومه، وفيه تعظيم له بأنه بمنزلة الملوك المطاعين في قومهم، فلم ينتدب لهذا الأمر العظيم إلا مثل هذا الملك المطاع.

وفي وصفه بالأمانة إشارة إلى حفظه ما حمله، وأدائه له على وجهه.

ثم نزه رسوله البشري وزكاه عما يقول فيه أعداؤه، فقال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

وهذا أمر يعلمونه ولا يشكون فيه، وإن قالوا بألسنتهم خلافه، فهم يعلمون أنهم كانوا كاذبين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ **[التكوير: ٢٣ ـ ٢٦].**

ثم أخبر عن رؤيته ﷺ لجبريل، وهذا يتضمن أنه ملك موجود في الخارج، يُرى بالعيان، ويدركه البصر، لا كما يقول المتفلسفة ومن قلدهم: إنه العقل الفعال وإنه ليس مما يدرك بالبصر، وحقيقته عندهم أنه خيال موجود في الأذهان لا في الأعيان، وهذا مما خالفوا به جميع الرسل وأتباعهم، وخرجوا به عن جميع الملل.

ولهذا كان تقرير رؤية النبي ﷺ لجبريل أهم من تقرير رؤيته لربه تعالى؛ فإن رؤيته لجبريل هي أصل الإيمان الذي لا يتم إلا باعتقادها ومن أنكرها كفر قطعاً، وأما رؤيته لربه تعالى فغايتها أن تكون مسألة نزاع لا يكفر جاحدها بالاتفاق. وقد صرح جماعة من الصحابة بأنه لم يره. وحكى عثمان بن سعيد الدارمي اتفاق الصحابة على ذلك.

فنحن إلى تقرير رؤيته لجبريل أحوج منا إلى تقرير رؤيته لربه تعالى. وإن كانت رؤية الرب أعظم من رؤية جبريل ومن دونه، فإن النبوة لا يتوقف ثبوتها عليها البتة.

ثم نزه رسوليه كليهما ـ أحدهما بطريق النطق، والثاني بطريق اللزوم ـ عما يضاد مقصود الرسالة من الكتمان الذي هو الضنة والبخل، والتبديل، والتغيير الذي يوجب التهمة فقال: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.

فإن الرسالة لا يتم مقصودها إلا بأمرين: أدائها من غير كتمان، وأدائها على وجهها من غير زيادة ولا نقصان. والقراءتان كالآيتين[1]، فتضمنت إحداهما ـ وهي

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: (بِظَنين) بالظاء، وقرأ نافع وعاصم وابن عامر وحمزة: (بضنين) بالضاد. القراءات لابن مجاهد (٦٧٣).

قراءة الضاد ـ تنزيهه عن البخل، فإن الضنين هو البخيل، يقال: ضننت به أضن، بوزن بخلت به أبخل ومعناه؛ ومنهم قول جميل بن معمر:

أجود مضمون التلاد وأنني   بسرك عمن سألني لضنين

قال ابن عباس ﷺ: ليس بخيلاً بما أنزل الله. وقال مجاهد: لا يضن عليهم بما يعلم.

وأجمع المفسرون على أن الغيب هاهنا القرآن والوحي. وقال الفراء: يقول تعالى: يأتيه غيب السماء وهو منفوس فيه، فلا يضن به عليكم. وهذا معنى حسن جداً، فإن عادة النفوس الشح بالشيء النفيس، ولا سيما عمن لا يعرف قدره، ويذمه ويذم من هو عنده، ومع هذا فهذا الرسول لا يبخل عليكم بالوحي الذي هو أنفس شيء وأجله. وقال أبو علي الفارسي: المعنى: يأتيه الغيب فيبينه ويخبر به ويظهره، ولا يكتمه كما يكتم الكاهن ما عنده، ويخفيه حتى يأخذ عليه حلواناً.

وفي معنى آخر، وهو أنه على ثقة من الغيب الذي يخبر به فلا يخاف أن ينتقض، ويظهر الأمر بخلاف ما أخبر به؛ كما يقع للكهان وغيرهم ممن يخبر بالغيب، فإن كذبهم أضعاف صدقهم، وإذا أخبر أحدهم بخبر لم يكن على ثقة منه، بل هو خائف من ظهور كذبه.

فإقدام هذا الرسول على الإخبار بهذا الغيب العظيم الذي هو أعظم الغيب واثقاً به، مقيماً عليه، مبدياً له في كل مجمع، ومعيداً منادياً به على صدقه، مجلباً به على أعدائه من أعظم الأدلة على صدقه.

وأما قراءة من قرأ (بظنين) بالظاء، فمعناه: المتهم، يقال: ظننت زيداً بمعنى: اتهمته. وليس من الظن الذي هو الشعور والإدراك، فإن ذاك يتعدى إلى مفعولين، ومنه ما أنشده أبو عبيدة:

أما وكتاب اللّه لا عن شناءة   هجرت ولكن المحب ظنين

والمعنى: وما هذا الرسول على القرآن بمتهم، بل هو أمين لا يزيد فيه ولا ينقص؛ وهذا يدل على أن الضمير يرجع إلى محمد ﷺ، لأنه قد تقدم وصف الرسول الملكي بالأمانة، ثم قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ ثم قال: ﴿وَمَا هُوَ﴾ أي: وما صاحبكم بمتهم ولا بخيل.

واختار أبو عبيدة قراءة الظاء لمعنيين:

أحدهما: أن الكفار لم يبخلوه، وإنما اتهموه. فنفي التهمة أولى من نفي البخل.

الثاني: أنه قال: ﴿عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ولو كان المراد البخل لقال: بالغيب، لأنه يقال: فلان ضنين بكذا. وقلما يقال: على كذا.

قلت: ويرجحه أنه وصفه بما وصف به رسوله الملكي من الأمانة، فنفى عنه التهمة كما وصف جبريل بأنه أمين. ويرجحه أيضاً أنه سبحانه نفى أقسام الكذب كلها عما جاء به من الغيب، فإن ذلك لو كان كذباً، فإما أن يكون منه، أو ممن علمه، وإن كان منه، فإما أن يكون تعمده أو لم يتعمده، فإن كان من معلمه فليس هو بشيطان رجيم، وإن كان منه مع التعمد فهو المتهم، ضد الأمين. وإن كان عن غير تعمد فهو المجنون. فنفى سبحانه عن رسوله ذلك كله.

وزكى سند القرآن أعظم تزكية، فلهذا قال سبحانه: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ﴾، ليس تعليم الشيطان ولا يقدر عليه، ولا يحسن منه كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١]. فنفى فعله وابتغاءه منهم، وقدرتهم عليه. وكل من له أدنى خبرة بأحوال الشياطين والمجانين والمتهمين، وأحوال الرسل يعلم علماً لا يمارى فيه ولا يشك بل علماً ضرورياً ـ كسائر الضروريات ـ منافاة أحدهما للآخر، ومضادته له، كمنافاة أحد الضدين لصاحبه. بل ظهور المنافاة بين الأمرين للعقل أبين من ظهور المنافاة بين النور والظلمة للبصر، ولهذا وبخ سبحانه من كفر بعد ظهور هذا الفرق المبين بين دعوة الرسل ودعوة الشياطين، فقال: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾.

قال أبو إسحاق: فأي طريق تسلكون أبين من هذه الطريقة التي بينت لكم؟

قلت: هذا من أحسن اللازم وأبينه، أن تبين للسامع الحق ثم تقول له: إيش تقول خلاف هذا؟ وأين تذهب خلاف هذا؟ قال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [المرسلات: ٥٠]. وقال: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾ [الجاثية: ٦]، فالأمر منحصر في الحق والباطل، والهدى والضلال، فإذا عدلتم عن الهدى والحق، فأين العدول، وأين المذهب.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧ ـ ٢٩].

ثم أخبر تعالى عن القرآن بأنه ذكر للعالمين، وفي موضع آخر تذكرة للمتقين، وفي موضع آخر لرسوله ﷺ ولقومه، وفي موضع آخر ذكر مطلق، وفي موضع آخر ذكر مبارك، وفي موضع آخر وصفه بأنه ذو الذكر.

وبجمع هذه المواضع تبين المراد من كونه ذكراً عاماً وخاصاً، وكونه ذا ذكر، فإنه يذكر العباد بمصالحهم في معاشهم ومعادهم، ويذكرهم بالمبدأ والمعاد، ويذكرهم بالرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله، وحقوقه على عباده، ويذكرهم بالخير ليقصدوه، وبالشر ليجتنبوه. ويذكرهم بنفوسهم، وأحوالهم وآفاتها، وما تكمل به. ويذكرهم بعدوهم وما يريد منهم، وبماذا يحترزون من كيده، ومن أي الأبواب والطرق يأتي إليهم. ويذكرهم بفاقتهم وحاجتهم إليه، وأنهم مضطرون إليه لا يستغنون عنه نفساً واحداً، ويذكرهم بنعمه عليهم، ويدعوهم بها إلى نعم أخرى أكبر منها، ويذكرهم بأسه وشدة بطشه، وانتقامه ممن عصى أمره وكذب رسله، ويذكرهم بثوابه وعقابه.

ولهذا يأمر سبحانه عباده أن يذكروا ما في كتابه، كما قال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]. وإذا كان كذلك فأحق وأولى وأول من كان ذاكراً له من أنزل عليه، ثم لقومه، ثم لجميع العالمين. وحيث خص به المتقين فلأنهم الذين انتفعوا بذكره.

وأما وصفه بأنه ذو الذكر فلأنه مشتمل على الذكر، فهو صاحب الذكر ومنه الذكر، فهو ذكر وفيه الذكر، كما أنه هدى وفيه الهدى، وشفاء وفيه الشفاء، ورحمة وفيه الرحمة.



وقوله تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].

بدل من العالمين، وهو بدل بعض من كل. وهذا من أحسن ما يستدل به على أن البدل في قوة ذكر عاملين مقصودين، فإن جهة كونه ذكراً للعالمين كلهم غير جهة كونه ذكراً لأهل الاستقامة، فإنه ذكر للعموم بالصلاحية والقوة وذكر لأهل الاستقامة بالحصول والنفع، فكما أن البدل أخص من المبدل منه فالعامل المقدر فيه أخص من العامل الملفوظ في المبدل منه، ولا بد من هذا. فتأمله.

وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾ رد على الجبرية القائلين: بأن العبد لا مشيئة له، أو أن

مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

□ □ □

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.

وهاتان الآيتان متضمنتان إثبات الشرع والقدر، والأسباب والمسببات وفعل العبد واستناده إلى فعل الرب، ولكل منهما عبودية مختص بها: فعبودية الآية الأولى: الاجتهاد واستفراغ الوسع والاختيار والسعي. وعبودية الثانية: الاستعانة بالله والتوكل عليه واللجأ إليه واستنزال التوفيق والعون منه، والعلم أن العبد لا يمكنه أن يشاء ولا يفعل حتى يجعله الله كذلك.

وقوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ينتظم ذلك كله ويتضمنه فمن عطل أحد الأمرين فقد جحد كمال الربوبية وعطلها. وبالله التوفيق[١].

❁ ❁ ❁

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١١٤ ـ ١٣٢).

سُورَةُ الانفِطارِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

أي: استحيوا من هؤلاء الحافظين الكرام وأكرموهم وأجلوهم أن يروا منكم ما تستحيون أن يراكم عليه من هو مثلكم، والملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم، فإذا كان ابن آدم يتأذى ممن يفجر ويعصي بين يديه، وإن كان قد يعمل مثل عمله، فما الظن بأذى الملائكة الكرام الكاتبين، والله المستعان(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤].

لا تحسب أن الآية مقصورة على نعيم الآخرة وجحيمها فقط، بل في دورهم أعني: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. فهؤلاء في نعيم، وهؤلاء في جحيم، وهل النعيم إلا نعيم القلب وهل العذاب إلا عذاب القلب؟ وأي عذاب أشد من الخوف والهم والحزن وضيق الصدر وإعراضه عن الله والدار الآخرة وتعلقه بغير الله وانقطاعه عن الله بكل وادٍ منه شعبة، وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب(٢).

❁ ❁ ❁

(١) الجواب الكافي (١٥٩).
(٢) الجواب الكافي (١٠٩).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

«الرين» و«الران» هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق والانقياد له[١].

وقال أبو معاذ النحوي: الرين أن يسود القلب من الذنوب، والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين. والإقفال أشد من الطبع وهو أن يقفل على القلب.

وقال الفراء: كثرت الذنوب والمعاصي منهم فأحاطت بقلوبهم، فذلك الرين عليها.

وقال أبو إسحاق: ران غطى، يقال: ران على قلبه الذنب ريناً، أي: غشيه. قال: والرين كالغشاء يغشى القلب ومثله الغين.

قلت: أخطأ أبو إسحاق، فالغين ألطف شيء وأرقه. قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: «وإنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»[٢]، وأما الرين والران فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها.

وقال مجاهد: هو الذنب على الذنب حتى تحيط الذنوب بالقلب وتغشاه فيموت القلب.

وقال مقاتل: غمرت القلوب أعمالهم الخبيثة.

وفي سنن النسائي والترمذي من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإن هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن زاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»[٣] قال الترمذي: هذا حديث صحيح.

---

(١) مدارج السالكين (١/ ١٣٠). (٢) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(٣) سنن الترمذي (٥/ ٤٠٤) في التفسير، باب: سورة المطففين، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٤١٧) =

وقال عبد الله بن مسعود: كلما أذنب نكت في قلبه نكتة سوداء حتى يسود القلب كله.

فأخبر سبحانه أن ذنوبهم التي اكتسبوها أوجبت لهم ريناً على قلوبهم فكان سبب الران منهم وهو خلق الله فيهم فهو خالق السبب ومسببه، لكن السبب اختيار العبد والمسبب خارج عن قدرته واختياره(١).

□ □ □

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلاً وختماً، فيصير القلب في غشاوة وغلاف فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد(٢).

□ □ □

فمنعتهم الذنوب أن يقطعوا المسافة بينهم وبين قلوبهم فيصلوا إليها فيروا ما يصلحها ويزكيها وما يفسدها ويشقيها، وأن يقطعوا المسافة بين قلوبهم وبين ربهم، فتصل القلوب إليه فتفوز بقربه وكرامته، وتقر به عيناً وتطيب به نفساً، بل كانت الذنوب حجاباً بينهم وبين قلوبهم، وحجاباً بينهم وبين ربهم وخالقهم(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥ ـ ١٦].

فجمع عليهم نوعي العذاب: عذاب النار وعذاب الحجاب عنه سبحانه، كما جمع لأوليائه نوعي النعيم: نعيم التمتع بما في الجنة ونعيم التمتع برؤيته. وذكر سبحانه هذه الأنواع الأربعة في هذه السورة فقال في حق الأبرار: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٢٢ ـ ٢٣].

ولقد هضم معنى الآية من قال: ينظرون إلى أعدائهم يعذبون، أو ينظرون إلى قصورهم وبساتينهم، أو ينظر بعضهم إلى بعض، وكل هذا عدول عن المقصود إلى

= في الزهد، باب: ذكر الذنوب، ورواه الإمام أحمد (٢/ ٢٩٧)، والحاكم (٢/ ٥١٧) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(١) شفاء العليل (٩٤).

(٢) الجواب الكافي (٨٢، ٨٣).

(٣) الجواب الكافي (١٧٦).

غيره. وإنما المعنى: ينظرون إلى وجه ربهم، ضد حال الكفار الذين هم عن ربهم لمحجوبون ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾.

وتأمل كيف قابل سبحانه ما قاله الكفار في أعدائهم في الدنيا وسخروا به منهم، بضده في القيامة؛ فإن الكفار كانوا إذا مر بهم المؤمنون يتغامزون ويضحكون منهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢].

فقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٣٤]، مقابلة لتغامزهم وضحكهم منهم، ثم قال: ﴿عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ﴾ [المطففين: ٣٥]، فأطلق النظر ولم يقيده بمنظور دون منظور، وأعلى ما نظروا إليه وأجله وأعظمه: هو الله سبحانه، والنظر إليه أجل أنواع النظر وأفضلها وهو أعلى مراتب الهداية.

فقابل بذلك قولهم: ﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ﴾، فالنظر إلى الرب سبحانه مراد من هذين الموضعين ولا بد، إما بخصوصه وإما بالعموم والإطلاق، ومن تأمل السياق لم يجد الآيتين تحتملان غير إرادة ذلك خصوصاً أو عموماً(١).



[و]وجه الاستدلال(٢) بها أنه ﷻ جعل من أعظم عقوبة الكفار كونهم محجوبين عن رؤيته واستماع كلامه، فلو لم يره المؤمنون ولم يسمعوا كلامه كانوا أيضاً محجوبين عنه.

وقد احتج بهذه الحجة الشافعي نفسه وغيره من الأئمة، فذكر الطبراني وغيره عن المزني قال: سمعت الشافعي يقول في قوله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾: فيها دليل على أن أولياء الله يرون ربهم يوم القيامة، وقال الحاكم: حدثنا الأصم أنبأنا الربيع بن سليمان قال: حضرت محمد بن إدريس الشافعي وقد جاءته رقعة من الصعيد فيها: ما تقول في قول الله ﷻ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾؟ فقال الشافعي: لما أن حجب هؤلاء في السخط كان في هذا دليل على أن أولياءه يرونه في الرضى. قال الربيع: فقلت: يا أبا عبد الله وبه تقول؟ قال: نعم وبه أدين الله، ولو لم يوقن محمد بن إدريس أنه يرى الله لما عبد الله ﷻ.

ورواه الطبراني في شرح السنة من طريق الأصم أيضاً، وقال أبو زرعة الرازي:

---

(١) إغاثة اللهفان (٣٢، ٣٣).

(٢) على رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة، جعلنا الله منهم بمنه وكرمه.

سمعت أحمد بن محمد بن الحسين يقول: سئل محمد بن عبد الله بن الحكم، هل يرى الخلق كلهم ربهم يوم القيامة المؤمنون والكفار؟ فقال محمد بن عبد الله: ليس يراه إلا المؤمنون. قال محمد: وسئل الشافعي عن الرؤية فقال: يقول الله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾، ففي هذا دليل على أن المؤمنين لا يحجبون عن الله ﷻ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٨ ـ ٢١].

أخبر تعالى أن كتابهم مرقوم تحقيقاً لكونه مكتوباً كتابة حقيقية، وخص تعالى كتاب الأبرار بأنه يكتب ويوقع لهم به بمشهد المقربين من الملائكة والنبيين وسادات المؤمنين، ولم يذكر شهادة هؤلاء لكتاب الفجار تنويهاً بكتاب الأبرار وما وقع لهم به وإشهاراً له وإظهاراً بين خواص خلقه، كما يكتب الملوك تواقيع من تعظمه بين الأمراء وخواص أهل المملكة؛ تنويهاً باسم المكتوب له وإشادة بذكره وهذا نوع من صلاة الله ﷻ وملائكته على عبده[2].

فهؤلاء الأبرار المقتصدون، وأخبر أن المقربين يشهدون كتابهم ـ أي: يكتب بحضرتهم ومشهدهم ـ لا يغيبون عنه، اعتناءً به وإظهاراً لكرامة صاحبه ومنزلته عند ربه.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧، ٢٨].

والتسنيم أعلى أشربة الجنة، فأخبر سبحانه أن مزاج شراب الأبرار من التسنيم وأن المقربين يشربون منه بلا مزاج؛ ولهذا قال: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾، كما قال تعالى في سورة الإنسان سواء.

قال ابن عباس وغيره: يشرب بها المقربون صرفاً ويمزج لأصحاب اليمين مزجاً وهذا لأن الجزاء وفاق العمل، فكما خلصت أعمال المقربين كلها لله خلص شرابهم، وكما مزج الأبرار الطاعات بالمباحات مزج لهم شرابهم، فمن أخلص أخلص شرابه، ومن مزج مزج شرابه[3].

---

(١) حادي الأرواح (٢٣٤).
(٢) حادي الأرواح (٦٥).
(٣) طريق الهجرتين (١٨٠، ١٨١).

سُوْرَةُ الانشِقَاقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ [الانشقاق: ١٦ ـ ١٨].

فأقسم بثلاثة أشياء متعلقة بالليل:

أحدها: الشفق، وهو في اللغة الحمرة بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة، وكذلك هو في الشرع.

قال الفراء، والليث، والزجاج، وغيرهم: الشفق الحمرة في السماء، وأصل موضوع الحرف لرقة الشيء، ومنه شيء شفق لا تماسك له لرقته، ومنه الشفقة وهو الرقة، وأشفق عليه إذا رق له.

وأهل اللغة يقولون: الشفق بقية ضوء الشمس وحمرتها، ولهذا كان الصحيح أن الشفق الذي يدخل وقت العشاء الآخرة بغيبوبته هو الحمرة، فإن الحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس جعل بقاؤها حداً لوقت المغرب. فإذا ذهبت الحمرة بعدت الشمس عن الأفق فدخل وقت العشاء، وأما البياض فإنه يمتد وقته بطول لبثه، ويكون حاصلاً مع بعد الشمس عن الأفق. ولهذا صح عن ابن عمر ﵄ أنه قال: الشفق الحمرة.

والعرب تقول: ثوب مصبوغ كأنه الشفق، إذا كان أحمر، حكاه الفراء. وكذلك قال الكلبي: الشفق الحمرة التي تكون في المغرب. وكذلك قال مقاتل: هو الذي يكون بعد غروب الشمس في الأفق قبل الظلمة. وقال عكرمة: هو بقية النهار. وهذا يحتمل أن يريد به أن تلك الحمرة بقية ضوء الشمس التي هي آية النهار.

وقال مجاهد: هو النهار كله وهذا ضعيف جداً، وكأنه لما رآه قابله بالليل وما وسق، ظن أنه النهار، وهذا ليس بلازم.

الثاني: قسمه بالليل وما وسق، أي: وما ضم وحوى وجمع. والليل وما ضمه

وحواه آية أخرى، والقمر آية، واتساقه آية أخرى[1]. والشفق يتضمن إدبار النهار، وهو آية، وإقبال الليل، وهو آية أخرى. فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح الخلق. فإدبار النهار آية. وإقبال الليل آية، وتعقب أحدهما الآخر آية، والشفق الذي هو متضمن الأمرين آية، والليل آية، وما حواه آية.

والهلال آية، وتزايده كل ليلة آية، واتساقه ـ وهو امتلاؤه نوراً ـ آية، ثم أخذه في النقص آية. وهذه وأمثالها آيات دالة على ربوبيته، مستلزمة للعلم بصفات كماله.

ولهذا شرع ـ عند إقبال الليل وإدبار النهار ـ ذكر الرب تعالى بصلاة المغرب. وفي الحديث: «اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك، وأصوات دعاتك وحضور صلواتك اغفر لي»[2]. كما شرع ذكر الله بصلاة الفجر عند إدبار الليل وإقبال النهار.

ولهذا يقسم سبحانه بهذين الوقتين كقوله: ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ﴾ [المدثر: ٣٢، ٣٣]. وهو يقابل إقسامه بالشفق: ونظيره إقسامه بـ ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٧، ١٨].

ولما كان الرب تبارك وتعالى يحدث عن كل واحد من طرفي إقبال الليل والنهار وإدبارهما ما يحدثه، ويبث من خلقه ما شاء، فينشر الأرواح الشيطانية عند إقبال الليل، وينشر الأرواح الإنسانية عند إقبال النهار، فيحدث هذا الانتشار في العالم أثره، شرع سبحانه في هذين الوقتين هاتين الصلاتين العظيمتين، مع ما في ذلك من ذكره عند هاتين الآيتين المتعاقبتين، وعند انصرام إحداهما واتصال الأخرى بها، مع ما بينهما من التضاد والاختلاف، وانتقال الحيوان عند ذلك من حال إلى حال، ومن حكم إلى حكم، وذلك مبدأ ومعاد يومي، مشهود للخليقة كل يوم وليلة، فالحيوان والنبات في مبدأ ومعاد، وزمان العالم في مبدأ ومعاد: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [العنكبوت: ١٩].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٩].

---

(١) هذا هو الشيء الثالث ـ القمر ـ الذي أقسم به سبحانه، وقد جمعه المؤلف مع الثاني [الشامي].

(٢) رواه الترمذي (٣٥٨٩)، ورواه أبو داود (٥٣٠) وضعفه الألباني، كما في «تمام المنة» (١٤٩).

الظاهر أنه جواب القسم، ويجوز أن يكون من القسم المحذوف جوابه، و﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ وما بعده مستأنف.

وقرئ ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء للجمع، وبفتحها[1].

فمن فتحها فالمخاطب عنده الإنسان، أي: لتركبن أيها الإنسان. وقيل: هو النبي ﷺ خاصة. وقيل: ليست التاء للخطاب، ولكنها للغيبة، أي: لتركبن السماء طبقاً عن طبق.

ومن ضمها فالخطاب للجماعة ليس إلا.

فمن جعل الكناية للسماء قال: المعنى: لتركبن السماء حالًا بعد حال من حالاتها التي وصفها الله تعالى، من الانشقاق، والانفطار والطي، وكونها كالمهل مرة، وكالدهان مرة، ومورانها وتفتحها، وغير ذلك من حالاتها، وهذا قول عبد الله ابن مسعود ﵁. ودل على السماء ذكر الشفق والقمر. وعلى هذا فيكون قسماً على المعاد وتغيير العالم.

ومن قال: الخطاب للنبي ﷺ، فله ثلاثة معان: لتركبن سماء بعد سماء، حتى تنتهي إلى حيث يصعدك الله. هذا قول ابن عباس في رواية مجاهد وقول مسروق والشعبي، قالوا: والسماء طبق، ولهذا يقال للسماوات السبع: الطباق والمعنى الثاني لتصعدن درجة بعد درجة، ومنزلة بعد منزلة، ورتبة بعد رتبة، حتى تنتهي إلى محل القرب والزلفى من الله.

والمعنى الثالث لتركبن حالاً بعد حال من الأحوال المختلفة التي نقل الله فيها رسوله ﷺ، من الهجرة، والجهاد، ونصره على عدوه، وإدالة العدو عليه تارة، وغناه وفقره، وغير ذلك من حالاته التي تنقل فيها إلى أن بلغ ما بلغه إياه.

ومن قال: الخطاب للإنسان أو لجملة الناس فالمعنى واحد، وهو تنقل الإنسان حالاً بعد حال، من حين كونه نطفة إلى مستقره من الجنة أو النار، فكم بين هذين من الأطباق والأحوال للإنسان.

وأقوال المفسرين كلها تدور على هذا. قال ابن عباس ﵄: لتصيرن الأمور حالاً بعد حال. وقيل: لتركبن أيها الإنسان حالاً بعد حال، من النطفة، إلى

(١) قال «ابن مجاهد» في «السبعة في القراءات» (٦٧٧): قرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: (لَتَرْكَبَنَّ) بفتح الباء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصم: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء.

العلقة، إلى المضغة، إلى كونه حياً، إلى خروجه إلى هذه الدار، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضره، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر. وهو طبق البلوغ، ثم ركوبه طبق الأشد، ثم طبق الشيخوخة، ثم طبق الهرم، ثم ركوبه طبق ما بعد الموت في البرزخ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقاً عديدة، لا يزال ينتقل فيها حالاً بعد حال إلى دار القرار، فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله سبحانه بعد ذلك ما يشاء.

واختار أبو عبيدة قراءة الضم، وقال: المعنى بالناس أشبه منه بالنبي ﷺ؛ فإنه ذكر قبل الآية من يؤتى كتابه بيمينه ومن يؤتى كتابه بشماله.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الانشقاق: ٢٠].

فذكر كونهم طبقاً بعد طبق. وقال أبو عبيدة: لتركبن سنة من كان قبلكم في التكذيب والاختلاف على الرسل.

وأنت إذا تأملت هذا المقسم به والمقسم عليه وجدته من أعظم الآيات الدالة على الربوبية، وتغيير الله سبحانه للعالم، وتصريفه له كيف أراد، ونقله إياه من حال إلى حال، وهذا محال أن يكون بنفسه من غير فاعل مدبر له. ومحال أن يكون فاعله غير قادر، ولا حي، ولا مريد، ولا حكيم، ولا عليم، وكلاهما في الامتناع سواء.

فالمقسم به وعليه من أعظم الأدلة على ربوبيته، وتوحيده، وصفات كماله، وصدقه، وصدق رسله، وعلى المعاد، ولهذا عقب ذلك بقوله: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾؛ إنكاراً على من لم يؤمن بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتم استلزام. وأنكر عليهم عدم خضوعهم وسجودهم للقرآن المشتمل على ذلك، بأفصح عبارة وأبينها وأجزلها وأوجزها. فالمعنى أشرف معنى، والعبارة أشرف عبارة، غاية الحق بغاية البيان والفصاحة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [الانشقاق: ٢٢ـ٢٥].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٠٨ ـ ١١٤).

فهذا يبعد تقدير دخوله فيما تقدم قبله جداً وإنما هو إخبار عن مآل الفريقين، فلما بشر الكافرين بالعذاب بشر المؤمنين بالأجر غير الممنون، فهذا من باب المثاني الذي يذكر فيه الشيء وضده كقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣، ١٤]. فليس هناك مقدر يخرج منه هذا المستثنى، والله أعلم[١].

وقوله: ﴿يُكَذِّبُونَ﴾ [أي] ولا يصدقون بالحق جحوداً وعناداً.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمرون في صدورهم ويكتمونه، وما يسرونه من أعمالهم وما يجمعونه، فيجازيهم عليه بعلمه وعدله[٢].



(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (١١٤).

سُورَةُ البُرُوجِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ١ ـ ٤].

[البروج] التي تنزلها الشمس والقمر، وفسرت بالنجوم أو نوع منها، وفسرت بالقصور العظام، وكل ذلك من آيات قدرته وشواهد وحدانيته.

فإن السماء كرة متشابهة الأجزاء والشكل الكروي، لا يتميز منه جانب عن جانب بطول ولا قصر ولا وضع بل هو متساوي الجوانب، فجعل هذه البروج في هذه الكرة على اختلاف صورها وأشكالها ومقاديرها يستحيل أن توجد بغير فاعل، ويستحيل أن يكون فاعلها غير قادر ولا عالم ولا مريد ولا حي ولا حكيم ولا مباين للمفعول.

وهذا ونحوه مما هدم قواعد الطبائعية والملاحدة والفلاسفة الذين لا يعتبرون للعالم رباً بائناً قادراً فاعلاً بالاختيار، عالماً بتفاصيله حكيماً مدبراً له.

فبروج السماء هي منازلها أو منازل السيارة التي فيها من أعظم آياته ﷻ، فلهذا أقسم بها مع السماء.

ثم أقسم باليوم الموعود وهو يوم القيامة وهو المقسم به وعليه، كما أن القرآن يقسم به وعليه ودال على وقوع اليوم الموعود باتفاق جميع الرسل عليه، وبما عرفه عباده من حكمته وعزته التي تأبى أن يتركهم سدى، ويخلقهم عبثاً، وبغير ذلك من الآيات والبراهين التي يستدل بها سبحانه على إمكانه تارة، وعلى وقوعه تارة، وعلى تنزيهه عما يقول أعداؤه من أنه لا يأتي به تارة. فالإقسام به عند من آمن بالله كالإقسام بالسماء وغيرها من الموجودات المشاهدة بالعيان.

ثم أقسم سبحانه بالشاهد والمشهود، مطلقين غير معينين، وأعم المعاني فيه أنه المدرك والمدرك، والعالم والمعلوم، والرائي والمرئي، وهذا أليق المعاني به، وما عداه من الأقوال ذكرت على وجه التمثيل، لا على وجه التخصيص.

فإن قيل: فما وجه الارتباط بين هذه الأمور الثلاثة المقسم بها؟

قيل: هي بحمد الله في غاية الارتباط، والإقسام بها متناول لكل موجود في الدنيا والآخرة، وكل منها آية مستقلة دالة على ربوبيته وإلٰهيته، فأقسم بالعالم العلوي، وهي السماء وما فيها من البروج، التي هي أعظم الأمكنة وأوسعها، ثم أقسم بأعظم الأيام وأجلها قدراً، الذي هو مظهر ملكه، وأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، ومجمع أوليائه وأعدائه، والحكم بينهم بعلمه وعدله، ثم أقسم بما هو أعم من ذلك كله، وهو الشاهد والمشهود، وناسب هذا القسم ذكر أصحاب الأخدود الذين عذبوا أولياءه، وهم شهود على ما يفعلون بهم، والملائكة شهود عليهم بذلك، والأنبياء وجوارحهم تشهد به عليهم. وأيضاً فالشاهد هو المطلع والرقيب، والمخبر والمشهود وهو المطلع عليه المخبر به، المشاهد.

فمن نوَّعَ الخليقة إلى شاهد ومشهود وهو أقدر القادرين، كما نوعها إلى مرئي لنا وغير مرئي، كما قال: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩]. كما نوعها إلى أرض وسماء، وليل ونهار، وذكر وأنثى، وهذا التنويع والاختلاف من آياته سبحانه، كذلك نوعها إلى شاهد ومشهود.

وفيه سر آخر، وهو أن من المخلوقات ما هو مشهود عليه، ولا يتم نظام العالم إلا بذلك، فكيف يكون المخلوق شاهداً رقيباً حفيظاً على غيره، ولا يكون الخالق تبارك وتعالى شاهداً على عباده، مطلعاً عليهم رقيباً؟

وأيضاً فإن ذلك يتضمن القسم بملائكته وأنبيائه ورسله، فإنهم شاهدون على العباد، فيكون من باب اتحاد المقسم به والمقسم عليه كما أقسم باليوم الموعود، وهو المقسم به وعليه، وأيضاً فيوم القيامة مشهود، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّجۡمُوعٞ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوۡمٞ مَّشۡهُودٞ﴾ [هود: ١٠٣]. يشهده الله وملائكته والإنس والجن، والوحش، من آياته، والمشهود من آياته.

وأيضاً فكلامه مشهود، كما قال تعالى: ﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ [الإسراء: ٧٨]. تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. فالمشهود من أعظم آياته وكذلك الشاهد، فكل ما وقع عليه اسم شاهد ومشهود فهو داخل في هذا القسم فلا وجه لتخصيصه ببعض الأنواع أو الأعيان إلا على سبيل التمثيل.

وأيضاً فكتاب الأبرار في عليين يشهده المقربون. فالكتاب مشهود، والمقربون شاهدون.

والأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وأنه من آيات الرب العظيمة. ويبعد أن يكون الجواب ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ ، الذين فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار ذات الوقود.

ثم وصف حالهم القبيحة بأنهم قعود على جانب الأخدود، شاهدين ما يجري على عباد الله تعالى وأوليائه عياناً، ولا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة، ولا يعيبون عليهم ديناً سوى إيمانهم بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض، وهذا الوصف يقتضي إكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم، فعاملوهم بضد ما يقتضي أن يعاملوا به. وهذا شأن أعداء الله دائماً، ينقمون على أوليائه ما ينبغي أن يحبوا ويكرموا لأجله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. وكذلك اللوطية نقموا من عباد الله تنزيههم عن مثل فعلهم، فقالوا: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٨٢]. وكذلك أهل الإشراك ينقمون من الموحدين تجريدهم التوحيد، وإخلاص الدعوة والعبودية لله وحده، وكذلك أهل البدع ينقمون من أهل السنة تجريد متابعتها وترك ما خالفها، وكذلك المعطلة ينقمون من أهل الإثبات لله صفات كماله ونعوت جلاله، وكذلك الرافضة ينقمون على أهل السنة محبتهم للصحابة جميعهم، وترضيهم عنهم وولايتهم إياهم وتقديم من قدمه رسول الله ﷺ منهم، وتنزيلهم منازلهم التي أنزلهم الله ورسوله بها. وكذلك أهل الرأي المحدث ينقمون على أهل الحديث وحزب الرسول أخذهم بحديثه وتركهم ما خالفه. وكل هؤلاء لهم نصيب، وفيهم شبه من أصحاب الأخدود، وبينهم نسب قريب أو بعيد.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ [البروج: ٥].

العجب من الفارسي أنه يقول: إنها بدل من الأخدود بدل اشتمال، والنار جوهر قائم بنفسه ثم ليست مضافة إلى ضمير الأخدود وليس فيها شرط من شرائط الاشتمال، وذهل أبو علي عن هذا وترك ما هو أصح في المعنى وأليق بصناعة النحو، وهو حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه، فكأنه قيل: أصحاب الأخدود أخدود النار ذات الوقود، فيكون من بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة كما قال الشاعر:

رضيعي لبان ثدي أم تحالفا

على رواية الجر في ثدي، أم أراد لبان ثدي فحذف المضاف[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ [**البروج**: ١٠].

ثم أخبر سبحانه أنه أعد لهم عذاب جهنم وعذاب الحريق، حيث لم يتوبوا، وأنهم لو تابوا بعد أن فتنوا أولياءه وعذبوهم بالنار لغفر لهم ولم يعذبهم، وهذا غاية الكرم والجود.

قال الحسن: انظروا إلى هذا الكرم والجود، يقتلون أولياءه، ويفتنونهم، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة. انظروا إلى كرم الرب تعالى، يدعوهم إلى التوبة وقد فتنوا أولياءه، فحرقوهم بالنار، فلا ييأس العبد من مغفرته وعفوه، ولو كان منه ما كان، فلا عداوة أعظم من هذه العداوة، ولا أكفر ممن حرق بالنار من آمن بالله وحده، وعبده وحده، ومع هذا فلو تابوا لم يعذبهم وألحقهم بأوليائه.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ﴾ [**البروج**: ١١ ـ ١٤].

ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين، ثم ذكر شدة بطشه وأنه لا يعجزه شيء فإنه هو المبدئ المعيد، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، يغفر لمن تاب إليه ويوده ويحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو الغفور الودود، المتودد إلى عباده بنعمه، الذي يود من تاب إليه وأقبل عليه، وهو الودود أيضاً، أي: المحبوب، قال البخاري في صحيحه: الودود الحبيب، والتحقيق أن اللفظ يدل على الأمرين، على كونه وادّاً لأوليائه ومودوداً لهم. فأحدهما بالوضع، والآخر باللزوم، فهو الحبيب المحب لأوليائه يحبهم ويحبونه، وقال شعيب ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠].

وما ألطف اقتران اسم الودود بالرحيم وبالغفور، فإن الرجل قد يغفر لمن أساء إليه ولا يحبه. وكذلك قد يرحم من لا يحب. والرب تعالى يغفر لعبده إذا تاب

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٤٢).

إليه، ويرحمه ويحبه مع ذلك، فإنه يحب التوابين، وإذا تاب إليه عبده أحبه ولو كان منه ما كان.

* * *

قوله تعالى: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج: ١٥].

فأضاف العرش إلى نفسه، كما تضاف إليه الأشياء العظيمة الشريفة، وهذا يدل على عظمة العرش، وقربه منه سبحانه واختصاصه به، بل يدل على غاية القرب والاختصاص، كما يضيف إلى نفسه «بذو» صفاته القائمة به، كقوله: ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن: ٧٨]. ويقال: ذو العزة، وذو الملك، وذو الرحمة، ونظائر ذلك. فلو كان حظ العرش منه حظ الأرض السابعة لكان لا فرق أن يقال: ذو العرش، وذو الأرض.

ثم وصف نفسه بالمجيد، وهو المتضمن لكثرة صفات كماله وسعتها، وعدم إحصاء الخلق لها، وسعة أفعاله، وكثرة خيره ودوامه. وأما من ليس له صفات كمال ولا أفعال حميدة فليس له من المجد شيء، والمخلوق إنما يصير مجيداً بأوصافه وأفعاله. فكيف يكون الرب تبارك وتعالى مجيداً، وهو معطل عن الأوصاف والأفعال؟ تعالى الله عما يقول المعطلون علواً كبيراً، بل هو المجيد الفعال لما يريد.

والمجد في لغة العرب كثرة أوصاف الكمال، وكثرة أفعال الخير. وأحسن ما قرن اسم المجيد إلى الحميد، كما قالت الملائكة لبيت الخليل ﷺ: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]. وكما شرع لنا في آخر الصلاة أن نثني على الرب تعالى بأنه حميد مجيد، وشرع في آخر الركعة عند الاعتدال أن نقول: «ربنا ولك الحمد، أهل الثناء والمجد»(١). فالحمد والمجد على الإطلاق لله الحميد المجيد؛ فالحميد: الحبيب المستحق لجميع صفات الكمال. والمجيد: العظيم الواسع القادر الغني، ذو الجلال والإكرام.

ومن قرأ: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ [البروج: ١٥] بالكسر فهو صفة لعرشه سبحانه(٢). وإذا كان عرشه مجيداً فهو سبحانه أحق بالمجد.

---

(١) رواه مسلم (٤٧٧).

(٢) قال ابن مجاهد: قوله: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ رفعاً، وقرأ حمزة والكسائي: (ذو العرش المجيدِ) خفضاً، وكذلك المفضل عن عاصم: ﴿ٱلْمَجِيدِ﴾ خفضاً، القراءات لابن مجاهد (٦٧٨).

وقد استشكل هذه القراءة بعض الناس، وقال: لم يسمع في صفات الخلق مجيد. ثم خرجها على أحد الوجهين، إما على الجوار، وإما أن يكون صفة لربك.

وهذا من قلة بضاعة هذا القائل، فإن الله سبحانه وصف عرشه بالكرم، وهو نظير المجد، ووصفه بالعظمة، فوَصْفُه سبحانه بالمجد مطابق لوصْفِه بالعظمة والكرم، بل هو أحق المخلوقات أن يوصف بذلك؛ لسعته وحسنه وبهاء منظره. فإنه أوسع كل شيء في المخلوقات وأجمله، وأجمعه لصفات الحسن، وبهاء المنظر، وعلو القدر والرتبة والذات، ولا يقدر قدر عظمته وحسنه وبهاء منظره إلا الله. ومجده مستفاد من مجد خالقه ومبدعه. والسماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي الذي بين يديه، كحلقة ملقاة في أرض فلاة، والكرسي فيه كتلك الحلقة في الفلاة، قال ابن عباس: السماوات السبع في العرش كسبعة دراهم جعلن في ترس. فكيف لا يكون مجيداً وهذا شأنه؟ فهو عظيم كريم مجيد.

وأما تكلف هذا المتكلف جره إلى الجوار، أو أنه صفة لربك فتكلف شديد، وخروج عن المألوف في اللغة من غير حاجة إلى ذلك.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦].

دليل على أمور:

أحدها: أنه سبحانه يفعل بإرادته ومشيئته.

الثاني: أنه لم يزل كذلك؛ لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وأن ذلك من كماله سبحانه، فلا يجوز أن يكون عادماً لهذا الكمال في وقت من الأوقات، وقد قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]. وما كان من أوصاف كماله ونعوت جلاله لم يكن حادثاً بعد أن لم يكن.

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً فعله، فإن «ما» موصولة عامة، أي: يفعل كل ما يريد أن يفعله. وهذا في إرادته المتعلقة بفعله. وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر، فإن أراد فعل العبد ولم يرد من نفسه أن يعينه ويجعله فاعلاً لم يوجد الفعل وإن أراده، حتى يريده من نفسه أن يجعله فاعلاً، وهذه هي النكتة التي خفيت على القدرية والجبرية، وخبطوا في مسألة القدر لغفلتهم عنها، فإن هنا إرادتين: إرادة أن يفعل العبد، وإرادة أن يجعل الرب فاعلاً، وليستا متلازمتين، وإن لزم من الثانية الأولى من غير عكس، فمتى أراد من نفسه أن يعين عبده وأن يخلق له أسباب الفعل فقد أراد فعله، وقد يريد فعله، ولا يريد من نفسه أن يخلق له أسباب الفعل، فلا يوجد الفعل.

فإن اعتاص عليك فهم هذا الموضع وأشكل عليك فانظر إلى قول النبي ﷺ حاكياً عن ربه قوله للعبد يوم القيامة: «وقد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب أبيك: أن لا تشرك بي شيئاً»، ولم يقع هذا المراد؛ لأنه لم يرد من نفسه إعانته عليه وتوفيقه له.

الرابع: أن فعله سبحانه وإرادته متلازمان: فما أراد أن يفعله فعله وما فعله فقد أراده، بخلاف المخلوق، فإنه يريد ما لا يفعل، وقد يفعل ما لا يريد، فما ثم فعال لما يريد إلا الله وحده.

الخامس: إثبات إرادة متعددة بحسب الأفعال، وأن كل فعل له إرادة تخصه، وهذا هو المعقول في الفطر، وهو الذي يعقله الناس من الإرادة، فشأنه تعالى أنه يريد على الدوام، ويفعل ما يريد.

السادس: أن كل ما صلح أن تتعلق به إرادته جاز فعله. فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا. وأن يجيء يوم القيامة لفصل القضاء، وأن يري نفسه لعباده، وأنه يتجلى لهم كيف شاء، وأن يخاطبهم ويضحك إليهم، وغير ذلك مما يريد سبحانه، لم يمتنع عليه فعله، فإنه فعال لما يريد، وإنما تتوقف صحة ذلك على إخبار الصادق به، فإذا أخبر به وجب التصديق به، وكان رده رداً لكماله الذي أخبر به عن نفسه، وهذا عين الباطل، وكذلك إذا أمكن إرادته سبحانه محو ما شاء وإثبات ما شاء أمكن فعله، وكانت الإرادة والفعل مقتضيات كماله المقدس.



وقد اشتملت هذه السورة على اختصارها من التوحيد على وصفه سبحانه بالعزة المتضمنة للقدرة والقوة، وعدم النظير، والحمد المتضمن لصفات الكمال، والتنزيه عن أضدادها، مع محبته وإلهيته، وملكه السماوات والأرض، المتضمن لكمال غناه، وسعة ملكه، وشهادته على كل شيء، المتضمن لعموم اطلاعه على ظواهر الأمور وبواطنها، وإحاطة بصره بمرئياتها وسمعه بمسموعاتها وعلمه بمعلوماتها، ووصفه بشدة البطش المتضمن لكمال القوة والعزة والقدرة، وتفرده بالإبداء والإعادة المتضمن لتوحيد ربوبيته وتصرفه في المخلوقات بالإبداء والإعادة وانقيادها لقدرته، فلا يستعصي عليه منها شيء. ووصفه بالمغفرة المتضمن لكمال جوده وإحسانه وغناه ورحمته، ووصفه بالودود المتضمن لكونه حبيباً إلى عباده محباً لهم، ووصفه بأنه ذو العرش الذي لا يقدر قدره سواه، وأن عرشه المختص به لا يليق بغيره أن يستوي عليه، ووصفه بالمجد المتضمن لسعة العلم والقدرة والملك

والغنى والجود والإحسان والكرم، وكونه فعالاً لما يريد المتضمن لحياته وعلمه وقدرته ومشيئته وحكمته وغير ذلك من أوصاف كماله.

فهذه السورة كتاب مستقل في أصول الدين، تكفي من فهمها.

فالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وتبارك الذي نزل الفرقان على عبده.

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ١٩ ـ ٢٠].

ثم ختمها بذكر فعله وعقوبته بمن أشرك به، وكذب رسله، تحذيراً لعباده من سلوك سبيلهم، وأن من فعل فعلهم فعل به كما فعل بهم، ثم أخبر عن أعدائه بأنهم مكذبون بتوحيده ورسالاته مع كونهم في قبضته، وهو محيط بهم، ولا أسوأ حالاً ممن عادى من هو في قبضته، ومن هو قادر عليه من كل وجه، وبكل اعتبار.

فهذا أعجب عجب ممن كفر بمن هو محيط به، وآخذ بناصيته قادر عليه.

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ [البروج: ٢١].

ثم وصف كلامه بأنه مجيد، وهو أحق بالمجد من كل كلام، كما أن المتكلم به له المجد كله، فهو المجيد؛ وكلامه مجيد، وعرشه مجيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: قرآن مجيد؛ كريم، لأن كلام الرب ليس كما يقول الكافرون: شعر، وكهانة، وسحر، وقد تقدم أن المجد السعة، وكثرة الخير، وكثرة خير القرآن لا يعلمها إلا من تكلم به.

* * *

قوله تعالى: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ﴾ [البروج: ٢٢].

أكثر القراء على الجر، صفة للوح، وفيه إشارة إلى أن الشياطين لا يمكنهم التنزل به، لأن محله محفوظ أن يصلوا إليه وهو في نفسه محفوظ أن يقدر الشيطان على الزيادة فيه والنقصان. فوصفه سبحانه بأنه محفوظ في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، ووصف محله بالحفظ في هذه السورة، فالله سبحانه حفظ محله، وحفظه من الزيادة والنقصان والتبديل، وحفظ معانيه من التحريف، كما حفظ ألفاظه من التبديل، وأقام له من يحفظ حروفه من الزيادة والنقصان، ومعانيه من التحريف والتغيير[1].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٨٨ ـ ٩٩).

سُوْرَةُ الطَّارِقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [**الطارق**: ١].

وقد فسره بأنه: ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ [الطارق: ٣] الذي يثقب ضوؤه، والمراد به الجنس لا نجم معين، ومن عينه بأنه الثريا، أو زحل، فإن أراد التمثيل فصحيح، وإن أراد التخصيص فلا دليل عليه.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم بالسماء ونجومها المضيئة، وكل منها آية من آياته الدالة على وحدانيته، وسمى النجم طارقاً، لأنه يظهر بالليل بعد اختفائه بضوء الشمس، فشبه بالطارق الذي يطرق الناس، أو أهله ليلاً.

قال الفراء: ما أتاك ليلاً فهو طارق. وقال الزجاج، والمراد: لا يكون الطارق نهاراً، ولهذا تستعمل العرب الطروق في صفة الخيال كثيراً، كما قال ذو الرمة:

ألا طرقت مي هيوماً بذكرها ... وأيدي الثريا جنح بالمغارب

وقال جرير:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... وقت الزيارة فارجعي بسلام

ولهذا قيل: أول من رد الطيف جرير، فلم يزل الناس على قبوله وإكرامه كالضيف. فالطيف والضيف كلاهما لا يرد.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [**الطارق**: ٤ ـ ٧].

والمقسم عليه هاهنا حال النفس الإنسانية، والاعتناء بها، وإقامة الحفظة عليها، وأنها لم تترك سدى، بل قد أرصد عليها من يحفظ عليها أعمالها ويحصيها، فأقسم سبحانه أنه ما من نفس إلا عليها حافظ من الملائكة، يحفظ عملها وقولها، ويحصي، ما تكتسب من خير أو شر.

واختلف القراء في «لما» فشددها بعضهم وخففها بعضهم. فمن قرأها بالتشديد جعلها بمعنى: إلا، وهي تكون بمعنى: إلا في موضعين:

أحدهما: بعد أن المخففة مثل هذا الموضع، أو المثقلة مثل قوله: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [هود: ١١١].

والثاني: في باب القسم، نحو سألتك بالله لما فعلت. قال أبو علي الفارسي: من خفف كانت عنده هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها هي الفارقة بين إن النافية والخفيفة وما زائدة، وإن هي التي يتلقى بها القسم، كما يتلقى بالمثقلة.

ومن قرأها مشددة كانت إن عنده نافية بمعنى ما، ولما في معنى إلا. قال سيبويه، عن الخليل ـ في قولهم: نشدتك بالله لما فعلت ـ قال: المعنى: إلا فعلت.

□ □ □

ثم نبه سبحانه الإنسان على دليل المعاد بما يشاهده من حال مبدئه على طريقة القرآن في الاستدلال على المعاد بالمبدأ، فقال: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾.

أي: فلينظر نظر الفكر والاستدلال ليعلم أن الذي ابتدأ أول خلقه من نطفة قادر على إعادته.

ثم أخبر سبحانه أنه خلقه من ماء دافق، والدفق صب الماء، يقال: دفقت الماء فهو مدفوق ودافق ومدفق، فالمدفوق الذي وقع عليه فعلك، كالمكسور، والمضروب، والمندفق المطاوع لفعل الفاعل تقول دفقته فاندفق، كما تقول: كسرته فانكسر، والدافق قيل: إنه فاعل بمعنى: مفعول؛ كقولهم: سر كاتم وعيشة راضية. وقيل: هو على النسب؛ لا على الفعل، أي: ذي دفق، أو ذات. ولم يرد الجريان على الفعل.

وقيل ـ وهو الصواب ـ: إنه اسم فاعل على بابه؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون هو فاعل الدفق، فإن اسم الفاعل هو من قام به الفعل، سواء فعله هو أو غيره كما يقال: ماء جار، ورجل ميت وإن لم يفعل الموت، بل لما قام به من الموت نسب إليه على جهة الفعل، وهذا غير منكر في لغة أمة من الأمم، فضلاً عن أوسع اللغات وأفصحها. وأما العيشة الراضية فالوصف بها أحسن من الوصف بالمرضية، فإنها اللائقة بهم، فشبه ذلك برضاها بهم كما رضوا بها، كأنها رضيت بهم ورضوا بها، وهذا أبلغ من مجرد كونها مرضية فقط، فتأمله.

وإذا كانوا يقولون: الوقت الحاضر والساعة الراهنة، وإن لم يفعلا ذلك، فكيف يمتنع أن يقولوا: ماء دافق، وعيشة راضية؟

ونبه سبحانه بكونه دافقاً على أنه ضعيف غير متماسك، ثم ذكر محله الذي يخرج منه، وهو بين الصلب والترائب. قال ابن عباس: صلب الرجل، وترائب المرأة، وهو موضع القلادة من صدرها، والولد يخلق من الماءين جميعاً. وقيل: صلب الرجل وترائبه، وهي صدره، فيخرج من صلبه وصدره، وهذه الآية الدالة على قدرة الخالق سبحانه نظير إخراجه اللبن الخالص من بين الفرث والدم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق: ٨ ـ ١٠].

أي: على رجعه إليه يوم القيامة، كما هو قادر على خلقه من ماء هذا شأنه. هذا هو الصحيح في معنى الآية. وفيها قولان ضعيفان:

أحدهما: قول مجاهد: على رد الماء في الإحليل لقادر.

والثاني: قول عكرمة والضحاك: على رد الماء في الصلب.

وفيه قول ثالث، قال مقاتل: إن شئت رددته من الكبر إلى الشباب، ومن الشباب إلى الصبا، إلى النطفة.

والقول الصواب هو الأول؛ لوجوه:

أحدها: أنه هو المعهود من طريقة القرآن من الاستدلال بالمبدأ على المعاد.

الثاني: أن ذلك أدل على المطلوب من القدرة على رد الماء في الإحليل.

الثالث: أنه لم يأت لهذا المعنى في القرآن نظير في موضع واحد، ولا أنكره أحد حتى يقيم سبحانه الدليل عليه.

الرابع: أنه قيد الفعل بالظرف وهو قوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ وهو يوم القيامة، أي: أن الله قادر على رجعه إليه حياً في ذلك اليوم.

الخامس: أن الضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ هو الضمير في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ وهذا للإنسان قطعاً لا للماء.

السادس: أنه لا ذكر للإحليل، حتى يتعين كون المرجع إليه، فلو قال قائل: على رجعه إلى الفرج الذي صب فيه لم يكن فرق بينه وبين هذا القول. ولم يكن أولى منه.

السابع: أن رد الماء إلى الإحليل أو الصلب بعد خروجه منه غير معروف، ولا هو أمر معتاد جرت به القدرة، وإن كان مقدوراً للرب تعالى، ولكن هو لم يجره ولم تجر به العادة، ولا هو مما تكلم الناس فيه، نفياً أو إثباتاً، ومثل هذا لا يقرره

الرب ولا يستدل عليه وينبه على منكريه، وهو سبحانه إنما يستدل على أمر واقع ولا بد، إما قد وقع ووجد أو سيقع.

الثامن: أنه سبحانه دعا الإنسان إلى النظر فيما خلق منه ليرده نظره عن تكذيبه بما أخبر به، وهو لم يخبره بقدرة خالقه على رد الماء في إحليله بعد مفارقته له، حتى يدعوه إلى النظر فيما خلق منه، ليستقبح منه صحة إمكان رد الماء.

التاسع: أنه لا ارتباط بين النظر في مبدأ خلقه ورد الماء في الإحليل بعد خروجه، ولا تلازم بينهما، حتى يجعل أحدهما دليلاً على إمكان الآخر بخلاف الارتباط الذي بين المبدأ والمعاد، والخلق الأول والخلق الثاني، والنشأة الأولى والنشأة الثانية، فإنه ارتباط من وجوه عديدة، ويلزم من إمكان أحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما إمكان الآخر، ومن وقوعه صحة وقوع الآخر، فحسن الاستدلال بأحدهما على الآخر.

العاشر: أنه سبحانه نبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق: ٤] على أنه قد وكل عليه من يحفظ عليه عمله ويحصيه، فلا يضيع منه شيء، ثم نبه بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ على بعثه لجزائه على العمل الذي حفظ وأحصي عليه، فذكر شأن مبدأ عمله ونهايته، فمبدؤه محفوظ عليه، ونهايته الجزاء عليه، ونبه على هذا بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ أي: تختبر، وقال مقاتل: تظهر وتبدو، وبلوت الشيء إذا اختبرته ليظهر لك باطنه، وما خفي منه، والسرائر جمع سريرة، وهي سرائر الله التي بينه وبين عبده في ظاهره وباطنه لله، فالإيمان من السرائر، وشرائعه من السرائر، فتختبر ذلك اليوم، حتى يظهر خيرها من شرها، ومؤديها من مضيعها، وما كان لله مما لم يكن له.

قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: يبدي الله يوم القيامة كل سر فيكون زيناً في الوجوه، وشيئاً فيها، والمعنى تختبر السرائر بإظهارها، وإظهار مقتضياتها من الثواب والعقاب، والحمد والذم.

□ □ □

وفي التعبير عن الأعمال بالسر لطيفة، وهو أن الأعمال نتائج السرائر الباطنة، فمن كانت سريرته صالحة كان عمله صالحاً، فتبدو سريرته على وجهه نوراً وإشراقاً وحياء، ومن كانت سريرته فاسدة كان عمله تابعاً لسريرته، لا اعتبار بصورته، فتبدو سريرته على وجهه سواداً وظلمة وشيناً، وإن كان الذي يبدو عليه في الدنيا إنما هو

عمله لا سريرته، فيوم القيامة تبدو عليه سريرته، ويكون الحكم والظهور لها قال الشاعر:

فإن لها في مضمر القلب والحشا سريرة حبّ يوم تبلى السرائر

□ □ □

ثم أخبر سبحانه عن حال الإنسان في يوم القيامة أنه غير ممتنع من عذاب الله، لا بقوة منه ولا بقوة من خارج، وهو الناصر، فإن العبد إذا وقع في شدة، فإما أن يدفعها بقوته أو قوة من ينصره، وكلاهما معدوم في حقه، ونظيره قوله سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ [الطارق: ١١، ١٢].

فأقسم بالسماء ورجعها بالمطر، والأرض وصدعها بالنبات، قال الفراء: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام، وقال أبو إسحاق: الرجع المطر، لأنه يجيء ويرجع ويتكرر، وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: تبدي بالمطر ثم ترجع به، في كل عام.

والتحقيق أن هذا على وجه التمثيل، ورجع السماء هو إعطاء الخير الذي يكون من جهتها حالاً بعد حال، وعلى مرور الأزمان، ترجعه رجعاً، أي: تعطيه مرة بعد مرة، والخير كله من قبل السماء يجيء.

ولما كان أظهر الخير المشهود بالعيان المطر فسر الرجع به، وحسن تفسيره به ومقابلته بصدع الأرض عن النبات، وفسر الصدع بالنبات، لأنه يصدع الأرض، أي: يشقها، فأقسم سبحانه بالسماء ذات المطر، والأرض ذات النبات، وكل من ذلك آية من آيات الله تعالى الدالة على ربوبيته.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٦].

كما أقسم في أول السورة على حال الإنسان في مبدئه ومعاده، وأقسم على كون القرآن حقاً وصدقاً.

والقول الفصل هو الذي يفصل بين الحق والباطل، فيميز هذا من هذا، ويفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه، ومصيب الفصل الذي ينفصل عنده المراد ويتميز من

غيره، كما قال: أصاب الفصل وأصاب المراد، إذا أصاب بكلامه نفس المعنى المراد. ومنه فصل الخطاب.

وأيضاً فالقول الفصل ببيان المعنى ضد الإجمال.

فكون القرآن فصلاً يتضمن هذه المعاني كلها، ويتضمن كونه حقاً ليس بالباطل، وجداً ليس بالهزل، ولما كان الهزل هو الذي لا حقيقة له ـ وهو الباطل واللعب ـ قابل بين الفصل والهزل.

وإنما يكيد المكذبون ويحيلون، ويخادعون لرده، ولا يردونه بحجة، والله يكيدهم كما يكيدون دينه ورسوله وعباده.

وكيده سبحانه استدراجهم من حيث لا يعلمون، والإملاء لهم حتى يأخذهم على غرة، كما قال تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، فالإنسان إذا أراد أن يكيد غيره يظهر له إكرامه وإحسانه إليه حتى يطمئن إليه، فيأخذه كما يفعل الملوك، فإذا فعل ذلك أعداء الله بأوليائه ودينه كان كيد الله لهم حسناً لا قبح فيه، فيعطيهم ويعاقبهم وهو يستدرجهم، حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ [الطارق: ١٧].

أي: أنظرهم قليلاً ولا تستعجل لهم والرب تعالى هو الذي يمهلهم، وإنما خرج الخطاب للرسول على جهة التهديد والوعيد لهم أو على معنى: انتظر بهم قليلاً.

ورويداً في كلامهم يكون اسم الفعل فينصب بها الاسم نحو رويداً زيداً، أي: خَلِّه وأمهله وارفق به. الثاني: أن يكون مصدراً مضافاً إلى المفعول نحو: رويداً زيد، أي: إمهال زيد، نحو: ضرب الرقاب. الثالث: أن يكون نعتاً منصوباً نحو قولك: ساروا رويداً. تقول العرب: ضعه رويداً، أي: وضعاً رويداً، ويجوز في هذا الوجه وجهان:

أحدهما: أن يكون حالاً.

والثاني: ورويداً في هذه الآية هو من هذا النوع الثالث، والله أعلم[١].

* * *

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٠٠ ـ ١٠٨).

سُورَةُ الأعلى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ١ ـ ٣].

فذكر سبحانه أربعة أمور عامة: الخلق، والتسوية، والتقدير، والهداية من تمام التقدير.

قال عطاء: خلق فسوى أحسن ما خلقه، وشاهده قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]. فإحسان خلقه يتضمن تسويته وتناسب خلقه وأجزائه، بحيث لم يحصل بينها تفاوت يخل بالتناسب والاعتدال، فالخلق: الإيجاد، والتسوية: إتقانه وإحسان خلقه.

وقال الكلبي: خلق كل ذي روح خلقه وسواه باليدين والعينين والرجلين، وقال مقاتل: خلق لكل دابة ما يصلح لها من الخلق، وقال أبو إسحاق: خلق الإنسان مستوياً، وهذا تمثيل، وإلا فالخلق والتسوية شامل للإنسان وغيره.

قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٧]، وقال: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]. فالتسوية شاملة لجميع مخلوقاته ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [تبارك: ٣]. وما يوجد من التفاوت وعدم التسوية فهو راجع إلى عدم إعطاء التسوية للمخلوق، فإن التسوية أمر وجودي تتعلق بالتأثير والإبداع، فما عدم منها فلعدم إرادة الخالق للتسوية، وذلك أمر عدمي يكفي فيه عدم الإبداع والتأثير.

فتأمل ذلك فإنه يزيل عنك الإشكال في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، فالتفاوت حاصل بسبب عدم مشيئة التسوية كما أن الجهل، والصمم، والعمى، والخرس، والبكم يكفي فيها عدم مشيئة خلقها وإيجادها، والمقصود أن كل مخلوق فقد سواه خالقه سبحانه في مرتبة خلقه وإن فاتته التسوية من وجه آخر لم يخلق له.

وأما التقدير والهداية فقال مقاتل: قدر خلق الذكر والأنثى فهدى الذكر للأنثى، كيف يأتيها، وقال ابن عباس والكلبي، وكذلك قال عطاء: قدر من النسل ما أراد ثم هدى الذكر للأنثى، واختار هذا القول صاحب النظم فقال: معنى هدى هداية الذكر لإتيان الأنثى كيف يأتيها؛ لأن إتيان ذكران الحيوان لإناثه مختلف، لاختلاف الصور والخلق والهيئات، فلولا أنه سبحانه جبل كل ذكر على معرفة كيف يأتي أنثى جنسه لما اهتدَى لذلك.

وقال مقاتل أيضاً: هداه لمعيشته ومرعاه، وقال السدي: قدر مدة الجنين في الرحم ثم هداه للخروج، وقال مجاهد: هدى الإنسان لسبيل الخير، والشر، والسعادة، والشقاوة.

وقال الفراء: التقدير فهدى وأضل فاكتفى من ذكر أحدهما بالآخر.

قلت: الآية أعم من هذا كله، وأضعف الأقوال فيها قول الفراء: إذ المراد هاهنا الهداية العامة لمصالح الحيوان في معاشه، ليس المراد هداية الإيمان والضلال بمشيئته وهو نظير قوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فإعطاء الخلق إيجاده في الخارج والهداية التعليم والدلالة على سبيل بقائه وما يحفظه ويقيمه.

وما ذكر مجاهد فهو تمثيل منه لا تفسير مطابق للآية، فإن الآية شاملة لهداية الحيوان كله ناطقه وبهيمه طيره ودوابه فصيحه وأعجمه.

وكذلك قول من قال: إنه هداية الذكر لإتيان الأنثى. تمثيل أيضاً وهو فرد واحد من أفراد الهداية التي لا يحصيها إلا الله وكذلك قول من قال: هداه للمرعى؛ فإن ذلك من الهداية فإن الهداية إلى التقام الثدي عند خروجه من بطن أمه والهداية إلى معرفته أمه دون غيرها حتى يتبعها أين ذهبت، والهداية إلى قصد ما ينفعه من المرعى دون ما يضره منه، وهداية الطير والوحش والدواب إلى الأفعال العجيبة التي يعجز عنها الإنسان، كهداية النحل إلى سلوك السبل التي فيها مراعيها على تباينها ثم عودها إلى بيوتها من الشجر والجبال وما يغرس بنو آدم[١].

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾. هذه الحجة عليهم[٢] في الحقيقة.

لأن النبي ﷺ امتثل هذا الأمر وقال: سبحان ربي الأعلى سبحان ربي العظيم،

---

(١) شفاء العليل (٦٥، ٦٦).

(٢) القائلين: إن الاسم هو عين المسمى.

ولو كان الأمر كما زعموا لقال: سبحان اسم ربي العظيم، ثم إن الأمة كلهم لا يجوز أحد منهم أن يقول: عبدت اسم ربي ولا سجدت لاسم ربي ولا ركعت لاسم ربي ولا باسم ربي ارحمني، وهذا يدل على أن الأشياء متعلقة بالمسمى لا بالاسم، وأما الجواب عن تعلق الذكر والتسبيح المأمور به بالاسم، فقد قيل فيه: إن التعظيم والتنزيه إذا وجب للمعظم فقد تعظم ما هو من سببه ومتعلق به، كما يقال: سلام على الحضرة العالية والباب السامي والمجلس الكريم ونحوه وهذا جواب غير مرضي لوجهين:

أحدهما: أن رسول الله ﷺ لم يفهم هذا المعنى وإنما قال: «سبحان ربي»[(١)]، فلم يعرج على ما ذكرتموه.

الثانية: أنه يلزمه أن يطلق على الاسم التكبير والتحميد والتهليل وسائر ما يطلق على المسمى فيقال: الحمد لاسم الله، ولا إله إلا اسم الله، ونحوه وهذا مما لم يقله أحد.

بل الجواب الصحيح: أن الذكر الحقيقي محله القلب؛ لأنه ضد النسيان. والتسبيح نوع من الذكر، فلو أطلق الذكر والتسبيح لما فهم منه إلا ذلك دون اللفظ باللسان، والله تعالى أراد من عباده الأمرين جميعاً، ولم يقبل الإيمان وعقد الإسلام إلا باقترانهما، واجتماعهما، فصار معنى الآيتين: سبح ربك بقلبك ولسانك، واذكر ربك بقلبك ولسانك، فأقحم الاسم تنبيهاً على هذا المعنى حتى لا يخلو الذكر والتسبيح من اللفظ باللسان؛ لأن ذكر القلب متعلقه المسمى المدلول عليه بالاسم دون ما سواه، والذكر باللسان متعلقه اللفظ مع مدلوله؛ لأن اللفظ لا يراد لنفسه فلا يتوهم أحد أن اللفظ هو المسبح دون ما يدل عليه من المعنى.

وعبر لي شيخنا أبو العباس ابن تيمية قدس الله روحه عن هذا المعنى بعبارة لطيفة وجيزة فقال: المعنى: سبح ناطقاً باسم ربك متكلماً به، وكذا سبح ربك ذاكراً اسمه، وهذه الفائدة تساوي رحلة لكن لمن يعرف قدرها، فالحمد لله المنان بفضله ونسأله تمام نعمته[(٢)].

---

(١) حديث صحيح، رواه ابن ماجه (١/ ٢٨٧) في إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: التسبيح في الركوع والسجود، وأبو داود (الصحيح) (١/ ١٦٥) في الصلاة، باب: ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده، من حديث حذيفة رضي الله عنه، وانظر: الإرواء (٢/ ٣٩).

(٢) بدائع الفوائد (١/ ١٨، ١٩).

فإن قيل: فما الفائدة في دخول الباء في قوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] ولم تدخل في قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾؟

قيل: التسبيح يراد به التنزيه، والذكر المجرد دون معنى آخر، ويراد به ذلك مع الصلاة وهو ذكر وتنزيه مع عمل، ولهذا تسمى الصلاة تسبيحاً، فإذا أريد التسبيح المجرد فلا معنى للباء؛ لأنه لا يتعدى بحرف جر، لا تقول: سبحت بالله. وإذا أردت المقرون بالفعل وهو الصلاة، أدخلت الباء تنبيهاً على ذلك المراد كأنك قلت: سبح مفتتحاً باسم ربك أو ناطقاً باسم ربك، كما تقول: صل مفتتحاً أو ناطقاً باسمه.

ولهذا السر، والله أعلم، دخلت اللام في قوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد: ١]، والمراد التسبيح الذي هو السجود والخضوع والطاعة، ولم يقل في موضع: سبح الله ما في السموات والأرض، كما قال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٥]، وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ۩﴾ [الأعراف: ٢٠٦]. فكيف قال: ﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾ لما ذكر السجود باسمه الخاص، فصار التسبيح ذكرهم له وتنزيههم إياه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى: ١٠].

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايته أن يقول: هؤلاء قوم أصابهم الدهر كما أصاب غيرهم، ولا زال الدهر فيه الشقاوة والسعادة. وأما من آمن بالآخرة وأشفق منها فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ[2].

❀ ❀ ❀

(١) بدائع الفوائد (١/ ٢٠).
(٢) الرسالة التبوكية (٨٢).

سُورَةُ الغاشية

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [الغاشية: ١٧ ـ ١٩].

دعانا الله ـ سبحانه ـ في كتابه إلى النظر فيها، وفي كيفية خلقها، فخلقها ومنافعها من أكبر الشواهد على قدرة باريها وفاطرها، وعلمه وحكمته ووحدانيته.

هذا مع أنها تسبح بحمده، وتخشع له، وتسجد وتشقق وتهبط من خشيته، وهي التي خافت من ربها وفاطرها وخالقها ـ على شدتها وعظم خلقها ـ من الأمانة، إذ عرضها عليها وأشفقت من حملها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٢ ـ ٢٤].

فهذا من المنقطع[٢] لا بالاعتبار الذي ذكره ابن خروف من كون المستثنى جملة مستقلة بل باعتبار آخر، وهو أنه ليس المراد إثبات السيطرة على الكفار، فإن الله سبحانه بعثه نذيراً مبلغاً لرسالات ربه، فمن أطاعه فله الجنة ومن عصاه فله النار، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

قال المفسرون: المعنى: أنك لم ترسل مسلطاً عليهم قاهراً لهم جباراً كالملوك، بل أنت عبدي ورسولي المبلغ رسالاتي، فمن أطاعك فله الجنة ومن عصاك فله النار، ويوضح هذا أن المخاطبين بهذا الخطاب هم الكفار؛ فلا يصح أن يكونوا هم المستثنين[٣].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٨).

(٢) أي: من الاستثناء المنقطع.

(٣) بدائع الفوائد (٣/ ٦٩).

سُورَةُ الفجر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر: ١ ـ ٥].

قيل: جوابه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]. وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: طول الكلام والفصل بين القسم وجوابه بجمل كثيرة.

والثاني: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ ذكر لتقرير عقوبة الله الأمم المذكورة، وهي عاد، وثمود، وفرعون، فذكر عقوبتهم، ثم قال مقرراً ومحذراً: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾، فلا نرى تعلقه بذلك دون القسم.

وأحسن من هذا أن يقال: إن الفجر في الليالي العشر زمن يتضمن أفعالاً معظمة من المناسك، وأمكنة معظمة، وهي محلها، وذلك من شعائر الله، المتضمنة خضوع العبد لربه، فإن الحج والنسك عبودية محضة لله، وذل وخضوع لعظمته، وذلك ضد ما وصف به عاداً وثمود، وفرعون، من العتو، والتكبر، والتجبر، فإن النسك يتضمن غاية الخضوع لله، وهؤلاء الأمم عتوا وتكبروا عن أمر ربهم.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر»، قيل: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ولم يرجع من ذلك بشيء»(١).

فالزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به.

﴿وَالْفَجْرِ﴾ إن أريد به جنس الفجر، كما هو ظاهر اللفظ، فإنه يتضمن وقت صلاة الصبح، التي هي أول الصلوات، فافتتح القسم بما يتضمن أول الصلوات، وختمه بقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ المتضمن لآخر الصلوات.

---

(١) رواه البخاري (٩٦٩).

وإن أريد بالفجر فجر مخصوص، فهو فجر يوم النحر وليلته، التي هي ليلة عرفة، فتلك الليلة من أفضل ليالي العام، وما رئي الشيطان في ليلة أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه فيها، وذلك الفجر فجر يوم النحر الذي هو أفضل الأيام عند الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الأيام عند الله يوم النحر»(١). رواه أبو داود بإسناد صحيح، وهو آخر أيام العشر، وهو يوم الحج الأكبر، كما ثبت في صحيح البخاري وغيره، وهو اليوم الذي أذن فيه مؤذن رسول الله ﷺ: «أن الله بريء من المشركين ورسوله، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان»، ولا خلاف أن المؤذن أذن بذلك في يوم النحر، لا يوم عرفة، وذلك بأمر رسول الله ﷺ، امتثالاً وتأويلاً للقرآن.

وعلى هذا فقد تضمن القسم المناسك والصلوات، وهما المختصان بعبادة الله، والخضوع له والتواضع لعظمته، ولهذا قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وقيل لخاتم الرسل ﷺ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢]، بخلاف حال المشركين المتكبرين الذين لا يعبدون الله وحده، بل يشركون به، ويستكبرون عن عبادته، كحال من ذكر في هذه السورة من قوم عاد، وثمود، وفرعون.

وذكر سبحانه من جملة هذه الأقسام ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾؛ إذ هذه الشعائر المعظمة منها شفع ومنها وتر، في الأمكنة والأزمنة والأعمال. فالصفا والمروة شفع، والبيت وتر، والجمرات وتر، ومنى ومزدلفة شفع، وعرفة وتر. وأما الأعمال؛ فالطواف وتر، وركعتاه شفع، والطواف بين الصفا والمروة وتر، ورمي الجمار وتر، كل ذلك سبع سبع، وهو الأصل، فإن الله وتر يحب الوتر، والصلاة منها شفع ومنها وتر، والوتر يوتر الشفع، فتكون كلها وتراً، كما قال النبي ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح فأوتر بواحدة توتر لك ما قد صليت»(٢).

وأما الزمان فإن عرفة وتر، ويوم النحر شفع، وهذا قول أكثر المفسرين. وروى مجاهد عن ابن عباس: الوتر آدم، وشفع بزوجته حواء. وقال في رواية أخرى: الشفع آدم وحواء، والوتر الله وحده. وعنه رواية ثالثة: الشفع يوم النحر والوتر

---

(١) سنن أبي داود (الصحيح) (١/ ٣٣١) في المناسك، باب: في الهدي إذا عطب قبل أن يبلغ، ورواه الإمام أحمد (٤/ ٣٥٠)، كلاهما من حديث «عبد الله بن قرط» رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٩٩٠)، ومسلم (٧٤٩).

اليوم الثالث. وقال عمران بن حصين، وقتادة: الشفع والوتر هي الصلاة، وروى فيه حديثاً مرفوعاً.

وقال عطية العوفي: الشفع الخلق، قال الله تعالى: ﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبأ: ٨]. والوتر هو الله. وهذا قول الحكم، قال: كل شيء شفع والله وتر. وقال أبو صالح: خلق الله من كل شيء زوجين اثنين، والله وتر واحد. وهذا قول مجاهد، ومسروق.

وقال الحسن: الشفع والوتر العدد كله من شفع ووتر. وقال ابن زيد: الشفع والوتر الخلق كله من شفع ووتر. وقال مقاتل: الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، وهو يوم القيامة.

وذكرت أقوال أخر، هذه أصولها، ومدارها كلها على قولين:

أحدهما: أن الشفع والوتر نوعان للمخلوقات والمأمورات.

والثاني: أن الوتر الخالق، والشفع المخلوق.

وعلى هذا القول فيكون قد جمع في القسم بين الخالق والمخلوق، فهو نظير ما تقدم في قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]. ونظير ما ذكر في قوله: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]. وما ذكر في قوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾ [الليل: ١ ـ ٣]، وقال هاهنا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، وفي سورة المدثر أقسم بالليل إذا أدبر، وفي سورة التكوير أقسم بالليل إذا عسعس، وقد فسر بأقبل، وفسر بأدبر، فإن كان المراد إقباله فقد أقسم بأحوال الليل الثلاثة، وهي حالة إقباله، وحالة امتداده وسريانه، وحالة إدباره، وهي من آياته الدالة عليه سبحانه.

□ □ □

وعرف الفجر باللام، إذ كل أحد يعرفه، ونكر الليالي العشر، لأنها إنما تعرف بالعلم، وأيضاً فإن التنكير تعظيم لها، فإن التنكير يكون للتعظيم.

وفي تعريف الفجر ما يدل على شهرته، وأنه الفجر الذي يعرفه كل أحد ولا يجهله.

□ □ □

فلما تضمن هذا القسم ما جاء به إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم كان في ذلك ما دل على المقسم عليه، ولهذا اعتبر القسم بقوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ﴾، فإن عظمة هذا المقسم به يعرف بالنبوة. وذلك يحتاج إلى حجر

يحجر صاحبه عن الغفلة واتباع الهوى ويحمله على اتباع الرسل، لئلا يصيبه ما أصاب من كذب الرسل كعاد، وفرعون، وثمود.

وتضمنت هذه السورة ذم من اغتر بقوته وسلطانه وماله وهم هؤلاء الأمم الثلاثة: قوم عاد اغتروا بقوتهم، وثمود اغتروا بجنانهم وعيونهم وزروعهم وبساتينهم، وقوم فرعون اغتروا بالمال والرياسة فصارت عاقبتهم إلى ما قص الله علينا(١).

* * *

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

فأخبر سبحانه أنه يبتلي عبده بإكرامه له وبتنعيمه له وبسط الرزق عليه، كما يبتليه بتضييق الرزق وتقديره عليه، وأن كليهما ابتلاء منه وامتحان، ثم أنكر سبحانه على من زعم أن بسط الرزق وتوسعته إكرام من الله لعبده وأن تضييقه عليه إهانة منه له فقال: كلا؛ أي: ليس الأمر كما يقول الإنسان، بل قد أبتلي بنعمتي، وأنعم ببلائي(٢).

أي: ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته: فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره، وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه فذلك من هوانه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط فيكون حظه السخط، فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام وأن الفقر إهانة، فقال: لم أبتل عبدي بالغنى لكرامته علي، ولم أبتله بالفقر لهوانه علي. فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره، فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته، ويقتر على المؤمن لا لإهانته، إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته، فله الحمد على هذا وعلى هذا، وهو الغني الحميد(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٢٧ ـ ٣٣). (٢) عدة الصابرين (١٦٠).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٨٠).

ذمهم سبحانه ـ أي: الأغنياء ـ بحب المال وعيَّرهم به[١].

ثم ذكر سبحانه حال الإنسان في معاملته لمن هو أضعف منه كاليتيم والمسكين، فلا يكرم هذا ولا يحض على طعام هذا، ثم ذكر حرصه على جمع المال وأكله وحبه له، وذلك هو الذي أوجب له عدم رحمته لليتيم والمسكين[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٧ ـ ٣٠].

وقد اختلف السلف متى يقال لها ذلك؟ فقالت طائفة: يقال لها عند الموت. وظاهر اللفظ مع هؤلاء فإنه خطاب للنفس التي قد تجردت عن البدن وخرجت منه، وقد فسر ذلك النبي ﷺ بقوله في حديث البراء وغيره: فيقال لها: «اخرجي راضية مرضياً عنك»[٣]. قوله تعالى: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى﴾ مطابق لقوله ﷺ: «اللهم الرفيق الأعلى»[٤][٥].

فالنفس المطمئنة هي التي اطمأنت إلى ربها، وسكنت إلى حبه، واطمأنت بذكره، وأيقنت بوعده، ورضيت بقضائه، وهي ضد النفس الأمارة بالسوء، فلم تكن طمأنينتها بمجرد إسقاط تدبيرها بل بالقيام بحقه والطمأنينة بحبه وذكره[٦].

□ □ □

وإن المراد من الآية: رضاها بما حصل لها من كرامته وبما نالته منها عند الرجوع إليه فحصل لها رضاها والرضى عنها، وهذا يقال لها عند خروجها من دار الدنيا وقدومها على الله.

قال عبد الله بن عمرو ﷺ: «إذا توفي العبد المؤمن أرسل الله إليه ملكين،

---

(١) عدة الصابرين (١٨٢). (٢) التبيان (٣٣).

(٣) جزء من حديث صحيح طويل، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/ ٢٨٧) وغيره، وأبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٠١) في السنة، باب: المسألة في القبر. . .، والحاكم (١/ ٣٧) في الإيمان، وصححه ووافقه الذهبي، وانظر تخريجه مفصلاً في: أحكام الجنائز للعلامة الألباني (١٥٦ ـ ١٥٩)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٧٣) عند تفسير الآية (٢٧) من سورة إبراهيم.

(٤) رواه البخاري (٤٤٦٣)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٥) الروح لابن القيم (٧٦). (٦) طريق الهجرتين (٢١٩٠).

وأرسل إليه بتحفة من الجنة فيقال: اخرجي أيتها النفس المطمئنة، اخرجي إلى روح وريحان ورب عنك راض».

وفي وقت هذه المقالة ثلاثة أقوال للسلف:

أحدهما: أنه عند الموت، وهو الأشهر، قال الحسن: إذا أراد قبضها اطمأنت إلى ربها، ورضيت عن الله فيرضى الله عنها.

[**الثاني**:] وقال آخرون: الكلمة الأولى وهي: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ تقال لها عند الموت، والكلمة الثانية وهي: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ تقال لها يوم القيامة. قال أبو صالح: ﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ هذا عند خروجها من الدنيا، فإذا كان يوم القيامة قيل لها: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.

[**الثالث**:] والصواب: أن هذا القول يقال لها عند الخروج من الدنيا ويوم القيامة فإن أول بعثها عند مفارقتها الدنيا. وحينئذٍ فهي في الرفيق الأعلى إن كانت مطمئنة إلى الله وفي جنته كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، فإذا كان يوم القيامة قيل لها ذلك، وحينئذٍ فيكون تمام الرجوع إلى الله، ودخول الجنة، فأول ذلك عند الموت وتمامه ونهايته: يوم القيامة فلا اختلاف في الحقيقة(١).



(١) مدارج السالكين (٢/١٧٨، ١٧٩).

سُورَةُ البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ [البلد: ١].

فذكر فيها جواب القسم. وهو قوله: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤].

وفسِّر الكَبَد بالاستواء وانتصاب القامة. قال ابن عباس، في رواية مقسم: منتصباً على قدميه، وهذا قول أبي صالح، والضحاك، وإبراهيم، وعكرمة، وعبد الله بن شداد. قال المنذر: سمعت أبا طالب يقول: الكبد الاستواء والاستقامة.

وفسر بالنصب، هذا قول مجاهد، وسعيد بن جبير، والحسن، ورواية عن علي، وعن ابن عباس. قال الحسن: لم يخلق الله خلقاً يكابد ما يكابد ابن آدم، وقال سعيد بن أبي الحسن[1] يكابد مصائب الدنيا وشدائد الآخرة، وقال قتادة: يكابد أمر الدنيا والآخرة فلا تلقاه إلا في مشقة.

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: يعني: حمله وولادته، ورضاعه، وفصاله، ونبت أسنانه وحياته ومعاشه، ومماته، كل ذلك شدة، قال مجاهد: حملته أمه كرهاً، ووضعته كرهاً، ومعيشته في شدة، فهو يكابد ذلك.

وعلى هذا فالكبد من مكابدة الأمر، وهي معاناة شدته ومشقته، والرجل يكابد الليل إذا قاسى هوله وصعوبته والكبد شدة الأمر، ومنه تكبد اللبن، إذا غلظ واشتد، ومنه الكبد؛ لأنها دم يغلظ ويشتد.

وانتصاب القامة والاستواء من ذلك: لأنه إنما يكون عن قوة وشدة، فإن الإنسان مخلوق في شدة، بكونه في الرحم، ثم في القماط والرباط، ثم هو على خطر عظيم

(١) هكذا في المطبوع من «التبيان»، وفي تفسير «ابن كثير» (٥٤٣/٤) وروى ـ أي: ابن أبي حاتم ـ من طريق أبي مودود سمعت الحسن. . .» فذكره، وفي ثقات «ابن حبان» (٥١٩/٧): «مودود» شيخ، يروي عن الحسن، روى عنه موسى بن إسماعيل.

عند بلوغه حال التكليف، ومكابدة المعيشة، والأمر والنهي، ثم مكابدة الموت وما بعده في البرزخ، وموقف القيامة، ثم مكابدة العذاب في النار ولا راحة له إلا في الجنة.

وفسر الكبد بشدة الخلق وإحكامه وقوته، ومنه قول لبيد:

يا عين هلا بكيت أربد إذ قمنا وقام الخصوم في كبد

أي: في شدة وعناء، وهذا يشبه قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨]. قال ابن عباس: أي: خلقهم. وقال أبو عبيدة: الأسر شدة الخلق يقال: فرس شديد الأسر، قال: وكل شيء شددته؛ من قتب أو غيره، فهو مأسور، وقال المبرد: الأسر القوى كلها، وقال الليث: الأسر قوة المفاصل والأوصال، وشد الله أسر فلان، أي: قوى خلقه، وكل شيء جمع طرفاه فشد أحدهما بالآخر فقد أسر، وقال الحسن: شددنا أوصالهم بعضها إلى بعض بالعروق والعصب: وقال مجاهد: هو الشرج، يعني: موضع البول والغائط إذ خرج الأذى تقبضاً.

والمقصود: أنه سبحانه أقسم في سورة البلد على حال الإنسان، وأقسم سبحانه بالبلد الأمين وهو: مكة أم القرى.

ثم أقسم بالوالد وما ولد، وهو آدم وذريته في قول جمهور المفسرين، وعلى هذا فقد تضمن القسم أصل المكان، وأصل السكان، فمرجع البلاد إلى مكة، ومرجع العباد إلى آدم.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ **[البلد: ٢]**.

فيه قولان:

أحدهما: أنه من الإحلال وهو ضد الإحرام.

والثاني: أنه من الحلول وهو ضد الظعن.

فإن أريد به المعنى الأول فهو حلال ساكن البلد، بخلاف المحرم الذي يحج ويعتمر ويرجع، ولأن أمنه إنما تظهر به النعمة عند الحل من الإحرام، وإلا ففي حال الإحرام هو في أمان والحرمة هناك للفعل لا للمكان، والمقصود هو ذكر حرمة المكان وهي: إنما تظهر بحال الحلال الذي لم يتلبس بما يقتضي أمنه، ولكن على هذا ففيه تنبيه، فإنه إذا أقسم به، وفيه الحلال، فإذا كان فيه الحرام فهو أولى بالتعظيم والأمن.

وكذلك إذا أريد المعنى الثاني: وهو الحلول، فهو متضمن لهذا التعظيم، مع تضمنه أمراً آخر، وهو الإقسام ببلده المشتمل على رسوله وعبده، فهو خير البقاع وقد اشتمل على خير العباد، فجعل بيته هدى للناس ونبيه إماماً وهادياً لهم، وذلك من أعظم نعمه وإحسانه إلى خلقه، كما هو من أعظم آياته ودلائل وحدانيته وربوبيته، فمن اعتبر حال بيته وحال نبيه وجد ذلك من أظهر أدلة التوحيد والربوبية.

وفي الآية قول ثالث، وهو أن المعنى: وأنت مستحل قتلك وإخراجك من هذا البلد الأمين، الذي يأمن فيه الطير والوحش والجاني، وقد استحل قومك فيه حرمتك، وهم لا يعضدون به شجرة، ولا ينفرون به صيداً، وهذا مروي عن شرحبيل بن سعد.

وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم، موقعها من أحسن موقع وألطفه.

فهذا القسم متضمن لتعظيم بيته ورسوله.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ۝٥ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ [البلد: ٥ ـ ٧].

ثم أنكر سبحانه على الإنسان ظنه وحسبانه أن لن يقدر عليه من خلقه في هذا الكبد والشدة والقوة التي يكابد بها الأمور، فإن الذي خلقه كذلك أولى بالقدرة منه وأحق، فكيف يقدر على غيره من لم يكن قادراً في نفسه، فهذا برهان مستقل بنفسه، مع أنه متضمن للجزاء الذي مناطه القدرة والعلم، فنبه على ذلك بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾، وبقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾. فيحصي عليه ما عمل من خير وشر، ولا يقدر عليه فيجازيه بما يستحقه؟

ثم أنكر سبحانه على الإنسان قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾، وهو الكثير الذي يلبد بعضه فوق بعض؛ فافتخر هذا الإنسان بإهلاكه وإنفاقه في غير وجهه، إذ لو أنفقه في وجوهه التي أمر بإنفاقه فيها، ووضعه مواضعه؛ لم يكن ذلك إهلاكاً له، بل تقرباً به إلى الله، وتوصلاً به إلى رضاه وثوابه. وذلك ليس بإهلاك له، فأنكر سبحانه افتخاره، وتبجحه بإنفاق المال في شهواته وأغراضه التي إنفاقه فيها إهلاك له.

ثم وبخه بقوله: ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ وأتى هنا بلم، الدالة على المضي في مقابلة قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ فإن ذلك في الماضي، أفيحسب أن لم يره أحد فيما أنفقه وفيما أهلكه؟

ثم ذكر برهاناً مقدراً أنه سبحانه أحق بالرؤية، وأولى من هذا العبد الذي له عينان يبصر بهما، فكيف يعطيه البصر من لم يره؟ وكيف يعطيه آلة البيان، من الشفتين واللسان، فينطق، ويبين عما في نفسه، ويأمر وينهى من لا يتكلم ولا يكلم، ولا يخاطب، ولا يأمر، ولا ينهى؟ وهل كمال المخلوق مستفاد إلا من كمال خالقه؟ ومن جعل غيره عالماً بنجدي الخير والشر ـ وهما طريقاهما ـ أليس هو أولى وأحق بالعلم منه، ومن هداه إلى هذين الطريقين كيف يليق به أن يتركه سدى، لا يعرفه ما يضره وما ينفعه في معاشه ومعاده؟ وهل النبوة والرسالة إلا لتكميل هداية النجدين؟ فدل هذا كله على إثبات الخالق وصفات كماله، وصدق رسله، ووعده.

وهذه أصول الإيمان التي اتفقت عليها جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم إذا تأمل الإنسان حاله وخلقه، وجده من أعظم الأدلة على صحتها وثبوتها، فتكفي الإنسان فكرته في نفسه وخلقه، والرسل بعثوا مذكرين بما في الفطر والعقول؛ مكملين له، لتقوم على العبد حجة الله بفطرته ورسالته. ومع هذا فقامت عليه حجته، ولم يقتحم العقبة التي بينه وبين ربه التي لا يصل إليها حتى يقتحمها بالإحسان إلى خلقه بفك الرقبة، وهو تخليصها من الرق، ليخلصه الله من رق نفسه ورق عدوه، وإطعام اليتيم والمسكين في يوم المجاعة، وبالإخلاص له سبحانه بالإيمان الذي هو خالص حقه عليه، وهو تصديق خبره وطاعة أمره، وابتغاء وجهه، وبنصيحة غيره أن يوصيه بالبر والرحمة ويقبل وصية من أوصاه بها، فيكون صابراً رحيماً في نفسه، معيناً لغيره على الصبر والرحمة، فمن لم يقتحم هذه العقبة، وهلك دونها هلك منقطعاً عن ربه، غير واصل إليه، بل محجوباً عنه.

والناس قسمان: ناج، وهو من قطع العقبة وصار وراءها، وهالك وهو من دون العقبة، وهم أكثر الخلق، ولا يقتحم هذه العقبة إلا المضمرون، فإنها عقبة كؤود شاقة، لا يقطعها إلا خفيف الظهر، وهم أصحاب الميمنة. والهالكون دون العقبة الذين لم يصدقوا الخبر، ولم يطيعوا الأمر، فهم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝١٩ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ [البلد: ١٩، ٢٠].

قد أطبقت عليهم، فلا يستطيعون الخروج منها، كما أطبقت عليهم أعمال الغي والاعتقادات الباطلة، المنافية لما أخبرت به رسله فلم تخرج قلوبهم منها، كذلك أطبقت عليهم هذه النار، فلم تستطع أجسامهم الخروج منها.

فتأمل هذه السورة على اختصارها، وما اشتملت عليه من مطالب العلم والإيمان، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [**البلد**: ٨ ـ ١٠].

فذكر هنا العينين اللتين يبصر بهما، فيعلم المشاهدات، وذكر هداية النجدين وهما طريقا الخير والشر، وفي ذلك حديث مرفوع ومرسل، وهو قول أكثر المفسرين.

وذكر اللسان والشفتين اللتين هما آلة التعليم.

فذكر آلات العلم والتعليم، وجعلها من آياته الدالة عليه وعلى قدرته ووحدانيته، ونعمه التي تعرَّف بها إلى عباده(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [**البلد**: ١١ ـ ١٧].

وهو فعل ماض، ولم يكرر معه «لا»، إما استعمالاً لأداة «لا» كاستعمال «ما»، وإما إجزاء لهذا الفعل مجرى الدعاء، نحو: فلا سلم ولا عاش، ونحو ذلك، وإما لأن العقبة قد فسرت بمجموع أمور: فاقتحامها فعل كل واحد منها، فأغنى ذلك عن تكريرها، فكأنه قال: فلا فك رقبة، ولا أطعم، ولا كان من الذين آمنوا.

وقراءة من قرأ: (فك رقبة) بالفعل، كأنها أرجح من قراءة من قرأها بالمصدر؛ لأن قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾ على حد قوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٣]. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ١٧]. ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ١٠، ١١] ونظائره، تعظيماً لشأن العقبة وتفخيماً لأمرها، وهي جملة اعتراض بين المفسر والمفسر.

فإن قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝١٦ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ [البلد: ١٣ ـ ١٧].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٠٧).

تفسير لاقتحام العقبة، مكان شاق كؤود يقتحمه الناس حتى يصلوا إلى الجنة، واقتحامه بفعل هذه الأمور، فمن فعلها فقد اقتحم العقبة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهذا عطف على قوله: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ والأحسن تناسب هذه الجمل المعطوفة التي هي تفسير لما ذكر أولاً.

وأيضاً فإن من قرأها بالمصدر المضاف فلا بد له من تقدير، وهو: ما أدراك ما اقتحام العقبة؟ واقتحامها فك رقبة، وأيضاً فمن قرأها بالفعل فقد طابق بين المفسر وما فسره، ومن قرأها بالمصدر فقد طابق بين المفسر وبعض ما فسره، فإن التفسير إن كان لقوله: ﴿ٱقْتَحَمَ﴾ طابقه بقوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده دون ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ وما يليه، وإن كان لقوله: ﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ طابقه ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ﴾ دون قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وما بعده، وإن كانت المطابقة حاصلة معنى، فحصولها لفظاً ومعنى أتم وأحسن.

واختلف في هذه العقبة، هل هي في الدنيا أو في الآخرة؟ فقالت طائفة: العقبة هاهنا مثل ضربه الله تعالى لمجاهدة النفس والشيطان في أعمال البر، وحكوا ذلك عن الحسن ومقاتل، قال الحسن: عقبة والله شديدة: مجاهدة الإنسان نفسه وهواه وعدوه والشيطان، وقال مقاتل: هذا مثل ضربه الله، يريد أن المعتق رقبة، والمطعم اليتيم والمسكين، يقاحم نفسه وشيطانه، مثل أن يتكلف صعود العقبة. فشبه المعتق رقبة في شدته عليه بالمكلف صعود العقبة، وهذا قول أبي عبيدة.

وقالت طائفة: بل هي عقبة حقيقية، يصعدها الناس، قال عطاء؛ هي عقبة جهنم. وقال الكلبي: هي عقبة بين الجنة والنار، وهذا قول مقاتل: إنها عقبة جهنم.

وقال مجاهد والضحاك: هي الصراط، يضرب على جهنم، وهذا لعله قول الكلبي، وقول هؤلاء أصح نظراً وأثراً ولغة، قال قتادة: فإنها عقبة شديدة، فاقتحموها بطاعة الله.

وفي أثر معروف: «إن بين أيديكم عقبة كؤوداً لا يقتحمها إلا المخفون» أو نحو هذا، وأن الله سمى الإيمان به وفعل ما أمر وترك ما نهى عقبة، فكثيراً ما يقع في كلام السلف الوصية بالتضمر لاقتحام العقبة.

وقال بعض الصحابة ـ وقد حضره الموت ـ فجعل يبكي ويقول: ما لي لا أبكي وبين يدي عقبة كؤود أهبط منها إما إلى جنة وإما إلى نار.

فهذا القول أقرب إلى الحقيقة، والآثار السلفية، والمألوف من عادة القرآن في استعماله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ﴾ في الأمور الغائبة العظيمة كما تقدم، والله أعلم[1].



(١) التبيان في أقسام القرآن (٣٣ ـ ٤٣).

سُورَةُ الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ١ ـ ١٠].

قال الزجاج وغيره: جواب القسم ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ ولما طال الكلام حسن حذف اللام من الجواب.

وقد تضمن هذا القسم الإقسام بالخالق والمخلوق، فأقسم بالسماء وبانيها والأرض وطاحيها والنفس ومسويها.

وقد قيل: (ما) مصدرية فيكون الإقسام بنفس فعله تعالى فيكون قد أقسم بالمصنوع الدال عليه، وبصنعته الدالة على كمال علمه وقدرته وحكمته وتوحيده. ولما كانت حركة الشمس والقمر، والليل والنهار، أمراً يشهد الناس حدوثه شيئاً فشيئاً، ويعلمون أن الحادث لا بد له من محدث، كان العلم بذلك منزلاً منزلة ذكر المحدث له لفظاً، فلم يذكر الفاعل في الأقسام الأربعة.

ولهذا سلك طائفة من النظار طريق الاستدلال بالزمان على الصانع، وهو استدلال صحيح قد نبه عليه القرآن في غير موضع، كقوله: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

ولما كانت السماء والأرض ثابتتين حتى ظن من ظن أنهما قديمتان، ذكر مع الإقسام بهما بانيهما ومبدعهما، وكذلك النفس، فإن حدوثها غير مشهود، حتى ظن بعضهم قدمها، فذكر مع الإقسام بها مسويها وفاطرها، مع ما في ذكر بناء السماء، وطحو الأرض، وتسوية النفس من الدلالة على الرحمة والحكمة والعناية بالخلق.

فإن بناء السماء يدل على أنها كالقبة العالية على الأرض، وجعلها سقفاً لهذا العالم، والطحو: هو مد الأرض وبسطها، وتوسيعها ليستقر عليها الأنام

والحيوان، ويمكن فيها البناء والغراس والزرع، وهو متضمن لنضوب الماء عنها، وهو مما حير عقول الطبائعيين حيث كان مقتضى الطبيعة أن يغمرها كثرة الماء، فبروز جانب منها على الماء على خلاف مقتضى الطبيعة، وكونه هذا الجانب المعين دون غيره، مع استواء الجوانب في الشكل الكري، يقتضي تخصيصاً، فلم يجدوا بداً أن يقولوا: عناية الصانع اقتضت ذلك. قلنا: فنعم إذاً، ولكن عناية من لا مشيئة له، ولا إرادة ولا اختيار، ولا علم بمعين أصلاً، كما تقولونه فيه محال، فعنايته تقتضي ثبوت صفات كماله ونعوت جلاله، وأنه الفاعل يفعل باختياره ما يريد.



وكذلك النفس أقسم بها وبمن سوَّاها وألهمها فجورها وتقواها، فإن من الناس من يقول: قديمة لا مبدع لها. ومنهم من يقول: بل هي التي تبدع فجورها وتقواها، فذكر سبحانه أنه هو الذي سواها وأبدعها وأنه هو الذي ألهمها الفجور والتقوى. فأعلمنا أنه خالق نفوسنا وأعمالها. وذكر لفظ التسوية كما ذكره في قوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]. وفي قوله: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]. إيذاناً بدخول البدن في لفظ النفس. كقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الأعراف: ١٨٩]. وقوله: ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]. ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢] ونظائره. وباجتماع الروح مع البدن تصير النفس فاجرة أو تقية. وإلا فالروح بدون البدن لا فجور لها.

وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الضمير مرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ عائد على ﴿مَن﴾، وكذلك هو في ﴿دَسَّىٰهَا﴾ المعنى: قد أفلح من زكى نفسه. ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ هذا القول هو الصحيح.

وهو نظير قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤]. وهو سبحانه إذا ذكر الفلاح علقه بفعل المفلح، كقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢] إلى آخر الآيات. ونظائره. قال الحسن: قد أفلح من زكى نفسه وحملها على طاعة الله، وقد خاب من أهلكها وحملها على معصية الله. وقاله قتادة. وقال ابن قتيبة: يريد أفلح من زكى نفسه، أي: نماها وأعلاها بالطاعة والبر والصدقة واصطناع المعروف، وقد خاب من دسَّاها، أي: نقصها وأخفاها بترك

عمل البر وركوب المعاصي، والفاجر أبداً خفي المكان، زمن المروءة، غامض الشخص، ناكس الرأس، فكأن المتصف بارتكاب الفواحش دس نفسه، وقمعها. ومصطنع المعروف شهر نفسه ورفعها. وكانت أجواد العرب تنزل الربى ويفاع الأرض لتشهر أنفسها للمعتفين، وتوقد النيران في الليل للطارقين. وكانت اللئام تنزل الأولاج والأطراف والأهضام[1] لتخفي أماكنها على الطالبين. فأولئك أعلوا أنفسهم وزكوها، وأولئك أخفوا أنفسهم ودسوها. وأنشد:

وبَوّأتَ بَيْتَكَ فِي مَعْلَمٍ رَحِيبِ المَبَاءَةِ والمسرحِ
كَفيتَ العفاة طلاب القِرى ونَبْحَ الكلابِ لِمُسْتَنْبِحِ

وقال أبو العباس: سألت ابن الأعرابي عن قوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾: فقال دسى معناه: دس نفسه مع الصالحين وليس منهم، وعلى هذا فالمعنى أخفى نفسه في الصالحين، يرى الناس أنه منهم وهو منطو على غير ما ينطوي عليه الصالحون.

وقال طائفة أخرى: الضمير يرجع إلى الله سبحانه، قال ابن عباس، في رواية عطاء: قد أفلحت نفس زكاها الله وأصلحها. وهذا قول مجاهد، وعكرمة، والكلبي، وسعيد بن جبير، ومقاتل، قالوا: سعدت نفس وأفلحت نفس أصلحها الله وطهرها ووفقها للطاعة، حتى عملت بها، وخابت وخسرت نفس أضلها الله وأغواها وأبطلها وأهلكها.

قال أرباب هذا القول: قد أقسم الله بهذه الأشياء التي ذكرها، لأنها تدل على وحدانيته، وعلى فلاح من طهره وخسارة من خذله، حتى لا يظن أحد أنه هو الذي يتولى تطهير نفسه، وإهلاكها بالمعصية، من غير قدر سابق، وقضاء متقدم.

قالوا: وهذا أبلغ في التوحيد الذي سيقت له هذه السورة. قالوا: ويدل عليه قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ قالوا: ويشهد له حديث نافع يعني ابن عمر عن ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: انتبهت نفسي ليلة فوجدت رسول الله ﷺ وهو يقول: «رب أعط نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها»[2]،

(١) في هامش التبيان (٢٢): «اليفاع المكان المرتفع، والولجة موضع أو كهف تستتر فيه المارة، الجمع: أولاج، والهِضم ـ بكسر الضاد ـ المطمئن من الأرض، وانظر: هامش (١) ص(٢٣٤) من نفس السورة.

(٢) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٦/ ٢٠٩) قال: حدثنا وكيع عن نافع ـ يعني: ابن عمر ـ عن صالح بن سعيد عن عائشة رحمه الله تعالى رضي الله عنها فذكره، وصالح بن سعيد، يروي عن =

قالوا: فهذا الدعاء هو تأويل الآية، بدليل الحديث الآخر: أن النبي ﷺ كان إذا قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ وقف ثم قال: «اللهم آت نفسي تقواها، أنت وليها ومولاها، وزكها أنت خير من زكاها»[1]، قالوا: وفي هذا ما يبين أن الأمر كله له سبحانه، فإنه هو خالق النفس وملهمها الفجور والتقوى. وهو مزكيها ومدسيها، فليس للعبد في الأمر شيء، ولا هو مالك من أمر نفسه شيئاً.

□ □ □

قال أرباب القول الأول: هذا القول، وإن كان جائزاً في العربية، حاملاً للضمير المنصوب على معنى من، وإن كان لفظها مذكراً، كما في قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٢]. جمع الضمير، وإن كان لفظ (مَنْ) مفرداً، حملاً على نظمها. فهذا إنما يحسن حيث لا يقع لبس في مفسر الضمائر، وهاهنا قد تقدم لفظ (مَنْ)، والضمير المرفوع في ﴿زَكَّىٰهَا﴾ يستحقه لفظاً ومعنى. فهو أولى به، ثم يعود الضمير المنصوب على النفس التي هي أولى به لفظاً ومعنى. فهذا هو النظم الطبيعي الذي يقتضيه سياق الكلام ووضعه. وأما عود الضمير الذي يلي (من) على الموصول السابق وهو قوله: ﴿وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وإخلاء جاره الملاصق له وهو (من) ثم عود الضمير المنصوب وهو مؤنث على (من)، ولفظه مذكر دون النفس المؤنثة. فهذا يجوز، لو

= عائشة، روى عنه نافع بن عمر هكذا في الثقات لابن حبان (٤/ ٣٧٦)، وترجم له الحافظ في «تعجيل المنفعة» (١٨١)، وذكر حديثه عن عائشة ﵂، وقال الهيثمي: «رواه أحمد ورجاله ثقات»، مجمع الزوائد (٢/ ١٢٧، ١٢٨)، أما ما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله: «ويشهد له حديث نافع ـ يعني: ابن عمر ـ وقع في المطبوع ابن عمر وهو خطأ قطعاً ـ عن ابن أبي مليكة عن عائشة... فذكره» فلم أجده بهذا السند، والله أعلم، وحديث ابن أبي مليكة عن عائشة ﵂ ورد بلفظ: «افتقدت النبي ﷺ ـ إلى قولها: ـ فإذا هو راكع أو ساجد يقول: سبحانك وبحمدك لا إله إلا أنت...»، رواه مسلم (٢/ ١٢٣) في الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، وانظر: تحفة الأشراف (١١/ ٤٥٩، ٤٦٠)، والحديث ورد ضمن دعائه ﷺ الذي أوله: «اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل...»، رواه الإمام أحمد (٤/ ٣٧١)، ومسلم (٥/ ٥٦٩) في الأدعية، والنسائي (٨/ ٢٨٥) في الاستعاذة، باب: الاستعاذة من دعاء لا يستجاب، كلهم من حديث زيد بن أرقم ﵁.

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١/ ١٠٦) من حديث ابن عباس ﵄، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٣٨): «... إسناده حسن»، قلت: في سنده ابن لهيعة، وقد عنعنه، ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي هريرة ﵁، ذكره ابن كثير (٤/ ٥٤٧)، وقال: «لم يخرجوه من هذا الوجه»، وانظر: الدر المنثور (٨/ ٥٢٩).

لم يكن للكلام محمل غيره أحسن منه. فأما إذا كان سياق الكلام ونظمه يقتضي خلافه ولم تدع الضرورة إليه، فالحمل عليه ممتنع.

قالوا: والقول الذي ذكرناه أرجح من جهة المعنى لوجوه:

أحدها: أن فيه إشارة إلى ما تقدم من تعليق الفلاح على فعل العبد واختياره كما هي طريقة القرآن.

الثاني: أن فيه زيادة فائدة وهي إثبات فعل العبد وكسبه، وما يثاب وما يعاقب عليه، وفي قوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ إثبات القضاء والقدر السابق. فتضمنت الآيتان هذين الأصلين العظيمين، وهما كثيراً ما يقترنان في القرآن كقوله: ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [المدثر: ٥٤ ـ ٥٦]. وقوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨، ٢٩]. فتضمنت الآيتان الرد على القدرية والجبرية.

الثالث: أن قولنا يستلزم قولكم دون العكس، فإن العبد إذا زكى نفسه ودساها فإنما يزكيها بعد تزكية الله لها بتوفيقه وإعانته، وإنما يدسيها بعد تدسية الله لها بخذلانه، والتخلية بينه وبين نفسه، بخلاف ما إذا كان المعنى على القدر السابق المحض، لم يبق للكسب وفعل العبد ههنا ذكر البتة.

* * *

قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١].

وذكر في هذه السورة ثمود، دون غيرهم من الأمم المكذبة فقال شيخنا: هذا ـ والله أعلم ـ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى، فإنه لم يكن في الأمم المكذبة أخف ذنباً وعذاباً منهم، إذ لم يذكر عنهم من الذنوب ما ذكر عن عاد، ومدين، وقوم لوط، وغيرهم. ولهذا لما ذكرهم وعاداً قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ـ إلى قوله ـ ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٥ ـ ١٧]. وكذلك إذا ذكرهم مع الأمم المكذبة لم يذكر عنهم ما ذكر عن أولئك من التجبر والتكبر، والأعمال السيئة، كاللواط، وبخس المكيال والميزان، والفساد في الأرض، كما في سورة هود والشعراء وغيرهما.

فكان في قوم لوط ـ مع الشرك ـ إتيان الفاحشة التي لم يسبقوا إليها.

وفي قوم عاد ـ مع الشرك ـ التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا، وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي أصحاب مدين ـ مع الشرك ـ الظلم في الأموال.

وفي قوم فرعون ـ مع الشرك ـ الفساد في الأرض والعلو.

وكان عذاب كل أمة بحسب ذنوبهم وجرائمهم. فعذب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية، التي لا يقوم لها شيء، وعذب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمة غيرهم. فجمع لهم بين الهلاك والرجم بالحجارة من السماء، وطمس الأبصار، وقلب ديارهم عليهم بأن جعل عاليها سافلها، والخسف بهم إلى أسفل سافلين. وعذب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأما ثمود فأهلكوا بالصيحة فماتوا في الحال.

فإذا كان عذاب هؤلاء ـ وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم ـ فمن انتهك محارم الله واستخف بأوامره ونواهيه، وعقر عباده، وسفك دماءهم، كان أشد عذاباً. ومن اعتبر أحوال العالم قديماً وحديثاً، وما يعاقب به من سعى في الأرض بالفساد، وسفك الدماء بغير حق، وأقام الفتن واستهان بحرمات الله، علم أن النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون.

قلت: وقد يظهر في تخصيص ثمود ههنا بالذكر، دون غيرهم، معنى آخر، وهو أنهم ردوا الهدى بعد ما تيقنوه وكانوا مستبصرين به، قد ثلجت له صدورهم، واستيقظت له أنفسهم، فاختاروا عليه العمى والضلالة.

كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]. وقال: ﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩]. أي: موجبة لهم التبصرة واليقين، وإن كان جميع الأمم المهلكة هذا شأنهم.

فإن الله لم يهلك أمة إلا بعد قيام الحجة عليها، لكن خصت ثمود من ذلك الهدى والبصيرة بمزيدٍ، ولهذا لما قرنهم بقوم عاد قال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، ثم قال: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

ولهذا أمكن عاداً المكابرة وأن يقولوا لنبيهم: ﴿مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]. ولم يمكن ذلك ثمود وقد رأوا البينة عياناً وصارت لهم بمنزلة رؤية الشمس والقمر فردوا الهدى بعد تيقنه والبصيرة التامة فكان في تخصيصهم بالذكر تحذير لكل من

عرف الحق ولم يتبعه وهذا داء أكثر الهالكين وهو أعم الأدواء وأغلبها على أهل الأرض، والله أعلم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا﴾ [الشمس: ١٥].

فنفى عن نفسه خوف عاقبة ما فعله من إهلاك أعدائه.

بخلاف المخلوق فإنه إذ انتقم من عدوه يخاف عاقبة ذلك، إما من الله وإما من المنتصرين لعدوه، وذلك على الله محال.

والخوف يتضمن نقصان العلم والقدرة والإرادة.

فإن العالم بأن الشيء لا يكون لا يخافه، والعالم بأنه يكون ولا بد قد يئس من النجاة منه فلا يخاف، وإن خاف فخوفه دون خوف الراجي.

وأما نقص القدرة فلأن الخائف من الشيء هو الذي لا يمكنه دفعه عن نفسه فإذا تيقن أنه لقادر على دفعه لم يخفه.

وأما نقص الإرادة فلأن الخائف يحصل له الخوف بدون مشيئته واختياره.

وذلك محال في حق من هو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، ومن لا يكون شيء إلا بمشيئته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا لا ينافي كراهته سبحانه وبغضه وغضبه، فإن هذه الصفات لا تستلزم نقصاً لا في علمه ولا في قدرته ولا في إرادته، بل هي كمال؛ لأن سببها العلم بقبح المكروه المبغوض المغضوب عليه، وكلما كان العلم بحاله أهم كانت كراهته وبغضه أقوى، ولهذا يشتد غضبه سبحانه على من قتل نبيه أو قتله نبيه[٢].

❁ ❁ ❁

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (١٨ ـ ٢٧).

(٢) الصواعق المرسلة (٤/ ١٤٤٤، ١٤٤٥).

سُوْرَةُ الليْلِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [**الليل**: ١ ـ ٤].

فلفظ السعي هو العمل، لكن يراد به العمل الذي يهتم به صاحبه ويجتهد فيه بحسب الإمكان. فإن كان يفتقر إلى عدو بدنه عدا، وإن كان يفتقر إلى جمع أعوانه جمع، وإن كان يفتقر إلى تفرغ له وترك غيره فعل ذلك. فلفظ السعي في القرآن جاء بهذا الاعتبار، ليس هو مرادفاً للفظ العمل كما ظنه طائفة، بل هو عمل مخصوص يهتم به صاحبه ويجتهد فيه، ولهذا قال في الجمعة: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون وائتوها تمشون، وعليكم السكينة فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا». فلم ينه عن السعي إلى الصلاة، فإن الله أمر بالسعي إليها بل نهاهم أن يأتوا إليها يسعون، فنهاهم عن الإتيان المتصف بسعي صاحبه.

والإتيان فعل البدن، وسعيه عَدْوُ البدن، وهو منهي عنه.

وأما السعي المأمور به في الآية فهو الذهاب إليها على وجه الاهتمام بها والتفرغ لها عن الأعمال الشاغلة، لا من بيع وغيره والإقبال بالقلب على السعي إليها[(١)].

□ □ □

﴿وَالَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ فهو سبحانه يقسم بالليل في جميع أحواله إذ هو من آياته الدالة عليه، فأقسم به وقت غشيانه، وأتى بصيغة المضارع لأنه يغشى شيئاً بعد شيء، وأما النهار فإنه إذا طلعت الشمس ظهر وتجلى وهلة واحدة.

ثم أقسم بخلق الذكر والأنثى، وذلك يتضمن الإقسام بالحيوان كله على اختلاف

(١) التبيان في أقسام القرآن (٦، ٧).

أصنافه، ذكره وأنثاه، وقابل بين الذكر والأنثى، كما قابل بين الليل والنهار، وكل ذلك من آيات ربوبيته، فإن إخراج الليل والنهار بواسطة الأجرام العلوية، كإخراج الذكر والأنثى بواسطة الأجرام السفلية، فأخرج من الأرض ذكور الحيوان وإناثه على اختلاف أنواعها، كما أخرج من السماء الليل والنهار بواسطة الشمس فيها.

وأقسم سبحانه بزمان السعي وهو الليل والنهار، وبالساعي، وهو الذكر والأنثى، على اختلاف السعي، كما اختلف الليل والنهار، والذكر والأنثى وسعيه وزمانه مختلف، وذلك دليل على اختلاف جزائه وثوابه، وأنه سبحانه لا يسوي بين من اختلف سعيه في الجزاء، كما لم يسو بين الليل والنهار والذكر والأنثى.

ثم أخبر عن تفريقه بين عاقبة سعي المحسن وعاقبة سعي المسيء فقال:

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠].

فتضمنت الآيتان ذكر شرعه، وذكر الأعمال وجزائها، وحكمة القدر في تيسير هذا لليسرى، وهذا للعسرى، وأن العبد ميسر بأعماله لغاياتها، ولا يظلم ربك أحداً، وذكر للتيسير لليسرى ثلاثة أسباب:

أحدها: إعطاء العبد، وحذف مفعول الفعل إرادة للإطلاق والتعميم، أي: أعطى ما أمر به وسمحت به طبيعته، وطاوعته نفسه؛ وذلك يتناول إعطاءه من نفسه الإيمان والطاعة، والإخلاص، والتوبة، والشكر، وإعطاءه الإحسان، والنفع بماله، ولسانه وبدنه، ونيته وقصده، فتكون نفسه نفساً مطيعة باذلة، لا لئيمة مانعة، فالنفس المطيعة هي النافعة المحسنة، التي طبعها الإحسان وإعطاء الخير اللازم والمتعدي، فتعطي خيرها لنفسها ولغيرها، فهي بمنزلة العين التي ينتفع الناس بشربهم منها، وسقي دوابهم وأنعامهم وزرعهم، فهم ينتفعون بها كيف شاؤوا، فهي ميسرة لذلك، وهكذا الرجل المبارك ميسر للنفع حيث حل، فجزاء هذا أن ييسره الله لليسرى كما كانت نفسه ميسرة للعطاء.

السبب الثاني: التقوى، وهي اجتناب ما نهى الله عنه، وهذا من أعظم أسباب التيسير، وضده من أسباب التعسير، فالمتقي ميسرة عليه أمور دنياه وآخرته، وتارك التقوى وإن يسرت عليه بعض أمور دنياه تعسر عليه من أمور آخرته بحسب ما تركه من التقوى. وأما تيسير ما تيسر عليه من أمور الدنيا، فلو اتقى الله لكان تيسيرها

عليه أتم، ولو قدر أنها لم تتيسر له فقد يسر الله له من الدنيا ما هو أنفع له مما ناله بغير التقى، فإن طيب العيش، ونعيم القلب، ولذة الروح، وفرحها وابتهاجها من أعظم نعيم الدنيا، وهو أجل من نعيم أرباب الدنيا بالشهوات واللذات.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فأخبر أنه ييسر على المتقي ما لا ييسر على غيره، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، وهذا أيضاً ييسر عليه بتقواه، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]. وهذا يتيسر عليه بإزالة ما يخشاه، وإعطائه ما يحبه ويرضاه، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهذا يتيسر بالفرقان المتضمن النجاة، والنصر، والعلم، والنور، الفارق بين الحق الباطل، وتكفير السيئات، ومغفرة الذنوب، وذلك غاية التيسير، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠]، والفلاح غاية اليسر، كما أن الشقاء غاية العسر، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٨]، فضمن لهم سبحانه بالتقوى ثلاثة أمور:

أحدها: أعطاهم نصيبين من رحمته نصيباً في الدنيا، ونصيباً في الآخرة، وقد يضاعف لهم نصيب الآخرة فيصير نصيبين.

الثاني: أعطاهم نوراً يمشون به في الظلمات.

الثالث: مغفرة ذنوبهم، وهذا غاية التيسير فقد جعل سبحانه التقوى سبباً لكل يسر، وترك التقوى سبباً لكل عسر.

السبب الثالث: التصديق بالحسنى، وفسرت بلا إلٰه إلا الله، وفسرت بالجنة، وفسرت بالخلف، وهي أقوال السلف، واليسرى صفة لموصوف محذوف أي الحالة والخلة اليسرى، وهي فعلى من اليسرى، والأقوال الثلاثة ترجع إلى أفضل الأعمال، وأفضل الجزاء.

فمن فسَّرها بلا إلٰه إلا الله، فقد فسَّرها بمفرد يأتي بكل جمع: فإن التصديق الحقيقي بلا إلٰه إلا الله يستلزم التصديق بشعبها وفروعها كلها، وجميع أصول الدين وفروعه من شعب هذه الكلمة؛ فلا يكون العبد، مصدقاً بها حقيقة التصديق حتى يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه، ولا يكون مؤمناً بالله إلٰه العالمين حتى

يؤمن بصفات جلاله ونعوت كماله، ولا يكون مؤمناً بأن الله لا إلٰه إلا هو حتى يسلب خصائص الإلٰهية عن كل موجود سواه، ويسلبها عن اعتقاده وإرادته، كما هي منفية في الحقيقة والخارج، ولا يكون مصدقاً بها من نفي الصفات العليا، ولا من نفي كلامه وتكليمه، ولا من نفي استوائه على عرشه، وأنه يرفع إليه الكلم الطيب والعمل الصالح، وأنه رفع المسيح إليه، وأسرى برسوله ﷺ، وأنه يدبر الأمر من السماء إلى الأرض، ثم يعرج إليه، إلى سائر ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ.

ولا يكون مؤمناً بهذه الكلمة مصدقاً بها على الحقيقة مَنْ نفى عموم خلقه لكل شيء، وقدرته على كل شيء، وعلمه بكل شيء، وبعثه الأجساد من القبور ليوم النشور، ولا يكون مصدقاً بها من زعم أنه يترك خلقه سدى، لم يأمرهم ولم ينههم على ألسنة رسله.

وكذلك التصديق بها يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها، وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، هو تفصيل لا إلٰه إلا الله، فالمصدق بها على الحقيقة الذي يأتي بذلك كله. وكذلك لم تحصل عصمة المال والدم على الإطلاق إلا بها وبالقيام بحقها، وكذلك لا تحصل النجاة من العذاب على الإطلاق إلا بها وبحقها. فالعقوبة في الدنيا والآخرة على تركها، أو ترك حقها.

ومن فسر الحسنى بالجنة فسرها بأعلى أنواع الجزاء وكماله.

ومن فسرها بالخلف ذكر نوعاً من الجزاء، فهذا جزاء دنيوي، والجنة الجزاء في الآخرة، فرجع التصديق بالحسنى إلى التصديق بالإيمان وجزائه، والتحقيق أنها تتناول الأمرين.



وتأمل ما اشتملت عليه هذه الكلمات الثلاثة ـ وهي الإعطاء، والتقوى والتصديق بالحسنى، من العلم والعمل، وتضمنته من الهدى ودين الحق. فإن النفس لها ثلاث قوى: قوة البذل والإعطاء، وقوة الكف والامتناع، وقوة الإدراك والفهم. ففيها قوة العلم والشعور ويتبعها قوة الحب والإرادة، وقوة البغض والنفرة.

فهذه القوى الثلاثة عليها مدار صلاحها وسعادتها، وبفسادها يكون فسادها وشقاوتها، ففساد قوة العلم والشعور يوجب له التكذيب بالحسنى، وفساد قوة

الحب والإرادة يوجب له ترك الإعطاء، وفساد قوة البغض والنفرة يوجب له ترك الاتقاء، فإذا كملت قوة حبه وإرادته بإعطائه ما أمر به، وقوة بغضه ونفرته باتقائه ما نهي عنه، وقوة علمه وشعوره بتصديقه بكلمة الإسلام وحقوقها وجزائها، فقد زكى نفسه؛ وأعدها لكل حالة يسرى، فصارت النفس بذلك ميسرة لليسرى.

ولما كان الدين يدور على ثلاث قواعد؛ فعل المأمور، وترك المحظور، وتصديق الخبر، وإن شئت قلت: الدين طلب وخبر، والطلب نوعان: طلب فعل، وطلب ترك. فقد تضمنت هذه الكلمات الثلاث مراتب الدين أجمعها، فالإعطاء فعل المأمور، والتقوى ترك المحظور، والتصديق بالحسنى تصديق الخبر، فانتظم ذلك الدين كله وأكمل الناس من كملت له هذه التقوى الثلاث.

ودخول النقص بحسب نقصانها أو بعضها، فمن الناس من يكون قوة إعطائه وبذله أتم من قوة انكفافه وتركه، فقوة الترك فيه أضعف من قوة الإعطاء، ومن الناس من يكون قوة الترك والانكفاف فيه أتم من قوة الإعطاء والمنع، ومن الناس من يكون فيه قوة التصديق أتم من قوة الإعطاء والمنع، فقوته العلمية والشعورية أتم من قوته الإرادية وبالعكس، فيدخل النقص بحسب ما نقص من قوة هذه القوى الثلاث، ويفوته من التيسير لليسرى بحسب ما فاته منها، ومن كملت له هذه القوى يسر لكل يسرى. قال ابن عباس: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾، أي: نهيئه لعمل الخير، نيسر عليه أعمال الخير. وقال مقاتل، والكلبي، والفراء: نيسره للعود إلى العمل الصالح.



وحقيقة اليسرى أنها الخلة والحالة السهلة النافعة الواقعة له، وهي ضد العسرى، وذلك يتضمن تيسيره للخير وأسبابه، فيجري الخير، وييسر على قلبه، ويديه ولسانه، وجوارحه، فتصير خصال الخير ميسرة عليه، مذللة له منقادة، ولا تستعصي عليه، ولا تستصعب؛ لأنه مهيأ لها، ميسر لفعلها، يسلك سبلها ذللاً، وتقاد له علماً وعملاً، فإذا خاللته قلت هو الذي قيل فيه:

مبارك الطلعة ميمونها ... يصلح للدنيا وللدين



﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ فعطل قوة الإرادة والإعطاء عن فعل ما أمر به ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بترك التقوى عن ربه، فعطل قوة الانكفاف والترك عن فعل ما نهي عنه ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾،

فعطل قوة العلم والشعور عن التصديق بالإيمان وجزائه ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

قال عطاء: سوف أحول بين قلبه وبين الإيمان بي وبرسولي. وقال مقاتل: يعسر عليه أن يعطي خيراً. وقال عكرمة، عن ابن عباس: نيسره للشر. قال الواحدي: وهذا هو القول؛ لأن الشر يؤدي إلى العذاب، فهو الخلة العسرى، والخير يؤدي إلى اليسر، والراحة في الجنة، فهو الخلة اليسرى، يقول: سنهيئه للشر، بأن يجريه على يديه. قال الفراء: العرب تقول: قد يسرت غنم فلان إذا تهيأت للولادة، وكذلك إذا ولدت وغزرت ألبانها، أي: يسرت ذلك على أصحابها. انتهى.

والتيسير للعسرى يكون بأمرين:

أحدهما: أن يحول بينه وبين أسباب الخير، فيجري الشر على قلبه، ونيته، ولسانه وجوارحه.

والثاني: أن يحول بينه وبين الجزاء الأيسر، كما حال بينه وبين أسبابه.

فإن قيل: كيف قابل اتقى باستغنى؟ وهل يمكن العبد أن يستغني عن ربه طرفة عين؟

قيل: هذا من أحسن المقابلة؛ فإن المتقي لما استشعر فقره وفاقته وشدة حاجته إلى ربه اتقاه، ولم يتعرض لسخطه وغضبه ومقته بارتكاب ما نهاه عنه، فإن من كان شديد الحاجة والضرورة إلى شخص، فإنه يتقي غضبه وسخطه عليه غاية الاتقاء، ويجانب ما يكره غاية المجانبة، ويتعمد فعل ما يحبه ويؤثره.

فقابل التقوى بالاستغناء تبشيعاً لحال تارك التقوى، ومبالغة في ذمه، بأن فعل فعل المستغني عن ربه، لا فعل الفقير المضطر إليه الذي لا ملجأ له إلا إليه، ولا غنى له عن فضله وجوده وبره طرفة عين، فللّه ما أحلى هذه المقابلة وما أجمع هاتين الآيتين للخيرات كلها وأسبابها، والشرور كلها وأسبابها. فسبحان من تعرف إلى خصائص عباده بكلامه، وتجلى لهم فيه فهم لا يطلبون أثراً بعد عين، ولا يستبدلون الحق بالباطل، والصدق باليمين.

□ □ □

وقد تضمنت هاتان الآيتان فصل الخطاب في مسألة القدر، وإزالة كل لبس وإشكال فيها، وذلك بيِّن بحمد الله لمن وفق لفهمه، ولهذا أجاب بها النبي ﷺ من أورد عليه السؤال الذي لا يزال الناس يلهجون به في القدر، فأجاب بفصل الخطاب وأزال الإشكال، ففي الصحيحين من حديث علي بن أبي طالب ؓ عن

النبي ﷺ أنه قال: «ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة والنار»، قيل: يا رسول الله، أفلا ندع العمل، ونتكل على الكتاب؟ قال: «اعملوا، فكل ميسر لما خلق له»، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[1].

فقد تضمن هذا الحديث الرد على القدرية والجبرية، وإثبات القدر والشرع وإثبات الكتاب الأول المتضمن لعلم الله سبحانه الأشياء قبل كونها، وإثبات خلق الفعل الجزائي، وهو يبطل أصول القدرية الذين يمنعون خلق الفعل مطلقاً، ومن أقر منهم بخلق فعل الجزاء دون الابتداء هدم أصله، ونقض قاعدته.

والنبي ﷺ أخبر بمثل ما أخبر به الرب تعالى: أن العبد «ميسر لما خلق له» لا مجبور، فالجبر لفظ بدعي، والتيسير لفظ القرآن والسنة، وفي الحديث دلالة على أن الصحابة كانوا أعلم الناس بأصول الدين فإنهم تلقوها عن أعلم الخلق بالله على الإطلاق، وكانوا إذا استشكلوا شيئاً سألوه عنه، وكان يجيبهم بما يزيل الإشكال، ويبين الصواب، فهم العارفون بأصول الدين حقاً، لا أهل البدع والأهواء من المتكلمين ومن سلك سبيلهم.



وفي الحديث استدلال النبي ﷺ على مسائل أصول الدين بالقرآن، وإرشاده الصحابة لاستنباطها منه. خلافاً لمن زعم أن كلام الله ورسوله لا يفيد العلم بشيء من أصول الدين، ولا يجوز أن تستفاد معرفة الله وأسمائه وصفاته وأفعاله منه، وعبر عن ذلك بقوله: الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين.

وفي الحديث بيان أن من الناس من خلق للسعادة، ومنهم من خلق للشقاوة، خلافاً لمن زعم أنهم كلهم خلقوا للسعادة، ولكن اختاروا الشقاوة ولم يخلقوا لها.

وفيه إثبات الأسباب، وأن العبد ميسر للأسباب الموصلة له إلى ما خلق له.

وفيه دليل على اشتقاق السنة من الكتاب، ومطابقتها له، فتأمل قوله ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»؟ ومطابقته لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ﴾ إلى آخر الآيتين. كيف انتظم الشرع والقدر، والسبب والمسبب؟



وهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ هو الذي فطر الله عليه عباده، بل الحيوان

(١) رواه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧).

البهيم، بل مصالح الدنيا وعمارتها بذلك، فلو قال كل أحد: إن قدر لي كذا وكذا فلا بد أن أناله، وإن لم يقدر فلا سبيل إلى نيله فلا أسعى ولا أتحرك، لعد من السفهاء الجهال، ولم يمكنه طرد ذلك أبداً، وإن أتى به في أمر معين؛ فهل يمكنه أن يطرد ذلك في مصالحه جميعها، من طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وهروبه مما يضاد بقاءه وينافي مصالحه، أم يجد نفسه غير منكفة البتة عن قول النبي ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»؟ فإذا كان هذا في مصالح الدنيا، وأسباب منافعها، فما الموجب لتعطيله في مصالح الآخرة، وأسباب السعادة والفلاح فيها، ورب الدنيا والآخرة واحد، فكيف يعطل ذلك في شرع الرب وأمره ونهيه، ويستعمل في إرادة العبد وأغراضه وشهواته؟ وهل هذا إلا محض الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول، ظلوم لنفسه، جهول بربه. فهذا الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وتلا عنده هاتين الآيتين، موافقاً لما جعله الله في عقول العقلاء، وركب عليه فطر الخلائق، حتى الحيوان البهيم، وأرسل به جميع رسله، وأنزل به جميع كتبه.

ولو اتكل العبد على القدر ولم يعمل لتعطلت الشرائع، وتعطلت مصالح العالم، وفسد أمر الدنيا والدين، وإنما يستروح إلى ذلك معطلو الشرائع، ومن خلع ربقة الأوامر والنواهي من عنقه، وذلك ميراث من إخوانهم المشركين الذين دفعوا أمر الله ونهيه، وعارضوا شرعه بقضائه وقدره، كما حكى الله سبحانه ذلك عنهم في غير موضع من كتابه.



فإن قيل: فالإعطاء، والتقوى، والتصديق بالحسنى، هي من اليسرى، بل هي أصل اليسرى، من يسرها للعبد أولاً؟ وكذلك أضدادها؟

قيل: الله سبحانه هو الذي يسر للعبد أسباب الخير والشر وخلق خلقه قسمين: أهل سعادة، فيسرهم لليسرى، وأهل شقاوة، فيسرهم للعسرى، واستعمل هؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها، لا يصلحون لسواها، وهؤلاء في الأسباب التي خلقوا لغاياتها لا يصلحون لسواها، وحكمته الباهرة تأبى أن يضع عقوبتها في موضوع لا تصلح له. كما يأبى أن يضع كرامته وثوابه في محل لا يصلح لهما، ولا يليق بهما، بل حكمة آحاد خلقه تأبى ذلك، ومن جعل محل المسك والرجيع واحداً فهو من أسفه السفهاء.

فإن قيل: فلم جعل هذا لا يليق به إلا الكرامة، وهذا لا يليق به إلا الإهانة؟

قيل: هذا سؤال جاهل، لا يستحق الجواب، كأنه يقول: لم خلق الله كذا وكذا؟

فإن قيل: وعلى هذا، فهل لهذا الجاهل من جواب؟

قيل: نعم. شأن الربوبية خلق الأشياء وأضدادها، وخلق الملزومات ولوازمها، وذلك هو محض الكمال. فالعلو لازم وملزوم للسفل، والليل لازم وملزوم للنهار، وكمال هذا الوجود بالحر والبرد، والصحو والغيم. ومن لوازم الطبيعة الحيوانية الصحة والمرض، واختلاف الإرادات والمرادات.

ووجود اللازم بدون ملزومه ممتنع، ولولا خلق المتضادات، لما عرف كمال القدرة والمشيئة والحكمة، ولما ظهرت أحكام الأسماء والصفات. وظهور أحكامها وآثارها لا بد منه، إذ هو مقتضى الكمال المقدس، والملك التام وإذا أعطيت اسم الملك حقه ـ ولن تستطيع ـ علمت أن الخلق والأمر، والثواب والعقاب، والعطاء والحرمان، أمر لازم لصفة الملك، وأن صفة الملك تقضي ذلك ولا بد، وأن تعطيل هذه الصفة أمر ممتنع. فالملك الحق يقتضي إرسال الرسل، وإنزال الكتب، وأمر العباد ونهيهم، وثوابهم، وإكرام من يستحق الإكرام، وإهانة من يستحق الإهانة، كما تستلزم حياة الملك، علمه، وإرادته، وقدرته، وسمعه، وبصره، وكلامه، ورحمته، ورضاه، وغضبه، واستواءه على سرير ملكه، يدبر أمر عبادة وهذه الإشارة تكفي اللبيب في مثل هذا الموضع، ويطلع منها على أرض مونقة، وكنوز من المعرفة، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ﴾ [**الليل**: ١٢، ١٣].

قيل: معناه: إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال. قال قتادة: على الله البيان، بيان حلاله وحرامه؛ وطاعته ومعصيته، اختاره أبو إسحاق، وهو قول مقاتل، وجماعة، وهذا المعنى حق. ولكن مراد الآية شيء آخر.

وقيل: المعنى إن علينا للهدى والإضلال. قال ابن عباس رضي الله عنهما، في رواية عطاء: يريد، أرشد أوليائي إلى العمل بطاعتي، وأحول بين أعدائي وبين أن يعملوا بطاعتي. قال الفراء: فترك ذكر الإضلال، كما قال: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] أي: والبرد. وهذا أضعف من القول الأول. وإن كان معناه صحيحاً، فليس هو معنى الآية.

وقيل: المعنى: من سلك الهدى فعلى الله سبيله، كقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩]، وهذا قول مجاهد، وهو أصح الأقوال في الآية، قال الواحدي: علينا للهدى، أي: أن الهدى يوصل صاحبه إلى الله، وإلى ثوابه وجنته.

وهذا المعنى في القرآن في ثلاثة مواضع: هٰهنا، وفي النحل في قوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾، وفي الحجر في قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]، وهو معنى شريف جليل، يدل على أن سالك طريق الهدى يوصله طريقه إلى الله ولا بد، والهدى هو الصراط المستقيم فمن سلكه أوصله إلى الله.

فذكر الطريق والغاية، فالطريق الهدى، والغاية الوصول إلى الله. فهذه أشرف الوسائل، وغايتها أعلى الغايات.

ولما كان مطلوب السالك إلى الله تحصيل مصالح دنياه وآخرته، لم يتم له هذا المطلوب إلا بتوحيد طلبه والمطلوب منه، فأعلمه سبحانه أن سواه لا يملك من الدنيا والآخرة شيئاً، وأن الدنيا والآخرة جميعاً له وحده، فإذا تيقن العبد ذلك اجتمع مطلبه ومطلوبه على من يملك الدنيا والآخرة وحده.

فتضمنت الآيتان أربعة أمور، هي المطالب العالية: ذكر أعلى الغايات وهو الوصول إلى الله سبحانه، وأقرب الطرق والوسائل إليه، وهي طريقة الهدى. وتوحيد الطريق فلا يعدل عنها إلى غيرها. وتوحيد المطلوب، وهو الحق، فلا يعدل عنه إلى غيره، فاقتبس هذه الأمور من مشكاة هذه الكلمات، فإن هذه غاية العلم والفهم، وبالله التوفيق.

والهدى التام يتضمن توحيد المطلوب، وتوحيد الطلب، وتوحيد الطريق الموصلة. والانقطاع، وتخلف الوصول يقع من الشركة في هذه الأمور، أو في بعضها؛ فالشركة في المطلوب تنافي التوحيد والإخلاص، والشركة في الطلب تنافي الصدق والعزيمة، والشركة في الطريق تنافي اتباع الأمر. فالأول يوقع في الشرك والرياء، والثاني يوقع في المعصية والبطالة. والثالث يوقع في البدعة ومفارقة السنة، فتأمله.

فتوحيد المطلب يعصم من الشرك وتوحيد الطلب يعصم من المعصية وتوحيد الطريق يعصم من البدعة. والشيطان إنما ينصب فخه بهذه الطرق الثلاثة.

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الليل: ١٤ ـ ٢٠].

ولما أقام سبحانه الدليل، وأنار السبيل، وأوضح الحجة، وبين المحجة، أنذر عباده عذابه الذي أعده لمن كذب خبره، وتولى عن طاعته. وجعل هذا الصنف من الناس هم أشقاهم، كما جعل أسعدهم أهل التقوى والإحسان والإخلاص. فهذا الصنف هو الذي يُجنَّب عذابه. كما قال: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾.

فهذا المتقي المحسن لا يفعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه، فهو مخلص في تقواه وإحسانه.

وفي الآية الإرشاد إلى أن صاحب التقوى لا ينبغي له أن يتحمل من الخلق ونعمهم، وإن حمل منهم شيئاً بادر إلى جزائهم عليه، لئلا يتبقى لأحد من الخلق عليه نعمة تجزى، فيكون بعد ذلك عمله كله لله وحده، ليس للمخلوق جزاء على نعمته.

ونبه بقوله: ﴿تُجْزَىٰٓ﴾ على أن نعمة الإسلام التي لرسول الله ﷺ على هذا الأتقى لا تجزى، فإن كل ذي نعمة يمكن جزاء نعمته إلا نعمة الإسلام، فإنها لا يمكن المنعم بها عليه أن يجزي بها، وهذا يدل على أن الصديق رضي الله عنه أول وأولى من ذكر في هذه الآية. وأنه أحق الأمة بها، فإن علياً رضي الله عنه تربى في بيت النبي ﷺ، فلرسول الله ﷺ عنده نعمة غير نعمة الإسلام، يمكن أن تجزى.

ونبه سبحانه بقوله: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ على أن من ليس لمخلوق عليه نعمة تجزى، لا يفعل ما يفعله إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى، بخلاف من تطوق نعم المخلوقين ومننهم، فإنه مضطر إلى أن يفعل لأجلهم، ويترك لأجلهم، ولهذا كان من كمال الإخلاص أن لا يجعل العبد عليه منة لأحد من الناس، لتكون معاملته كلها لله ابتغاء وجهه، وطلب مرضاته، فكما أن هذه الغاية أعلى الغايات وهذا المطلوب أشرف المطالب، فهذا الطريق أقصر الطرق إليه، وأقربها وأقومها، وبالله التوفيق[١].

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٥٥ ـ ٧٢).

سُوْرَةُ الضّحى

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣
وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا
فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ
۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١ ـ ١١].

إقسامه ﷻ على إنعامه على رسوله ﷺ وإكرامه وإعطائه ما يرضيه، وذلك متضمن لتصديقه له.

فهو قسم على صحة نبوته، وعلى جزائه في الآخرة، فهو قسم على النبوة والمعاد.

وأقسم بآيتين عظيمتين من آياته دالتين على ربوبيته وحكمته ورحمته، وهما الليل والنهار، فتأمل مطابقة هذا القسم وهو نور الضحى الذي يوافي بعد ظلام الليل للمقسم عليه وهو نور الوحي الذي وافاه بعد احتباسه عنه حتى قال أعداؤه: ودع محمداً ربه. فأقسم بضوء النهار بعد ظلمة الليل على ضوء الوحي ونوره بعد ظلمة احتباسه واحتجابه، وأيضاً فإن فالق ظلمة الليل عن ضوء النهار هو الذي فلق ظلمة الجهل والشرك بنور الوحي والنبوة، فهذان للحس وهذان للعقل.

وأيضاً فإن الذي اقتضت رحمته أن لا يترك عباده في ظلمة الليل سرمداً، بل هداهم بضوء النهار إلى مصالحهم ومعايشهم لا يليق به أن يتركهم في ظلمة الجهل والغي بل يهديهم بنور الوحي والنبوة إلى مصالح دنياهم وآخرتهم.

فتأمل حسن ارتباط المقسم به بالمقسم عليه. وتأمل هذه الجزالة والرونق الذي على هذه الألفاظ والجلالة التي على معانيها.

ونفى سبحانه أن يكون ودع نبيه أو قلاه، فالتوديع: الترك، والقلى: البغض. فما تركه منذ اعتنى به وأكرمه، ولا أبغضه منذ أحبه، وأطلق سبحانه أن الآخرة خير

له مما قبلها، ثم وعده بما تقرُّ به عينه وتفرح به نفسه وينشرح به صدره، وهو أن يعطيه فيرضى، وهذا يعم ما يعطيه من القرآن والهدى والنصر وكثرة الأتباع، ورفع ذكره وإعلاء كلمته، وما يعطيه بعد مماته وما يعطيه في موقف القيامة وما يعطيه في الجنة.

وأما ما يغتر به الجهال من أنه لا يرضى وواحد من أمته في النار، أولا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار، فهذا من غرور الشيطان لهم ولعبه بهم، فإنه صلوات الله وسلامه عليه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى، وهو سبحانه يدخل النار من يستحقها من الكفار والعصاة، ثم يحدّ لرسوله حداً يشفع فيهم، ورسوله أعرف به وبحقه من أن يقول: لا أرضى أن يدخل أحداً منكم النار على أن يدعه فيها، بل ربه تبارك وتعالى يأذن له فيشفع فيمن شاء الله أن يشفع فيه ولا يشفع في غير من أذن له فيه ورضيه.

ثم ذكر سبحانه نعمه عليه من إيوائه بعد يتمه وهدايته بعد الضلالة وإغنائه بعد الفقر، فكان محتاجاً إلى من يؤويه ويهديه ويغنيه فآواه ربه وهداه وأغناه، فأمره سبحانه أن يقابل هذه النعم الثلاث بما يليق بها من الشكر؛ فنهاه أن يقهر اليتيم وأن ينهر السائل وأن يكتم النعمة، بل يحدث بها، فأوصاه سبحانه باليتامى والفقراء والمتعلمين. قال مجاهد ومقاتل: لا تحقر اليتيم فقد كنت يتيماً. وقال الفراء: لا تقهره على ماله فتذهب بحقه لضعفه. وكذلك كانت العرب تفعل في أمر اليتامى تأخذ أموالهم وتظلمهم، فغلظ الخطاب في أمر اليتيم، وكذلك من لا ناصر له يغلظ في أمره، وهو نهي لجميع المكلفين.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨].

وأجمع المفسرون أن العائل هو الفقير، يقال: عال الرجل يعيل، إذا افتقر. وأعال يعيل، إذا صار ذا عيال. مثل: لبِن وأثمر وأثرى، إذا صار ذا لبن وثمر وثروة. وعال يعول، إذا جار[(١)].

وفي الآية ثلاثة أقوال:

أحدها: إنه أغناه بعد فقره. وهذا قول أكثر المفسرين، لأنه قابله بقوله: ﴿عَآئِلًا﴾ والعائل هو المحتاج، ليس ذا العيلة.

---

(١) عدة الصابرين (١٥٤، ١٥٥).

والثاني: إنه أرضاه بما أعطاه وأغناه به عن سواه، فهو غنى قلب ونفس لا غنى مال، وهو حقيقة الغنى.

والثالث: وهو الصحيح: إنه يعم النوعين: نوعي الغنى فأغنى قلبه به وأغناه من المال[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ١٠].

قال أكثر المفسرين: هو سائل المعروف والصدقة لا تنهره إذا سألك، فقد كنت فقيراً، فإما أن تطعمه وإما أن ترد رداً ليناً. قال الحسن: أما إنه ليس بالسائل الذي يأتيك ولكن طالب العلم. وهذا قول يحيى بن آدم قال: إذا جاءك طالب العلم فلا تنهره، والتحقيق أن الآية تتناول النوعين. وقوله:

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

قال مجاهد: بالقرآن. وقال الكلبي: بمعنى: أظهرها والقرآن أعظم ما أنعم الله به عليه فأمره أن يقرئه ويعلمه. وروى أبو بشر عن مجاهد: حدث بالنبوة التي أعطاك الله.

وقال الزجاج: بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك وهي أجل النعم. وقال مقاتل: اشكر هذه النعمة التي ذكرت في هذه السورة.

والتحقيق: أن النعم تعم هذا كله، فأمر أن لا ينهر سائل المعروف والعلم، وأن يحدث بنعم الله عليه في الدين والدنيا[٢].

□ □ □

وفي هذا التحديث المأمور به قولان:

أحدهما: إنه ذكر النعمة والإخبار بها وقوله: أنعم الله علي بكذا وكذا. قال مقاتل: يعني: اشكر ما ذكر من النعم عليك في هذه السورة: من جبر اليتيم والهدى بعد الضلال والإغناء بعد العيلة والتحدث بنعمة الله شكر. كما في حديث جابر مرفوعاً: «من صنع إليه معروف فليجز به، فإن لم يجد ما يجزي به فليثن، فإنه إذا

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٩).
(٢) التبيان في أقسام القرآن (٧٢ ـ ٧٥).

أثنى عليه فقد شكره وإن كتمه فقد كفره، ومن تحلى بما لم يعط كان كلابس ثوبي زور»[(١)].

فذكر أقسام الخلق الثلاثة: شاكر النعمة المثني بها، والجاحد لها، والكاتم لها، والمظهر أنه من أهلها وليس من أهلها، فهو متحلٍّ بما لم يعطه.

وفي أثر آخر مرفوع: «من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركه كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب»[(٢)].

والقول الثاني: إن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية: هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة. قال مجاهد: هي النبوة. قال الزجاج: أي: بلغ ما أرسلت به وحدث بالنبوة التي آتاك الله. وقال الكلبي: هو القرآن أمره أن يقرأه. والصواب: أنه يعم النوعين، إذ كل منهما نعمة مأمورٌ بشكرها، والتحدث بها وإظهارُها مِنْ شكرها[(٣)].



(١) رواه البخاري في «الأدب المفرد» (١/ ٣٠٦) رقم (٢١٥)، ورواه الترمذي (٤/ ٣٣٢) في البر والصلة، ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، وقال: «هذا حديث حسن غريب»، وأبو داود (الصحيح) (٣/ ٩١٤) في الأدب، باب: في شكر المعروف، وقال الألباني: «حسن».

(٢) رواه الإمام أحمد (٤/ ٢٧٨ و٣٧٥)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٥٦): «رواه عبد الله بن أحمد في زوائده بإسناد لا بأس به»، قلت: رواه الإمام أحمد كما مر، في موضعين عن النعمان بن بشير رضي الله عنه، أما ابنه عبد الله فرواه أيضاً في زوائده عنه، وحسنه الألباني، كما في صحيح الترغيب (١/ ٤٠٥) رقم (٩٦٦)، والكفر هنا معناه: «كفر النعمة».

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٨، ٢٤٩).

سُوْرَةُ الشَّرْحِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١ ـ ٤].

فقال: شرح الله صدر رسوله أتم الشرح ووضع عنه وزره كل الوضع، ورفع ذكره كل الرفع، وجعل لأتباعه حظاً من ذلك، إذ كل متبوع فلأتباعه حظ ونصيب من حظ متبوعهم في الخير والشر، على حسب اتباعهم له. فأتبع الناس لرسوله ﷺ أشرحهم صدراً وأوضعهم وزراً وأرفعهم ذكراً، وكلما قويت متابعته علماً وعملاً وحالاً وجهاداً، قويت هذه الثلاثة حتى يصير صاحبها أشرح الناس صدراً، وأرفعهم في العالمين ذكراً.

وأما وضع وزره: فكيف لا يوضع عنه ومن في السماوات والأرض ودواب البر والبحر يستغفرون له؟

وهذه الأمور الثلاثة متلازمة كما أن أضدادها متلازمة، فالأوزار والخطايا تقبض الصدر وتضيقه وتخمل الذكر وتضعه، وكذلك ضيق الصدر يضع الذكر ويجلب الوزر، فما وقع أحد في الذنوب والأوزار إلا من ضيق صدره وعدم انشراحه، وكلما ازداد الصدر ضيقاً كان أدعى إلى الذنوب والأوزار؛ لأن مرتكبها إنما يقصد بها شرح صدره ودفع ما هو فيه من الضيق والحرج، وإلا فلو اتسع بالتوحيد والإيمان ومحبة الله ومعرفته وانشرح بذلك لاستغنى عن شرحه بالأوزار.

ولهذا أكثر من يواقع المحظور إنما يدفع به عن نفسه ما فيها من الهم والغم والضيق، وكثيراً ما تبرد شهوته وإرادته، ومع هذا يحرص على المعاودة تداوياً منه بزعمه، كما أفصح عن هذا شيخ الفسوق أبو نواس بقوله:

وكأساً شربت على لذة ... وآخر تداويت منها بها

فإذا حمل العبد الأوزار أوجب له ذلك ضيق الصدر وخمول الذكر، ثم خمول

الذكر يوجب له ضيق الصدر، فلا يزال المعرض عن طاعة الله ورسوله متردداً بين هذه المنازل الثلاث، كما لا يزال المطيع لله ورسوله الذي باشر قلبه روح التوحيد وتجريده ومحبة الله ورسوله، وامتثال أمره، دائراً بين تلك المنازل الثلاث.

وإذا ثقل الظهر بالأوزار منع القلب من السير إلى الله والجوارح من النهوض في طاعته، وكيف يقطع مسافة السفر مثقل بالحمل على ظهره، وكيف ينهض إلى الله قلب قد أثقلته الأوزار، فلو وضعت عنه أوزاره لنهض وطار شوقاً إلى ربه ولانقلب عسره يسراً، فإن ضيق الصدور وحمل الوزر وخمول الذكر من أعظم العسر[١].



قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا ذُكِرتُ ذُكِرْتَ معي فيقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، في كلمة الإسلام وفي الأذان وفي الخطب وفي التشهدات، وغير ذلك[٢].

وفي هذا الدليل نظر. لأن ذكره ﷺ مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة إذا شهد لمرسله بالوحدانية. وهذا هو الواجب في الخطبة قطعاً، بل هو ركنها الأعظم. وقد روى أبو داود وأحمد وغيرهما من حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء»[٣]، واليد الجذماء المقطوعة.

فمن أوجب الصلاة على النبي ﷺ في الخطبة دون التشهد فقوله في غاية الضعف، وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فقال: «رفع الله ذكره في الدنيا والآخرة، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ابتدأها: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

وقال عبد بن حميد: أخبرني عمرو بن عون، عن هشيم عن جويبر، عن الضحاك: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: إذا ذكرتُ ذكرتَ معي. ولا يجوز خطبة ولا نكاح إلا بذكرك. وقال عبد الرزاق عن ابن عيينة، عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ قال: لا أذكر إلا ذكرتَ معي: الأذان أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فهذا هو المراد من الآية، وكيف لا يجب التشهد الذي هو عقد

(١) الكلام في مسألة السماع (٤٠١ ـ ٤٠٣).
(٢) جلاء الأفهام (١٨٣).
(٣) حديث صحيح، رواه أبو داود (الصحيح) (٣/٩١٨) في الأدب، باب: في الخطبة، والترمذي (الصحيح) (١/٣٢١) في النكاح، باب: خطبة النكاح.

الإسلام في الخطبة وهو أفضل كلماتها وتجب الصلاة على النبي ﷺ فيها[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦].

فالعسر وإن تكرر مرتين، فتكرر بلفظة المعرفة فهو واحد، واليسر تكرر بلفظ النكرة فهو يسران، فالعسر محفوف بيسرين: يسر قبله ويسر بعده، فلن يغلب عسر يسرين[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨].

فالنصب: التفرغ للعبادة والطاعة والرغبة إلى الله وحده وتجريد توحيده، فمتى قام بهذين الأصلين حصل له من شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر بحسب ما قام به وبدل عسره يسراً[(٣)].

❁ ❁ ❁

---

(١) جلاء الأفهام (٢٢٢، ٢٢٣).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ١٥٥).

(٣) جلاء الأفهام (١٨٣).

سُوْرَةُ التِّينِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [البلد: ١ ـ ٣].

فأقسم سبحانه بهذه الأمكنة الثلاثة العظيمة التي هي مظاهر أنبيائه ورسله أصحاب الشرائع العظام والأمم الكثيرة.

فالتين والزيتون المراد به نفس الشجرتين المعروفتين ومنبتهما وهو أرض بيته المقدس، فإنها أكثر البقاع زيتوناً وتيناً.

وقد قال جماعة من المفسرين: إنه سبحانه أقسم بهذين النوعين من الثمار لمكان العزة فيهما؛ فإن التين فاكهة مخلصة من شوائب التنغيص لا عجم له وهو على مقدار اللقمة، وهو فاكهة وقوت وغذاء وأدم، ويدخل في الأدوية، ومزاجه من أعدل الأمزجة وطبعه طبع الحياة، الحرارة والرطوبة، وشكله من أحسن الأشكال، ويدخل أكله والنظر إليه في باب المفرحات، وله لذة يمتاز بها عن سائر الفواكه، ويزيد في القوة ويوافق الباءة، وينفع من البواسير والنقرس، ويؤكل رطباً ويابساً.

وأما الزيتون: ففيه من الآيات ما هو ظاهر لمن اعتبر، فإن عوده يخرج ثمراً، يعصر هذا الدهن الذي هو مادة النور، وصبغ للآكلين وطيب ودواء، وفيه من مصالح الخلق ما لا يخفى، وشجره باقٍ على مر السنين المتطاولة، وورقه لا يسقط.

وهذا الذي قالوه حق، ولا ينافي أن يكون منبته مراداً، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما. وهو مظهر عبد الله ورسوله وكلمته وروحه عيسى ابن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه، وأرسله إلى فرعون وقومه.

ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسوله، سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله، وأكرم الخلق عليه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٤، ٥].

أي: في أحسن صورة وشكل واعتدال؛ معتدل القامة، مستوي الخلقة، كامل الصورة، أحسن من كل حيوان سواه. والتقويم تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في التأليف والتعديل، وذلك صنعته تبارك وتعالى، في قبضة من تراب وخلقه بالمشاهدة من نطفة من ماء، وذلك من أعظم الآيات الدالة على وجوده وقدرته، وحكمته، وعلمه، وصفات كماله، ولهذا يكررها كثيراً في القرآن لمكان العبرة بها، والاستدلال بأقرب الطرق على وحدانيته، وعلى المبدأ والمعاد.

وتضمن إقسامه بتلك الأمكنة الثلاثة الدالة عليه وعلى علمه وحكمته عنايته بخلقه، بأن أرسل منها رسلاً أنزل عليهم كتبه، يعرّفون العباد بربهم، وحقوقه عليهم، وينذرونهم بالله ونقمته، ويدعونهم إلى كرامته وثوابه.

ثم لما كان الناس في إجابة هذه الدعوة فريقين، منهم من أجاب ومنهم من أبى، ذكر حال الفريقين، فذكر حال الأكثرين، وهم المردودون إلى أسفل سافلين، والصحيح أنه النار. قاله مجاهد، والحسن، وأبو العالية. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي النار بعضها أسفل من بعض.

وقالت طائفة منهم قتادة، وعكرمة، وعطاء، والكلبي، وإبراهيم: إنه أرذل العمر. وهو مروي عن ابن عباس.

والصواب القول الأول لوجوه:

أحدها: أن أرذل العمر لا يسمى أسفل سافلين، لا في لغة ولا عرف، وإنما أسفل سافلين هو سجين الذي هو مكان الفجار، كما أن عليين مكان الأبرار.

الثاني: أن المردودين إلى أسفل العمر بالنسبة إلى نوع الإنسان قليل جداً، فأكثرهم يموت ولا يرد إلى أرذل العمر.

الثالث: أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يستوون هم وغيرهم في رد من طال عمره منهم إلى أرذل العمر، فليس ذلك مختصاً بالكفار، حتى يستثني منهم المؤمنين.

الرابع: أن الله سبحانه لما أراد ذلك لم يخصه بالكفار بل جعله لجنس بني آدم، فقال: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ﴾ [الحج: ٥]، فجعلهم قسمين: قسماً متوفى قبل الكبر، وقسماً مردوداً إلى أرذل العمر، ولم يسمه أسفل سافلين.

الخامس: أنه لا تحسن المقابلة بين أرذل العمر وبين جزاء المؤمنين، وهو سبحانه قابل بين جزاء هؤلاء وجزاء أهل الإيمان، فجعل جزاء الكفار أسفل سافلين، وجزاء المؤمنين أجراً غير ممنون.

السادس: أن قول من فسره بأرذل العمر يستلزم خلو الآية عن جزاء الكفار وعاقبة أمرهم، ويستلزم تفسيرها بأمر محسوس فيكون قد ترك الإخبار عن المقصود الأهم، وأخبر عن أمر يعرف بالحس والمشاهدة، وفي ذلك هضم لمعنى الآية، وتقصير بها عن المعنى اللائق بها.

السابع: أنه سبحانه ذكر حال الإنسان في مبدئه ومعاده، فمبدؤه خلقه في أحسن تقويم، ومعاده رده إلى أسفل سافلين أو إلى أجر غير ممنون، وهذا موافق لطريقة القرآن وعادته في ذكر مبدأ العبد ومعاده، فما لأرذل العمر، وهذا المعنى المطلوب المقصود إثباته والاستدلال عليه؟

الثامن: أن أرباب القول الأول مضطرون إلى مخالفة الحس، وإخراج الكلام عن ظاهره والتكلف البعيد له، فإنهم إن قالوا: إن الذي يرد إلى أرذل العمر هم الكفار دون المؤمنين. كابروا الحسّ. وإن قالوا: إن من النوعين من يرد إلى أرذل العمر، احتاجوا إلى التكلف لصحة الاستثناء. فمنهم من قدر ذلك بأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تبطل أعمالهم، إذا ردوا إلى أرذل العمر، بل تجري عليهم أعمالهم التي كانوا يعملونها في الصحة. فهذا ـ وإن كان حقاً ـ فإن الاستثناء إنما وقع من الرد لا من الأجر والعمل. ولما علم أرباب هذا القول ما فيه من التكلف خص بعضهم الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقراءة القرآن خاصة، فقالوا: من قرأ القرآن لا يرد إلى أرذل العمر. وهذا ضعيف من وجهين:

أحدهما: أن الاستثناء عام في المؤمنين، قارئهم وأميهم. وأنه لا دليل على ما ادعوه، وهذا لا يعلم بالحس، ولا خبر يجب التسليم له يقتضيه، والله أعلم.

التاسع: أنه سبحانه ذكر نعمته على الإنسان بخلقه في أحسن تقويم، وهذه النعمة توجب عليه أن يشكرها بالإيمان وعبادته وحده لا شريك له، فينقله حينئذ من هذه الدار إلى أعلى عليين. فإذا لم يؤمن به، وأشرك به، وعصى رسله، نقله منها إلى أسفل سافلين، وبدله بعد هذه الصورة التي هي في أحسن تقويم صورةً من أقبح الصور في أسفل سافلين، فتلك نعمته عليه؛ وهذا عدله فيه وعقوبته على كفران نعمته.

العاشر: أن نظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ [الانشقاق: ٢٤، ٢٥]، فالعذاب الأليم هو أسفل سافلين، والمستثنون هنا هم المستثنون هناك، والأجر غير الممنون هناك هو المذكور هنا، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۢ﴾ [التين: ٦].

أي: غير مقطوع ولا منقوص، ولا مكدر عليهم. وهذا هو الصواب.

وقالت طائفة: غير ممنون به عليهم بل هو جزاء أعمالهم. ويذكر هذا عن عكرمة ومقاتل، وهو قول كثير من القدرية. قال هؤلاء: إن المنة تكدر النعمة. فتمام النعمة أن يكون غير ممنون بها على المنعم عليه.

وهذا القول خطأ قطعاً، أتي أربابه من تشبيه نعمة الله على عبده بإنعام المخلوق على المخلوق، وهذا من أبطل الباطل؛ فإن المنة التي تكدر النعمة هي منة المخلوق على المخلوق. وأما منة الخالق على المخلوق فبها تمام النعمة ولذتها وطيبها، فإنها منة حقيقة، قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝١١٤ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الصافات: ١١٤، ١١٥]، فتكون منة عليهما بنعمة الدنيا دون نعمة الآخرة، وقال لموسى: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ﴾ [طه: ٣٧]، وقال أهل الجنة: ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ [الطور: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] الآية. وقال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥] الآية. وفي الصحيح أن النبي ﷺ قال للأنصار: «ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ ألم أجدكم عالة فأغناكم الله بي؟» فجعلوا يقولون له: الله ورسوله أَمَنُّ. فهذا جواب العارفين بالله ورسوله.

وهل المنة كل المنة إلا لله المان بفضله الذي جميع الخلق في مننه؟ وإنما قبحت منة المخلوق لأنها منة بما ليس منه، وهي منة يتأذى بها الممنون عليه. وأما منة المنان بفضله التي ما طاب العيش إلا بمنته، وكل نعمة منه في الدنيا والآخرة فهي منة يمن بها على من أنعم عليه، فتلك لا يجوز نفيها. وكيف يجوز أن يقال: إنه لا منة لله على الذين آمنوا وعملوا الصالحات في دخول الجنة؟ وهل هذا إلا من أبطل الباطل؟

فإن قيل: هذا القدر لا يخفى على من قال هذا القول من العلماء، وليس مرادهم ما ذكر، وإنما مرادهم أنه لا يمن عليهم به، وإن كانت لله فيه المنة عليهم، فإنه لا يمن عليهم به، بل يقال: هذا جزاء أعمالكم التي عملتموها في الدنيا، وهذا أجركم، فأنتم تستوفون أجور أعمالكم لا نمن عليكم ما أعطيناكم.

قيل: وهذا أيضاً هو الباطل بعينه، فإن ذلك الأجر ليست الأعمال ثمناً له، ولا معاوضة عنه. وقد قال أعلم الخلق بالله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[(١)]. فأخبر أن دخول الجنة برحمة الله وفضله، وذلك محض منته عليه وعلى سائر عباده، وكما أنه سبحانه المان بإرسال رسله، وبالتوفيق لطاعته وبالإعانة عليها، فهو المان بإعطاء الجزاء وذلك كله محض منته وفضله وجَوْده، لا حق لأحد عليه، بحيث إذا وفاه إياه لم يكن له عليه منة. فإن كان في الدنيا باطل فهذا ليس منه في شيء.

فإن قيل: كيف تقولون هذا، وقد أخبر رسوله عنه: أن حق العباد عليه إذا وحدوه أن لا يعذبهم»[(٢)]، وقد أخبر عن نفسه أن حقاً عليه نصر المؤمنين[(٣)]؟

قيل: لعمر الله من أعظم منته على عباده، أن جعل على نفسه حقاً بحكم وعده الصادق: أن يثيبهم ولا يعذبهم إذا عبدوه ووحدوه، فهذا من تمام منته، فإنه لو عذب أهل سماواته وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكن منته اقتضت أن أحق على نفسه ثواب عابديه وإجابة سائليه:

ما للعباد عليه حق واجب   كلا، ولا سعي لديه ضائع

إن عذبوا فبعدله، أو نعموا   فبفضله، فهو الكريم الواسع

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ [التين: ٧].

أصح القولين أن هذا خطاب للإنسان، أي: فما يكذبك بالجزاء والمعاد بعد هذا البيان، وهذا البرهان؟ فتقول: إنك لا تبعث ولا تحاسب، ولو تفكرت في مبدأ خلقك، وصورتك، لعلمت أن الذي خلقك أقدر على أن يعيدك بعد موتك،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) رواه البخاري (٥٩٦٧)، ومسلم (٣٠).

(٣) قال الله تعالى ذكره في سورة «الروم» الآية (٤٧): ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وينشئك خلقاً جديداً، وأن ذلك لو أعجزه لأعجزه وأعياه خلقك الأول. وأيضاً فإن الذي كمل خلقك في أحسن تقويم بعد أن كنت نطفةً من ماء مهين، كيف يليق به أن يتركك سدى، لا يكمل ذلك بالأمر والنهي، وبيان ما ينفعك ويضرك، ولا تنقل لدار هي أكمل من هذه، ويجعل هذه الدار طريقاً لك إليها؟ فحكمة أحكم الحاكمين تأبى ذلك وتقضي خلافه.

قال منصور: قلت لمجاهد: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ عنى به محمداً؟ فقال: معاذ الله، إنما عنى به الإنسان.

وقال قتادة: الضمير للنبي ﷺ. واختاره الفراء. وهذا موضع يحتاج إلى شرح وبيان.

يقال: كذب الرجل، إذا قال الكذب. وكذبته أنا، إذا نسبته إلى الكذب ولو اعتقدت صدقه. وكذبته، إذا اعتقدت كذبه وإن كان صادقاً. قال تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٨٤]، وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. فالأول بمعنى: وإن ينسبوك إلى الكذب، والثاني بمعنى لا يعتقدون أنك كاذب، ولكنهم يعاندون ويدفعون الحق بعد معرفته جحوداً وعناداً، هذا أصل هذه اللفظة. ويتعدى الفعل إلى الخبر بنفسه، وإلى خبره بالباء، وبفي، فيقال: كذبته بكذا، وكذبته فيه، والأول أكثر استعمالاً. ومنه قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ [ق: ٥]، وقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [البقرة: ٣٩].

إذا عرف هذا، فقوله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ اختلف في (ما) هل هي بمعنى: أي شيء يكذبك، أو بمعنى من الذي يكذبك؟ فمن جعلها بمعنى: أي شيء، تعين على قوله أن يكون الخطاب للإنسان: أي: فأي شيء يجعلك بعد هذا البيان مكذباً بالدين، وقد وضحت لك دلائل الصدق والتصديق؟ ومن جعلها بمعنى فمن الذي يكذبك، جعل الخطاب للنبي ﷺ. قال الفراء: كأنه يقول: من يقدر على تكذيبك بالثواب والعقاب، بعدما تبين له من خلق الإنسان ما وصفناه؟ وقال قتادة: فمن يكذبك أيها الرسول بعد هذا بالدين؟



وعلى قول قتادة والفراء إشكال من وجهين: أحدهما: إقامة (ما) مقام «من» وأمره سهل. والثاني: أن الجار والمجرور يستدعي متعلقاً، وهو يكذبك، أي: فمن يكذبك بالدين؟ فلا يخلو إما أن يكون المعنى فمن يجعلك كاذباً بالدين، أو

مكذباً به، ولا يصح واحد منهما. أما الثاني والثالث فظاهر، فإن كذبته ليس معناه: جعلته مكذباً أو مكذباً، وإنما معناه: نسبته إلى الكذب. فالمعنى على هذا: فمن يجعلك بعد كاذباً بالدين. وهذا إنما يتعدى إليه بالباء الفعل المضاعف لا الثلاثي، فلا يقال: كذب كذا، وإنما يقال: كذب به.

وجواب هذا الإشكال أن قوله: كذب بكذا معناه كذب المخبر به، ثم حذف المفعول به لظهور العلم به، حتى كأنه نسي، وعدوا الفعل إلى المخبر به، فإذا قيل: من يكذبك بكذا؟ فهو بمعنى كذبوك بكذا سواء، أي: نسبوك إلى الكذب في الإخبار به. بل الإشكال في قول مجاهد والجمهور، فإن الخطاب إذا كان للإنسان، وهو المكذب، أي: فاعل التكذيب، فكيف يقال له: ما يكذبك؟ أي: يجعلك مكذباً، والمعروف كذبه إذا جعله كاذباً لا مكذباً، ومثل فسقه إذا جعله فاسقاً، لا مفسقاً لغيره.

وجواب هذا الإشكال: أن صدّق وكذّب ـ بالتشديد ـ يراد به معنيان: **أحدهما**: النسبة. وهي إنما تكون للمفعول كما ذكرتم. **والثاني**: الداعي والحامل على ذلك، وهو يكون للفاعل. قال الكسائي: يقال: ما صدقك بكذا، أو ما كذبك بكذا، أي: ما حملك على التصديق والتكذيب.

قلت: وهو نظير ما أجرأك على هذا، أي: ما حملك على الاجتراء عليه، وما قدمك وما أخَّرك، أي: ما دعاك وحملك على التقديم والتأخير. وهذا استعمال سائغ موافق للعربية، وبالله التوفيق.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وهذا تقرير لمضمون السورة؛ من إثبات النبوة، والتوحيد، والمعاد، وحكمه بتضمن نصره لرسوله على من كذبه، وجحد ما جاء به، بالحجة والقدرة والظهور عليه، وحكمه بين عباده في الدنيا بشرعه وأمره، وحكمه بينهم في الآخرة بثوابه وعقابه.

وأن أحكم الحاكمين لا يليق به تعطيل هذه الأحكام بعد ما ظهرت حكمته في خلق الإنسان في أحسن تقويم، ونقله في أطوار التخليق، حالاً بعد حال، إلى أكمل الأحوال، فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟ وهل ذلك إلا قدح في حكمه وحكمته؟ فللّه ما أخصر لفظ هذه السورة، وأعظم شأنها، وأتم معناها، والله أعلم(١).

---

(١) التبيان في أقسام القرآن (٤٣ ـ ٥٤).

سُوْرَةُ العَلَقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم(١)، فذكر فيها ما منّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

فافتتح السورة بالأمر بالقراءة الناشئة عن العلم، وذكر خلقه خصوصاً وعموماً فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾، وخص الإنسان من بين المخلوقات لما أودعه من عجائبه وآياته الدالة على ربوبيته وقدرته وعلمه وحكمته وكمال رحمته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه.

وذكر هنا مبدأ خلقه من علق؛ لكون العلقة مبدأ الأطوار التي انتقلت إليها النطفة، فهي مبدأ تعلق التخليق، ثم أعاد الأمر بالقراءة مخبراً عن نفسه بأنه الأكرم

---

(١) لم أقف على من سمى «سورة العلق» بسورة «القلم»، كما ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى، وإنما سميت غير «العلق» بـ«القلم»، وهي سورة «ن» أيضاً، أما سورة «العلق» فتسمى أيضاً «اقرأ»، انظر: تفسير الطبري (٣٠/ ٢٥٠)، والآلوسي (٣٠/ ١٧٧)، وفتح القدير للشوكاني (٥/ ٤٦٧)، ولم يذكرها السيوطي في «الإتقان» ضمن السور ذوات الأسماء العدة (١/ ٥٥)، وفي تفسير الجلالين «سورة اقرأ» (٢/ ٤١٠)، والحاكم (٢/ ٥٢٩) فتسمية ابن القيم لها بهذا الاسم يحتاج لأثر خاصة لمذهب القائلين: إن تسمية السور توقيفي، أما كونها أول سورة نزلت في الأرجح عند جمهور الأئمة، انظر: المصادر السابقة، وأيضاً فتح الباري (١/ ٣٠) في «بدء الوحي» باب: كيف كان بدء الوحي. . . . وكذا صحيح مسلم بشرح النووي (١/ ٣٧٧) في الإيمان، باب: بدء الوحي، من حديث عائشة ﵂، وفيه: «ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ . . .﴾»، والله أعلم.

وهو الأفعل من الكرم وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه والخير كله منه، والنعم كلها هو مواليها، والكمال كله والمجد كله له، فهو الأكرم حقاً.

ثم ذكر تعليمه عموماً وخصوصاً، فقال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ هذا يدخل فيه تعليم الملائكة والناس، ثم ذكر تعليم الإنسان خصوصاً، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾..

والمقصود: أنه سبحانه تعرف إلى عباده بما علمهم إياه بحكمته: من الخط واللفظ والمعنى، فكان العلم أحد الأدلة الدالة عليه، بل من أعظمها وأظهرها، وكفى بهذا شرفاً وفضلاً له[(١)].



ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانَيْن؛ البيان النطقي والبيان الخطي، وقد اعتد بهما سبحانه في جملة ما اعتد به من نعمه على العبد، فقال في أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فتأمل كيف جمع في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه.

فذكر أولاً: عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانياً: خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه هاهنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها، إما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين. وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعليق التخليق وهو العلقة، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

ثم ذكر ثالثاً: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين. ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦٣).

يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان.

فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم، والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة، فإن الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه، وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم، كما أنه علمه الكلام فتكلم. هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به، ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات، ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه، ومن الذي دعم البنان بالكف ودعم الكف بالساعد.

فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعليم بالقلم، فقف وقفة في حال الكتابة، وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينهما أنواع الحكم وأصناف العلوم، وفنون المراسلات والخطب، والنظم والنثر وجوابات المسائل. فمن الذي أجرى تلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشاً عجيباً، معناه: أعجب من صورته، فتقضي به مآربك وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك، ويتكلم على لسانك ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله سوى من ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاثة: مرتبة الوجود الذهني، والوجود اللفظي، والوجود الرسمي، فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب، ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العيني. فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها على أن مراتب الوجود بأسرها مسند إليه تعالى خلقاً وتعليماً، وذكر خلقين وتعليمين: خلقاً عاماً وخاصاً، وتعليماً خاصاً وتعليماً عاماً.

وذكر من صفاته هاهنا اسم الأكرم الذي فيه كل خير وكل كمال، فله كل كمال

وصفاً ومنه كل خير فعلاً، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك. وهو الغني الحميد[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [**العلق**: ٦، ٧].

ولم يقل: أن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئاً عن رؤية غنى نفسه، ولم يذكر هذه الرؤية في سورة [الليل: ٨ ـ ١٠]، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾.

وهذا ـ والله أعلم ـ لأنه موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه.

وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى، وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته، فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بداً من امتثال أوامره؛ ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله فلأنها أصل الإحسان وبها تنال الحسنى، ومن فسرها بالخلف في الإنفاق، فقد هضم المعنى حقه وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءاً من أجزاء الحسنى.

والمقصود: أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره لكل عسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما منافٍ للفقر والعبودية[2].

* * *

(١) مفتاح دار السعادة (٣٠٠، ٣٠١).

(٢) طريق الهجرتين (١٣).

سورة القدر

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾ [القدر: ١].

[انظر في تفسيرها: الآيات (١ ـ ٥) من سورة الدخان (٢/ ٤٤٠)].



سُوْرَةُ البَيِّنَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فنهى سبحانه أن يكون أمر عباده بغير العبادة التي قد أخلص عاملها له فيها النية، ومعلوم أن إخلاص النية للمعبود أصل لنية أصل العبادة، فإذا لم يأمرهم إلا بعمل هو عبادة قد أخلص عاملها النية فيها لربه ﷻ ـ ومعلوم أن النية جزء من العبادة بل هي روح العبادة، كما تبين ـ علم أن العمل الذي لم ينوَ ليس بعبادة ولا مأمور به فلا يكون فاعله متقرباً به إلى الله تعالى، وهذا مما لا يقبل نزاعاً[1].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصح ولا يقبل منه[2].



---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ١٨٩).

(٢) الجواب الكافي (١٧٦).

سُورَةُ الزَّلزَلَةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١، ٢].

لما كانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قد أخلصت من أولها وآخرها لهذا الشطر ـ أي: الآخرة، فلم يذكر فيها إلا الآخرة وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها، كانت تَعِدلُ نصف القرآن[(١)][(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

سئل رسول الله ﷺ عن «الحُمر» فقال: «ما أنزل عليَّ فيها شيء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾»[(٣)][(٤)].

❁ ❁ ❁

---

(١) زاد المعاد (١/ ٣١٨).

(٢) روى الترمذي (٥/ ١٥٣) في التفسير، باب: ما جاء في إذا زلزلت، من رواية ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا زلزلت تعدل نصف القرآن. . . .» الحديث، وقال الترمذي: «حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث يمان بن المغيرة»، وضعفه الحافظ، كما في التقريب (٢/ ٣٧٩)، ورواه الحاكم (١/ ٥٦٦) وصححه، وردَّه الذهبي بتضعيف يمان هذا، وانظر: زاد المعاد (١/ ٣١٧) هامش (١).

(٣) رواه البخاري (٢٣٧١)، ومسلم (٩٨٧).

(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٢٨٩).

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ **[العاديات: ١ ـ ٥]**.

وقد اختلف الصحابة ومن بعدهم في ذلك، فقال علي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما: هي إبل الحاج، تعدو من عرفة إلى مزدلفة، ومن مزدلفة إلى منى، وهذا اختيار محمد بن كعب، وأبي صالح، وجماعة من المفسرين.

وقال عبد الله بن عباس: هي خيل الغزاة، وهذا قول أصحاب ابن عباس، والحسن، وجماعة، واختاره الفراء، والزجاج.

قال أصحاب الإبل: السورة مكية، ولم يكن ثم جهاد ولا خيل تجاهد، وإنما أقسم بما يعرفونه ويألفونه، وهي إبل الحاج إذا عدت من عرفة إلى مزدلفة، فهي عاديات، والضبح والضبع مد الناقة ضبعها في السير، يقال: ضبحت وضبعت بمعنى واحد، وأنشد أبو عبيدة، وقد اختار هذا القول:

فكان لكم أجري جميعاً وأضبحت بي البازل الوجناء في الآل تضبح

قالوا: فهي تعدو ضبحاً، فتوري بأخفافها النار من حك الأحجار بعضها ببعض فتثير النقع ـ وهو الغبار ـ بعدوها، فيتوسط جمعاً، وهي المزدلفة.

قال أصحاب الخيل: المعروف في اللغة أن الضبح أصوات أنفاس الخيل إذا عدون، والمعنى: والعاديات ضابحة، فيكون ﴿ضَبْحًا﴾ مصدراً على الأول، وحالاً على الثاني، قالوا: والخيل هي التي تضبح في عدوها ضبحاً، وهو صوت يسمع من أجوافها، ليس بالصهيل ولا الحمحمة، ولكن صوت أنفاسها في أجوافها من شدة العدو.

وقال الجرجاني: كلا القولين قد جاء في التفسير، إلا أن السياق يدل على أنها الخيل، وهو وقوله تعالى: ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾، والإيراء لا يكون إلا للحافر لصلابته. وأما الخف ففيه لين واسترخاء. انتهى.

قالوا: والضبح في الخيل أظهر منه في الإبل، والإيراء لسنابك الخيل أبين منه لأخفاف الإبل. قالوا: والنقع هو الغبار، وإثارة الخيل بعدوها له أظهر من إثارة أخفاف الإبل، والضمير في ﴿بِهِۦ﴾ عائد على المكان الذي تعدو فيه. قالوا: وأعظم ما يثير الغبار عند الإغارة إذا توسطت الخيل جمع العدو، لكثرة حركتها واضطرابها في ذلك المكان. وأما حمل الآية في إثارة الغبار في وادي محسر عند الإغارة، فليس بالبين، ولا يثور هناك غبار في الغالب، لصلابة المكان. قالوا: وأما قولكم: إنه لم يكن بمكة حين نزول الآية جهاد ولا خيل تجاهد، فهذا لا يلزم؛ لأنه سبحانه أقسم بما يعرفونه من شأن الخيل إذا كانت في غزو، فأغارت فأثارت النقع، وتوسطت جمع العدو.

وهذا أمر معروف. وذكر خيل المجاهدين أحق ما دخل في هذا الوصف، فذكره على وجه التمثيل لا الاختصاص، فإن هذا شأن خيل المقاتلة. وأشرف أنواع الخيل خيل المجاهدين. والقسم إنما وقع بما تضمنه شأن هذه العاديات من الآيات البينات من خلق هذا الحيوان الذي هو من أكرم البهيم وأشرفه، وهو الذي يحصل به العز والظفر، والنصر على الأعداء، فتعدو طالبة للعدو وهاربة منه، فيثير عدوها الغبار لشدته، وتوري حوافرها وسنابكها النار من الأحجار لشدة عدوها، فتدرك الغارة التي طلبتها حتى تتوسط جمع الأعداء، فهذا من أعظم آيات الرب تعالى، وأدلة قدرته وحكمته، فذكّرهم بنعمه عليهم في خلق هذا الحيوان الذي ينتصرون به على أعدائهم، ويدركون به ثأرهم، كما ذكرهم سبحانه بنعمه عليهم في خلق الإبل التي تحمل أثقالهم من بلد إلى بلد، فالإبل أخص بحمل الأثقال. والخيل أخص بنصرة الرجال، فذكرهم بنعمه بهذا وهذا، وخص الإغارة بالضبح؛ لأن العدو لم ينتشروا إذ ذاك ولم يفارقوا محلهم وأصحاب الإغارة حامون مستريحون، يبصرون مواقع الغارة والعدو لم يأخذوا أهبتهم بل هم في غرتهم وغفلتهم، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أراد الغارة صبر حتى يطلع الفجر، فإن سمع مؤذناً أمسك، وإلا أغار.

ولما علم أصحاب الإبل أن أخفافها أبعد شيء من وري النار تأولوا الآية على وجوه بعيدة. فقال محمد بن كعب: هم الحاج إذا أوقدوا نيرانهم ليلة المزدلفة، وعلى هذا فيكون التقدير: فالجماعات الموريات، وهذا خلاف الظاهر. وإنما الموريات هي العاديات، وهي المغيرات. روى سعيد بن جبير عن ابن عباس: هم

الذين يغيرون، فيورون بالليل نيرانهم لطعامهم وحاجتهم، كأنهم أخذوه من قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١]، وهذا إن أريد به التمثيل، وأن الآية تدل عليه فصحيح، وإن أريد به اختصاص الموريات فليس كذلك، لأن الموريات هي العاديات بعينها. ولهذا عطفها عليه بالفاء التي للتسبب، فإنها عدت فأورت، وقال قتادة: الموريات هي الخيل توري نار العداوة بين المقتتلين، وهذا ليس بشيء، وهو بعيد من معنى الآية وسياقها. وأضعف منه قول عكرمة: هي الألسنة توري نار العداوة بعظيم ما تتكلم به، وأضعف منه ما ذكر عنه مجاهد: هي أفكار الرجال، توري نار المكر والخديعة في الحرب.

وهذه الأقوال إن أريد أن اللفظ دل عليها وأنها هي المراد فغلط. وإن أريد أنها أخذت من طريق الإشارة والقياس فأمرها قريب.

وتفسير الناس يدور على ثلاثة أصول: تفسير على اللفظ، وهو الذي ينحو إليه المتأخرون. وتفسير على المعنى، وهو الذي يذكره السلف. وتفسير على الإشارة والقياس وهو الذي ينحو إليه كثير من الصوفية وغيرهم. وهذا لا بأس به بأربعة شرائط: أن لا يناقض معنى الآية، وأن يكون معنى صحيحاً في نفسه، وأن يكون في اللفظ إشعار به، وأن يكون بينه وبين معنى الآية ارتباط وتلازم. فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة كان استنباطاً حسناً.

وأضعف من ذلك كله قول ابن جريج ﴿قَدْحًا﴾ يعني: فالمنجحات أمراً، يريد البالغين بنجحهم فيما طلبوه، وعطف قوله: فأثرن، فوسطن وهما فعلان على العاديات، والموريات لما فيه من معنى الفعل.

وكان ذكر الفعل في أثرن ووسطن أحسن من ذكر الاسم؛ لأنه سبحانه قسم أفعالنا إلى قسمين: وسيلة، وغاية، فالوسيلة هي العدو وما يتبعه من الإيراء والإغارة، والغاية هي توسط الجمع وما يتبعه من إثارة النقع. فهن عاديات موريات مغيرات. حتى يتوسطن الجمع ويثرن النقع. فالأول شأنهن الذي أعددن له، والثاني فعلهن الذي انتهين إليه، والله أعلم.

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [**العاديات**: ٦ ـ ٨].

فهذا شأن القسم، وأما شأن المقسم عليه فهو حال الإنسان، وهو كون الإنسان

كنوداً بشهادته على نفسه، أو بشهادة ربه عليه، وكونه بخيلاً لحبه المال. والكنود للنعمة.

وفعله كند يكند كنوداً، مثل كفر يكفر كفوراً، والأرض الكنود التي لا تنبت شيئاً، وامرأة كندى، أي: كفور للمعاشرة، وأصل اللفظ منع الحق والخير، ورجل كنود إذا كان مانعاً لما عليه من الحق. وعبارات المفسرين تدور على هذا المعنى. قال ابن عباس ﵄ وأصحابه رحمهم الله تعالى: هو الكفور، وقيل: هو البخيل الذي يمنع رفده، ويجيع عبده، ولا يعطي في النائبة، وقال الحسن: هو اللوام لربه، يعد المصائب، وينسى النعم.

□ □ □

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٧].

فقال ابن عباس: يريد أن ربه على ذلك لشهيد، وقيل: إن الإنسان لشهيد على ذلك، إن أنكر بلسانه أشهد ربه عليه حاله، ويؤيد هذا القول سياق الضمائر. فإن قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] للإنسان، فافتتح الخبر عن الإنسان بكونه كنوداً، ثم ثناه بكونه شهيداً على ذلك، ثم ختمه بكونه بخيلاً بماله لحبه إياه. ويؤيد قول ابن عباس ﵄ أنه أتى بعلى، فقال: ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾، أي: مطلع عالم به كقوله: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ولو أريد شهادة الإنسان لأتي بالباء. فقيل: وإنه بذلك لشهيد، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٧]، فلو أراد شهادة الإنسان لقال: وإنه على نفسه لشهيد، فإن كنوده المشهود به، ونفسه هي المشهود عليها.

□ □ □

ثم قال: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

والخير هنا المال باتفاق المفسرين. والشديد البخيل من أجل حب المال، فحب المال هو حمله على البخل. هذا قول الأكثرين.

وقال ابن قتيبة: بل المعنى: إنه لشديد الحب للخير، فتكون اللام في قوله: ﴿لَشَدِيدٌ﴾ على حد تعلق قولك: إنه لزيد لضارب، ومنعت طائفة من النحاة أن يعمل ما بعد اللام فيما قبلها، وهذه الآيات حجة على الجواز، فإن قوله: ﴿لِرَبِّهِۦ﴾ معمول ﴿لَكَنُودٌ﴾، وقوله: ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ معمول ﴿لَشَهِيدٌ﴾، ولا وجه للتكلف البارد في تقدير عامل مقدم محذوف يفسره هذا المذكور. فالحق جواز إنه لزيد لضارب.

فوصف سبحانه الإنسان بكفران نعم ربه، وبخله بما آتاه من الخير فلا هو شكور للنعم، ولا محسن إلى خلقه. بل بخيل بشكره، بخيل بماله، وهذا ضد المؤمن الكريم، فإنه مخلص لربه، محسن إلى خلقه. فالمؤمن له الإخلاص والإحسان، والفاجر له الكفر والبخل.

وقد ذم الله سبحانه هذين الخلقين المهلكين في غير موضع من كتابه كقوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧]، فالرياء ضد الإخلاص، ومنع الماعون ضد الإحسان. وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء: ٣٦، ٣٧]، فاختياله وفخره من كفره وكنوده.

وهذا ضد قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣]، وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦].

وكذلك ذكر الخلقين الذميمين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [النساء: ٣٨]، ونظيره: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٩]، ونظيره ما تقدم في سورة الليل من ذم المستغني البخيل، ومدح المعطي المصدق بالحسنى، ونظيره قوله: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ﴾ [الهمزة: ١، ٢]، فإن الهمزة واللمزة من الفخر والكبر، وجمع المال وتعديده من البخل، وذلك مناف لسر الصلاة والزكاة ومقصودها.

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ﴾ **[العاديات: ٩ ـ ١١]**.

ثم خوف سبحانه الإنسان الذي هذا وصفه حين يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، أي: ميز، وجمع، وبين، وأظهر، ونحو ذلك، وجمع سبحانه بين القبور والصدور، كما جمع بينهما النبي ﷺ في قوله: «ملأ الله أجوافهم وقبورهم ناراً»(١)، فإن الإنسان يواري صدره ما فيه من الخير والشر، ويواري قبره جسمه،

---

(١) رواه البخاري (٤٥٣٣)، ومسلم (٦٢٧).

فيخرج الرب جسمه من قبره وسره من صدره، فيصير جسمه بارزاً على الأرض، وسره بادياً على وجهه، كما قال تعال: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الرحمٰن: ٤١].

□ □ □

ومفعول العلم «إن» وما عملت فيه. وكسرت لمكان اللام.

وقيد سبحانه كونه خبيراً بهم ذلك اليوم ـ وهو خبير بهم في كل وقت ـ إيذاناً بالجزاء، وأنه يجازيهم في ذلك اليوم بما يعلمه منهم، فذكر العلم والمراد لازمه، والله سبحانه وتعالى أعلم[١].

❁ ❁ ❁

(١) التبيان في أقسام القرآن (٧٥ ـ ٨٣).

سُوْرَةُ التَّكَاثُرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ **[التكاثر: ١ ـ ٨]**.

أخلصت هذه السورة الموعد والوعيد والتهديد وكفى بها موعظة لمن عقلها. فقوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ أي: شغلكم على وجه لا تعذرون فيه، فإن الإلهاء عن الشيء هو الاشتغال عنه، فإن كان بقصد فهو محل التكليف، وإن كان بغير قصد كقوله ﷺ في الخميصة: «إنها ألهتني عن صلاتي» كان صاحبه معذوراً، وهو نوع من النسيان وفي الحديث: فلها ﷺ عن الصبي، أي: ذهل عنه، ويقال: لها بالشيء أي: اشتغل به، ولها عنه: إذا انصرف عنه. واللهو للقلب، واللعب للجوارح، ولهذا يجمع بينهما ولهذا كان قوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، أبلغ في الذم من شغلكم، فإن العامل قد يستعمل جوارحه بما يعمل وقلبه غير لاه به. فاللهو هو ذهول وإعراض، والتكاثر تفاعل من الكثرة، أي: مكاثرة بعضكم لبعض وأعرض عن ذكر المتكاثر به إرادة لإطلاقه وعمومه، وأن كل ما يكاثر به العبد غيره سوى طاعة الله ورسوله وما يعود عليه بنفع معاده فهو داخل في هذا التكاثر[١].

□ □ □

أخبر سبحانه أن التكاثر شغل أهل الدنيا وألهاهم عن الله والدار الآخرة، حتى حضرهم الموت، فزاروا المقابر، ولم يفيقوا من رَقدة إلهاء التكاثر.

وجعل الغاية زيارة المقابر دون الموت، إيذاناً بأنهم غير مستبقين ولا مستقرين في القبور، وأنهم فيها بمنزلة الزائرين، يحضرونها مرة ثم يظعنون عنها، كما كانوا

---

(١) الفوائد (٣٢).

في الدنيا كذلك زائرين لها، غير مستقّرين فيها ودار القرار هي الجنة أو النار.

ولم يعين سبحانه المتكاثر به، بل ترك ذكره إما؛ لأن المذموم هو نفس التكاثر بالشيء، لا المتكاثَر به. كما يقال: شغلك اللعب واللهو، ولم يذكر ما يلعب ويلهو به، وإما إرادة الإطلاق، وهو كل ما يكاثر به العبد غيره من أسباب الدنيا، من مال أو جاه أو عبيد، أو إماء أو بناء، أو غراس، أو علم لا يُبْتَغى به وجه الله، أو عمل لا يقربه إلى الله. فكل هذا من التكاثر الملهي عن الله والدار الآخرة. وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن الشخِّير أنه قال: انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي، مالي، وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟».

ثم توعد سبحانه من ألهاه التكاثر وعيداً مؤكداً، إذا عاين تكاثره قد ذهب هباء منثوراً، وعلم أن دنياه التي كاثر بها إنما كانت خداعاً وغروراً، فوجد عاقبة تكاثره عليه لا له، وخسر هناك تكاثره، كما خسره أمثاله. وبدا له من الله ما لم يكن في حسابه، وصار تكاثره الذي شغله عن الله والدار الآخرة من أعظم أسباب عذابه، فعذب بتكاثره في دنياه، ثم عذب به في البرزخ، ثم يعذب به يوم القيامة. فكان أشقى الناس بتكاثره. إذ أفاد منه العطب، دون الغنيمة والسلامة. فلم يفز من تكاثره إلا بأن صار من الأقلين، ولم يحظ من علوه به في الدنيا إلا بأن حصل مع الأسفلين.

فيا له تكاثراً ما أثقله وزراً، وما أجلبه من غنى جالباً لكل فقر، وخيراً توصل به إلى كل شر، يقول صاحبه إذا انكشف عنه غطاؤه: يا ليتني قدمت لحياتي، وعملت فيه بطاعة الله قبل وفاتي: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠] فقيل له: ﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، تلك كلمته يقولها، فلا يعول عليها، ورجعة يسألها، فلا يجاب إليها.

وتأمل قوله أولاً: ﴿رَبِّ﴾ استغاث بربه، ثم التفت إلى الملائكة الذين أمروا بإحضاره بين يدي ربه تبارك وتعالى، وقال: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ ثم ذكر سبب سؤال الرجعة، وهو أن يستقبل العمل الصالح فيما ترك خلفه من ماله وجاهه وسلطانه وقوته وأسبابه، فيقال له: ﴿كَلَّآ﴾ لا سبيل لك إلى الرجعة، وقد عُمِّرت ما يتذكر فيه من تذكر.

ولما كان شأن الكريم الرحيم أن يجيب من استقاله، وأن يفسح له في المهلة

ليتذكر ما فاته ـ أخبر سبحانه أن سؤال هذا المفرط الرجعة كلمة هو قائلها لا حقيقة تحتها، وأن سجيته وطبيعته تأبى أن تعمل صالحاً لو أجيب، وإنما ذلك شيء يقوله بلسانه، وإنه لو رُدَّ لعاد لما نهي عنه، وإنه من الكاذبين.

فحكمة أحكم الحاكمين، وعزته وعلمه وحمده، يأبى إجابته إلى ما سأل. فإنه لا فائدة من ذلك، ولو رد لكانت حاله الثانية مثل حاله الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

□ □ □

وقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ جوابه محذوف، دل عليه ما تقدم، أي: لما ألهاكم التكاثر، وإنما وجد هذا التكاثر وإلهاؤه عما هو أولى بكم لَمَّا فقد منكم علم اليقين، وهو العلم الذي يصل به صاحبه إلى حد الضروريات، التي لا يشك ولا يماري في صحتها وثبوتها. ولو وصلت حقيقة هذا العلم إلى القلب وباشرته لما ألهاه شيء عن موجبه، ولترتب أثره عليه. فإن مجرد العلم بقبح الشيء وسوء عواقبه قد لا يكفي في تركه، فإذا صار له علم اليقين كان اقتضاء هذا العلم لتركه أشد، فإذا صار عين يقين، كجملة المشاهدات، كان تخلُّف موجبه عنه أندر شيء.

وفي هذا المعنى قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في أهل بدر:

سرنا، وساروا إلى بدر لحتفهم لو يعلمون يقين العلم ما ساروا

□ □ □

وقوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

قيل: تأكيد لحصول العلم؛ كقوله: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤، ٥].

وقيل: ليس تأكيداً، بل العلم الأول عند المعاينة ونزول الموت، والعلم الثاني في القبر، وهذا قول الحسن ومقاتل، ورواه عطاء عن ابن عباس.

ويدل على صحة هذا القول عدة أوجه:

أحدها: أن الفائدة الجديدة والتأسيس هو الأصل. وقد أمكن اعتباره، مع فخامة المعنى وجلالته، وعدم الإخلال بالفصاحة.

الثاني: توسط ﴿ثُمَّ﴾ بين العلمين، وهي مؤذنة بتراخي ما بين المرتبين زماناً وخطراً.

الثالث: أن هذا القول مطابق للواقع، فإن المحتَضَر يعلم عند المعاينة حقيقة ما

كان عليه، ثم يعلم في القبر وما بعده ذلك علماً يقينياً، هو فوق العلم الأول.

الرابع: أن علي بن أبي طالب ﷺ وغيره من السلف فهموا من الآية عذاب القبر. قال الترمذي: حدثنا أبو كريب حدثنا حكام بن سليم الرازي عن عمرو بن أبي قيس عن الحجاج بن منهال بن عمرو عن زر عن علي ﷺ قال: ما زلنا نشك في عذاب القبر حتى نزلت ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، قال الواحدي: يعني: أن معنى قوله: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ في القبر.

الخامس: أن هذا مطابق لما بعده من قوله: ﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾، فهذه الرؤية الثانية غير الأولى من وجهين: إطلاق الأولى، وتقييد الثانية بعين اليقين، وتقدم الأولى، وتراخي الثانية عنها.

□ □ □

ثم ختم السورة بالإخبار المؤكد بواو القسم ولام التأكيد، والنون الثقيلة عن سؤال النعيم. فكل أحد يسأل عن نعيمه الذي كان فيه في الدنيا: هل ناله من حلاله ووجهه أم لا؟ فإذا تخلص من هذا السؤال سئل سؤالاً آخر: هل شكر الله تعالى عليه، فاستعان به على طاعته أم لا؟

فالأول: سؤال عن سبب استخراجه.

والثاني: عن محل صرفه. كما في جامع الترمذي من حديث عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه؟ وعن شبابه، فيما أبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه، وفيما أنفقه؟ وماذا عمل فيما علم؟»[1].

وفيه أيضاً: عن أبي برزة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه؟ وعن علمه: فيما عمل فيه؟ وعن ماله: من أين اكتسبه وفيما أبلاه؟»[2] وقال: هذا حديث صحيح.

---

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (٢/ ٢٨٩) في صفة القيامة، باب: شأن الحساب والقصاص، وهو عن ابن عمر عن ابن مسعود ﷺ، كما في سنن الترمذي (٤/ ٥٢٩)، وفي عدة الصابرين: «وعن ماذا عمل فيما علم»؟ وفي الطبعة السلفية، ص(٢٠٢): «وفي ماذا عمل فيما علم»؟ وأثبت ما في السنن، حسنه الألباني، وانظر: تخريجه مفصلاً في «الصحيحة» رقم (٩٤٦).

(٢) في سنن الترمذي (الصحيح) (٢/ ٢٩٠)، وصححه الترمذي، وانظر: تخريج الحديث الفائت، ومتن الحديث في السنن: «. . . . . حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه فيما فعل، =

وفيه أيضاً: من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة ـ يعني: من النعيم ـ أن يقال له: ألم نُصِحَّ جسمك؟ ونرويك من الماء البارد؟»[١].

وفيه أيضاً: من حديث الزبير بن العوام رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾، قال الزبير: يا رسول الله، فأي النعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان: التمر والماء؟ قال: «أما إنه سيكون»[٢]. وقال: هذا حديث حسن.

وعن أبي هريرة نحوه. وقال: إنما هو الأسودان: العدو حاضر، وسيوفنا على عواتقنا. فقال: «إن ذلك سيكون»[٣].

وقوله ﷺ: «إن ذلك سيكون»، إما أن يكون المراد به: أن النعيم سيكون ويحدث لكم، وإما أن يرجع إلى السؤال، أي إن السؤال يقع عن ذلك، وإن كان تمراً وماء، فإنه من النعيم.

ويدل عليه: قوله ﷺ في الحديث الصحيح ـ وقد أكلوا معه رُطباً ولحماً، وشربوا من الماء البارد ـ: «هذا من النعيم الذين تسألون عنه يوم القيامة»[٤]، فهذا سؤال عن شكره والقيام بحقه».

وفي الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ قال: «يجاء بالعبد يوم القيامة، كأنه بِذْج فيوقف بين يدي الله تعالى، فيقول الله: أعطيتك وخوَّلتك، وأنعمت عليك، فماذا صنعت؟ فيقول: يا رب جمعته وثمَّرته فتركته أوفر ما كان، فارجعني آتك به. فإذا عبد لم يقدم خيراً، فيمضي به إلى النار»[٥].

وفيه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى

= وعن ماله من أين اكتسبه، وعن جسمه فيما أبلاه»؟

(١) سنن الترمذي (٥/ ٤١٨) في التفسير، سورة التكاثر، وقال: «غريب»، وصححه الألباني كما في الصحيحة رقم (٥٣٩) وردَّ استغراب الترمذي، فانظره مفصلاً.

(٢) سنن الترمذي (الصحيح) (٣/ ١٣٤) نفس الكتاب والباب، وقال الترمذي (٥/ ٤١٧): حسن، ووافقه الألباني.

(٣) نفس المصدر السابق، وحسنه الألباني بالحديث السابق.

(٤) رواه مسلم (٢٠٣٨).

(٥) سنن الترمذي (٤/ ٥٣٤) في صفة القيامة، ما جاء في العرض «وفيه إسماعيل بن مسلم يضعف في الحديث من قبل حفظه»، و«البذج» ولد الضأن ويراد بذلك هوانه وذله، تحفة الأحوذي (٧/ ١١٤).

بالعبد يوم القيامة، فيقول الله: ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً، وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وترتع، أفكنت تظن أنك ملاق يومك هذا؟ فيقول: لا. فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني»(١). قال: هذا حديث صحيح.

□ □ □

وقد زعم طائفة من المفسرين: أن هذا الخطاب خاص بالكفار، وأنهم هم المسؤولون عن النعيم، وذكروا ذلك عن الحسن، ومقاتل، واختار الواحدي ذلك، واحتج بحديث أبي بكر: لما نزلت هذه الآية، قال لرسول الله: «أرأيت أكلة أكلتها معك ببيت أبي الهيثم بن التيهان من خبز شعير ولحم، وبسر قد ذَنَّب، وماء عذب، أتخاف علينا أن يكون هذا من النعيم الذي نسأل عنه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك للكفار»(٢)، ثم قرأ: ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

قال الواحدي: والظاهر يشهد بهذا القول؛ لأن السورة كلها خطاب للمشركين وتهديد لهم، والمعنى: أيضاً يشهد بهذا القول، وهو أن الكفار لم يؤدوا حق النعيم عليهم، حيث أشركوا بربهم وعبدوا غيره، فاستحقوا أن يسألوا عما أنعم به عليهم، توبيخاً لهم، هل قاموا بالواجب فيه، أم ضيعوا حق النعمة؟ ثم يعذبون على ترك الشكر بتوحيد المنعم.

قال: وهذا معنى قول مقاتل، وهو قول الحسن. قال: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار.

قلت: ليس في اللفظ ولا في السنة الصحيحة، ولا في أدلة العقل ما يقتضي اختصاص الخطاب بالكفار، بل ظاهر اللفظ، وصريح السنة والاعتبار: يدل على عموم الخطاب لكل من اتصف بإلهاء التكاثر له. فلا وجه لتخصيص الخطاب ببعض المتصفين بذلك.

ويدل على ذلك: قول النبي ﷺ عند قراءة هذه السورة: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت» الحديث، وهو في صحيح مسلم. وقائل ذلك قد يكون مسلماً، وقد يكون كافراً.

ويدل عليه أيضاً: الأحاديث التي تقدمت، وسؤال الصحابة النبي ﷺ، وفهمهم

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) ذكره السيوطي في الدر (٨/٦١٨) عن ابن مردويه عن الكلبي، وهو ساقط.

العموم، حتى قالوا له: وأي نعيم نسأل عنه، وإنما هو الأسودان. فلو كان الخطاب مختصاً بالكفار لبين لهم ذلك، وقال: ما لكم ولها؟ إنما هي للكفار. فالصحابة فهموا العموم، والأحاديث صريحة في التعميم، والذي أنزل عليه القرآن أقرهم على فهم العموم.

وأما حديث أبي بكر الذي احتج به أرباب هذا القول، فحديث لا يصح. والحديث الصحيح في تلك القصة يشهد ببطلانه، ونحن نسوقه بلفظه.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما في هذه الساعة؟» قالا: الجوع، يا رسول الله، قال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما، قوما»، فقاما معه، فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته. فلما رأته امرأته قالت: مرحباً وأهلاً. فقال لها رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب ليستعذب لنا من الماء، إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، فقال: الحمد لله ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني. قال: فانطلق فجاءهم بِعِذْق فيه بُسْر وتمر ورطب فقال: كلوا من هذا. فأخذ المدية، فقال له رسول الله ﷺ: «إياك والحلوب»، فذبح لهم، فأكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا. فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: «والذي نفسي بيديه لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة، أخرجكم من بيوتكم الجوعُ، ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم»[1].

فهذا الحديث الصحيح صريح في تعميم الخطاب، وأنه غير مختص بالكفار.

وأيضاً فالواقع يشهد بعدم اختصاصه، وأن الإلهاء بالتكاثر واقع من المسلمين كثيراً، بل أكثرهم قد ألهاه التكاثر. وخطاب القرآن عام لمن بلغه، وإن كان أول من دخل فيه المعاصرون لرسول الله ﷺ، فهو متناول لمن بعدهم. وهذا معلوم بضرورة الدين، وإن نازع فيه من لا يعتد بقوله من المتأخرين.

فنحن اليوم ومن قبلنا ومن بعدنا داخلون تحت قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣] ونظائره، كما دخل تحته الصحابة بالضرورة المعلومة من الدين.

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٨).

فقوله: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾ خطاب لكل من اتصف بهذا الوصف، وهم في الإلهاء والتكاثر درجات لا يحصيها إلا الله.

□ □ □

فإن قيل: فالمؤمنون لم يلههم التكاثر، ولهذا لم يدخلوا في الوعيد المذكور لمن ألهاه.

قيل: هذا هو الذي أوجب لأرباب هذا القول تخصيصه بالكفار، لأنه لم يمكنهم حمله على العموم، ورأوا أن الكفار أحق بالوعيد، فخصوهم به.

وجواب هذا: أن الخطاب للإنسان من حيث هو إنسان، على طريقة القرآن في تناول الذم له من حيث هو إنسان، كقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦] ونظائره كثيرة.

فالإنسان من حيث هو عار عن كل خير من العلم النافع، والعمل الصالح، وإنما الله سبحانه هو الذي يكمله بذلك. ويعطيه إياه، وليس له ذلك من نفسه، بل ليس له من نفسه إلا الجهل المضاد للعلم، والظلم المضاد للعدل، وكل علم وعدل وخير فيه فمِنْ ربه، لا من نفسه. فإلهاء التكاثر طبيعته وسجيته، التي هي له من نفسه، ولا خروج له عن ذلك إلا بتزكية الله له، وجعله مريداً للآخرة، مؤثِراً لها على التكاثر بالدنيا، فإن أعطاه ذلك وإلا فهو ملتهٍ بالتكاثر في الدنيا ولا بد.

أما احتجاجهم بالوعيد على اختصاص الخطاب بالكفار. فيقال:

الوعيد المذكور مشترك، وهو العلم عند معاينة الآخر، فهذا أمر يحصل لكل أحد، لم يكن حاصلاً له في الدنيا، وليس في قوله: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ما يقتضي دخول النار، فضلاً عن التخليد فيها. وكذلك رؤية الجحيم لا يستلزم دخولها لكل من رآها، فإن أهل الموقف يرونها، ويشاهدونها عياناً، وقد أقسم الرب تبارك وتعالى أن يراها الخلق كلهم مؤمنهم وكافرهم، وبرهم وفاجرهم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١].

فليس في جملة هذه السورة ما ينفي عموم خطابها.

وأما ما ذكروه عن الحسن: لا يسأل عن النعيم إلا أهل النار. فباطل قطعاً، إما عليه وإما منه. والأحاديث الصحيحة الصريحة ترده، وبالله التوفيق.

□ □ □

ولا يخفى أن مثل هذه السورة مع عظم شأنها وشدة تخويفها، وما تضمنته من تحذير الإنسان عن التكاثر الملهي، وانطباق معناه على أكثر الخلق يأبى اختصاصها من أولها إلى آخرها بالكفار، ولا يليق ذلك بها. ويكفي في ذلك تأمل الأحاديث المرفوعة فيها، والله أعلم.

وتأمل ما في هذا العتاب الراجع لمن استمر على إلهاء التكاثر له مدة حياته كلها، إلى أن زار القبور، ولم يستيقظ من نوم الإلهاء، بل أرقد التكاثر قلبه، فلم يستفق منه إلا وهو في عسكر الأموات.

وطابق بين هذا وبين حال أكثر الخلق يتعين لك أن العموم مقصود.

وتأمل تعليقه سبحانه الذم والوعيد على مطلق التكاثر من غير تقييد بمتكاثر به، ليدخل فيه التكاثر بجميع أسباب الدنيا، على اختلاف أجناسها وأنواعها.

وأيضاً فإن التكاثر تفاعل، وهو طلب كل من المتكاثرين أن يكاثر صاحبه. فيكون أكثر منه فيما يكاثره به. والحامل له على ذلك: توهمه أن العزة للكاثر كما قيل:

ولست بالأكثر منهم غِنى وإنما العزة للكاثر

□ □ □

فلو حصلت له الكثرة من غير تكاثر لم تضره، كما كانت الكثرة حاصلة لجماعة من الصحابة، ولم تضرهم، إذ لم يتكاثروا بها. وكل من كاثر إنساناً في دنياه، أو جاهه، أو غير ذلك، أشغلته مكاثرته عن مكاثرة أهل الآخرة. فالنفوس الشريفة العلوية ذات الهمم العالية إنما تكاثر بما يدوم عليه نفعه، وتكمل به وتزكو، وتصير مفلحة، فلا تحب أن يكثرها غيرها في ذلك، وينافسها في هذه المكاثرة، ويسابقها إليها. فهذا هو التكاثر الذي هو غاية سعادة العبد.

وضده: تكاثر أهل الدنيا بأسباب دنياهم. فهذا تكاثر ملهٍ عن الله وعن الدار الآخرة. وهو جارٌّ إلى غاية القلة.

فعاقبة هذا التكاثر: قلٌّ وفقر وحرمان.

والتكاثر بأسباب السعادة الأخروية تكاثر لا يزال يذكر بالله وبنعمِه، وعاقبتُه الكثرة الدائمة التي لا تزول ولا تفنى، وصاحب هذا التكاثر لا يهون عليه أن يرى غيره أفضل منه قولاً، وأحسن منه عملاً، وأغزر منه علماً، وإذا رأى غيره أكثر منه في خصلة من خصال الخير يعجز عن لحوقه فيها كاثره بخصلة أخرى، وهو قادر

على المكاثرة بها. وليس هذا التكاثر مذموماً، ولا قادحاً في إخلاص العبد، بل هو حقيقة المنافسة، واستباق الخيرات.

وقد كانت هذه حال الأوس مع الخزرج ﷺ في تصاولهم بين يدي رسول الله ﷺ، ومكاثرة بعضهم لبعض في أسباب مرضاته ونصره.

وكذلك كانت حال عمر مع أبي بكر ﷺ، فلما تبين لعمر مدى سبق أبي بكر له قال: والله لا أسابقك إلى شيء أبداً.

□ □ □

ومن تأمل حسن موقع ﴿كَلَّا﴾ في هذا الموضع، فإنها تضمنت ردعاً لهم، وزجراً عن التكاثر، ونفياً وإبطالاً لما يؤملونه من نفع التكاثر لهم، وعزتهم وكمالهم به، فتضمنت اللفظة نهياً ونفياً، وأخبرهم سبحانه أنهم لا بد أن يعلموا عاقبة تكاثرهم علماً بعد علم، وأنهم لا بد أن يروا دار المكاثرين بالدنيا التي ألهتهم عن الآخرة رؤية بعد رؤية، وأنه سبحانه لا بد أن يسألهم عن أسباب تكاثرهم: من أين استخرجوها؟ وفيم صرفوها؟

فللّه ما أعظمها من سورة، وأجلها وأعظمها فائدة، وأبلغها موعظة وتحذيراً، وأشدها ترغيباً في الآخرة، وتزهيداً في الدنيا، على غاية اختصارها وجزالة ألفاظها وحسن نظمها. فتبارك من تكلم بها حقاً، وبلغها رسوله عنه وحياً.

□ □ □

وتأمل كيف جعلهم عند وصولهم إلى غاية كل حي زائرين غير مستوطنين، بل هم مستودعون في المقابر مدة، وبين أيديهم دار القرار، فإذا كانوا عند وصولهم إلى الغاية زائرين، فكيف بهم وهم في الطريق في هذه الدار؟ فهم فيها عابرو سبيل إلى محل الزيارة؟ ثم منتقلون من محل الزيارة إلى المستقر.

فهنا ثلاثة أمور: عبور السبيل في هذه الدنيا، وغايته زيارة القبور، وبعدها النقلة إلى دار القرار[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

قال محمد بن جرير[٢]: يقول تعالى: ثم ليسألنكم الله ﷻ عن النعيم الذين كنتم

---

(١) عدة الصابرين (١٨٣ ـ ١٩٤).
(٢) تفسير ابن جرير (٣٠/ ٢٨٥).

فيه في الدنيا: ماذا عملتم فيه؟ من أين وصلتم إليه؟ وفيم أصبتموه؟ وماذا عملتم به؟ وقال قتادة: «إن الله سائل كل عبد عما استودعه من نعمه وحقه».

والنعيم المسؤول عنه نوعان: نوع أخذ من حله وصرف في حقه، فيسأل عن شكره، ونوع أخذ بغير حله وصرف في غير حقه، فيسأل عن مستخرجه ومصرفه[1].



(١) إغاثة اللهفان (١/ ٨٤).

سُوْرَةُ العَصْرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ ـ ٣].

قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم.

وبيان ذلك أن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله.

إحداها: معرفة الحق.

الثانية: عمله به.

الثالثة: تعليمه من لا يحسنه.

الرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.

فذكر تعالى المراتب الأربع في هذه السورة، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى، وتواصوا بالحق ووصى بعضهم بعضاً بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة، وهذا نهاية الكمال؛ فإن الكمال أن يكون الشخص كاملاً في نفسه مكملاً لغيره، وكماله بإصلاح قوَّتيه العلمية والعملية؛ فصلاح القوة العلمية بالإيمان، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل.

فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره، والحمد لله الذي جعل كتابه كافياً عن كل ما سواه شافياً من كل داء هادياً إلى كل خير[1].

□ □ □

ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه، حتى يوصي بعضهم بعضاً به ويرشده

---

(١) مفتاح دار السعادة (٦١).

إليه ويحضه عليه، وإذا كان من عدا هؤلاء خاسراً، فمعلوم أن المعاصي والذنوب تعمي بصيرة القلب، فلا يدرك الحق كما ينبغي، وتضعف قوته وعزيمته فلا يصبر عليه بل قد يتوارد على القلب حتى ينعكس إدراكه كما ينعكس سيره، فيدرك الباطل حقاً والحق باطلاً، والمعروف منكراً والمنكر معروفاً، فينتكس في سيره ويرجع عن سفره إلى الله والدار الآخرة إلى سفره إلى مستقر النفوس المبطلة التي رضيت بالحياة الدنيا واطمأنت لها وغفلت عن الله وآياته وتركت الاستعداد للقائه. ولو لم يكن في عقوبة الذنوب إلا هذه العقوبة وحدها لكانت داعية إلى تركها والبعد منها. والله المستعان(١).



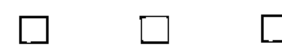
وإنه سبحانه قسم نوع الإنسان فيها قسمين خاسراً ورابحاً؛ فالرابح من نصح نفسه بالإيمان والعمل الصالح، ونصح الخلق بالوصية بالحق المتضمنة لتعليمه وإرشاده، والوصية بالصبر المتضمنة لصبره هو أيضاً. فتضمنت السورة النصيحتين، والتكميلتين، وغاية كمال القوتين: بأخصر لفظ وأوجزه وأهذبه، وأحسنه ديباجة وألطفه موقعاً.

أما النصيحتان: فنصيحة العبد نفسه، ونصيحته أخاه بالوصية بالحق والصبر عليه.

وأما التكميلان: فهو لتكميله نفسه، وتكميله أخاه.

وأما كمال القوتين: فإن النفس لها قوتان؛ قوة العلم والنظر وكمالها بالإيمان، وقوة الإرادة والحب والعلم وكمالها بالعمل الصالح، ولا يتم ذلك لها إلا بالصبر.

فصار هاهنا ستة أمور: ثلاثة يفعلها في نفسه، ويأمر بها غيره؛ تكميل قوته العلمية بالإيمان، والعملية بالأعمال الصالحة، والدوام على ذلك بالصبر عليه، وأمره لغيره. بهذه الثلاثة فيكون مؤتمراً بها متصفاً بها معلماً لها داعياً إليها، فهذا هو الرابح كل الربح، وما فاته من الربح بحسبه وحصل له نوع من الخسران، والله تعالى المستعان وعليه التكلان(٢).



(١) الجواب الكافي (١٣٥، ١٣٦).

(٢) الكلام على مسألة السماع (٤٠٤).

وإقسامه ﷻ (بالعصر) على حال الإنسان في الآخرة.

والعصر المقسم به، قيل: هو أول الوقت الذي يلي المغرب من النهار. وقيل: هو آخر ساعة من ساعاته، وقيل: المراد صلاة العصر. وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح، وتسمية الدهر عصراً أمر معروف في لغتهم. قال:

ولن يلبث العصران يوم وليلة إذا طلبا أن يدركا ما تيمما

ويوم وليلة بدل من العصران، فأقسم سبحانه بالعصر لمكان العبرة والآية فيه، فإن مرور الليل والنهار على تقدير قدرة العزيز العليم منتظم لمصالح العالم على أكمل ترتيب ونظام، وتعاقبهما واعتدالهما تارة، وأخذ أحدهما من صاحبه تارة، واختلافهما في الضوء، والظلام، والحر، والبرد، وانتشار الحيوان، وسكونه، وانقسام العصر إلى القرون، والسنين، والأشهر، والأيام، والساعات وما دونها، آية من آيات الرب تعالى، وبرهان من براهين قدرته وحكمته.

فأقسم بالعصر الذي هو زمان أفعال الإنسان ومحلها على عاقبة تلك الأفعال وجزائها، ونبه بالمبدأ وهو خلق الزمان، والفاعلين وأفعالهم على المعاد، وأن قدرته كما لم تقصر عن المبدأ لم تقصر عن المعاد، وأن حكمته التي اقتضت خلق الزمان وخلق الفاعلين وأفعالهم، وجعلها قسمين خيراً وشراً، تأبى أن يسوي بينهم، وأن لا يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يجعل النوعين رابحين أو خاسرين، بل الإنسان من حيث هو إنسان خاسر، إلا من رحمه الله، فهداه ووفقه للإيمان والعمل الصالح في نفسه، وأمر غيره به. وهذا نظير رده الإنسان إلى أسفل سافلين، واستثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هؤلاء المردودين.



وتأمل حكمة القرآن لما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، فإنه ضيق الاستثناء وخصصه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾. ولما قال: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين: ٥] وسع الاستثناء وعممه، فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦]، ولم يقل: ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾، فإن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح، وهو قدر زائد على مجرد فعله. فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح، فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن

الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضاً على الأعيان، وقد تكون فرضاً على الكفاية، وقد تكون مستحبة.

والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب، والحق الذي يستحب. والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب، والصبر الذي يستحب.

فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء، وهو سبحانه إنما قال: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، ومن ربح في سلعة وخسر في غيرها قد يطلق عليه أنه في خسر وأنه ذو خسر، كما قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: لقد فرطنا في قراريط كثيرة[1]. فهذا نوع تفريط، وهو نوع خسر بالنسبة إلى من حصل ربح ذلك.

□ □ □

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ إرشاد إلى منصب الإمامة في قوة الدين، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

□ □ □

والصبر نوعان: نوع على المقدور، كالمصائب، ونوع على المشروع. وهذا النوع أيضاً نوعان: صبر على الأوامر، وصبر عن النواهي، فذاك صبر على الإرادة والفعل، وهذا صبر عن الإرادة والفعل.

فأما النوع الأول من الصبر فمشترك بين المؤمن والكافر، والبر والفاجر، لا يثاب عليه لمجرده إن لم يقترن به إيمان واختيار، قال النبي ﷺ في حق ابنته: «مرها فلتصبر ولتحتسب». وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، وقال تعالى: ﴿بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾ [آل عمران: ١٢٠].

فالصبر بدون الإيمان والتقوى بمنزلة قوة البدن الخالي عن الإيمان والتقوى،

(١) رواه البخاري (١٣٢٣)، ومسلم (٩٤٥).

وعلى حسب اليقين بالمشروع يكون الصبر على المقدور.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠]، فأمره أن يصبر ولا يتشبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر، فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا، وما خفوا ولا استخفوا، فمن قلَّ يقينه قلَّ صبره، ومن قلَّ صبره خف واستخف، فالموقن الصابر رزين، لأنه ذو لب وعقل، ومن لا يقين له، ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف، والله المستعان[1].



(١) التبيان في أقسام القرآن (٨٣ ـ ٨٨).

سُوْرَةُ الماعُونِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

وليس السهو عنها تركها وإلا لم يكونوا مصلين، وإنما هو السهو عن واجبها: إما عن الوقت، كما قال ابن مسعود وغيره، وإما عن الحضور والخشوع.

والصواب: أنه يعم النوعين، فإنه سبحانه أثبت لهم الصلاة ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب أو عن إخلاصها وحضورها الواجب ولذلك وصفهم بالرياء ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٦ ـ ٧].

قال ابن مسعود وابن عباس وغيرهما من الصحابة: هو إعارة القِدر والدلو والفأس ونحوهما[٢].

❁ ❁ ❁

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢٧).

(٢) الطرق الحكمية (٢٨٠).

سُوْرَةُ الكَافِرُونَ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

(ما) على بابها لأنها واقعة على معبوده ﷺ على الإطلاق؛ لأن امتناعهم من عبادة الله ليس لذاته بل كانوا يظنون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا جاهلين به. هذا جواب بعضهم.

وقال آخرون: إن (ما) هنا مصدرية لا موصولة، أي: لا تعبدون عبادتي ويلزم من تبرئتهم من عبادته تبرئتهم من المعبود؛ لأن العبادة متعلقة به. وليس هذا بشيء. إذ المقصود: براءته من معبوديهم، وإعلامه أنهم بريئون من معبوده تعالى. فالمقصود المعبود لا العبادة.

وقيل: إنهم كانوا يقصدون مخالفته ﷺ حسداً له، وأنفة من اتباعه، فهم لا يعبدون معبوده لا كراهية لذات المعبود، ولكن كراهية لاتباعه ﷺ، وحرصاً على مخالفته في العبادة. وعلى هذا لا يصح في النظم البديع والمعنى الرفيع إلا لفظ (ما) لإبهامها ومطابقتها الغرض الذي تضمنته الآية.

وقيل في ذلك وجه رابع: وهو قصد ازدواج الكلام في البلاغة والفصاحة مثل قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، و﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ١٩٤]، فكذلك ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ومعبودهم لا يعقل. ثم ازدوج مع هذا الكلام قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ فاستوى اللفظان، وإن اختلف المعنيان، ولهذا لا يجيء في الأفراد مثل هذا، بل لا يجيء إلا «من» كقوله: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم﴾ [يونس: ٣١]، ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس: ٣١]، ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣]، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ [النمل: ٦٤] إلى أمثال ذلك.

وعندي فيه وجه خامس أقرب من هذا وهو: أن المقصود هنا ذكر المعبود الموصوف بكونه أهلاً للعبادة مستحقاً لها، فأتى بـ(ما) الدالة على هذا المعنى. كأنه قيل: ولا أنتم عابدون معبودي الموصوف بأنه المعبود الحق. ولو أتى بلفظ «من» لكانت إنما تدل على الذات فقط، ويكون ذكر الصلة تعريفاً، لا أنه هو جهة العبادة.

ففرق بين أن يكون كونه تعالى أهلاً لأن يعبد، وبين أن يكون تعريفاً محضاً أو وصفاً مقتضياً لعبادته. فتأمله فإنه بديع جداً. وهذا معنى قول النحاة: إن «ما» تأتي لصفات من يعلم.

ونظيره: ﴿فَأنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣] لما كان المراد الوصف، وأن السبب الداعي إلى الأمر بالنكاح، وقصده ـ وهو الطيب ـ فتنكح المرأة الموصوفة به: أتي بـ«ما» دون «من»، وهذا باب لا ينخرم، وهو من ألطف مسالك العربية.

□ □ □

وإذ قد أفضى الكلام بنا إلى هنا، فلنذكر فائدة **ثانية**:[1] على ذلك، وهي: تكرير الأفعال في هذه السورة.

ثم فائدة **ثالثة**: وهي: كونه كرر الفعل في حق نفسه بلفظ المستقبل في الموضعين، وأتى في حقهم بالماضي.

ثم فائدة **رابعة**: وهي: أنه جاء في نفي عبادة معبودهم بلفظ الفعل المستقبل، وجاء في نفي عبادتهم معبوده باسم الفاعل.

ثم فائدة **خامسة**: وهي: كون إيراده النفي هنا بـ«لا» دون «لن».

ثم فائدة **سادسة**: وهي: أن طريقة القرآن في مثل هذا أن يقرن النفي بالإثبات، فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته، وهذا هو حقيقة التوحيد. والنفي المحض ليس بتوحيد. وكذلك الإثبات بدون النفي. فلا يكون التوحيد إلا متضمناً للنفي والإثبات، وهذا حقيقة (لا إله إلا الله).

فلم جاءت هذه السورة بالنفي المحض، وما سر ذلك؟.

وفائدة **سابعة**: وهي: ما حكمة تقديم نفي عبادته عن معبودهم ثم نفي عبادتهم عن معبودهم؟.

وفائدة **ثامنة**: وهي: أن طريقة القرآن إذا خاطب الكفار أن يخاطبهم بالذين كفروا، والذين هادوا، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ [التحريم: ٧]،

---

(١) الفائدة الأولى مرَّ ذكرها في أول هذه الصفحة وهي قوله: «وعندي فيه وجه خامس أقرب. . . .».

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ [الجمعة: ٦]، ولم يجئ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إلا في هذا الموضع، فما وجه هذا الاختصاص؟.

وفائدة **تاسعة**: وهي: أن في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ معنى زائد على النفي المتقدم، فإنه يدل على اختصاص كل بدينه ومعبوده، وقد فهم هذا من النفي فما أفاد التقسيم المذكور؟.

وفائدة **عاشرة**: وهي: تقديم ذكرهم ومعبودهم في هذا التقسيم والاختصاص، وتقديم ذكر شأنه وفعله في أول السورة.

وفائدة **حادية عشرة**: وهي: أن هذه السورة قد اشتملت على جنسين من الأخبار:

أحدهما: براءته من معبودهم، وبراءتهم من معبوده، وهذا لازم أبداً.

الثاني: إخباره بأن له دينه ولهم دينهم.

فهل هذا متاركة وسكوت عنهم، فيدخله النسخ بالسيف، أو التخصيص ببعض الكفار، أم الآية باقية على عمومها وحكمها، غير منسوخة ولا مخصوصة؟.

فهذه عشر مسائل في هذه السورة. فقد ذكرنا منها مسألة واحدة، وهي وقوع: «ما» فيها بدل (من).

فلنذكر المسائل التسع مستمدين من فضل الله، مستعينين بحوله وقوته، متبرئين إليه من الخطأ، فما كان من صواب فمنه وحده لا شريك له، وما كان من خطأ فمنا ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه.

□ □ □

فأما المسألة **الثانية**: وهي: فائدة تكرار الأفعال. فقيل فيها وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ نفي للحال والمستقبل، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابله، أي: لا تفعلون ذلك. وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، أي: لم يكن مني ذلك قط قبل نزول الوحي، ولهذا أتى في عبادتهم بلفظ الماضي فقال: ﴿مَّا عَبَدتُّمْ﴾، فكأنه قال: لم أعبد قط ما عبدتم، وقوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ مقابله، أي: لم تعبدوا قط في الماضي ما أعبده أنا دائماً.

وعلى هذا فلا تكرار أصلاً، وقد استوفت الآيات أقسام النفي ماضياً وحالاً ومستقبلاً عن عبادته وعبادتهم بأوجز لفظ وأخصره وأبينه، وهذا إن شاء الله أحسن ما قيل فيها. فلنقتصر عليه ولا نتعداه إلى غيره، فإن الوجوه التي قيلت في مواضعها، فعليك بها.

□ □ □

وأما المسألة **الثالثة**: وهي: تكرير الأفعال بلفظ المستقبل حين أخبر عن نفسه وبلفظ الماضي حين أخبر عنهم.

ففي ذلك سر، وهو الإشارة والإيماء إلى عصمة الله لنبيه عن الزيغ والانحراف عن عبادة معبوده، والاستبدال به غيره، وأن معبوده الحق واحد في الحال والمآل على الدوام، لا يرضى به بدلاً، ولا يبغي عنه حولاً، بخلاف الكافرين فإنهم يعبدون أهواءهم، ويتبعون شهواتهم في الدين وأغراضهم. فهم بصدد أن يعبدوا اليوم معبوداً وغداً غيره. فقال: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ يعني: الآن ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾، أي: الآن أيضاً. ثم قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ﴾ يعني: ولا أنا فيما يستقبل يصدر مني عبادة لما عبدتم أيها الكافرون، وأشبهت (ما) هنا رائحة الشرط، فلذلك وقع بعدها الفعل بلفظ الماضي، وهو مستقبل في المعنى، كما يجيء ذلك بعد حرف الشرط، كأنه يقول: مهما عبدتم من شيء فلا أعبده أنا.

فإن قيل: وكيف يكون فيها الشرط، وقد عمل فيها الفعل، ولا جواب لها وهي موصولة، فما أبعد الشرط منها؟.

قلنا: لم نقل: إنها نفسها شرط، ولكن فيها رائحة منه، وطرف من معناه لوقوعها على غير معين وإبهامها في المعبودات وعمومها، وأنت إذا ذقت معنى هذا الكلام وجدت معنى الشرط بادياً على صفحاته. إذا قلت لرجل ما ـ تخالفه في كل ما يفعل ـ: أنا لا أفعل ما تفعل. ألست ترى معنى الشرط قائماً في كلامك وقصدك، وأن روح هذا الكلام: مهما فعلت من شيء فإني لا أفعله؟.

وتأمل ذلك من مثل قوله تعالى: ﴿قَالُواْ كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ٢٩]، كيف تجد معنى الشرطية فيه؟ حتى وقع الفعل بعد «من» بلفظ الماضي، والمراد به المستقبل، وأن المعنى: ما كان في المهد صبياً كيف نكلمه؟ وهذا هو المعنى الذي حام حوله من قال من المفسرين والمعربين: أن «كان» نبياً، بمعنى: «يكون» لكنهم لم يأتوا إليه من بابه، بل ألقوه عطلاً من تقدير وتنزيل، وعزب فَهْم غيرهم عن هذا، للطفه ودقته. فقالوا: «كان» زائدة.

والوجه ما أخبرتك به، فخذه عفواً، لك غنمه، وعلى سواك غرمه. هل على[1].

---

(١) هكذا في المطبوع، وفي الهامش: «لعله استفهام إنكاري يعني: ليس غرمه إلا عليَّ» (١/ ١٣٦)، وهو بعيد كما ترى، وفي هامش التفسير القيم (٥٢٩)، لعل «هل عليَّ» زائدة، والصواب «فإن من» فتدبر، **قلت**: ولعله الأقرب، والله أعلم.

«من» في الآية قد عمل فيها الفعل وليس لها جواب، ومعنى الشرطية، قائم فيها فكذلك في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، وهذا كله مفهوم من كلام فحول النحاة كالزجاج وغيره.

فإذا ثبت هذا فقد صحت الحكمة التي من أجلها جاء الفعل بلفظ الماضي من قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾، بخلاف قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ لبعد (ما) فيها عن معنى الشرط، تنبيهاً من الله على عصمة نبيه أن يكون له معبود سواه، وأن ينتقل في المعبودات تنقل الكافرين.



وأما المسألة الرابعة: وهي: أنه لم يأت النفي في حقهم إلا باسم الفاعل، وفي جهته جاء بالفعل تارة، وباسم الفاعل أخرى.

فذلك ـ والله أعلم ـ لحكمة بديعة وهي: أن المقصود الأعظم براءته من معبوديهم بكل وجه في كل وقت. فأتى أولاً بصيغة الفعل الدالة على الحدوث والتجدد، ثم أتى في هذا النفي بعينه بصيغة اسم الفاعل في الثاني: أن هذا ليس وصفي ولا شأني، فكأنه قال: عبادة غير الله لا تكون فعلاً لي ولا وصفاً لي. فأتى بنفيين لمنفيين مقصودين بالنفي. وأما في حقهم فإنما أتى بالاسم الدال على الوصف والثبوت دون الفعل، أي: إن الوصف الثابت اللازم العائد لله منتفٍ عنكم، فليس هذا الوصف ثابتاً لكم، وإنما ثبت لمن خص الله وحده بالعبادة، ولم يشرك معه فيها أحداً، وأنتم لما عبدتم غيره فلستم من عابديه، وإن عبدوه في بعض الأحيان، فإن المشرك يعبد الله ويعبد معه غيره، كما قال أهل الكهف: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، أي: اعتزلتم معبوديهم، إلا الله، فإنكم لم تعتزلوه. وكذا قال المشركون عن معبوديهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، فهم كانوا يعبدون معه غيره، فلم ينف عنهم الفعل لوقوعه منهم، ونفى الوصف؛ لأن من عبد غير الله لم يكن ثابتاً على عبادة الله موصوفاً بها.

فتأمل هذه النكتة البديعة، كيف تجد في طيها أنه لا يوصف بأنه عابد لله، وأنه عبده المستقيم على عبادته، إلا من انقطع إليه بكليته، وتبتل إليه تبتيلاً، لم يلتفت إلى غيره، ولم يشرك به أحداً في عبادته، وأنه إن عبده وأشرك معه غيره، فليس عابداً لله، ولا عبداً له.

وهذا من أسرار هذه السورة العظيمة الجليلة، التي هي إحدى سورتي الإخلاص، التي تعدل ربع القرآن، كما جاء في بعض السنن. وهذا لا يفهمه كل أحد، ولا يدركه إلا من منحه الله فهماً من عنده. فله الحمد والمنة.

□ □ □

وأما المسألة **الخامسة**: وهي: أن النفي في هذه السورة أتى بأداة «لا» دون «لن» فلما تقدم تحقيقه عن قرب أن النفي بـ«لا» أبلغ منه بـ«لن»، وأنها أدل على دوام النفي وطوله من «لن» وأنها للطول والمد الذي في لفظها طال النفي بها واشتد، وأن هذا ضد ما فهمته الجهمية والمعتزلة من أن «لن» إنما تنفي المستقبل ولا تنفي الحال المستمر النفي في الاستقبال، وقد تقدم تقرير ذلك بما لا تكاد تجده في غير هذا التعليق، فالإتيان «بلا» متعين هنا، والله أعلم.

□ □ □

وأما المسألة **السادسة**: وهي: اشتمال هذه السورة على النفي المحض.

فهذا هو خاصة هذه السورة العظيمة، فإنها سورة البراءة من الشرك، كما جاء في وصفها: أنها براءة من الشرك، فمقصودها الأعظم: هو البراءة المطلوبة بين الموحدين والمشركين، ولهذا أتى بالنفي في الجانبين، تحقيقاً للبراءة المطلوبة، وهذا مع أنها متضمنة للإثبات صريحاً، فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ﴾ براءة محضة ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ﴾ إثبات أن له معبوداً يعبده وحده، وأنتم بريئون من عبادته، فتضمنت النفي والإثبات، وطابقت قول إبراهيم إمام الحنفاء: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦، ٢٧]، وطابقت قول الفئة الموحدة: ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]، فانتظمت حقيقة (لا إله إلا الله)، ولهذا كان النبي ﷺ يقرنها بسورة ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] في سنة الفجر وسنة المغرب.

فإن هاتين السورتين سورتا الإخلاص، وقد اشتملتا على نوعي التوحيد الذي لا نجاة للعبد ولا فلاح له إلا بهما، وهما توحيد العلم والاعتقاد المتضمن تنزيه الله عما لا يليق به من الشرك والكفر والولد والوالد، وأنه إله أحد صمد لم يلد فيكون له فرع ﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ [الإخلاص: ٣]، فيكون له أصل ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، فيكون له نظير. ومع هذا فهو الصمد الذي اجتمعت له صفات الكمال كلها.

فتضمنت السورة إثبات ما يليق بجلاله من صفات الكمال، ونفي ما لا يليق به من الشريك أصلاً وفرعاً ونظيراً. فهذا توحيد العلم والاعتقاد.

والثاني: توحيد القصد والإرادة وهو: ألا يعبد إلا إياه، فلا يشرك به في عبادته سواه، بل يكون وحده هو المعبود.

وسورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ مشتملة على هذا التوحيد.

فانتظمت السورتان نوعي التوحيد وأخلصتا له، فكان ﷺ يفتتح بهما النهار في سنة الفجر، ويختتمه بهما في سنة المغرب، وفي السنن «أنه كان يوتر بهما»، فيكونان خاتمة عمل الليل كما كانا خاتمة عمل النهار.

ومن هنا تخريج جواب المسألة **السابعة**: وهي: تقديم براءته من معبودهم، ثم أتبعها ببراءتهم من معبوده، فتأمله.

□ □ □

وأما المسألة **الثامنة**: وهي: إثباته هنا بلفظ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ دون يا أيها الذين كفروا.

فسِرُّه ـ والله أعلم ـ إرادة الدلالة على أن من كان الكفر وصفاً ثابتاً له لازماً لا يفارقه، فهو حقيق أن يتبرأ الله منه، ويكون هو أيضاً بريئاً من الله، فحقيق بالموحد البراءة منه، فكان في معرض البراءة التي هي غاية البعد والمجانبة بحقيقة حاله، التي هي غاية الكفر، وهو الكفر الثابت اللازم، في غاية المناسبة، فكأنه يقول: كما أن الكفر لازم لكم ثابت لا تنتقلون عنه فمجانبتكم والبراءة منكم ثابتة لي دائماً أبداً، ولهذا أتى فيها بالنفي الدال على الاستمرار في مقابلة الكفر الثابت المستمر. وهذا واضح.

□ □ □

وأما المسألة **التاسعة**: وهي: ما هي الفائدة في قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾، وهل أفاد هذا معنىً زائداً على ما تقدم؟.

فيقال: في ذلك من الحكمة ـ والله أعلم ـ أن النفي الأول أفاد البراءة وأنه لا يتصور منه، ولا ينبغي له أن يعبد معبوديهم، وهم أيضاً لا يكونون عابدين لمعبوده، وأفاد آخر السورة إثبات ما تضمنه النفي من جهتهم من الشرك والكفر الذي هو حظهم وقسمهم ونصيبهم، فجرى ذلك مجرى من اقتسم هو وغيره أرضاً فقال له: لا تدخل في حدي، ولا أدخل في حدك، لك أرضك، ولي أرضي.

فتضمنت الآية أن هذه البراءة اقتضت أنا اقتسمنا خطتنا بيننا، فأصابنا التوحيد والإيمان، فهو نصيبنا وقسمنا الذي نختص به لا تشركونا فيه، وأصابكم الشرك بالله والكفر به، فهو نصيبكم وقسمكم الذي تختصون به لا نشرككم فيه، فتبارك من أحيا قلوب من شاء من عباده بفهم كلامه.

وهذه المعاني ونحوها إذا تجلت للقلوب، رافلة في حللها، فإنها تسبي القلوب وتأخذ بمجامعها، ومن لم يصادف من قلبه حياة فهي، «خُود[1] تُزفُّ إلى ضرير مقعد»، فالحمد لله على مواهبه التي لا منتهى لها، ونسأله إتمام نعمته.

□ □ □

وأما المسألة **العاشرة**: وهي: تقديم قسمهم ونصيبهم على قسمه ونصيبه، وفي أول السورة قدم ما يختص به على ما يختص بهم.

فهذا من أسرار الكلام، وبديع الخطاب الذي لا يدركه إلا فحول البلاغة وفرسانها، فإن السورة لما اقتضت البراءة واقتسام ديني التوحيد والشرك بينه وبينهم، ورضي كل بقسمه، وكان المحق هو صاحب القسمة، وقد أبرز النصيبين وميَّز القسمين، وعلم أنهم راضون بقسمهم الدون، الذي لا أردأ منه ولا أدرن، وأنه هو قد استولى على القسم الأشرف والحظ الأعظم، بمنزلة من اقتسم هو وغيره سماً وشفاءً، فرضي مقاسمه بالسم، فإنه يقول له: لا تشاركني في قسمي، ولا أشاركك في قسمك، لك قسمك، ولي قسمي.

فتقدم ذكر قسمه هنا أحسن وأبلغ، كأنه يقول: هذا هو قسمك الذي آثرته بالتقديم وزعمت أنه أشرف القسمين، وأحقهما بالتقديم، فكان في تقديم ذكر قسمه من التهكم بهم، والنداء على سوء اختيارهم، وقبح ما رضوه لأنفسهم من الحسن والبيان، ما لا يوجد في ذكر تقديم قسم نفسه، والحاكم في هذا هو الذوق. والفَطِن يكتفي بأدنى إشارة، وأما غليظ الفهم فلا ينجع فيه كثرة البيان.

ووجه ثانٍ، وهو: أن مقصود السورة براءته ﷺ من دينهم ومعبودهم، هذا هو لبها ومغزاها، وجاء ذكر براءتهم من دينه ومعبوده بالقصد الثاني، مكملاً لبراءته ومحققاً لها، فلما كان المقصود براءته من دينهم بدأ به في أول السورة، ثم جاء قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ مطابقاً لهذا المعنى، أي: لا أشارككم في دينكم، ولا

---

(١) «الخودُ»: الحسنة الخلقة، الشابة، أو الناعمة، القاموس المحيط (٣٥٨)، طبعة الرسالة.

أوافقكم عليه، بل هو دين باطل تختصمون أنتم به ولا أشارككم فيه أبداً، فطابق آخر السورة أولها، فتأمل.

□ □ □

وأما المسألة **الحادية عشرة**: وهي: أن هذا الإخبار بأن لهم دينهم وله دينه. هل هو إقرار؟ فيكون منسوخاً، أو لا نسخ في الآية ولا تخصيص؟

فهذه مسألة شريفة من أهم المسائل المذكورة، وقد غلط في السورة خلائق وظنوها منسوخة بآية السيف، لاعتقادهم أن هذه الآية اقتضت التقرير لهم على دينهم، وظن آخرون أنها مخصوصة بمن يقرون على دينهم وهم أهل الكتاب، وكلا القولين غلط محض، فلا نسخ في السورة ولا تخصيص، بل هي محكمة، وعمومها نص محفوظ، وهي من السور التي يستحيل دخول النسخ في مضمونها، فإن أحكام التوحيد الذي اتفقت عليه دعوة الرسل يستحيل دخول النسخ فيه، وهذه السورة أخلصت التوحيد، ولهذا تسمى سورة الإخلاص كما تقدم.

ومنشأ الغلط: ظنهم أن الآية اقتضت إقرارهم على دينهم، ثم رأوا أن هذا الإقرار زال بالسيف، فقالوا: هو منسوخ.

وقالت طائفة: زال عن بعض الكفار، وهم من لا كتاب لهم. فقالوا: هذا مخصوص بأهل الكتاب.

ومعاذ الله أن تكون الآية اقتضت تقريراً لهم أو إقراراً على دينهم أبداً، فلم يزل رسول الله ﷺ من أول الأمر وأشده عليه وعلى أصحابه أشد في الإنكار عليهم، وعيب دينهم، وتقبيحه والنهي عنه، والتهديد والوعيد لهم كل وقت، وفي كل نادٍ، وقد سألوه أن يكف عن ذكر آلهتهم، وعيب دينهم، ويتركونه وشأنه، فأبى إلا مُضياً على الإنكار عليهم وعيب دينهم، فكيف يقال: إن الآية اقتضت تقريره لهم؟ معاذ الله من هذا الزعم الباطل، إنما الآية اقتضت براءته المحضة كما تقدم، وأن ما أنتم عليه من الدين لا نوافقكم عليه أبداً، فإنه دين باطل، فهو مختص بكم، لا نشارككم فيه، ولا أنتم تشاركوننا في ديننا الحق. وهذا غاية البراءة والتنصل من موافقتهم في دينهم، فأين الإقرار؟ حتى يدعوا النسخ أو التخصيص؟

أفترى إذا جوهدوا بالسيف كما جوهدوا بالحجة لا يصح أن يقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؟ بل هذه آية قائمة محكمة ثابتة بين المؤمنين والكافرين إلى أن يطهر الله منهم عباده وبلاده.

□ □ □

وكذلك حكم هذه البراءة بين أتباع رسول الله ﷺ أهل سنته وبين أهل البدع المخالفين لما جاء به، الداعين إلى غير سنته، إذ قال لهم خلفاء الرسول وورثته: لكم دينكم ولنا ديننا. لا يقتضي هذا إقرارهم على بدعتهم، بل يقولون لهم هذا براءة منهم ومن بدعتهم، وهم مع هذا منتصبون للرد عليهم ولجهادهم بحسب الإمكان.



فهذا ما فتح الله العظيم به من هذا الكلمات اليسيرة، والنبذة المثيرة إلى عظمة هذه السورة وجلالتها، ومقصودها وبديع نظمها، من غير استعانة بتفسير ولا تتبع لهذه الكلمات من مظان توجد فيه، بل هي استجلاء مما علمه الله وألهمه بفضله وكرمه.

والله يعلم أني لو وجدتها في كتاب لأضفتها إلى قائلها، وبالغت في استحسانها، وعسى الله المان بفضله، الواسع العطاء الذي عطاؤه على غير قياس المخلوقين: أن يعين على تعليق تفسير على هذا النمط وهذا الأسلوب، وقد كتبت على مواضع متفرقة من القرآن، بحسب ما يسنح من هذا النمط وقت مقامي بمكة وبالبيت المقدس، والله المرجو إتمام نعمته[1].



(١) بدائع الفوائد (١/ ١٣٣ ـ ١٤٧).

سُورَةُ النَّصرِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر: ١ ـ ٣].

قال عمر بن الخطاب للصحابة: ما تقولون فيها؟ قالوا: أمر الله نبيه إذا فتح عليه أن يستغفره. فقال لابن عباس: ما تقول أنت؟ قال: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه. فقال: ما أعلم منها غير ما تعلم(١).

وهذا من أدق الفهم وألطفه، ولا يدركه كل أحد، فإنه سبحانه لم يعلق الاستغفار بعمله، بل علقه بما يحدثه هو سبحانه من نعمة فتحه على رسوله ودخول الناس في دينه، وهذا ليس بسبب الاستغفار، فعلم أن سبب الاستغفار غيره، وهو حضور الأجل الذي من تمام نعمة الله على عبده توفيقه للتوبة النصوح والاستغفار بين يديه، ليلقى ربه طاهراً مطهراً من كل ذنب، فيقدم مسروراً راضياً مرضياً عنه. ويدل عليه أيضاً قوله: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾.

إلى آخر سورة النصر.

وهو ﷺ كان يسبح بحمده دائماً، فعلم أن المأمور به من ذلك التسبيح بعد الفتح ودخول الناس في الدين: أمر أكبر من ذلك المتقدم، وذلك مقدمة بين يدي انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وأنه قد بقيت عليه من عبودية التسبيح والاستغفار التي ترقيه إلى ذلك المقام بقيةٌ، فأمره بتوفيتها.

ويدل عليه أيضاً أنه سبحانه شرع التوبة والاستغفار في خواتيم الأعمال، فشرعها في خاتمة الحج، وقيام الليل، وكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً،

---

(١) رواه البخاري (٤٢٩٤).

وشرع للمتوضئ بعد كمال وضوئه أن يقول: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين».

فعلم أن التوبة مشروعة عقيب الأعمال الصالحة، فأمر رسوله بالاستغفار عقيب توفيته ما عليه من تبليغ الرسالة والجهاد في سبيله حين دخل الناس في دينه أفواجاً، فكأن التبليغ عبادة قد أكملها وأداها، فشرع له الاستغفار عقيبها[١].



(١) إعلام الموقعين (١/ ٤٣٦).

سُوْرَةُ المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [المسد: ١ ـ ٥].

فسمَّاها امرأته بعقد النكاح الواقع في الشرك.

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] فسماها امرأته.

والصحابة ﵃ غالبهم إنما ولدوا من نكاح كان قبل الإسلام في حال الشرك، وهم ينسبون إلى آبائهم انتساباً لا ريب فيه عند أحد من أهل الإسلام، وقد أسلم الجم الغفير في عهد النبي ﷺ، فلم يأمر أحداً منهم أن يجدد عقده على امرأته، فلو كانت أنكحة الكفار باطلة لأمرهم بتجديد أنكحتهم.

وقد كان رسول الله ﷺ يدعو أصحابه لآبائهم، وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام[1].



(١) أحكام أهل الذمة (١/٣٠٨، ٣٠٩).

سُورَةُ الإِخْلَاصِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١ ـ ٤].

فهو توحيد منه لنفسه وأمر للمخاطب بتوحيده فإذا قال العبد: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ كان قد وحد الله بما وحد به نفسه وأتى بلفظة: ﴿قُلْ﴾ تحقيقاً لهذا المعنى، وأنه مبلغ محض، قائل لما أمر بقوله، والله أعلم. وهذا بخلاف قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فإن هذا أمر محض بإنشاء الاستعاذة، لا تبليغ لقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإن الله لا يستعيذ من أحد، وذلك عليه محال، بخلاف قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، فإنه خبر عن توحيده، وهو سبحانه يخبر عن نفسه بأنه الواحد الأحد. فتأمل هذه النكتة البديعة، والله المستعان[(١)].

□ □ □

فسورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾: متضمنة لتوحيد الاعتقاد والمعرفة وما يجب إثباته للرب تعالى من الأحدية المنافية لمطلق المشاركة بوجه من الوجوه، والصمدية المثبتة له جميع صفات الكمال التي لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه، ونفي الولد والوالد الذي هو من لوازم الصمدية، وغناه وأحديته ونفي الكفء المتضمن لنفي التشبيه والتمثيل والتنظير.

فتضمنت هذه السورة إثبات كل كمال له، ونفي كل نقص عنه، ونفي إثبات شبيه أو مثل له في كماله، ونفي مطلق الشريك عنه. وهذه الأصول هي مجامع التوحيد العلمي الاعتقادي الذي يباين صاحبه جميع فرق الضلال والشرك، ولذلك كانت

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ١٧٢).

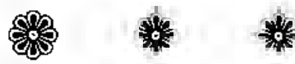
تعدل ثلث القرآن؛ فإن القرآن مداره على الخبر والإنشاء، والإنشاء ثلاثة: أمر ونهي وإباحة. والخبر نوعان: خبر عن الخالق تعالى وأسمائه وصفاته وأحكامه، وخبر عن خلقه.

فأخلصت سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ الخبر عنه وعن أسمائه وصفاته، فعدلت ثلث القرآن وخلصت قارئها المؤمن بها من الشرك العلمي، كما خلصت سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] من الشرك العملي الإرادي القصدي.

ولما كان العلم قبل العمل، وهو إمامه وقائده وسائقه والحاكم عليه ومنزله منازله؛ كانت سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، والأحاديث بذلك تكاد تبلغ مجمع التواتر، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن، والحديث بذلك في الترمذي من رواية ابن عباس رضي الله عنهما يرفعه: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعدل نصف القرآن، و﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن، و﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»[1]. رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد.

ولما كان الشرك العملي الإرادي أغلب على النفوس؛ لأجل متابعتها هواها، وكثير منها ترتكبه مع علمها بمضرته وبطلانه؛ لما لها فيه من نيل الأغراض، وإزالته وقلعه منها أصعب وأشد من قلع الشرك العلمي وإزالته؛ لأن هذا يزول بالعلم والحجة ولا يمكن صاحبه أن يعلم الشيء على غير ما هو عليه، بخلاف شرك الإرادة والقصد، فإن صاحبه يرتكب ما يدله العلم على بطلانه وضرره؛ لأجل غلبة هواه واستيلاء سلطان الشهوة والغضب على نفسه، فجاء من التأكيد والتكرار في سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ المتضمنة لإزالة الشرك العملي ما لم يجئ مثله في سورة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولما كان القرآن شطرين: شطراً في الدنيا وأحكامها ومتعلقاتها والأمور الواقعة فيها من أفعال المكلفين وغيرها، وشطراً في الآخرة وما يقع فيها.

وكانت سورة ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ قد أُخلصتْ من أولها وآخرها لهذا الشطر، فلم يذكر فيها إلا الآخرة، وما يكون فيها من أحوال الأرض وسكانها، كانت تعدل نصف القرآن[2].



(١) مستدرك الحاكم (١/ ٥٦٦) وصححه، وخالفه الذهبي بقوله: «بل يمان ضعفوه».
(٢) زاد المعاد (١/ ٣١٦ ـ ٣١٨).

سُورَةُ الفَلَقِ

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ١ ـ ٥].

* * *

[ما جاء في فضل المعوذتين]

روى مسلم في صحيحه من حديث قيس بن أبي حازم عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: «ألم ترَ آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط: ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»[1].

وفي لفظ آخر من رواية محمد بن إبراهيم التيمي عن عقبة: أن رسول الله ﷺ قال له: «ألا أخبرك بأفضل ما تعوَّذ به المتعوِّذون؟» قلت: بلى، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»[2].

وفي الترمذي: حدثنا قتيبة أخبرنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن علي بن رباح، عن عقبة بن عامر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دُبر كل صلاة»[3]. وقال: هذا حسن غريب.

وفي الترمذي والنسائي وسنن أبي داود، عن عبد الله بن حبيب قال: خرجنا في ليلة مطر وظلمة، نطلب النبي ﷺ ليصلِّي لنا، فأدركناه، فقال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، فلم أقل شيئاً، ثم قال: «قل»، قلت: يا رسول الله، ما

---

(١) رواه مسلم (٨١٤).
(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٧/ ٣٤٢)، ولم أره عند الهيثمي، في التفسير (٧/ ١٤٨).
(٣) سنن الترمذي (٥/ ١٥٧) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في المعوذتين، وصححه الألباني، فانظره مفصلاً برقم (١٥١٤) الصحيحة.

أقول؟ قال: «قل: قل هو الله أحد والمعوذتين، حين تمسي وحين تصبح، ثلاث مرات، تكفيك من كل شيء»[(١)]. قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

وفي الترمذي أيضاً: من حديث الجريري عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: «كان رسول الله ﷺ يتعوذ من الجان وعين الإنسان، حتى نزلت المعوذتان. فلما نزلتا أخذهما وترك ما سواهما»[(٢)]. قال: وفي الباب عن أنس، وهذا حديث غريب.

وفي الصحيحين عن عائشة: أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه نَفَثَ في كفيه بـ: قل هو الله أحد، والمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده. قالت عائشة: فلما اشتكى كان يأمرني أن أفعل ذلك به.

قلت: هكذا رواه يونس، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة. ذكره البخاري[(٣)].

ورواه مالك عن الزهري عن عروة عنها: أن النبي ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات، وينفث، فلما اشتد وجعه كنتُ أقرأ عليه، وأمسح عليه بيده، رجاء بركتها. وكذلك قال معمر، عن الزهري، عن عروة عنها: أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في مرضه الذي قبض فيه بالمعوذات، فلما ثَقُل كنتُ أنا أنفث عليه بهن، وأمسح بيد نفسه لبركتها. فسألت ابن شهاب: كيف كان ينفث؟ قال: ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه[(٤)]. ذكره البخاري أيضاً.

[النبي ﷺ لم يسترقِ]

وهذا هو الصواب: أن عائشة كانت تفعل ذلك، والنبي ﷺ لم يأمرها ولم يمنعها من ذلك. وأما أن يكون استرقى وطلب منها أن ترقيه فلا، ولعل بعض الرواة رواه بالمعنى، فظن أنها لما فعلت ذلك وأقرها النبي ﷺ: أنه كان يأمرها، وفرق بين الأمرين، ولا يلزم من كون النبي ﷺ قد أقرها على رقيته أن يكون هو

---

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (٣/ ١٨٢) في الدعوات باب: رقم (٧)، والنسائي (٨/ ٢٥١) في الاستعاذة، وأبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٥٧) في أبواب النوم: ما يقول إذا أصبح.

(٢) في المطبوع من «أبي هريرة عن أبي سعيد. . .»، والصواب ما في السنن: «أبو نضرة عن أبي سعيد»، وهو ما أثبته، والحديث صحيح، رواه الترمذي (الصحيح) (٢/ ٢٠٦) في الطب، الرقية بالمعوذتين، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٦٦) في الطب، من استرقى من العين، والنسائي (٨/ ٢٥٤) في الاستعاذة.

(٣) رواه البخاري (٥٠١٧).

(٤) رواه البخاري (٥٧٤٨، ٦٣١٩).

مسترقياً، فليس أحدهما بمعنى الآخر، ولعل الذي كان يأمرها به: إنما هو المسح على نفسه بيده، فيكون هو الراقي لنفسه، ويده لما ضعفت عن التنقل على سائر بدنه أمرها أن تنقلها على بدنه. ويكون هذا غير قراءتها هي عليه، ومسحها على بدنه، فكانت تفعل هذا وهذا. والذي أمرها به إنما هو نقل يده، لا رقيته، والله أعلم.

والمقصود: الكلام على هاتين السورتين، وبيان عظيم منفعتهما، وشدة الحاجة بل الضرورة إليهما، وأنه لا يستغني عنهما أحد قط، وأن لهما تأثيراً خاصاً في دفع السحر والعين، وسائر الشرور، وأن حاجة العبد إلى الاستعاذة بهاتين السورتين أعظم من حاجته إلى النَّفَس والطعام والشراب واللباس. فنقول والله المستعان:

قد اشتملت السورتان على ثلاثة أصول وهي أصول الاستعاذة:

أحدها: نفس الاستعاذة.

والثانية: المستعاذ به.

والثالثة: والمستعاذ منه.

فبمعرفة ذلك تعرف شدة الحاجة والضرورة إلى هاتين السورتين.

فنعقد لهما ثلاثة فصول: الفصل **الأول:** في الاستعاذة. **والثاني:** في المستعاذ به. **والثالث:** في المستعاذ منه.

* * *

الفصل الأول

« في معنى الاستعاذة »

[معنى الكلمة واشتقاقها]

اعلم أن لفظة «عاذ» وما تصرف منها تدل على التحرز والتحصن والنجاة وحقيقة معناها: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه. ولهذا يسمى المستعاذ به: مَعاذاً، كما يسمى: ملجأً ووزراً.

وفي الحديث: أن ابنة الجَون لما أدخلت على النبي ﷺ فوضع يده عليها، قالت: «أعوذ بالله منك». فقال لها: «لقد عُذْت بمَعاذ، الحقي بأهلك»[1].

---

(١) رواه البخاري (٥٢٥٤).

فمعنى «أعوذ» ألتجئ وأعتصم، وأتحرز.

وفي أصله قولان:

أحدهما: أنه مأخوذ من الستر.

والثاني: أنه مأخوذ من لزوم المجاورة.

فأما من قال: إنه من الستر فقال: العرب تقول للبيت الذي في أصل الشجرة التي قد استتر بها: «عُوَّذ» بضم العين وتشديد الواو وفتحها، فكأنه لما عاذ بالشجرة واستتر بأصلها وظلها: سموه عُوَّذاً. فكذلك العائذ قد استتر من عدوه بمن استعاذ به منه واستَجَنَّ به منه.

ومن قال: هو لزوم المجاورة قال: العرب تقول للحم إذا لصق بالعظم فلم يتخلَّص منه: «عُوَّذ» لأنه اعتصم به، واستمسك به. فكذلك العائذ قد استمسك بالمستعاذ به، واعتصم به، ولزمه.

والقولان حق. والاستعاذة تنتظمهما معاً. فإن المستعيذ مستتر بمعاذه، مستمسك به، معتصم به، قد استمسك قلبه به ولزمه، كما يلزم الولد أباه إذا أشهر عليه عدوه سيفاً وقصده به، فهرب منه، فعرض له أبوه في طريق هربه، فإنه يُلقي نفسه عليه، ويستمسك به أعظم استمساك، فكذلك العائذ قد هرب من عدوه الذي يبغي هلاكه إلى ربه ومالكه، وفر إليه وألقى نفسه بين يديه، واعتصم به، والتجأ إليه.

□ □ □

وبعد، فمعنى الاستعاذة القائم بقلب المؤمن وراء هذه العبارات. وإنما هي تمثيل وإشارة وتفهيم، وإلا فما يقوم بالقلب حينئذ من الالتجاء والاعتصام، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه: أمر لا تحيط به العبارة.

ونظير هذا: التعبير عن معنى محبته وخشيته، وإجلاله ومهابته، فإن العبارة تقصر عن وصف ذلك، ولا تدرك إلا بالاتصاف بذلك، لا بمجرد الوصف والخبر، كما أنك إذا وصفت لذة الوقاع لعنِّين لم تُخلق له شهوة أصلاً، فمهما قربتها وشبهتها بما عساك أن تشبهها به، لم تحصل حقيقة معرفتها في قلبه، فإذا وصفتها لمن خلقت الشهوة فيه وركبت فيه عرفها بالوجود والذوق.

□ □ □

وأصل هذا الفعل: «أعْوُذ» بتسكين العين وضم الواو، ثم أُعِلَّ بنقل حركة الواو

إلى العين وتسكين الواو، فقالوا: أعوذ على أصل هذا الباب. ثم طردوا إعلاله، فقالوا في اسم الفاعل: عائذ. وأصله: عاوذ، وقعت الواو بعد ألف فاعل، فقلبوها همزة، كما قالوا: قائم، وخائف. وقالوا في المصدر: عياذاً بالله وأصله: عواذاً كَلِواذٍ، فقلبوا الواو ياءً لكسرة ما قبلها، ولم تحصنها حركتها لأنها قد ضعفت بإعلالها في الفعل، وقالوا: مستعيذ. وأصله: مستعوذ، كمستخرج، فنقلوا كسرة الواو إلى العين قبلها، فلما كسرت العين قبلت قبلها كسرة، فقلبت ياءً على أصل الباب.

فإن قلت: فلم دخلت السين والتاء في الأمر من هذا الفعل، كقوله: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]، ولم تدخل في الماضي والمضارع، بل الأكثر أن يقال: أعوذ بالله، وتعوَّذت، دون أستعيذ، واستعذت؟

قلت: السين والتاء دالة على الطِلب، فقوله: أستعيذ بالله، أي: أطلب العياذ به. كما إذا قلت: أستخير الله، أي: أطلب خيرته وأستغفره، أي: أطلب مغفرته. وأستقيله، أي: أطلب إقالته. فدخلت في الفعل إيذاناً بطلب هذا المعنى من المعاذ، فإذا قال المأمور: أعوذ بالله، فقد امتثل ما طلب منه؛ لأنه طلب منه الالتجاء والاعتصام. وفرق بين نفس الالتجاء والاعتصام، وبين طلب ذلك. فلما كان المستعيذ هارباً ملتجئاً معتصماً بالله، أتى بالفعل الدال على ذلك، دون الفعل الدال على طلب ذلك، فتأمله.

وهذا بخلاف ما إذا قيل: استغفِرِ الله، فقال: أستغفرُ الله. فإنه طلب منه أن يطلب المغفرة من الله، فإذا قال: أستغفر الله، كان ممتثلاً؛ لأن المعنى: أطلب من الله أن يغفر لي.

وحيث أراد هذا المعنى في الاستعاذة، فلا ضير أن يأتي بالسين والتاء، فيقول: أستعيذ بالله، أي: أطلب منه أن يعيذني، ولكن هذا معنى غير نفس الاعتصام والالتجاء والهرب إليه.

فالأول: مخبر عن حاله وعياذه بربه، وخبره يتضمن سؤاله وطلبه أن يعيذه.

والثاني: طالب سائل من ربه أن يعيذه، كأنه يقول: أطلب منك أن تعيذني.

فحال الأول أكمل. ولهذا جاء عن النبي ﷺ في امتثال هذا الأمر: «أعوذ بالله

من الشيطان الرجيم»[١]، و«أعوذ بكلمات الله التامات»[٢]، و«أعوذ بعزة الله وقدرته»[٣] دون: أستعيذ. بل الذي علمه الله إياه أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ دون أستعيذ، فتأمل هذه الحكمة البديعة.

□ □ □

[لماذا ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وليس ﴿أَعُوذُ﴾؟]

فإن قلت: فكيف جاء امتثال هذا الأمر بلفظ الأمر والمأمور به، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، ومعلوم أنه إذا قيل: قل: الحمد لله. وقل: سبحان الله. فإن امتثاله أن يقول: الحمد لله، وسبحان الله، ولا يقول: قل: سبحان الله.

قلت: هذا هو السؤال الذي أورده أُبيّ بن كعب على النبي ﷺ بعينه، وأجابه عنه رسول الله ﷺ، فقد قال البخاري في صحيحه: حدثنا قتيبة، حدثنا سفيان عن عاصم وعبدة، عن زِرِّ بن حُبيش قال: سألت أبيَّ بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ؟ فقال: «قيل لي، فقلت». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ. ثم قال: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان، حدثنا عبدة بن أبي لبابة، عن زر بن حبيش، وحدثنا عاصم عن زر، قال: سألت أبيّ بن كعب، قلت: أبا المنذر، إن أخاك ابن مسعود يقول: كذا وكذا. فقال: إني سألت رسول الله ﷺ فقال: «قيل لي، فقلت: قل». فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ[٤].

قلت: مفعول القول محذوف، وتقديره: قيل لي: قل، أو قيل لي هذا اللفظ، فقلت كما قيل لي.

وتحت هذا من السر: أن النبي ﷺ ليس له في القرآن إلا إبلاغه، لا أنه هو

---

(١) قال العلامة الألباني «صحيح لكن بزيادتين يأتي ذكرهما، وأما بدونهما فلا أعلم فلا أصلاً»، الإرواء (٢/ ٥٣) حديث رقم (٣٤٢) فانظره: مفصلاً، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ١٢) في معنى «تفسير الاستعاذة وأحكامها».

(٢) رواه البخاري (٣٣٧١).

(٣) حديث صحيح، رواه الإمام أحمد (٤/ ٢١٧) و(٦/ ٣٩٠)، وأبو داود (الصحيح) (٢/ ٧٣٦) في الطب، باب: كيف الرقى، والترمذي (٥/ ٥٣٥) في الدعوات، باب: الرقية إذا اشتكى، ورواه غيرهم.

(٤) صحيح البخاري (٤٩٧٧).

أنشأه من قبل نفسه، بل هو المبلغ له عن الله. وقد قال الله له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فكان مقتضى البلاغ التام أن يقول: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ كما قال الله. وهذا هو المعنى الذي أشار النبي ﷺ إليه بقوله: «قيل لي، فقلت»، أي: إني لست مبتدئاً، بل أنا مبلغ، أقول كما يقال لي، وأبلغ كلام ربي كما أنزله إليّ.

فصلوات الله وسلامه عليه، لقد بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وقال كما قيل له. فكفانا من المعتزلة والجهمية وإخوانهم ممن يقول: هذا القرآن العربي وهذا النظم كلامه ابتدأ هو به. ففي هذا الحديث أبين الرد لهذا القول، وأنه ﷺ بلّغ القول الذي أمر بتبليغه على وجهه ولفظه، حتى إنه لما قيل له: «قل» قال هو: «قل» لأنه مبلّغ محض. وما على الرسول إلا البلاغ.

* * *

الفصل الثاني

في المستعاذ

وهو الله وحده، رب الفلق، ورب الناس، ملك الناس، إله الناس، الذي لا ينبغي الاستعاذة إلا به، ولا يستعاذ بأحد من خلقه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين، ويعصمهم، ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره.

وقد أخبر تعالى في كتابه عمن استعاذ بخلقه: أن استعاذته زادته طغياناً ورَهَقاً. فقال حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، جاء في التفسير: أنه «كان الرجل من العرب في الجاهلية إذا سافر فأمسى في أرض قفر، قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه؛ فيبيت في أمن وجوار منهم حتى يصبح»(١). أي: فزاد الإنس الجن باستعاذتهم بسادتهم رهقاً أي: طغياناً وإثماً وشراً، يقولون: سُدنا الإنس والجن. و«الرهق» في كلام العرب: الإثم وغشيان المحارم، فزادوهم بهذه الاستعاذة غشياناً لما كان محظوراً من الكبر والتعاظم، فظنوا أنهم سادوا الإنس والجن.

واحتج أهل السنة على المعتزلة، في أن كلمات الله غير مخلوقة: بأن النبي ﷺ

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/ ٤٥٥)، تفسير الآية رقم (٦) من سورة الجن.

استعاذ بقوله: «أعوذ بكلمات الله التامَّات»[١]، وهو ﷺ لا يستعيذ بمخلوق أبداً.

ونظير ذلك: قوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»[٢]. فدل على أن رضاه وعفوه من صفاته، وأنه غير مخلوق. وكذلك قوله: «أعوذ بعزة الله وقدرته»[٣]. وقوله: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات». وما استعاذ به النبي ﷺ غير مخلوق، فإنه لا يستعيذ إلا بالله، أو بصفة من صفاته.

وجاءت الاستعاذة في هاتين السورتين باسم الرب، والملك، والإلٰه.

وجاءت الربوبية فيهما مضافة إلى الفَلَق، وإلى الناس، ولا بد من أن يكون ما وصف به نفسه في هاتين السورتين يناسب الاستعاذة المطلوبة، ويقتضي دفع الشر المستعاذ منه أعظم مناسبة وأبينها.

وقد قررنا في مواضع متعددة: أن الله سبحانه يُدعَى بأسمائه الحسنى، فيسأل لكل مطلوب باسم يناسبه ويقتضيه. وقد قال النبي ﷺ في هاتين السورتين: «إنه ما تعوَّذ المتعوذون بمثلهما»[٤]، فلا بد أن يكون الاسم المستعاذ به مقتضياً للمطلوب، وهو دفع الشر المستعاذ منه أو رفعه.

وإنما يتقرر هذا بالكلام في الفصل الثالث. وهو الشيء المستعاذ منه. فتتبين المناسبة المذكورة فنقول:

الفصل الثالث

في أنواع الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين

الشر الذي يصيب العبد لا يخلو من قسمين:

إما ذنوب وقعت منه يعاقب عليها. فيكون وقوع ذلك بفعله وقصده وسعيه، ويكون هذا الشر هو الذنوب وموجباتها، وهو أعظم الشرين وأدومهما، وأشدهما اتصالاً بصاحبه.

وإما شر واقع به من غيره، وذلك الغير إما مكلف أو غير مكلف، والمكلف إما نظيره، وهو الإنسان، أو ليس نظيره، وهو الجني. وغير المكلف: مثل الهوام

(١) رواه البخاري (٣٣٧١). (٢) رواه مسلم (٤٨٦).

(٣) حديث صحيح رواه الإمام أحمد (٤/ ٢١٧)، وأبو داود والترمذي.

(٤) رواه النسائي من حديث عقبة بن عامر (٨/ ٢٥١) في افتتاح كتاب الاستعاذة، وانظر: هامش (١ ـ ٣) أول السورة.

وذوات الحُمَة[١] وغيرها.

فتضمنت هاتان السورتان الاستعاذة من هذه الشرور كلها بأوجز لفظ وأجمعه، وأدله على المراد، وأعمه استعاذة، بحيث لم يبق شر من الشرور إلا دخل تحت الشر المستعاذ منه فيهما.

فإن سورة الفلق تضمنت الاستعاذة من أمور أربعة:

أحدها: شر المخلوقات التي لها شر عموماً.

الثاني: شر الغاسق إذا وقب.

الثالث: شر النفاثات في العقد.

الرابع: شر الحاسد إذا حسد.

فنتكلم على هذه الشرور الأربعة ومواقعها واتصالها بالعبد، والتحرز منها قبل وقوعها، وبماذا تدفع بعد وقوعها.

[بيان حقيقة الشر]

وقبل الكلام في ذلك لا بد من بيان الشر: ما هو؟ وما حقيقته؟

فنقول: الشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه، وليس له مسمى سوى ذلك. فالشرور: هي الآلام وأسبابها، فالمعاصي والكفر والشرك وأنواع الظلم: هي شرور، وإن كان لصاحبها فيها نوع غرض ولذة، لكنها شرور: لأنها أسباب للآلام، ومفضية إليها، كإفضاء سائر الأسباب إلى مسبباتها. فترتب الألم عليها كترتب الموت على تناول السموم القاتلة، وعلى الذبح والإحراق بالنار، والخنق بالحبل، وغير ذلك من الأسباب التي تكون مفضية إلى مسبباتها ولا بد، ما لم يمنع من السببية مانع، أو يعارض السبب ما هو أقوى منه وأشد اقتضاء لضده، كما يعارض سبب المعاصي قوة الإيمان، وعظم الحسنات الماحية وكثرتها، فيزيد في كميتها أو كيفيتها على أسباب العذاب، فيدفع الأقوى الأضعف.

وهذا شأن جميع الأسباب المتضادة، كأسباب الصحة والمرض، وأسباب الضعف والقوة.

---

(١) بهامش الأصل «المطبوع» «والحُمَة» جمع حمة، وهو السم أو الإبرة التي تضرب بها الزنبور والحية، ونحو ذلك أو يلدغ بها. (٢/ ٢٠٤) من بدائع الفوائد.

والمقصود: أن هذه الأسباب التي فيها لذة ما، هي شر، وإن نالت بها النفس مسرة عاجلة، وهي بمنزلة طعام لذيذ شهي لكنه مسموم، إذا تناوله الآكل لذَّ لأكله وطاب له مساغه، وبعد قليل يفعل به ما يفعل، فهكذا المعاصي والذنوب ولا بد، حتى لو لم يخبر الشارع بذلك لكان الواقع والتجربة الخاصة والعامة من أكبر شهوده.

وهل زالت عن أحد قط نعمة إلا بشؤم معصيته؟ فإن الله إذا أنعم على عبد نعمة حفظها عليه، ولا يغيرها عنه حتى يكون هو الساعي في تغييرها عن نفسه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ﴾ [الأنفال: ٥٣].

ومن تأمل ما قص الله في كتابه من أحوال الأمم الذين أزال نعمه عنهم، وجد سبب ذلك جميعه: إنما هو مخالفة أمره، وعصيان رسله. وكذلك من نظر في أحوال أهل عصره، وما أزال الله عنهم من نعمه، وجد ذلك كله من سوء عواقب الذنوب، كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارعها ... فإن المعاصي تزيل النعم

فما حفظت نعمة الله بشيء قط مثل طاعته، ولا حصلت فيها الزيادة بمثل شكره ولا زالت عن العبد نعمة بمثل معصيته لربه. فإنها نار النعم التي تعمل فيها كما تعمل النار في الحطب اليابس. ومن سافر بفكره في أحوال العالم استغنى عن تعريف غيره له.

والمقصود: أن هذه الأسباب شرور ولا بد.

وأما كون مسبباتها شروراً: فلأنها آلام نفسية وبدنية، فيجتمع على صاحبها مع شدة الألم الحسي ألم الروح بالهموم والغموم والأحزان والحسرات، ولو تفطن العاقل اللبيب لهذا حق التفطن لأعطاه حقه من الحذر والجد في الهرب. ولكن قد ضُرب على قلبه حجاب الغفلة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً. فلو تيقظ حق التيقظ لتقطعت نفسه في الدنيا حسرات على ما فاته من حظه العاجل والآجل من الله. وإنما يظهر له هذا حقيقة الظهور عند مفارقة هذا العالم، والإشراف والاطلاع على عالم البقاء فحينئذٍ يقول: ﴿يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ [الفجر: ٢٤]، و﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦].

[الآلام وأسبابها والاستعاذة من ذلك]

ولما كان الشر هو الآلام وأسبابها، كانت استعاذات النبي ﷺ جميعها مدارها على هذين الأصلين. فكل ما استعاذ منه أو أمر بالاستعاذة منه فهو إما مؤلم، وإما سبب يفضي إليه، فكان يتعوذ في آخر الصلاة من أربع وأمر بالاستعاذة منهن وهي: «عذاب القبر، وعذاب النار»، فهذان أعظم المؤلمات «وفتنة المحيا والممات، وفتنة المسيح الدجال»[١]، وهذان سبب العذاب المؤلم. فالفتنة سبب العذاب، وذكر الفتنة خصوصاً، وذكر نوعي الفتنة، لأنها إما في الحياة وإما بعد الموت، ففتنة الحياة: قد يتراخى عنها العذاب مدة، وأما فتنة بعد الموت فيتصل بها العذاب من غير تراخ.

فعادت الاستعاذة إلى الاستعاذة من الألم والعذاب وأسبابهما.

وهذا من آكد أدعية الصلاة، حتى أوجب بعض السلف والخلف الإعادة على من لم يدع به في التشهد الأخير، وأوجبه ابن حزم في كل تشهد، فإن لم يأت به فيه بطلت صلاته.

ومن ذلك قوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحَزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وضَلَع الدين وغلبة الرجال»[٢]، فاستعاذ من ثمانية أشياء كل اثنين منها قرينان.

فالهم والحزن قرينان، وهما من آلام الروح ومعذِّباتها، والفرق بينهما: أن الهم توقع الشر في المستقبل، والحزن: هو التألم على حصول المكروه في الماضي، أو فوات المحبوب، وكلاهما تألم وعذاب يرد على الروح، فإن تعلق بالماضي سمي حزناً، وإن تعلق بالمستقبل سمي هَمّاً.

والعجز والكسل قرينان، وهما من أسباب الألم. لأنهما يستلزمان فوات المحبوب، فالعجز يستلزم عدم القدرة. والكسل يستلزم عدم إرادته. فتتألم الروح لفواته بحسب تعلقها به، والتذاذها بإدراكه لو حصل.

والجبن والبخل قرينان، لأنهما عدم النفع بالمال والبدن، وهما من أسباب الألم؛ لأن الجبان تفوته محبوبات ومفرحات وملذوذات عظيمة، ولا تنال إلا

---

(١) رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩).

(٢) رواه البخاري (٥٤٢٥)، ومسلم (١٣٦٥).

بالبذل والشجاعة، والبخل يحول ببينه وبينها، فهذان الخلقان من أعظم أسباب الآلام.

وضلع الدين، وقهر الرجال: قرينان، وهما مؤلمان للنفس معذبان لها:

أحدهما: قهر بحق، وهو ضلع الدين، **والثاني**: قهر بباطل، وهو غلبة الرجال.

وأيضاً: فضلع الدين. قهر بسبب من العبد في الغالب، وغلبة الرجال قهر بغير اختياره.

ومن ذلك تعوذه ﷺ: «من المأثم والمغرم»[(١)]، فإنهما يسببان الألم العاجل.

ومن ذلك قوله: «أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك»[(٢)]، فالسخط: سبب الألم، والعقوبة: هي الألم، فاستعاذ من أعظم الآلام وأقوى أسبابها.

[الشر المستعاذ منه نوعان]

والشر المستعاذ منه نوعان:

أحدهما: موجود، يطلب رفعه.

والثاني: معدوم، يطلب بقاؤه على العدم، وأن لا يوجد.

كما أن الخير المطلق نوعان:

أحدهما: موجود فيطلب دوامه وثباته وأن لا يسلبه.

والثاني: معدوم فيطلب وجوده وحصوله.

فهذه أربعة هي أمهات مطالب السائلين من رب العالمين، وعليها مدار طلباتهم.

وقد جاءت هذه المطالب الأربعة في قوله تعالى حكاية عن دعاء عباده في آخر آل عمران في قولهم: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهذا الطلب لدفع الشر الموجود. فإن الذنوب والسيئات شر، كما تقدم بيانه.

ثم قال: ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٣]، فهذا طلب لدوام الخير الموجود وهو الإيمان حتى يتوفاهم عليه، فهذان قسمان.

ثم قال: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فهذا طلب للخير المعدوم أن يؤتيهم إياه. ثم قال: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٩٤]، فهذا طلب أن لا يوقع بهم الشر المعدوم وهو خزي يوم القيامة.

---

(١) رواه البخاري (٨٣٢)، ومسلم (٥٨٩). (٢) رواه مسلم (٤٨٦).

فانتظمت الآيتان المطالب الأربعة أحسن انتظام، مرتبة أحسن ترتيب قُدم فيها النوعان اللذان في الدنيا، وهما المغفرة ودوام الإسلام إلى الموت، ثم أتبعا بالنوعين اللذين في الآخرة، وهما أن يعطوا ما وعدوه على ألسنة رسله، وأن لا يخزيهم يوم القيامة.

فإذا عرف هذا. فقوله ﷺ في تشهد الخطبة: «ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا»(١) يتناول الاستعاذة من شر النفس، الذي هو معدوم لكنه فيها بالقوة، فيسأل دفعه وأن لا يوجد.

وأما قوله: «من سيئات أعمالنا» ففيه قولان:

أحدهما: إنه استعاذة من الأعمال السيئة التي قد وجدت، فيكون الحديث قد تناول نوعي الاستعاذة من الشر المعدوم الذي لم يوجد، ومن الشر الموجود فطلب دفع الأول، ورفع الثاني.

والقول الثاني: إن سيئات الأعمال هي عقوباتها وموجباتها السيئة التي تسوء صاحبها، وعلى هذا يكون من استعاذة الدفع أيضاً دفع المسبب، والأول دفع السبب. فيكون قد استعاذ من حصول الألم وأسبابه.

وعلى الأول: تكون إضافة السيئات إلى الأعمال من باب إضافة النوع إلى جنسه، فإن الأعمال جنس وسيئاتها نوع منها.

وعلى الثاني: تكون من باب إضافة المسبب إلى سببه، والمعلول إلى علته، كأنه قال: من عقوبة عملي، والقولان محتملان.

فتأمل أيهما أليق بالحديث وأولى به، فإن مع كل واحد منهما نوعاً من الترجيح.

فيترجح الأول: بأن منشأ الأعمال السيئة من شر النفس. فشر النفس يولّد الأعمال السيئة، فاستعاذ من صفة النفس، ومن الأعمال التي تحدث عن تلك الصفة. وهذان جماع الشر، وأسباب كل ألم، فمتى عوفي منهما عوفي من الشر بحذافيره.

ويترجح الثاني: بأن سيئات الأعمال هي العقوبات التي تسوء العامل، وأسبابها شر النفس، فاستعاذ من العقوبات والآلام وأسبابها.

والقولان في الحقيقة متلازمان، والاستعاذة من أحدهما تستلزم الاستعاذة من الآخر.

□ □ □

(١) حديث صحيح رواه أبو داود في النكاح (٦/ ١٥٣)، والترمذي كذلك (٣/ ٤١٣).

ولما كان الشر له سبب: هو مصدره، وله مورد ومنتهى، وكان السبب إما من ذات العبد، وإما من خارج. ومورده ومنتهاه إما نفسه وإما غيره، كان هنا أربعة أمور: شر مصدره من نفسه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى. وشر مصدره من غيره، وهو السبب فيه، ويعود على نفسه تارة، وعلى غيره أخرى؛ جمع النبي ﷺ هذه المقامات الأربعة في الدعاء الذي علَّمه الصدِّيق ﵁ أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه: «اللهم فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إلٰه إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشَرَكه، وأن أقترف على نفسي سوءاً، أو أجره إلى مسلم»[1]، فذكر مصدري الشر، وهما النفس والشيطان، وذكر مورديه ونهايتيه، وهما عوده على النفس، أو على أخيه المسلم. فجمع الحديث مصادر الشر وموارده في أوجز لفظ وأخصره وأجمعه وأبينه.

* * *

قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق: ٢].

فإذا عرف هذا، فلنتكلم على الشرور المستعاذ منها في هاتين السورتين.

الشر الأول: العام في قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، و«ما» هاهنا موصولة ليس إلا. والشر مسند في الآية إلى المخلوق المفعول، لا إلى خلق الرب تعالى الذي هو فعله وتكوينه، فإنه لا شر فيه بوجه ما.

[الشر لا يدخل في صفاته تعالى]

فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته تبارك وتعالى. فإن ذاته لها الكمال المطلق، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه، وأوصافه كذلك لها الكمال المطلق والجلال التام، ولا عيب فيها ولا نقص بوجه ما، وكذلك أفعاله كلها خيرات محضة لا شر فيها أصلاً، ولو فعل الشر سبحانه لاشتق له منه اسم، ولم تكن أسماؤه كلها حسنى، ولعاد إليه منه حكم، تعالى ربنا وتقدس عن ذلك.

وما يفعله من العدل بعباده، وعقوبة من يستحق العقوبة منهم: هو خير محض،

---

(١) حديث صحيح رواه الترمذي (٥/ ٤٣٥) في الدعوات، باب: (١٤)، وأبو داود (١٣/ ٤٠٦) في الأدب، باب: ما يقول إذا أصبح.

إذ هو محض العدل والحكمة، وإنما يكون شراً بالنسبة إليهم، فالشر وقع في تعلقه بهم وقيامه بهم، لا في فعله القائم به تعالى، ونحن لا ننكر أن الشر يكون في مفعولاته المنفصلة فإنه خالق الخير والشر.

ولكن هنا أمران ينبغي أن يكونا منك على بال.

أحدهما: أن ما هو شر، أو متضمن للشر، فإنه لا يكون إلا مفعولاً منفصلاً لا يكون وصفاً له، ولا فعلاً من أفعاله.

الثاني: أن كونه شراً هو أمر نسبي إضافي، فهو خير من جهة تعلق فعل الرب وتكوينه به، وشر من جهة نسبته إلى من هو شر في حقه، فله وجهان، هو من أحدهما خير، وهو الوجه الذي نسب منه إلى الخالق سبحانه وتعالى خلقاً وتكويناً ومشيئة، لما فيه من الحكمة البالغة التي استأثر بعلمها، وأطلع من شاء من خلقه على ما شاء منها، وأكثر الناس تضيق عقولهم عن مبادئ معرفتها، فضلاً عن حقيقتها، فيكفيهم الإيمان المجمل بأن الله سبحانه هو الغني الحميد، وفاعل الشر لا يفعله إلا لحاجته المنافية لغناه، أو لنقصه وعيبه المنافي لحمده، فيستحيل صدور الشر من الغني الحميد فعلاً، وإن كان هو الخالق للخير والشر.

فقد عرفت أن كونه شراً هو أمر إضافي، وهو في نفسه خير من جهة نسبته إلى خالقه ومبدعه، فلا تغفل عن هذا الموضع فإنه يفتح لك باباً عظيماً من معرفة الرب ومحبته. ويزيل عنك شبهات حارت فيها عقول أكثر الفضلاء.

وقد بسطت هذا في كتاب «التحفة المكية» وكتاب «الفتح القدسي» وغيرهما، وإذا أشكل عليك هذا فأنا أوضحه لك بأمثلة:

أحدها: أن السارق إذا قطعت يده فقطعها شر بالنسبة إليه، وخير محض بالنسبة إلى عموم الناس لما فيه من حفظ أموالهم، ودفع الضرر عنهم، وخير بالنسبة إلى متولي القطع أمراً وحكماً، لما في ذلك من الإحسان إلى عبيده عموماً بإتلاف هذا العضو المؤذي لهم المضرِّ بهم. فهو محمود على حكمه بذلك، وأمره به مشكور عليه يستحق عليه الحمد من عباده، والثناء عليه والمحبة له.

وكذلك الحكم بقتل من يصول عليهم في دمائهم وحرماتهم، وجلد من يصول عليهم في أعراضهم. فإذا كان هذا عقوبة من يصول عليهم في دنياهم فكيف عقوبة من يصول على أديانهم، ويحول بينهم وبين الهدى الذي بعث الله به رسله وجعل سعادة العباد في معاشهم ومعادهم منوطة به؟ أفليس في عقوبة هذا الصائل خير

محض، وحكمة وعدل، وإحسان إلى العبيد؟ وهي شر بالنسبة إلى الصائل الباغي.

فالشر: ما قام به من تلك العقوبة، وأما ما نسب إلى الرب منها من المشيئة والإرادة والفعل فهو عين الخير والحكمة.

فلا يغلظ حجابك عن فهم هذا النبأ العظيم والسر الذي يطلعك على مسألة القدر ويفتح لك الطريق إلى الله، ومعرفة حكمته ورحمته، وإحسانه إلى خلقه، وأنه سبحانه: كما أنه البر الرحيم الودود المحسن، فهو الحكيم الملك العدل، فلا تناقض حكمتُه رحمتَه. بل يضع رحمته وبره وإحسانه موضعه، ويضع عقوبته وعدله وانتقامه وبأسه موضعه، وكلاهما مقتضى عزته وحكمته وهو العزيز الحكيم، فلا يليق بحكمته أن يضع رضاه ورحمته موضع العقوبة والغضب، ولا أن يضع غضبه وعقوبته موضع رضاه ورحمته.

لا تلتفت إلى قول من غلظ حجابه عن الله: إن الأمرين بالنسبة إليه على حد سواء، ولا فرق أصلاً، وإنما هو محض المشيئة بلا سبب ولا حكمة.

وتأمل القرآن من أوله إلى آخره كيف تجده كفيلاً بالرد على هذه المقالة، وإنكارها أشد الإنكار، وتنزيه الرب نفسه عنها، كقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥، ٣٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]، وقوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨]، فأنكر سبحانه على من ظن به هذا الظن السيء، ونزه نفسه عنه.

فدل على أنه مستقر في الفطر والعقول السليمة: أن هذا لا يكون ولا يليق بحكمته وعزته وإلٰهيته، لا إلٰه إلا هو، تعالى عما يقول الجاهلون علواً كبيراً.

وقد فطر الله عقول عباده على استقباح وضع العقوبة والانتقام في موضع الرحمة والإحسان، ومكافأة الصنع الجميل بمثله وزيادة، فإذا وضع العقوبة موضع ذلك استنكرته فطرهم وعقولهم أشد الاستنكار، واستهجنته أعظم الاستهجان.

وكذلك وضع الإحسان والرحمة والإكرام في موضع العقوبة والانتقام، كما إذا جاء إلى من يسيء إلى العالم بأنواع الإساءة في كل شيء من أموالهم وحريمهم ودمائهم، فأكرمه غاية الإكرام، ورفعه وكرمه. فإن الفطر والعقول تأبى استحسان هذا، وتشهد على سفه من فعله. هذه فطرة الله التي فطر الناس عليها.

فما للعقول والفطر لا تشهد حكمته البالغة، وعزته وعدله في وضع عقوبته في

أولى المحال بها، وأحقها بالعقوبة؟ وأنها لو أوليت النعم لم تحسن بها، ولم تَلِقْ، ولظهرت مناقضة الحكمة، كما قال الشاعر:

نعمة الله لا تعاب ولكن   ربما استقبحت على أقوام

فهكذا نعم الله لا تليق ولا تحسن ولا تجمل بأعدائه الصادين عن سبيله الساعين في خلاف مرضاته، الذين يرضون إذا غضب، ويغضبون إذا رضي، ويعطلون ما حكم به، ويسعون في أن تكون الدعوة لغيره، والحكم لغيره، والطاعة لغيره، فهم مضادون له في كل ما يريد، يحبون ما يبغضه، ويدعون إليه ويبغضون ما يحبه وينفرون عنه، ويوالون أعداءه وأبغض الخلق إليه، ويظاهرونهم عليه وعلى رسوله: كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]، وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ [الكهف: ٥٠].

فتأمل ما تحت هذا الخطاب الذي يسلب الأرواح حلاوة وعقاباً وجلالةً وتهديداً كيف صدره بإخبارنا: أنه أمر إبليس بالسجود لأبينا فأبى ذلك، فطرده ولعنه وعاداه من أجل إبائه عن السجود لأبينا، ثم أنتم توالونه من دوني. وقد لعنته وطردته، إذ لم يسجد لأبيكم، وجعلته عدواً لكم ولأبيكم، فواليتموه وتركتموني، أفليس هذا من أعظم الغبن، وأشد الحسرة عليكم؟ ويوم القيامة يقول تعالى: «أليس عدلاً مني أن أولِّي كل رجل منكم ما كان يتولى في دار الدنيا؟».

فليعلمن أولياء الشيطان: كيف حالهم يوم القيامة: إذا ذهبوا مع أوليائهم، وبقي أولياء الرحمٰن لم يذهبوا مع أحد حتى يتجلى لهم ويقول: «ألا تذهبون حيث ذهب الناس؟ فيقولون: فارقنا الناس أحوج ما كنا إليهم، وإنما ننتظر ربنا الذي كنا نتولاه ونعبده، فيقول: هل بينكم وبينه علامة تعرفونه بها؟ فيقولون: نعم، إنه لا مثل له، فيتجلى لهم ويكشف عن ساق، فيخرون له سجداً».

فيا قرة عيون أوليائه بتلك الموالاة، ويا فرحهم إذا ذهب الناس مع أوليائهم، وبقوا مع مولاهم الحق. فسيعلم المشركون به الصادون عن سبيله أنهم ما كانوا أولياؤه: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].

ولا تستطل هذا البسط فما أحوج القلوب إلى معرفته وتعقله، ونزولها منه منازلها في الدنيا لتنزل في جوار ربها في الآخرة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

□ □ □

[معنى: «والشر ليس إليك»]

إذا عرفت هذا عرفت معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح: «لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك»، وأن معناه أجلّ وأعظم من قول من قال: والشر لا يتقرب به إليك، وقول من قال: والشر لا يصعد إليك، وأن هذا الذي قالوه ـ وإن تضمن تنزيهه عن صعود الشر إليه والتقرب به إليه ـ فلا يتضمن تنزيهه في ذاته وصفاته وأفعاله عن الشر. بخلاف لفظ المعصوم الصادق المصدق، فإنه يتضمن تنزيهه في ذاته تبارك وتعالى عن نسبة الشر إليه بوجه ما، لا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في أسمائه. وإن دخل في مخلوقاته كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾.

وتأمل طريقة القرآن في إضافة الشر تارة إلى سببه ومن قام به. كقوله: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ١٠٨]، وقوله: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟﴾ [النساء: ١٦٠]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٦] وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وهو في القرآن أكثر من أن يذكر هاهنا عُشر معاشره. وإنما المقصود التمثيل.

وتارة بحذف فاعله. كقوله تعالى حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠]، فحذفوا فاعل الشر ومريده، وصرحوا بمريد الرشد.

ونظيره في الفاتحة: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، فذكر النعمة مضافة إليه سبحانه، والضلال منسوباً إلى من قام به، والغضب محذوفاً فاعله.

ومثله قول الخضر في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وفي الغلامين ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، ومثله قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]، فنسب هذا التزيين المحبوب إليه. وقال: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤]، فحذف الفاعل المزين، ومثله قول الخليل ﷺ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨ ـ ٨٢]، فنسب إلى ربه كل كمال من هذه الأفعال، ونسب إلى نفسه النقص منها، وهو المرض والخطيئة.

وهذا كثير في القرآن ذكرنا منه أمثلة كثيرة في كتاب «الفوائد المكية»، وبينّا هناك السر في مجيء ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٢١]، و﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة: ١٠١] والفرق بين الموضعين، وأنه حيث ذكر الفاعل كان من آتاه الكتاب واقعاً في سياق المدح، وحيث حذفه كان من أوتيه واقعاً في سياق الذم أو منقسماً، وذلك من أسرار القرآن.

ومثله ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ﴾ [فاطر: ٣٢]، وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، وبالجملة: فالذي يضاف إلى الله تعالى كله خير وحكمة ومصلحة وعدل، والشر ليس إليه.

[عموم ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾]

وقد دخل في قوله تعالى: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الاستعاذة من كل شر في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان، أو غيره، إنسياً كان أو جنياً، أو هامة أو دابة أو ريحاً، أو صاعقة، أي نوع كان من أنواع البلاء.

فإن قلت: فهل في «ما» هاهنا عموم؟

قلت: فيها عموم تقييدي وصفي، لا عموم إطلاقي. والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، فعمومها من هذا الوجه. وليس المراد الاستعاذة من شر كل ما خلقه الله، فإن الجنة وما فيها ليس فيها شر، وكذلك الملائكة والأنبياء فإنهم خير محض، والخير كله حصل على أيديهم، فالاستعاذة من شر ما خلق: تعم شر كل مخلوق فيه شر، وكل شر في الدنيا والآخرة، وشر شياطين الإنس والجن وشر السباع والهوام، وشر النار والهواء، وغير ذلك.

وفي الصحيح: عن النبي ﷺ قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل منه»(١) رواه مسلم. وروى أبو داود في سننه عن عبد الله بن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا سافر فأقبل الليل قال: «يا أرض، ربي وربك الله، أعوذ بالله من شرك، وشر ما فيك وشر ما خلق فيك، وشر ما يَدُبُّ عليك، أعوذ بالله من أَسَد وأسود، ومن الحية والعقرب، ومن

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٨).

ساكن البلد، ومن والد وما ولد»(١).

وفي الحديث الآخر: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بَرٌّ ولا فاجر، من شر ما خلق، وذرأ وبرأ، ومن شر ما نزل من السماء وما يعرج فيها، ومن شر ما ذرأ في الأرض وما يخرج منها، ومن شر فتن الليل والنهار، ومن شر كل طارق، إلا طارقاً يطرق بخير يا رحمٰن»(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ [الفلق: ٣].

الشر الثاني: شر الغاسق إذا وَقَب. فهذا خاص بعد عام. وقد قال أكثر المفسرين: إنه الليل.

[معنى «غاسق» و«وقب»]

قال ابن عباس: الليل إذا أقبل بظلمته من المشرق، ودخل في كل شيء وأظلم والغسق: الظلمة. يقال: غسق الليل، وأغسق: إذا أظلم. ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، وكذلك قال الحسن ومجاهد: الغاسق إذا وقب: الليل إذا أقبل ودخل، والوقوب: الدخول، وهو دخول الليل بغروب الشمس. وقال مقاتل: يعني: ظلمة الليل إذا دخل سواده في ضوء النهار.

وفي تسمية الليل غاسقاً قول آخر: إنه من البرد، والليل أبرد من النهار، والغسق: البرد. وعليه حمل ابن عباس قوله تعالى: ﴿فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص: ٥٧]،

---

(١) سنن أبي داود (٧/ ٢٦٣) في الجهاد، باب: ما يقول الرجل إذا نزل المنزل، ورواه الإمام أحمد (الصحيح) (٢/ ١٣٢)، وابن خزيمة (٤/ ١٥٢، ١٥٣)، وضعف إسناده الألباني من أجل الزبير بن الوليد، ومع هذا صححه الحاكم، ووافقه الذهبي (٢/ ١٠٠)، وقال الحافظ ابن حجر: «حسن أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي وأخرجه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد»، الفتوحات الربانية، لابن علان (٤/ ١٦٤).

(٢) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤١٩) من حديث «عبد الرحمٰن بن خَنْبَش» ﷺ، وهو صحابي وكان شيخاً كبيراً. الإصابة (٦/ ٢٧٥)، ورواه البيهقي في الدلائل (٧/ ٩٥)، وأبو نعيم في الدلائل (١/ ٢٤٣، ٢٤٤) برقم (١٣٧)، وأبو يعلى في مسنده (١٢/ ٢٣٧) رقم (٦٨٤٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٢٧): «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بنحوه... ورجال أحد إسنادي أحمد، وأبي يعلى وبعض أسانيد الطبراني رجال الصحيح»، وقد رُوي عن خالد بن الوليد ﷺ، كما في مجمع الزوائد، وفي الموطأ (٢/ ٩٥٠، ٩٥١) عن يحيى بن سعيد مرسلاً.

وقوله: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ: ٢٤، ٢٥]، قال: هو الزمهرير يحرقهم ببرده كما تحرقهم النار بحرها، وكذلك قال مجاهد ومقاتل: هو الذي انتهى برده.

ولا تنافي بين القولين: فإن الليل بارد مظلم، فمن ذكر برده فقط، أو ظلمته فقط: اقتصر على أحد وصفيه.

والظلمة في الآية أنسب لمكان الاستعاذة. فإن الشر الذي يناسب الظلمة أولى بالاستعاذة من البرد الذي في الليل، ولهذا استعاذ برب الفلق الذي هو الصبح والنور: من شر الغاسق، الذي هو الظلمة. فناسب الوصف المستعاذ به المعنى المطلوب بالاستعاذة، كما سنزيده تقريراً عن قريب إن شاء الله.

فإن قيل: فما تقولون فيما رواه الترمذي من حديث ابن أبي ذئب عن الحارث بن الرحمٰن عن أبي سلمة عن عائشة قالت: أخذ النبي ﷺ بيدي، فنظر إلى القمر، فقال: «يا عائشة، استعيذي بالله من شر هذا. فإن هذا هو الغاسق إذا وقب»[(١)]. قال الترمذي: هذا حسن صحيح، وهذا أولى من كل تفسير. فيتعين المصير إليه؟

قيل: هذا التفسير حق، ولا يناقض التفسير الأول، بل يوافقه، ويشهد لصحته، فإن الله تعالى قال: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢]، فالقمر هو آية الليل، وسلطانه فيه. فهو أيضاً غاسق إذا وقب، كما أن الليل غاسق إذا وقب، والنبي ﷺ أخبر عن القمر بأنه غاسق إذا وقب. وهذا خبر صدق. وهو أصدق الخبر، ولم ينف عن الليل اسم الغاسق إذا وقب. وتخصيص النبي ﷺ له بالذكر لا ينفي شمول الاسم لغيره.

ونظير هذا: قوله في المسجد الذي أسس على التقوى ـ وقد سئل عنه ـ فقال: «هو مسجدي هذا»[(٢)]، ومعلوم أن هذا لا ينفي كون مسجد قباء مؤسساً على التقوى مثل ذاك.

ونظيره أيضاً: قوله في علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ أجمعين: «اللهم

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٤٢١، ٤٢٢) في التفسير، باب: ومن سورة المعوذتين، ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالىٰ في مواضع منها (٦/ ٦١)، والنسائي في تفسير (٢/ ٦٢٣)، والحاكم (٢/ ٥٤٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسن إسناده الحافظ في الفتح (٨/ ٦١٣) عند تفسير سورة الفلق، وهو في الصحيحة برقم (٣٧٢).

(٢) رواه مسلم (١٣٩٨).

هؤلاء أهل بيتي»[١]، فإن هذا لا ينفي دخول غيرهم من أهل بيته في لفظ أهل البيت، ولكن هؤلاء أحق من دخل في لفظ أهل بيته.

ونظير هذا: قوله: «ليس المسكين بهذا الطوَّاف الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الذي لا يسأل الناس شيئاً، ولا يُفطن له فيتَصدَّق عليه»[٢]، وهذا لا ينفي اسم المسكنة عن الطوَّاف، بل ينفي اختصاص الاسم به، وتناول المسكين لغير السائل أولى من تناوله له.

ونظير هذا: قوله: «ليس الشديد بالصرعة، ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»[٣]. فإنه لا يقتضي نفي الاسم عن الذي يصرع الرجال، ولكن يقتضي أن ثبوته للذي يملك نفسه عند الغضب أولى.

ونظيره: الغسق، والوقوب، وأمثال ذلك.

فكذلك قوله في القمر: «هذا هو الغاسق إذا وقب»، لا ينفي أن يكون الليل غاسقاً، بل كلاهما غاسق.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن المراد به القمر إذا خسف واسْوَدَّ. وقوله: ﴿وَقَبَ﴾ أي: دخل في الخسوف، أو غاب خسافاً؟

قيل: هذا القول ضعيف، ولا نعلم به سلفاً، والنبي ﷺ لما أشار إلى القمر، وقال: «هذا الغاسق إذا وقب». لم يكن خاسفاً إذ ذاك. وإنما كان مستنيراً، ولو كان خاسفاً لذكرته عائشة. وإنما قالت: نظر إلى القمر، وقال: «هذا هو الغاسق»، ولو كان خاسفاً لم يصح أن يحذف ذلك الوصف منه. فإن ما أطلق عليه اسم الغاسق باعتبار صفة لا يجوز أن يطلق عليه بدونها، لما فيه من التلبيس.

---

(١) رواه بهذا اللفظ الترمذي في التفسير (٥/ ٣٢٧) سورة آل عمران، وفي المناقب (٥/ ٦٢١) مناقب أهل البيت، وقال: غريب من حديث عطاء عن عمر بن أبي سلمة، ورواه الحاكم (٢/ ٤١٦) من حديث أم سلمة ﵂ وصححه، ورواه أيضاً (٣/ ١٥٠) من حديث عامر بن سعد عن أبيه، وصححه ووافقه الذهبي، وحديث عامر هذا عند مسلم (٥/ ٢٦٨) في الفضائل، باب من فضائل علي ﵁، بلفظ: «اللهم هؤلاء أهلي»، وانظر: الطبراني (٣/ ٥٤) و(٢٢/ ٦٥) و(٢٣/ ٢٨١)، ومجمع الزوائد (٩/ ١٦٢)، والدر المنثور (٦/ ٦٠٤)، وراجع: تفسير الآية رقم (٣٣) من سورة الأحزاب عند الطبري وابن كثير.

(٢) رواه البخاري (١٤٧٩)، ومسلم (١٠٣٩).

(٣) رواه البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

وأيضاً: فإن اللغة لا تساعد على هذا، فلا نعلم أحداً قال: الغاسق: القمر في حال خسوفه.

وأيضاً: فإن الوقوب لا يقول أحد من أهل اللغة: إنه الخسوف، وإنما هو الدخول، من قولهم: وقبت العين: إذا غارت، ورُكية وَقْباء: غار ماؤها، فدخل في أعماق التراب، ومنه الوَقْب للثقب الذي يدخل فيه المحور، وتقول العرب: وَقَب يَقِب وُقوباً إذا دخل.

فإن قيل: فما تقولون في القول الذي ذهب إليه بعضهم: إن الغاسق هو الثريا إذا سقطت، فإن الأسقام تكثر عند سقوطها وغروبها، وترتفع عند طلوعها؟

قيل: إن أراد صاحب هذا القول اختصاص الغاسق بالنجم إذا غرب فباطل. وإن أراد: أن اسم الغاسق يتناول ذلك بوجه ما: فهذا يحتمل أن يدخل اللفظ عليه بفحواه ومقصوده وتنبيهه. وأما أن يختص اللفظ به فباطل.



[سبب الاستعاذة من الليل]

والسبب الذي لأجله أمر الله بالاستعاذة من شر الليل وشر القمر إذا وقب هو: أن الليل إذا أقبل فهو محل سلطان الأرواح الشريرة الخبيثة. وفيه تنتشر الشياطين. وفي الصحيح: أن النبي ﷺ أخبر: «إن الشمس إذا غربت انتشرت الشياطين»[1]، ولهذا قال: «فاكفِتوا صبيانكم، واحبسوا مواشيكم حتى تذهب فَحْمة العشاء»، وفي حديث آخر: «فإن الله يبث من خلقه ما يشاء».

والليل: هو محل الظلام. وفيه تتسلط شياطين الإنس والجن ما لا تتسلط بالنهار، فإن النهار نور، والشياطين إنما سلطانهم في الظلمات والمواضع المظلمة، وعلى أهل الظلمة.

وروي أن سائلاً سأل مسيلمة: كيف يأتيك الذي يأتيك؟ فقال: في ظلماء حِنْدِس. وسئل النبي ﷺ: كيف يأتيك؟ فقال: «في مثل ضوء النهار»، فاستدل بهذا على نبوته، وأن الذي يأتيه ملك من عند الله، وأن الذي يأتي مسيلمة شيطان.

---

(١) رواه البخاري في مواضع منها (٦/ ٣٨٧)، في بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، ومسلم (٤/ ٧٩٧) في الأشربة، باب: استحباب تغطية الإناء، وانظر: جامع الأصول (١١/ ٧٥٧).

ولهذا كان سلطان السحر وعظم تأثيره إنما هو بالليل دون النهار، فالسحر الليلي عندهم: هو السحر القوي التأثير، ولهذا كانت القلوب المظلمة هي محال الشياطين وبيوتهم ومأواهم، والشياطين تجول فيها، وتتحكم كما يتحكم ساكن البيت فيه، وكلما كان القلب أظلم كان للشيطان أطوع، وهو فيه أثبت وأمكن.

□ □ □

[سر الاستعاذة ﴿بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾]

ومن هنا: تعلم السر في الاستعاذة برب الفلق في هذا الموضع.

فإن الفلق: هو الصبح الذي هو مبدأ ظهور النور، وهو الذي يطرد جيش الظلام، وعسكر المفسدين في الليل، فيأوي كل خبيث وكل مفسد وكل لص وكل قاطع طريق إلى سِرْب أو كِنٍّ أو غار، وتأوي الهوام إلى أجحرتها، والشياطين التي انتشرت بالليل إلى أمكنتها ومحالها. فأمر الله عباده أن يستعيذوا برب النور الذي يقهر الظلمة ويزيلها، ويقهر عسكرها، وجيشها، ولهذا ذكر سبحانه في كل كتاب: أنه يخرج عباده من الظلمات إلى النور، ويدع الكفار في ظلمات كفرهم.

قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال في أعمال الكفار: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقد قال قبل ذلك في صفات أهل الإيمان ونورهم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ﴾ [النور: ٣٥].

فالإيمان كله نور، ومآله إلى نور، ومستقره في القلب المضيء المستنير، والمقترن بأهله الأرواح المستنيرة المضيئة المشرقة، والكفر والشرك كله ظلمة، ومآله إلى الظلمات ومستقره في القلوب المظلمة، والمقترن بأهله الأرواح المظلمة.

فتأمل الاستعاذة بالفلق من شر الظلمة، ومن شر ما يحدث فيها ونَزِّل هذا المعنى على الواقع يشهد بأن القرآن، بل هاتان السورتان، من أعظم أعلام النبوة، وبراهين

صدق رسالة محمد ﷺ، ومضادته لما جاء به الشياطين من كل وجه، وأن ما جاء به ما تنزلت به الشياطين، وما ينبغي لهم وما يستطيعون. فما فعلوه، ولا يليق بهم، ولا يتأتى منهم، ولا يقدرون عليه.

وفي هذا أبين جواب وأشفاه لما يورده أعداء الرسول عليه من الأسئلة الباطلة التي قَصَّر المتكلمون غاية التقصير في دفعها، وما شفوا في جوابها، وإنما الله سبحانه هو الذي شَفَى وكفى في جوابها، فلم يحوجنا إلى متكلم، ولا إلى أصولي، ولا إلى نَظَّار. فله الحمد والمنّة، لا نُحصي ثناء عليه.

□ □ □

واعلم أن الخلق كله فلق. وذلك أن «فلقاً» فَعَل بمعنى مفعول، كقَبَض وسَلَب، وقنص: بمعنى: مقبوض ومسلوب ومقنوص. والله ﷻ: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، و﴿فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وفالق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأجنَّة، والظلام عن الإصباح. ويسمى الصبح المتصدع عن الظلمة: فلقاً وفَرَقاً. يقال: هو أبيض من فَرَق الصبح وفلقه.

وكما أن في خلقه فلقاً وفَرَقاً. فكذلك أمره كله فُرقان، يفرق بين الحق والباطل، فيفرق ظلام الباطل بالحق، كما يفرق ظلام الليل بالإصباح، ولهذا سمي كتابه: «الفرقان» ونَصْره فرقاناً، لتضمنه الفرق بين أوليائه وأعدائه. ومنه فَلْقه البحر لموسى، وسماه فلقاً.

فظهرت حكمة الاستعاذة برب الفلق في هذه المواضع. وظهر بهذا إعجاز القرآن، وعظمته وجلالته، وأن العباد لا يقدرون قدره، وأنه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤].

الشر الثالث: شر النَّفاثات في العُقد.

[معنى ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾]

وهذا الشر هو شر السحر. فإن النفاثات في العُقد: هن السواحر اللاتي يعقدن الخيوط، وينفثن على كل عقدة، حتى ينعقد ما يردن من السحر، والنفث: هو النفخ مع ريق، وهو دون التَّفْل، وهو مرتبة بينهما.

والنفث: فعل الساحر، فإذا تكيفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور، ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة، نفخ في تلك العقد نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفَسَ ممازج للشر والأذى، مقترن بالريق الممازج لذلك. وقد تَساعَد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور؛ فيقع فيه السحر بإذن الله الكوني القدري، لا الأمري الشرعي.

فإن قيل: فالسحر يكون من الذكور والإناث، فلم خص الاستعاذة من الإناث دون الذكور؟

قيل في جوابه: إن هذا خرج على السبب الواقع، وهو أن بنات لبيد بن الأعصم سحرن النبي ﷺ.

هذا جواب أبي عبيدة وغيره، وليس هذا بسديد. فإن الذي سحر النبي ﷺ هو لبيد بن الأعصم، لا بناته، كما جاء في الصحيح[(١)].

والجواب المحقق: أن النفاثات هنا: هنا الأرواح والأنفس النفاثات لا النساء النفاثات، لأن تأثير السحر إنما هو من جهة الأنفس الخبيثة، والأرواح الشريرة وسلطانه إنما يظهر منها. فلهذا ذكرت النفاثات هنا بلفظ التأنيث، دون التذكير، والله أعلم.

[هل سُحِرَ النبي ﷺ؟]

ففي الصحيح: عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: أن النبي ﷺ طُبَّ، حتى إنه ليُخيَّل إليه أنه صنع شيئاً وما صنعه، وإنه دعا ربه، ثم قال: «أشَعُرتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه»؟ فقالت عائشة: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «جاءني رجلان، فجلس أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجليّ فقال أحدهما لصاحبه: ما وَجَعَ الرجل؟ قال الآخر: مطبوب. قال: من طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال في ماذا؟ قال: في مِشط ومِشاطة، وجَفِّ طَلْع ذكر، قال: فأين هو؟ قال: في ذَرْوان، بئر في بني زُريق». قالت عائشة: ﵂ فأتاها رسول الله ﷺ، ثم رجع إلى عائشة فقال: «والله لكأن ماءها نُقاعة الحنَّاء، ولكأن نخْلَها رؤوس الشياطين». قالت: فقلت له: يا رسول الله، هلَّا أخرجته؟ قال: «أما أنا فقد شفاني الله، وكرهت أن

---

(١) انظر: الحديث الآتي.

أثير على الناس شراً». فأمر بها، فدُفنت. قال البخاري: وقال الليث، وابن عيينة عن هشام: «في مِشْط ومِشاقة»[(١)].

ويقال: إن المشاطة: ما يخرج من الشعر إذا مُشِط، والمشاقة: من مشاقة الكتان.

قلت: هكذا في هذه الرواية: أنه لم يخرجه، اكتفاء بمعافاة الله له وشفائه إياه.

وقد روى البخاري من حديث ابن عيينة قال: أول من حدثنا به ابن جريج يقول: حدثني آل عروة عن عروة. فسألت هشاماً عنه، فحدثنا عن أبيه عن عائشة: كان رسول الله ﷺ سُحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن. قال سفيان: وهذا أشد ما يكون من السحر، إذا كان كذا. فقال: «يا عائشة، أعلمتِ أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، فقعد أحدهما عند رأسي، والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومن طَبَّه؟ قال: لبيد بن الأعصم، رجل من بني زريق حليف ليهود. وكان منافقاً، قال: وفيم؟ قال: في مشط ومشاقة. قال: وأين؟ قال: في جَفِّ طَلْع ذكر، تحت راعوفَة في بئر ذَروان. قال: فأتى البئر حتى استخرجه. فقال: هذه البئر التي أريتها، وكأنَّ ماءها نُقاعة الحناء، وكأن نخلها رؤوس الشياطين. قال: فاستخرج». قالت: فقلت: أفلا ـ أي: تَنَشَّرت ـ؟ قال: «أمَّا الله فقد شفاني، وأكره أن أثير على أحد من الناس شراً»[(٢)].

ففي هذا الحديث: أنه استخرجه. وترجم البخاري عليه: باب: هل يُستخرج السحر؟ وقال قتادة: قلت لسعيد بن المسيّب: رجل به طَبٌّ، ويؤخذ عن امرأته أيُحَلَّ عنه وَيُنْشَر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح. فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه.

فهذان الحديثان قد يظن في الظاهر تعارضهما. فإن حديث عيسى عن هشام عن أبيه: الأول فيه: أنه لم يستخرجه. وحديث ابن جريج عن هشام فيه: أنه استخرجه. ولا تنافي بينهما، فإنه استخرجه من البئر حتى رآه وعلمه، ثم دفنه بعد أن شفي. وقول عائشة: هلا استخرجته؟ أي: هلا أخرجته للناس حتى يروه

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٢١٨٩).

(٢) صحيح البخاري (٥٧٦٥).

ويعاينوه؟ فأخبرها بالمانع له من ذلك، وهو أن المسلمين لم يكونوا ليسكتوا عن ذلك، فيقع الإنكار، ويغضب للساحر قومه، فيحدث الشر. وقد حصل المقصود بالشفاء والمعافاة، فأمر بها فدُفنت، ولم يستخرجها للناس، فالاستخراج الواقع غير الذي سألت عنه عائشة.

والذي يدل عليه: أنه ﷺ إنما جاء إلى البئر ليستخرجها منه ولم يجئ لينظر إليها ثم ينصرف، إذ لا غرض له في ذلك، والله أعلم.

□ □ □

[مناقشة الذين أنكروا ذلك]

وهذا الحديث ثابت عند أهل العلم بالحديث، متلقًّى بالقبول بينهم، لا يختلفون في صحته. وقد اعتاصَ على كثير من أهل الكلام وغيرهم، وأنكروه أشد الإنكار، وقابلوه بالتكذيب، وصنف بعضهم فيه مصنفاً مفرداً، حمل فيه على هشام، وكان غاية ما أحسن القول فيه أن قال: غلط، واشتبه عليه الأمر، ولم يكن من هذا شيء. قال: لأن النبي ﷺ لا يجوز أن يُسْحَر، فإنه يكون تصديقاً لقول الكفار: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

قالوا: وهذا كما قال فرعون لموسى: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وكما قال قوم صالح له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]، وكما قال قوم شعيب له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٥].

قالوا: فالأنبياء لا يجوز عليهم أن يسحروا. فإن ذلك ينافي حماية الله لهم، وعصمتهم من الشياطين.

وهذا الذي قاله هؤلاء مردود عند أهل العلم؛ فإن هشاماً من أوثق الناس وأعلمهم، ولم يقدح فيه أحد من الأئمة بما يوجب رد حديثه، فما للمتكلمين وما لهذا الشأن؟ وقد رواه غير هشام عن عائشة. وقد اتفق أصحاب الصحيحين على تصحيح هذا الحديث، ولم يتكلم فيه أحد من أهل الحديث بكلمة واحدة، والقصة مشهورة عن أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء. وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وأيامه من المتكلمين.

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن يزيد بن حيان، عن زيد بن أرقم قال: سحر النبيَّ ﷺ رجل من اليهود، فاشتكى لذلك أياماً. قال: فأتاه جبريل، فقال: إن رجلاً من اليهود سحرك، وعقدَ لذلك عقداً، فأرسل

رسول الله ﷺ علياً، فاستخرجها، فجاء بها، فجعل كُلّما حلَّ عقدة وجد لذلك خِفَّة، فقام رسول الله ﷺ كأنما نَشِط من عقال. فما ذكر ذلك لليهودي، ولا رآه في وجهه قط[١]. وقال ابن عباس وعائشة: كان غلام من اليهود يخدم رسول الله ﷺ، فدنت إليه اليهود، فلم يزالوا حتى أخذ مِشاطة رأس النبي ﷺ، وعِدَّة أسنان من مشطه. فأعطاها اليهود، فسحروه فيها، وتولّى ذلك لبيد بن الأعصم، رجل من اليهود. فنزلت هاتان السورتان فيه[٢].

قال البغوي: وقيل: كانت مغروزة بالأبر. فأنزل الله ﷻ هاتين السورتين. وهما إحدى عشرة آية: سورة الفلق خمس آيات، وسورة الناس ست آيات، فكلما قرأ آية انحلت عقدة، حتى انحلت العقد كلها، فقام النبي ﷺ كأنما أنشط من عقال[٣]. قال: وروي أنه لبث فيه ستة أشهر[٤]، واشتد عليه ثلاثة أيام فنزلت المعوذتان.

[مناقشة القائلين: إن السحر مرض]

قالوا: والسحر الذي أصابه كان مرضاً من الأمراض عارضاً شفاه الله منه، ولا نقص في ذلك، ولا عيب بوجه ما، فإن المرض يجوز على الأنبياء، وكذلك الإغماء، فقد أغمي عليه ﷺ في مرضه[٥]، ووقع حين انفكّت قدمه وجُحِش شِقّه[٦]، وهذا من البلاء الذي يزيده الله به رفعة في درجاته، ونيل كرامته. وأشد الناس بلاء الأنبياء، فابتلوا من أممهم بما ابتلوا به: من القتل، والضرب، والشتم، والحبس. فليس ببدْع أن يُبتلى النبي ﷺ من بعض أعدائه بنوع من السحر، كما ابتلي بالذي رماه فشَجَّه. وابتلي بالذي ألقى على ظهره السَّلا وهو ساجد، وغير

(١) مصنف ابن أبي شيبة (٧/ ٣٨٧، ٣٨٨)، وهو في المسند للإمام أحمد (٤/ ٣٦٧)، وفيها «يزيد بن حيان»، وتفسير البغوي (٧/ ٣٢٣)، ووقع في «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٢٤) «يزيد بن حباب» وهو خطأ، والصواب ما أثبته، وهو في التهذيب (١١/ ٣٢١)، وثقات ابن حبان (٥/ ٥٣٦).

(٢) (٣) تفسير البغوي (٧/ ٣٢٢، ٣٢٣).

(٤) قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى في الفتح (١٠/ ٢٣٧): «قال السهيلي: لم أقف في شيء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التي مكث النبي ﷺ فيها السحر حتى ظفرت به في «جامع معمر» عن الزهري: أنه لبث ستة أشهر، كذا قال، وقد وجدناه موصلاً بإسناد الصحيح فهو المعتمد». اهـ.

(٥) رواه البخاري (٦٨٧)، ومسلم (٤١٨).

(٦) رواه البخاري (٦٨٩)، «جُحش» وهو بجيم مضمومة ثم حاء مهملة مكسورة أي: خدش.

ذلك، فلا نقص عليهم، ولا عار في ذلك، بل هذا من كمالهم، وعلوّ درجاتهم عند الله.

قالوا: وقد ثبت في الصحيح عن أبي سعيد الخدري: أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ فقال: «نعم». فقال: باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، من شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك، باسم الله أرقيك»[(١)]. فعوَّذه جبريل من شر كل نفس وعين حاسد، لما اشتكى، فدل على أن هذا التعويذ مزيل لشكايته ﷺ، وإلا فلا يعوذه من شيءٍ وشكايته من غيره.

وقالوا: وأما الآيات التي استدللتم بها فلا حجة لكم فيها.

أما قوله تعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]، وقول قوم صالح وشعيب لهما: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣، ١٨٥]، فقيل: المراد به من له سَحْر، وهي الرِّئة، أي: إنه بشر مثلهم، يأكل ويشرب، ليس بملك، وليس المراد به السحر.

وهذا جواب غير مرضٍ، وهو في غاية البعد، فإن الكفار لم يكونوا يعبرون عن البشر بمسحور، ولا يعرف هذا في لغة من اللغات. وحيث أرادوا هذا المعنى أتوا بصريح لفظ البشر، فقالوا: ﴿مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]، و﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون: ٤٧]، و﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]. وأما المسحور فلم يريدوا به ذا السَّحْر، وهي الرئة. وأيُّ مناسبة لذكر الرئة في هذا الموضع؟

ثم كيف يقول فرعون لموسى: ﴿إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]؟ أفتراه ما علم أن له سَحْراً، وأنه بشر؟

ثم كيف يجيبه موسى بقوله: ﴿وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، ولو أراد بالمسحور: أنه بشر لصدَّقه موسى، وقال: نعم، أنا بشر أرسلني الله إليك، كما قالت الرسل لقومهم لما قالوا لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠]، فقالوا: ﴿إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١] ولم ينكروا ذلك.

فهذا الجواب في غاية الضعف.

وأجابت طائفة، منهم ابن جرير[(٢)] وغيره: بأن المسحور هنا هو معلَّم السحر الذي قد علمه إياه غيره، فالمسحور عنده، بمعنى: ساحر، أي: عالم بالسحر.

---

(١) صحيح مسلم (٢١٨٦).

(٢) تفسير الطبري (١٥/ ١٧٣، ١٧٤).

وهذا جيدٌ إن ساعدت عليه اللغة، وهو أن من عُلِّم السحر يقال له: مسحور. ولا يكاد هذا يعرف في الاستعمال، ولا في اللغة. وإنما المسحور من سَحَره غيره، كالمطبوب والمضروب والمقتول وبابه. وأما من عُلِّم السحر فإنه يقال له: ساحر، بمعنى: أنه عالم بالسحر، وإن لم يسحر غيره. كما قال قوم فرعون لموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٠٩]، ففرعون قذفه بكونه مسحوراً، وقومه قذفوه بكونه ساحراً.

فالصواب: هو الجواب الثالث. وهو جواب صاحب الكشاف(١) وغيره: أن «المسحور» على بابه. وهو من سُحر حتى جُنَّ. فقالوا: مسحور، مثل مجنون أي: زائل العقل، لا يعقل ما يقول. فإن المسحور الذي لا يُتَّبع: هو الذي فسد عقله، بحيث لا يدري ما يقول، فهو كالمجنون. ولهذا قالوا فيه: ﴿مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤]، فأما من أصيب في بدنه بمرض من الأمراض يصاب به الناس، فإنه لا يمنع ذلك من اتِّباعه. وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض الأبدان، وإنما قذفوهم بما يُحذِّرون به سفهاءهم من اتباعهم، وهو أنهم قد سُحروا، حتى صاروا لا يعلمون ما يقولون، بمنزلة المجانين، ولهذا قال تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٨] مَثَّلوك بالشاعر مرة، والساحر أخرى، والمجنون مرة، والمسحور أخرى، فضلوا في جميع ذلك ضلال مَنْ يطلب في تِيهه وتَحيُّره طريقاً يسلكه، فلا يقدر عليه، فإنه أيَّ طريق أخذها فهي طريق ضلال وحيرة. فهو متحير في أمره، لا يهتدي سبيلاً، ولا يقدر على سلوكها. فهكذا حال أعداء رسول الله ﷺ معه، حتى ضربوا له أمثالاً، بَرَّأه الله منها، وهو أبعد والله عنها، وقد علم كل عاقل أنها كذب وافتراء وبهتان.

وأما قولكم: إن سحر الأنبياء ينافي حماية الله لهم. فإنه سبحانه كما يحميهم ويصونهم ويحفظهم ويتولاهم، فيبتليهم بما شاء من أذى الكفار لهم ليستوجبوا كمال كرامته، وليتسلى بهم من بعدهم من أممهم وخلفائهم إذا أوذوا من الناس، فرأوا ما جرى على الرسل والأنبياء، صبروا ورضوا، وتأسّوا بهم، ولتمتلئ صاع الكفار فيستوجبون ما أُعدَّ لهم من النكال العاجل، والعقوبة الآجلة، فيمحقهم بسبب بغيهم وعدوانهم، فيجعل تطهير الأرض منهم. فهذا من بعض حكمته تعالى

---

(١) الكشاف للزمخشري (٢/ ٣٧٧).

في ابتلاء أنبيائه ورسله بإيذاء قومهم. وله الحكمة البالغة، والنعمة السابغة لا إله غيره، ولا رب سواه.

□ □ □

[الرد على من أنكر تأثير السحر]

وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ [الفلق: ٤] وحديث عائشة المذكور على تأثير السحر، وأن له حقيقة.

وقد أنكر ذلك طائفة من أهل الكلام من المعتزلة وغيرهم.

وقالوا: إنه لا تأثير للسحر البتة لا في مرض، ولا قتل، ولا حل، ولا عقد.

قالوا: وإنما ذلك تخييل لأعين الناظرين، لا حقيقة له سوى ذلك.

وهذا خلاف ما تواترت به الآثار عن الصحابة والسلف، واتفق عليه الفقهاء، وأهل التفسير والحديث. وما يعرفه عامة العقلاء.

والسحر الذي يؤثر مرضاً وثقلاً وَعَقْداً وحباً وبغضاً ونزيفاً وغير ذلك من الآثار ـ موجود، تعرفه عامة الناس. وكثير منهم قد علمه ذوقاً بما أصيب به منه، وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ﴾ دليل على أن هذا النفث يضر المسحور في حال غيبته عنه. ولو كان الضرر لا يحصل إلا بمباشرة البدن ظاهراً، كما يقوله هؤلاء، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه.

وأيضاً فإذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشيء بخلاف ما هو به، مع أن هذا تغيير في إحساسهم، فما الذي يحيل تأثيره في تغيير بعض أعراضهم وقواهم وطباعهم؟ وما الفرق بين التغيير الواقع في الرؤية والتغيير الواقع في صفة أخرى من صفات النفس والبدن؟ فإذا غير إحساسه حتى صار يرى الساكن متحركاً، والمتصل منفصلاً، والميت حياً، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه، حتى يجعل المحبوب إليه بغيضاً، والبغيض محبوباً، وغير ذلك من التأثيرات. وقد قال تعالى عن سَحَرة فرعون إنهم: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ [الأعراف: ١١٦]، فبين سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغيير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصي، مثل أن يكون السحرة استغاثت بأرواح حركتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها. وهذا كما إذا جَرَّ من لا تراه حصيراً أو بساطاً فترى الحصير والبساط ينجر، ولا ترى الجار

له، مع أنه هو الذي يجره، فهكذا حال الحبال والعصي التبستها الشياطين، فقلبتها كتقليب الحية، فظن الرائي أنها تقلبت بأنفسها، والشياطين، هم الذين يقلبونها. وإما أن يكون التغيير حدث في الرائي، حتى رأى الحبال والعصي تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها. ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا؛ فتارة يتصرف في نفس الرائي وإحساسه، حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به. وتارة يتصرف في المرئي باستغاثته بالأرواح الشيطانية، حتى يتصرف فيها.

وأما ما يقوله المنكرون من أنهم فعلوا في الحبال والعصي ما أوجبت حركتها ومشيها، مثل الزئبق وغيره، حتى سَعْت. فهذا باطل من وجوه كثيرة. فإنه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالاً، بل حركة حقيقية، ولم يكن ذلك سحراً لأعين الناس، ولا يسمى ذلك سحراً، بل صناعة من الصناعات المشتركة، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦]، ولو كانت تحركت بنوع حيلة ـ كما يقوله المنكرون ـ لم يكن هذا من السحر في شيء ومثل هذا لا يخفى.

وأيضاً لو كان ذلك بحيلة ـ كما قال هؤلاء ـ لكان طريق إبطالها إخراج ما فيها من الزيبق، وبيان ذلك المحال، ولم يحتج إلى إلقاء العصا لابتلاعها.

وأيضاً: فمثل هذه الحيلة لا يحتاج فيها إلى الاستعانة بالسحرة، بل يكفي فيها حذاق الصناع، ولا يحتاج في ذلك إلى تعظيم فرعون للسحرة، وخضوعه لهم، ووعدهم بالتقريب والجزاء.

وأيضاً: فإنه لا يقال في ذلك: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١، الشعراء: ٤٩] فإن الصناعات يشترك الناس في تعلمها وتعليمها.

وبالجملة: فبطلان هذا أظهر من أن يتكلف رده. فنرجع إلى المقصود.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

الشر الرابع: شر الحاسد إذا حسد، وقد دل القرآن والسنة على أن نفس حسد الحاسد يؤذي المحسود. فنفس حسده شر متصل بالمحسود من نفسه وعينه، وإن لم يؤذه بيده ولسانه، فإن الله تعالى قال: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، فحقق الشر منه عند صدور الحسد. والقرآن ليس فيه لفظة مهملة.

[تأثير الحسد]

ومعلوم أن الحاسد لا يسمى حاسداً، إلا إذا قام به الحسد، كالضارب، والشاتم، والقاتل ونحو ذلك ولكن قد يكون الرجل في طبعه الحسد، وهو غافل عن المحسود، لاهٍ عنه، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نار الحسد من قلبه إليه، وتوجهت إليه سهام الحسد من قبله، فيتأذي المحسود بمجرد ذلك. فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه، بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله، وإلا ناله شر الحاسد ولا بد.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ بيان لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل.

وقد تقدم(١) في حديث أبي سعيد الصحيح: رقية جبريل النبي ﷺ وفيها: «باسم الله أرقيك، من كل شيء يؤذيك، ومن شر كل نفس، أو عين حاسد، الله يشفيك». فهذا فيه الاستعاذة من شر عين الحاسد.

ومعلوم أن عينه لا تؤثر بمجردها، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه، كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره، لم يؤثر فيه شيئاً، وإنما إذا نظر إليه نظر مَنْ قد تَكَيَّفَت نفسُه الخبيثة وانسمَّت، واحتدت فصارت نفساً غضبية خبيثة حاسدة، أثرت بها تلك النظرة، فأثرت في المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه، وقوة نفس الحاسد. فربما أعطبه وأهلكه، بمنزلة من فَوَّق سهماً نحو رجل عريان فأصاب منه مقتلاً. وربما صرعه وأمرضه. والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تذكر.

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة. وهي في ذلك بمنزلة الحيَّة التي إنما يؤثر سمها إذا عضَّت واحتدت فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث، فتحدث فيها تلك الكيفية السمَّ، فتؤثر في اللديغ. وربما قويت تلك الكيفية واشتدت في نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة، فتطمس البصر، وتُسقط الحبل، كما ذكره النبي ﷺ في الأبتر، وذي الطُّفيتين منها، فقال: «اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر، ويسقطان الحبل»(٢). فإذا كان هذا في الحيات فما الظن في النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة، إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية، وانسمت وتوجهت إلى المحسود بكيفيتها؟ فلله كم من

---

(١) رواه مسلم (٢١٨٦).

(٢) رواه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣).

قتيل؟ وكم من سليب؟ وكم من معافى عاد مضنًى على فراشه، يقول طبيبه: لا أعلم داءه ما هو؟ فصَدَق. ليس هذا الداء من علم الطبائع، هذا من علم الأرواح وصفاتها، وكيفياتها، ومعرفة تأثيراتها في الأجسام والطبائع، وانفعال الأجسام عنها.

وهذا علم لا يعرفه إلا خواص الناس، والمحجوبون منكرون له، ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه. وهل الأجسام إلا كالخشب الملقى؟ وهل الانفعال والتأثر، وحدوث ما يحدث عنها من الأفعال العجيبة، والآثار الغريبة إلا من الأرواح، والأجسام آلتها بمنزلة الصانع؟ فالصنعة في الحقيقة له، والآلات وسائط في وصول أثره إلى الصنع.

ومن له أدنى فطنة وتأمل لأحوال العالم وقد لطفت روحه، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها، وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها. وكل ذلك بتقدير العزيز العليم، خالق الأسباب والمسببات، رأى عجائب في الكون، وآيات دالة على وحدانية الله، وعظمة ربوبيته، وأن ثم عالماً آخر تجري عليه أحكام أخر، تشهد آثارها، وأسبابها غيبٌ عن الأبصار.

فتبارك الله رب العالمين وأحسن الخالقين الذي أتقن ما صنع، وأحسن كل شيء خلقه.

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح، بل هو أعظم وأوسع، وعجائبه أبهر، وآياته أعجب.

وتأمل هذا الهيكل الإنساني إذا فارقته الروح، كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم؟ فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة، وتلك الأفعال العجيبة، وتلك الأفكار والتدبيرات؛ كيف ذهبت كلها مع الروح، وبقي الهيكل سواء هو والتراب؟ وهل يخاطبك من الإنسان أو يراك أو يحبك أو يواليك، أو يعاديك، ويخفُّ عليك أو يثقل، ويؤنسك أو يوحشك إلا ذلك الأمر الذي هو وراء الهيكل المشاهَد بالبصر؟

فرب رجل عظيم الهيولَى كبير الجثة، خفيف على قلبك، حلو عندك وآخر لطيف الخلقة، صغير الجثة، أثقل على قلبك من جبل. وما ذاك إلا للطافة روح ذلك وخفتها وحلاوتها، وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها.

وبالجملة: فالعُلَق والوُصَل التي بين الأشخاص والمنافرات والبعد: إنما هي للأرواح أصلاً والأشباح تبعاً.

□ □ □

[الحاسد كالعائن]

والعاين والحاسد يشتركان في أن كل واحد منهما تتكيف نفسه، وتتوجه نحو من يريد أذاه، فالعائن: تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته.

والحاسد: يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً.

ويفترقان في أن العائن قد يصيب من لا يحسده، من جماد أو حيوان، أو زرع أو مال، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه. وربما أصابت عينه نفسه. فإن رؤيته للشيء رؤية تعجب وتحديق، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية: تؤثر في المعين.

وقد قال غير واحد من المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ﴾ [القلم: ٥١]: إنه الإصابة بالعين. أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ[١]. فنظر إليه قوم من العائنين، وقالوا: ما رأينا مثله، ولا مثل حجته. وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيَعينها، ثم يقول لخادمه: خذ المِكْتَل والدرهم وائتنا بشيء من لحمها، فما تبرح حتى تقع، فتنحر.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل، ثم يرفع جانب خبائه، فتمر به الإبل، فيقول: لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه. فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة. فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيبَ رسول الله ﷺ بالعين، ويفعل به كفعله في غيره فعصم الله رسوله وحفظه، وأنزل عليه: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾، هذا قول طائفة.

وقالت طائفة أخرى، منهم ابن قتيبة[٢]: ليس المراد: أنهم يصيبونك بالعين، كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه. وإنما أراد: أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء، يكاد يُسقطك. قال الزجاج: يعني: من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يَصْرعوك. وهذا مستعمل في الكلام. يقول القائل: نظر إليَّ نظراً كاد يصرعني.

قال: ويدل على صحة هذا المعنى، أنه قرن هذا بالنظر بسماع القرآن، وهم كانوا يكرهون ذلك أشَدَّ الكراهية، فيُحِدُّون إليه النظر بالبغضاء.

---

(١) ذكر ذلك البغوي في تفسيره، دون سند (٧/ ١٤٠، ١٤١)، والواحدي في أسباب النزول (٣٢٨)، وانظر: تفسير الطبري (٢٩/ ٤٦).

(٢) تفسير غريب القرآن (٤٨٢).

قلت: النظر الذي يؤثر في المنظور: قد يكون سببه شدة العداوة والحسد فيؤثر نظره فيه، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة. فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه، فإذا عاينه قُبُلاً اجتمعت الهمة عليه، وتوجهت النفس بكليتها إليه، فيتأثر بنظره، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يُحَمُّ، ومنهم من يحمل إلى بيته. وقد شاهد الناس من ذلك كثيراً.

وقد يكون سببه الإعجاب. وهو الذي يسمونه: بإصابة العين. وهو أن الناظر يرى الشيء رؤية إعجاب به أو استعظام، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر في العين. وهذا هو الذي يعرفه الناس من رؤية المعين: فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه، فيصاب بذلك.

قال عبد الرزاق: عن معمر، عن هشام بن قتيبة، قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «العين حق». ونهى عن الوَشم[(١)].

وروى سفيان عن عمرو بن دينار، عن عروة، عن عامر، عن عبيد بن رفاعة: أن أسماء بنت عُميس قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفَنَسْتَرقي لهم؟ قال: «نعم. فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»[(٢)].

فالكفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة. فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ الله وعصمته. فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن، فمن قال: إنه من الإصابة بالعين أراد: هذا المعنى، ومن قال: ليس به، أراد: أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب. فالقرآن حق.

وقد روى الترمذي من حديث أبي سعيد: أن النبي ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان[(٣)]. فلولا أن العين شر، لم يتعوذ منها.

---

(١) رواه الإمام البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧).

(٢) رواه الإمام أحمد رضي الله عنه (٦/ ٤٣٨)، والترمذي (٤/ ٣٤٦) في الطب، باب: ما جاء في الرقية من العين، وقال: «حسن صحيح»، وابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٦٥) في الطب، باب: من استرقى من العين، وانظر: الصحيحة رقم (١٢٥٢)، وروى مسلم (٥/ ٤٦) في السلام، باب: استحباب الرقية، عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأسماء بنت عميس: «ما لي أرى أجسام بني أخي ضارعة تصيبهم الحاجة، قالت: لا ولكن العين تسرع إليهم، قال: ارقيهم. . .».

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٣٤٥) في الطب، باب: ما جاء في الرقية بالمعوذتين، وقال: حسن غريب، ورواه ابن ماجه (الصحيح) (٢/ ٢٦٦) في الطب، باب: من استرقى من العين، وصحح إسناده الألباني في المشكاة رقم (٤٥٦٣).

وفي الترمذي من حديث علي بن المبارك، عن يحيى بن أبي كثير: حدثني حابس بن التميمي، حدثني أبي: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا شيء في الهام. والعين حق»(١).

وفيه أيضاً من حديث وهيب، عن ابن طاوس، عن أبيه عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين، وإذا اسْتُغْسِلْتم فاغسلوا»(٢). وفي الباب عن عبد الله بن عمرو. وهذا حديث صحيح.

والمقصود: أن العائن حاسد خاص. وهو أضر من الحاسد. ولهذا ـ والله أعلم ـ إنما جاء في السورة ذكر الحاسد دون العائن؛ لأنه أعم، فكل عائن حاسد ولا بد، وليس كل حاسد عائناً، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائن. وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته.



[أصل الحسد]

وأصل الحسد: هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمني زوالها.

فالحاسد عدو النعم. وهذا الشر هو من نفسه وطبعها، ليس هو شيئاً اكتسبه من غيرها، بل هو من خبثها وشرها. بخلاف السحر، فإنه إنما يكون باكتساب أمور أخرى، واستعانة بالأرواح الشيطانية. فلهذا ـ والله أعلم ـ قرن في السورة بين شر الحاسد وشر الساحر؛ لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتي من شياطين الإنس والجن. فالحسد من شياطين الإنس والجن، والسحر من النوعين.

وبقي قسم ينفرد به شياطين الجن، وهو الوسوسة في القلب. فذكره في السورة الأخرى، كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله. فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عمل منه، بل هو أذى من أمر خارج عنه. ففرق بينهما في الذكر في سورة الفلق.

والوسواس إنما يؤذي العبد من داخل بواسطة مساكنته له، وقبوله منه. ولهذا

---

(١) سنن الترمذي (٤/ ٣٤٧) في الطب، باب: ما جاء في أن العين حق، ورواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٧٠ و٣٧٩)، وأبو يعلى (٣/ ١٥٥)، وضعفه الألباني، ضعيف الجامع (٦٣٠٩)، وانظر: الإصابة لابن حجر (٢/ ١٤٤) لزاماً.

(٢) رواه مسلم (٢١٨٨).

يعاقب العبد على الشر الذي يؤذيه به الشيطان من الوساوس التي تقترن بها الأفعال، والعزم الجازم، لأن ذلك بسعيه وإرادته، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يعاقب عليه، إذ لا يضاف إلى كسبه ولا إرادته، فلهذا أفرد شر الشيطان في سورة، وقرن بين شر الساحر والحاسد في سورة.

□ □ □

[اقتران الحسد والسحر]

وكثيراً ما يجتمع في القرآن الحسد والسحر للمناسبة، ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم، فإنهم لشدة خبثهم: فيهم من السحر والحسد ما ليس في غيرهم. وقد وصفهم الله في كتابه بهذا وهذا، فقال: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

والكلام على أسرار هذه الآية وأحكامها، وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر، وما تضمنته من الفرقان بين السحر وبين المعجزات الذي أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ـ وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما ـ في موضع[(١)] غير هذا.

إذ المقصود: الكلام على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما.

وأما وصفهم بالحسد فكثير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤] وفي قوله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩].

والشيطان يقارن الساحر والحاسد، ويحادثهما ويصاحبهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاء منه للشيطان؛ لأن الحاسد شبيه بإبليس، وهو في الحقيقة من

(١) الجار والمجرور، خبر قوله: «والكلام على أسرار هذه الآية».

أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبه الشيطان من فساد الناس، وزوال نعم الله عنهم، كما أن إبليس حسد آدم لشرفه وفضله، وأبى أن يسجد له حسداً. فالحاسد من جند إبليس. وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يعينه ويستعينه، وربما يعبده من دون الله، حتى يقضي له حاجته، وربما يسجد له.

وفي كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب. ولهذا كلما كان الساحر أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده والمؤمنين، كان سحره أقوى وأنفذ. وكان سحر عباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام. وهم الذين سحروا رسول الله ﷺ.

وفي الموطأ عن كعب قال: كلمات أحفظهن من التوراة، لولاها لجعلتني يهود حماراً: أعوذ بوجه الله العظيم، الذي لا شيء أعظَم منه، وبكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، وبأسماء الله الحسنى، ما علمت منها وما لم أعلم، من شر ما خلق، وذرأ وبرأ(١).

والمقصود: أن الساحر والحاسد كل منهما قصده الشر، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود، والشيطان يقترن به ويعينه، ويزين له حسده، ويأمر بموجبه. والساحر بعلمه، وكسبه، وشركه، واستعانته بالشياطين.

[الحاسد من الجن والإنس]

وقوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥].

يعم الحاسد من الجن والإنس. فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ما آتاهم الله من فضله. كما حسد إبليس أبانا آدم، وهو عدو لذريته، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾ [فاطر: ٦]، ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن، والحسد أخص بشياطين الإنس. والوسواس يعمهما، كما سيأتي بيانهما، والحسد يعمهما أيضاً. فكلا الشيطانين حاسد موسوس.. فالاستعاذة من شر الحاسد تتناولهما جميعاً.

فقد اشتملت السورة على الاستعاذة من كل شر في العالم.

---

(١) موطأ مالك (٢/ ٩٥١) في الشعر، باب: ما يؤمر به من التعوذ، وكعب هنا هو «كعب الأحبار».

وتضمنت شروراً أربعة يستعاذ منها: شراً عاماً، وهو شر ما خلق. وشر الغاسق إذا وقب. فهذان نوعان.

□ □ □

[استعانة الحاسد والساحر بالشيطان]

ثم ذكر شر الساحر والحاسد، وهما نوعان أيضاً. لأنهما من شر النفس الشريرة. وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبده، وهو الساحر. وقَلَّما يتأتى السحر بدون نوع عبادة للشيطان، وتقرب إليه: إما بذبح باسمه، أو بذبح يقصد به هو، فيكون ذبحاً لغير الله، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق.

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان، فهو عبادة له، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه، لا لاسمه ولفظه. فمن سجد لمخلوق، وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة، كما أقبِّلها بالنعم، أو هذا إكرام: لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله. فليسمه بما يشاء.

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب، فقد عبده، وإن لم يسم ذلك عبادة، بل يسميه استخداماً. وصدق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة؛ فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده، كما يفعل هو به.

والمقصود: أن هذا عبادة منه للشيطان، وإنما سماه استخداماً. قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

فهؤلاء وأشباههم عباد الجن والشياطين. وهم أولياؤهم في الدنيا والآخرة. ولبئس المولى، ولبئس العشير. فهذا أحد النوعين.

والنوع الثاني: من يعينه الشيطان، وإن لم يستعن هو به، وهو الحاسد. لأنه نائبه وخليفته، لأن كليهما عدو نعم الله، ومنغصها على عباده.

[مراتب الحسد]

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾؛ لأن الرجل قد يكون

عنده حسد، ولكن يخفيه، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه، ولا بلسانه ولا بيده، بل يجد في قلبه شيئاً من ذلك ولا يعامل أخاه إلا بما يحب الله. فهذا لا يكاد يخلو منه أحد، إلا من عصمه الله.

وقيل للحسن البصري: أيحسد المؤمن؟ قال: ما أنساك لإخوة يوسف.

لكن الفرق بين القوة التي في قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياء منه، وإجلالاً له. أن يكره نعمه على عباده، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يحب الله، ومحبة لما يبغضه، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك، ويلزمها بالدعاء للمحسود، وتمني زيادة الخير له، بخلاف ما إذا حقق ذلك وحسده، ورتب على حسده مقتضاه: من الأذى بالقلب، واللسان والجوارح فهذا الحسد المذموم، هذا كله حسد تمني الزوال.

وللحسد ثلاث مراتب: إحداها هذه.

والثانية: تمني استصحاب عدم النعمة. فهو يكره أن يُحدث الله لعبده نعمة، بل يحب أن يبقى على حاله من جهله، أو فقره، أو ضعفه، أو شتات قلبه عن الله، أو قلة دينه. فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب. فهذا حسد على شيء مقدر. والأول حسد على شيء محقق. وكلاهما حاسد، عدو نعمة الله، وعدو عباده، وممقوت عند الله تعالى، وعند الناس. ولا يسود أبداً، ولا يواسَى، فإن الناس لا يُسوِّدون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يُسَوِّدونه باختيارهم أبداً، إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التي ابتلاهم الله بها، فهم يبغضونه وهو يبغضهم.

□ □ □

[حسد الغبطة]

والحسد الثالث: حسد الغبطة، وهو تمني أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمة عنه. فهذا لا بأس به، ولا يعاب صاحبه، بل هذا قريب من المنافسة، وقد قال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً، وسلطه على هَلَكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة. فهو يقضي بها ويعلمها الناس»[١]. فهذا حسد غبطة، الحامل لصاحبه عليه كِبَر نفسه، وحب خصال

---

(١) رواه البخاري (٧٣)، ورواه مسلم (٨١٦).

الخير، والتشبه بأهلها، والدخول في جملتهم، وأن يكون من سُبَّاقهم وعِلْيتهم ومُصَلّيهم، لا من فساكلهم[1]، فتحدث له من هذه الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة، مع محبته لمن يغبطه، وتمني دوام نعمة الله عليه. فهذا لا يدخل في الآية بوجه ما.

□ □ □

[أكبر أدوية الحسد]

فهذه السورة من أكبر أدوية الحسد. فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة. فهو مستعيذ بولي النعم ومُوليها، كأنه يقول: يا من أولاني نعمته وأسداها إليَّ، أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها مني، ويزيلها عني. وهو حَسْب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن خوف الخائف، ويجير المستجير. وهو نعم المولى ونعم النصير. فمن تولاه واستنصر به، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه أمّنه مما يخاف ويحذر. وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فلا تستبطئ نصره ورزقه وعافيته، فإن الله بالغ أمره. وقد جعل الله لكل شيء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر. ومن لم يَخَفه أخافه من كل شيء، وما خاف أحد غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨، ١٠٠]، وقال: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، أي: يخوفكم بأوليائه، ويعظمهم في صدوركم، فلا تخافوهم، وأفردوني بالمخافة أكْفِكم إياهم.

□ □ □

[ما يدفع به شر الحسد]

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب:

أحدها: التعوذ بالله من شره، والتحصن به واللجأ إليه. وهو المقصود بهذه

---

(١) الفسكل...: الذي يجيء في آخر الحلبة آخر الخيل، لسان العرب.

السورة. والله تعالى سميع لاستعاذته، عليم بما يستعيذ منه، والسمع هنا المراد به: سمع الإجابة، لا السمع العام. فهو مثل قوله: «سمع الله لمن حمده»، وقول الخليل ﷺ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ومرة يقرنه بالعلم، ومرة بالبصر؛ لاقتضاء حال المستعيذ ذلك. فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه، ويعلم كيده وشره. فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته، أي: مجيب، عليم بكيد عدوه، يراه ويبصره، ليتبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء.

وتأمل حكمة القرآن؛ كيف جاء في الاستعاذة من الشيطان الذين علم وجوده ولا نراه بلفظ «السميع العليم» في الأعراف وحم السجدة، وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنَسون ويُرون بالأبصار بلفظ «السميع البصير» في سورة حم المؤمن، فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦]؛ لأن أفعال هؤلاء أفعال معايَنَة تُرى بالبصر. وأما نزغ الشيطان فوساوس، وخطرات يلقيها في القلب، يتعلق بها العلم، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير في باب ما يُرى بالبصر، ويُدرك بالرؤية، والله أعلم.

السبب الثاني: تقوى الله، وحفظه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولَّى الله حفظه، ولم يَكِلْه إلى غيره، قال تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك». فمن حفظ الله حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً، فما نُصر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه، والتوكل على الله، ولا يستطل تأخيره وبغيه، فإنه كلما بغى عليه كان بغيه جنداً وقوة للمبغي عليه المحسود، يقاتل به الباغي نفسه، وهو لا يشعر. فبغيه سهام يرميها من نفسه إلى نفسه. ولو رأى المبغي عليه ذلك لسَرَّه بغيه عليه، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغي، دون آخره ومآله. وقد قال تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ [الحج: ٦٠]. فإذا كان الله قد ضمن له النصر، مع أنه قد استوفى حقه أولاً، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه، بل بُغي عليه وهو صابر؟

وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم، وقد سبقت سنة الله: أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغي منهما دَكّاً.

السبب الرابع: التوكل على الله. فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم. وهو من أقوى الأسباب في ذلك. فإن الله حسبه، أي: كافيه. ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لا بد منه، كالحر والبرد، والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً.

وفرق بين الأذى الذي هو في ظاهره إيذاء له، وهو في الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه، قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، ولم يقل: نؤته كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه، وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن، لجعل له ربه مخرجاً من ذلك، وكفاه ونصره.

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده، وعظم منفعته، وشدة حاجة العبد إليه في «كتاب الفتح القدسي»[(١)]، وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة، وأنه من مقامات العوام، وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة. وبينا أنه من أجلِّ مقامات العارفين، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله.

وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد، والعائن والساحر، والباغي.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه، وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له. فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه.

وهذا من أنفع الأدوية، وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره. فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه. فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر.

---

(١) ذكره غير واحد، وهو من كتبه المفقودة.

وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبَّثها به، وروح الحاسد الباغي متعلقة به يقظة ومناماً، لا يفتر عنه، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا. فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار، ودام الشر، حتى يهلك أحدهما. فإذا جَبَذ روحه منه، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به، وأن لا يخطره بباله، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به، بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضاً. فإن الحسد كالنار، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً.

وهذا باب عظيم النفع لا يُلَقَّاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه، وتعلق روحه به، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة، التي رضيت بوكالة الله لها، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هي لنفسها. فوثقت بالله، وسكنت إليه، واطمأنت به، وعلمت أن ضمانه حق، ووعده صدق، وأنه لا أوفى بعهده من الله، ولا أصدق منه قيلاً. فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم، وأعظم فائدة من نصرها هي لنفسها، أو نصر مخلوق مثلها لها، ولا يقوى على هذا إلا بـ:

السبب السادس: وهو الإقبال على الله، والإخلاص له، وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه في محل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئاً فشيئاً، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب، والتقرب إليه وتملقه وترضيه، واستعطافه وذكره، كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه إليه، الذي قد امتلأت جوانحه من حبه. فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره، ولا روحه انصرافاً عن محبته. فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً بالفكر في حاسده والبغي عليه، والطريق إلى الانتقام منه، والتدبير عليه؟ هذا ما لا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله، وطلب مرضاته. بل إذا مَسه طَيْف من ذلك واجتاز ببابه من خارج، ناداه حرس قلبه: إياك وحِمَى الملك. اذهب إلى بيوت الخانات التي كل من جاء حَلَّ فيها، ونزل بها. ما لَكَ ولبيت السلطان الذي أقام عليه اليَزَك وأدار عليه الحرس، وأحاطه بالسور، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس: أنه قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، فقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ

عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]. وقال في حق الصديق يوسف ﷺ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن، وصار داخل اليَزَك، لقد أوى إلى حصن لا خوف على من تحصَّن به. ولا ضيعة على من أوى إليه، ولا مطمع لعدو في الدنو إليه منه و﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤].

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه. فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال لخير الخلق، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب يعلمه أو لا يعلمه وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها. وما ينساه مما علمه أضعاف ما يذكره.

وفي الدعاء المشهور: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم»[١].

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف وأضعاف ما يعلمه. فما سلط عليه مؤذٍ إلا بذنب.

ولقي بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه، فقال له: قف حتى أدخل البيت، ثم أخرج إليك. فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب، وأناب إلى ربه. ثم خرج إليه فقال له: ما صنعت؟ فقال: تبت إلى الله من الذنب الذي سلطك به عليَّ.

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها. فإذا عوفي العبد من الذنوب عوفي من موجباتها. فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح.

وعلامة سعادته: أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه، فيشتغل بها وبإصلاحها والتوبة منها، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر ما نزل به، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه. والله يتولى نصرته وحفظه، والدفع عنه ولا بد. فما أسعده من

---

(١) رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٤/٤٠٣) عن أبي موسى الأشعري ﷺ، وقال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح غير أبي علي، ووثقه ابن حبان»، مجمع الزوائد (١٠/٢٢٣، ٢٢٤)، وانظر: حديث رقم (٤٦٣) من النهج السديد للدوسري.

عبد، وما أبركها من نازلة نزلت به. وما أحسن أثرها عليه، ولكن التوفيق والرشد بيد الله. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع. فما كل أحد يوفق لهذا؛ لا معرفة به، ولا إرادة له، ولا قدرة عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه. فإن لذلك تأثيراً عجيباً في دفع البلاء، ودفع العين، وشر الحاسد. ولو لم يكن في هذا إلا بتجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به. فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد. وكانت له فيه العاقبة الحميدة.

فالمحسن المتصدق في خفارة إحسانه وصدقته، عليه من الله جُنَّة واقية، وحصن حصين.

وبالجملة: فالشكر حارس النعمة من كل ما يكون سبباً لزوالها.

ومن أقوى الأسباب: حسد الحاسد والعائن. فإنه لا يفتر ولا يني، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود. فحينئذٍ يبرد أنينه، وتنطفئ ناره، لا أطفأها الله. فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصي الله، وهو كفران النعمة، وهو باب إلى كفران المنعم.

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه، وهو نائم على فراشه. فمن لم يكن له جند ولا عسكر، وله عدو، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه، وإن تأخرت مدة الظفر، والله المستعان.

السبب التاسع: وهو من أصعب الأسباب على النفس، وأشقها عليها، ولا يوفق له إلا من عَظُم حظه من الله، وهو إطفاء نار الحاسد والبغي والمؤذي بالإحسان إليه. فكلما ازداد أذىً وشراً وبغياً وحسداً ازددت إليه إحساناً، وله نصيحة، وعليه شفقه. وما أظنك تُصدِّق بأن هذا يكون، فضلاً عن أن تتعاطاه.

فاسمع الآن قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦]، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [القصص: ٥٤].

وتأمل حال النبي ﷺ الذي حكى عنه نبينا ﷺ[١]: أنه ضربه قومه حتى أدموه. فجعل يسْلُت الدم عنه، ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[٢]. كيف جمع في هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه؟

أحدها: عفوه عنهم. **والثاني**: استغفاره لهم. **والثالث**: اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون. **والرابع**: استعطافه لهم بإضافتهم إليه. فقال: «اغفر لقومي» كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به: هذا ولدي، هذا غلامي، هذا صاحبي، فَهبْه لي.

واسمع الآن ما الذي يسهل هذا على النفس، ويَطيبه إليها ويُنْعمها به.

اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله، تخاف عواقبها، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك. ومع هذا لا يقتصر على مجرد العفو والمسامحة، حتى ينعم عليك ويكرمك، ويجلب إليك من المنافع والإحسان فوق ما تؤمله. فإذا كنت ترجو هذا من ربك، وتحب أن يقابل به إساءتك، فما أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه، وتقابل به إساءتهم؟ ليعاملك الله تلك المعاملة. فإن الجزاء من جنس العمل، فكما تعمل مع الناس في إساءتهم في حقك يفعل الله معك في ذنوبك وإساءتك، جزاءً وفاقاً، فانتقم بعد ذلك، أو اعف، وأحسن أو اترك، فكما تَدين تدان، وكما تفعل مع عباده يفعل معك.

فمن تصور هذا المعنى، وشغل به فكره. هان عليه الإحسان إلى من أساء إليه.

وهذا مع ما يحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة، كما قال النبي ﷺ للذي شكى إليه قرابته، وأنه يحسن إليهم، وهم يسيئون إليه، فقال: «لا يزال معك من الله ظهير، ما دمت على ذلك»[٣].

هذا مع ما يتعجله من ثناء الناس عليه، ويصيرون كلهم معه على خصمه، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير، وهو مسيء إليه، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء. وذلك أمر فطري، فطر الله عليه عباده. فهو بهذا الإحسان، قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً.

---

(١) في هامش الأصل (٢/٢٤٣): «هذه الجملة ليست في بعض الأصول، ولعل حذفها هو الصواب فإن المعروف أن نبينا ﷺ هو الذي ضربه قومه إلى آخره». اهـ.

(٢) رواه البخاري (٣٤٧٧)، ومسلم (١٧٩٢).

(٣) رواه مسلم (٢٥٥٨).

هذا مع أنه لا بد له مع عدوه وحاسده مع إحدى حالتين: إما أن يملكه بإحسانه، فيستعبده وينقاد له، ويذل له، ويبقى من أحب الناس إليه. وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره، إن أقام على إساءته إليه. فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ما ينال منه بانتقامه، ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة. والله هو الموفق والمعين، بيده الخير كله، لا إله غيره، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا في ذلك بمنّه وكرمه.

وفي الجملة: ففي هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مائة منفعة للعبد عاجلة وآجلة. سنذكرها في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

السبب العاشر: وهو الجامع لذلك كله، وعليه مدار هذه الأسباب، وهو تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح، وهي بيد محركها، وفاطرها وبارئها، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه. فهو الذي يحسن عبده بها، وهو الذي يصرفها عنه وحده لا أحد سواه. قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك».

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ما سواه، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله، بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه. وخرج من قلبه اهتمامه به، واشتغاله به وفكره فيه، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً، واشتغالاً به عن غيره، فيرى أن إعماله فكره في أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل، والله يتولى حفظه والدفع عنه، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمناً بالله فالله يدافع عنه ولا بد. وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه. فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع، وإن مزج، مزج له. وإن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة، كما قال بعض السلف: من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة. ومن كان مرة ومرة فالله له مرة ومرة.

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: من خاف الله خافه كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء.

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر. وليس له أنفع من

التوجه إلى الله وإقباله عليه، وتوكله عليه، وثقته به، وأن لا يخاف معه غيره، بل يكون خوفه منه وحده، ولا يرجو سواه، بل يرجوه وحده، فلا يعلق قلبه بغيره، ولا يستغيث بسواه، ولا يرجو إلا إياه، ومتى علق قلبه بغيره ورجاه وخافه: وُكِل إليه وخُذِل من جهته. فمن خاف شيئاً غير الله سُلِّط عليه. ومن رجا شيئاً سوى الله خُذل من جهته وحُرم خيْره. هذه سنة الله في خلقه. ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

□ □ □

[أصناف الناس باعتبار إقرارهم بتأثير الحسد]

فقد عرفت بعض ما اشتملت عليه هذه السورة من القواعد النافعة المهمة التي لا غنى للعبد عنها في دينه ودنياه، ودلت على أن نفوس الحاسدين وأعينهم لها تأثير، وعلى أن الأرواح الشيطانية لها تأثير بواسطة السحر والنَّفْث في العُقد.

وقد افترق العالم في هذا المقام أربع فرق:

ففرقة: أنكرت تأثير هذا وهذا، وهم فرقتان:

فرقة: اعترفت بوجود النفوس الناطقة والجن، أنكرت تأثيرهما البتة. وهذا قول طائفة من المتكلمين ممن أنكر الأسباب والقوى والتأثيرات.

وفرقة أنكرت وجودهما بالكلية. وقالت: لا وجود لنفس الآدمي سوى هذا الهكيل المحسوس، وصفاته وأعراضه فقط. ولا وجود للجن والشياطين سوى أعراض قائمة به، وهذا قول كثير من ملاحدة الطبائعيين وغيرهم من الملاحدة المنتسبين إلى الإسلام. وهو قول شذاذ من أهل الكلام الذي ذمهم السلف، وشهدوا عليهم بالبدعة والضلالة.

الفرقة الثانية: أنكرت وجود النفس والإنسانية المفارقة للبدن، وأقرت بوجود الجن والشياطين، وهذا قول كثير من المتكلمين من المعتزلة وغيرهم.

الفرقة الثالثة: بالعكس، أقرت وجود النفس الناطقة المفارقة البدن، وأنكرت وجود الجن والشياطين. وزعمت أنها غير خارجة عن قوى النفس وصفاتها. وهذا قول كثير من الفلاسفة والإسلاميين وغيرهم.

وهؤلاء يقولون: إن ما يوجد في العالم من التأثيرات الغريبة والحوادث الخارقة فهو من تأثيرات النفس، ويجعلون السحر والكهانة كله من تأثير النفس وحدها، بغير واسطة شيطان منفصل. وابن سينا وأتباعه على هذا القول، حتى إنهم يجعلون معجزات الرسل من هذا الباب.

ويقولون: إنما هي من تأثيرات النفس في هيولي العالم.

وهؤلاء كفار بإجماع أهل الملل. ليسوا من أتباع الرسل جملة.

الفرقة الرابعة: وهم أتباع الرسل، وأهل الحق. أقروا بوجود النفس الناطقة المفارقة للبدن، وأقروا بوجود الجن والشياطين، وأثبتوا ما أثبته الله تعالى من صفاتهما وشرهما، واستعاذوا بالله منه، وعلموا أنه لا يعيذهم منه، ولا يجيرهم إلا الله.

فهؤلاء أهل الحق، ومن عداهم مفرط في الباطل، أو معه باطل وحق. والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

فهذا ما يسر الله من الكلام على سورة الفلق(١).



(١) بدائع الفوائد (٢/١٩٨ ـ ٢٤٧).

سُوْرَةُ النَّاسِ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١ ـ ٦].

□ □ □

قد تضمنت أيضاً استعاذة، ومستعاذاً به، ومستعاذاً منه.

فالاستعاذة تقدمت.

وأما المستعاذ به: فهو الله: (رب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس)، فذكر ربوبيته للناس، وملكه إياهم، وإلٰهيته لهم، ولا بد من مناسبة في ذكر ذلك في الاستعاذة من الشيطان، كما تقدم.

[فائدة الإضافات إلى الناس]

فنذكر أولاً معنى هذه الإضافات الثلاث. ثم وجه مناسبتها لهذه الاستعاذة، فنقول:

الإضافة الأولى: إضافة الربوبية المتضمنة لخلقهم وتدبيرهم، وتربيتهم، وإصلاحهم، وجلب مصالحهم، وما يحتاجون إليه، ودفع الشر عنهم، وحفظهم مما يفسدهم. هذا معنى ربوبيته لهم. وذلك يتضمن قدرته التامة، ورحمته الواسعة، وإحسانه، وعلمه بتفاصيل أحوالهم، وإجابة دعواتهم، وكشف كرباتهم.

الإضافة الثانية: إضافة الملك: فهو ملكهم المتصرف فيهم. وهم: عبيده ومماليكه. وهو المتصرف لهم المدبر لهم كما يشاء، النافذ القدرة فيهم، الذي له السلطان التام عليهم. فهو ملكهم الحق: الذي إليه مفزعهم عند الشدائد والنوائب، وهو مستغاثهم ومَعاذهم وملجأهم. فلا صلاح لهم ولا قيام إلا به وبتدبيره، فليس لهم ملك غيره يهربون إليه إذا دهمهم العدو، ويستصرخون به إذا نزل العدو بساحتهم.

الإضافة الثالثة: إضافة الإلٰهية. فهو إلٰههم الحق، ومعبودهم الذي لا إلٰه لهم سواه ولا معبود لهم غيره. فكما أنه وحده هو ربهم ومليكهم، لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه أحد، فكذلك هو وحده إلٰههم ومعبودهم، فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً في إلٰهيته، كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه.

وهذه طريقة القرآن يحتج عليهم بإقرارهم بهذا التوحيد على ما أنكروه من توحيد الإلٰهية والعبادة.

وإذا كان وحده هو ربنا وملكنا وإلٰهنا، فلا مفزع لنا في الشدائد سواه. ولا ملجأ لنا منه إلا إليه. ولا معبود لنا غيره. فلا ينبغي أن يُدْعَى ولا يخاف ولا يرجى، ولا يُحب سواه. ولا يُذَلُّ لغيره، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكَّل إلا عليه؛ لأن من ترجوه وتخافه وتدعوه وتتوكل عليه: إما أن يكون مُربِّيك والقيم بأمورك، ومتولي شأنك وهو ربك، فلا رب سواه. أو تكون مملوكَه وعبدَه الحق. فهو مَلِك الناس حقاً وكلهم عبيده ومماليكه. أو يكون معبودَك وإلٰهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك وروحك. وهو الإلٰه الحق إلٰه الناس الذي لا إلٰه لهم سواه.

فمن كان ربهم وملكهم وإلٰههم فهم جديرون أن لا يستعيذوا بغيره، ولا يستنصروا بسواه، ولا يلجأوا إلى غير حماه. فهو كافيهم وحسبهم وناصرهم ووليهم، ومتولي أمورهم جميعاً بربوبيته وملكه وإلٰهيته لهم. فكيف لا يلتجئ العبد عند النوازل ونزول عدوه به إلى ربه ومالكه وإلٰهه؟

فظهرت مناسبة هذه الإضافات الثلاث للاستعاذة: من أعدى الأعداء وأعظمهم عداوة، وأشدهم ضرراً، وأبلغهم كيداً.



[فائدة تكرار «الناس» وترتيب هذه الإضافات]

ثم إنه سبحانه كرر الاسم الظاهر، ولم يوقع المضمر موقعه. فيقول: رب الناس وملكهم وإلٰههم: تحقيقاً لهذا المعنى. وتقوية له، فأعاد ذكرهم عند كل اسم من أسمائه، ولم يعطف بالواو لما فيها من الإيذان بالمغايرة.

والمقصود: الاستعاذة بمجموع هذه الصفات، حتى كأنها صفة واحدة.

وقدم الربوبية لعمومها وشمولها لكل مربوب.

وأخر الإلٰهية لخصوصها؛ لأنه سبحانه إنما هو إلٰه مَنْ عبده ووحّده واتخذه دون

غيره إلٰهاً، فمن لم يعبده ويوحده فليس بإلٰهه. وإن كان في الحقيقة لا إلٰه له سواه، ولكن المشرك ترك إلٰهه الحق واتخذ إلٰهاً غيره باطلاً.

ووسَّط صفة الملك بين الربوبية والإلٰهية لأن الملك هو المتصرف بقوله وأمره، فهو المطاع إذا أمر، وملكه لهم تابع لخلقه إياهم، فملكه من كمال ربوبيته. وكونه إلٰههم الحق من كمال ملكه، فربوبيته تستلزم ملكه وتقتضيه، وملكه يستلزم إلٰهيته ويقتضيها. فهو الرب الحق، الملك الحق، الإلٰه الحق، خلقهم بربوبيته وقهرهم بملكه، واستعبدهم بإلٰهيته.

فتأمل هذه الجلالة، وهذه العظمة التي تضمنتها هذه الألفاظ الثلاث على أبدع نظام، وأحسن سياق (رب الناس، ملك الناس، إلٰه الناس).



[اشتملت الإضافات على قواعد الإيمان]

وقد اشتملت هذه الإضافات الثلاث على جميع قواعد الإيمان، وتضمنت معاني أسمائه الحسنى.

أما تضمنها لمعاني أسمائه الحسنى: فإن الرب هو القادر الخالق، البارئ المصور، الحي القيوم، العليم السميع البصير، المحسن المنعم، الجواد المعطي المانع، الضار النافع، المقدم المؤخر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي من يشاء، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى.

وأما الملك: فهو الآمر الناهي، المعز المذل، الذي يصرِّف أمور عباده كما يحب، ويُقَلِّبهم كما يشاء. وله من معنى الملك ما يستحقه من الأسماء الحسنى، كالعزيز، الجبار المتكبر، الحكم العدل، الخافض الرافع، المعز المذل، العظيم الجليل الكبير، والحسيب المجيد، الوالي المتعالي، مالك الملك، المقسط الجامع، إلى غير ذلك من الأسماء العائدة إلى الملك.

وأما الإلٰه: فهو الجامع لجميع صفات الكمال ونعوت الجلال. فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى. ولهذا كان القول الصحيح: أن «الله» أصله الإلٰه. كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا من شذ منهم. وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، والصفات العلى. فقد تضمنت هذه

الأسماء الثلاثة جميع معاني أسمائه الحسنى، فكان المستعيذ بها جديراً بأن يعاذ ويحفظ، ويمنع من الوسواس الخناس ولا يسلط عليه.

وأسرار كلام الله أجل وأعظم من أن تدركها عقول البشر. وإنما غاية أولي العلم الاستدلال بما ظهر منها على ما وراءه، وأن نسبة باديه إلى الخافي يسير.

□ □ □

[الشر المستعاذ منه في كل من السورتين]

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة من الشر الذي هو سبب الذنوب والمعاصي كلها. وهو الشر الداخل في الإنسان، الذي هو منشأ العقوبات في الدنيا والآخرة.

فسورة الفلق: تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو ظلم الغير له بالسحر والحسد. وهو شر من خارج.

وسورة الناس: تضمنت الاستعاذة من الشر الذي هو سبب ظلم العبد نفسه. وهو شر من داخل.

فالشر الأول: لا يدخل تحت التكليف، ولا يطلب منه الكف عنه. لأنه ليس من كسبه.

والشر الثاني في سورة الناس: يدخل تحت التكليف، ويتعلق به النهي. فهذا شر المعائب، والأول شر المصائب. والشر كله يرجع إلى العيوب والمصائب ولا ثالث لهما.

فسورة الفلق: تتضمن الاستعاذة من شر المصيبات. وسورة الناس: تتضمن الاستعاذة من شر العيوب التي أصلها كلها الوسوسة.

□ □ □

[لفظ «الوسواس» ومعناه]

إذا عرف هذا، فالوسواس: فَعْلال من وَسْوَس.

وأصل الوسوسة: الحركة أو الصوت الخفي الذي لا يحس، فيحترز منه.

فالوسواس: الإلقاء الخفي في النفس، إما بصوت خفي لا يسمعه إلا من ألقي إليه، وإما بغير صوت، كما يوسوس الشيطان إلى العبد.

ومن هذا: وسوسة الحلي وهو حركته الخفية في الأذن.

والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها سميت وسوسة لقربها، وشدة مجاورتها لمحل

الوسوسة من شياطين الإنس، وهو الأذن. فقيل: وسوسة الحلي. لأنه صوت مجاور للأذن، كوسوسة الكلام الذي يلقيه الشيطان في آذان من يوسوس له.

ولما كانت الوسوسة كلاماً يكرره الموسوس، ويؤكده عند من يلقيه إليه كرروا لفظها بإزاء تكرير معناها، فقالوا: وسوس وسوسة. فراعوا تكرير اللفظ ليفهم منه تكرير مسماه.

ونظير هذا: ما تقدم من متابعتهم حركة اللفظ بإزاء متابعة حركة معناه، كالدوران، والغليان، والنزوان، وبابه.

ونظير ذلك: زلزل، ودكدك، وقلقل، وكبكب الشيء؛ لأن الزلزلة حركة متكررة. وكذلك الدكدكة، والقلقلة. وكذلك كبكب الشيء: إذا كبه في مكان بعيد، فهو يُكَبُّ فيه كبا بعد كب. كقوله تعالى: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء: ٩٤]. ومثله رَضْرَضه: إذا كرر رَضَّه مرة بعد مرة. ومثله ذَرْذَره: إذا ذرَه شيئاً بعد شيء. ومثله صَرْصَر الباب: إذا تكرر صريره. ومثله: مَطْمَط الكلام: إذا مططه شيئاً بعد شيء. ومثله: كفكف الشيء: إذا كرر كَفَّه. وهو كثير.

وقد علم بهذا أن من جعل هذا الرباعي بمعنى الثلاثي المضاعف لم يصب. لأن الثلاثي لا يدل على تكرار، بخلاف الرباعي المكرر، فإذا قلت: ذَرّ الشيء وصر الباب، وكفَّ الثوب، ورض الحبَّ: لم يدل على تكرار الفعل، بخلاف ذرذر، وصرصر، ورضرض، ونحوه.

فتأمله. فإنه مطابق للقاعدة العربية في الحذو بالألفاظ حذو المعاني، وقد تقدم التنبيه على ذلك. فلا وجه لإعادته.

وكذلك قولهم: عَج العجل. إذا صوَّت. فإن تابع صوته، قالوا: عجعج. وكذلك: ثَجَّ الماء. إذ صُبَّ. فإن تكرر ذلك قيل: ثجثج.

والمقصود: أن الموسوس لما كان يكرر وسوسته ويتابعها، قيل: وسوس.

□ □ □

[«الوسواس» وصف أم مصدر؟]

إذا عرف هذا فاختلف النحاة في لفظ الوسواس: هل هو وصف، أو مصدر؟ على قولين. ونحن نذكر حجة كل قول، ثم نبين الصحيح من القولين بعون الله وفضله.

فأما من ذهب إلى أنه مصدر فاحتج بأن الفعل منه فَعْلل، والوصف من فعلل إنما

هو مُفعلَل، كمدحرَج، ومُسرهف، ومبيطر، ومسيطر. وكذلك هو من فعل بوزن مَفْعَل، كمقطع، ومخرج، وبابه، فلو كان الوسواس صفة لقيل: موسوس. ألا ترى أن اسم الفاعل من زلزل: مُزلزِل، لا زلزال. وكذلك من دكدك: مدكدك، وهو مطرد. فدل على أن الوسواس مصدر وصف به على وجه المبالغة. أو يكون على حذف مضاف، تقديره: ذو الوسواس.

قالوا: والدليل عليه أيضاً قول الشاعر:

تسمع للحلي بها وسواساً

فهذا مصدر بمعنى الوسوسة سواء.

قال أصحاب القول الآخر: الدليل على أنه وصف: أن فعلل ضربان:

أحدهما: صحيح لا تكرار فيه، كدحرج، وسرهف، وبيطر. وقياس مصدر هذا الفَعْلَلة. وكالدحرجة والسَّرْهفة، والبيطرة، والفِعْلان ـ بكسر الفاء ـ كالسِّرهاف والدحراج. والوصف منه: مفعلل كمدحرج ومبيطر.

والثاني: فَعّل الثنائي المكرر كزلزلٍ، ودكدك ووسوس. وهذا فرع على فعلل المجرد عن التكرار، لأن الأصل السلامة من التكرار، ومصدر هذا النوع والوصف منه: مساوٍ لمصدر الأول، ووصفه. فمصدره يأتي على الفَعْللة، كالوسوسة، والزلزلة، والفِعْلال كالزلزال.

وأقيس المصدرين وأولاهما بنوعي فعلل: الفعلال. لأمرين:

أحدهما: أن فعلل مشاكل لأفعل في عدد الحروف وفتح الأول والثالث والرابع وسكون الثاني. فجعل إفعال مصدر أفعال، وفعلال مصدر فعلل ليتشاكل المصدران، كما يتشاكل الفعلان، فكان الفعلان أولى بهذا الوزن من الفعللة.

والثاني: أن أصل المصدر أن يخالف وزنه وزن فعله، ومخالفة فعلال لفعلل أشد من مخالفة فعللة له. فكان فعلال أحق بالمصدرية من فعللة، أو تساويا في الاطراد، مع أن فعللة أرجح في الاستعمال وأكثر. هذا هو الأصل.

وقد جاؤوا بمصدر هذا الوزن المكرر مفتوح الفاء.

فقالوا: وسوس الشيطان وَسواساً، ووعوع الكلب وَعواعاً، إذا عوى، وعظعظ السهم[1] عظعاظاً. والجاري على القياس فعلال بكسر الفاء أو فعللة، وهذا المفتوح

---

(١) في القاموس: عظعظ السهم، وعظعظه عظعاظاً بالكسر: ارتعش في مضيه والْتوى.

نادر؛ لأن الرباعي الصحيح أصل للمتكرر ولم يأت مصدر الصحيح، مع كونه أصلاً، إلا على فعللة وفعلال بالكسر، فلم يحسن بالرباعي، المكرر، لفرعيته، أن يكون مصدره إلا كذلك؛ لأن الفرع لا يخالف أصله، بل يحتذي فيه حذوه، وهذا يقتضي أن لا يكون مصدره على فعلال بالفتح. فإن شذ حُفظ ولم يزد عليه.

قالوا: وأيضاً فإن فعلالاً المفتوح الفاء قد كثر وقوعه صفة مصوغة من فعلل المكرر، ليكون فيه نظير فِعال من الثلاثي. لأنهما متشاركان وزناً، فاقتضى ذلك أن لا يكون لفعلال من المصدرية نصيب، كما لم يكن لفعال فيها نصيب. فلذلك استندروا وقوع وسواس، ووعواع، وعظعاظ مصادر. وإنما حقها أن تكون صفات دالة على المبالغة في مصادر هذه الأفعال.

قالوا: وإذا ثبت هذا؛ فحق ما وقع منها محتملاً للمصدرية والوصفية أن يحمل على الوصفية حملاً على الأكثر الغالب، وتجنباً للشاذ.

فمن زعم أن الوسواس مصدر مضاف إليه «ذو» تقديراً. فقوله خارج عن القياس والاستعمال الغالب.

ويدل على فساد ما ذهب إليه أمران:

أحدهما: أن كل مصدر أضيف إليه «ذو» تقديراً، فتجرده للمصدرية أكثر من الوصف به، كرضا وصوم وفِطْر، وفعلال المفتوح لم يثبت تجرده للمصدرية إلا في ثلاثة ألفاظ فقط: وسواس، ووعواع، وعظعاظ، على أن منع المصدرية في هذا ممكن؛ لأن غاية ما يمكن أن يستدل به على المصدرية قولهم: وسوس إليه الشيطان وسواساً. وهذا لا يتعين للمصدرية، لاحتمال أن يراد به الوصفية وينتصب وسواساً على الحال، ويكون حالاً مؤكدة. فإن الحال قد يؤكد بها عاملها الموافق لها لفظاً ومعنى، كقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾ [النساء: ٧٩]، و﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢].

نعم، إنما تتعين مصدرية الوسواس، إذ سمع: أعوذ بالله من وسواس الشيطان، ونحو ذلك مما يكون الوسواس فيه مضافاً إلى فاعله، كما سمع ذلك في الوسوسة. ولكن أين لكم ذلك؟ فهاتوا شاهده. فبذلك يتعين أن يكون الوسواس مصدراً لا بانتصابه بعد الفعل.

الوجه الثاني: من دليل فساد من زعم أن «وسواساً» مصدر مضاف إليه «ذو» تقديراً: أن المصدر المضاف إليه «ذو» تقديراً لا يؤنث ولا يثنى ولا يجمع، بل يلزم

طريقة واحدة، ليعلم أصالته في المصدرية، وأنه عارض الوصفية فيقال: امرأة صوم، وامرأتان صوم، ونساء صوم؛ لأن المعنى ذات صوم وذاتا صوم، وذوات صوم، وفعلال الموصوف به ليس كذلك بل يثنى ويجمع ويؤنث فنقول: رجل ثرثار، وامرأة ثرثارة، ورجال ثرثارون، وفي الحديث: «أبغضكم إليَّ الثرثارون المتفيهقون»[1] وقالوا: ريح رفرافة، أي: تحرك الأشجار، وريح سفسافة، أي: تنخل التراب، ودرع فضفاضة، أي: متسعة، والفعل من ذلك كله فعلل، والمصدر فَعللة وفِعلال بالكسر، ولم ينقل في شيء من ذلك فعلال بالفتح وكذلك قالوا: تمتام وفأفاء، ولضلاض، أي: ماهر في الدلالة، وفَجفاج كثير الكلام، وهَرهار، أي: ضحاك، وكهكاه، ووطواط أي: ضعيف، وحشحاش، وعسعاس أي: خفيف، وهو كثير ومصدره كله الفعللة، والوصف فعلال بالفتح، ومثله هفهاف، أي: خميص، ومثله دحداح، أي: قصير، ومثله: بجباج أي: جسيم، وتختاخ: أي: ألْكَن، وشَمْشام: أي: سريع، وشيء خشخاش، أي: مصوت، وقعقاع مثله، وأسد قَضْقاض: أي: كاسر، وحَيَّة نَضْناض: تحرك لسانها.

فقد رأيت فعلال في هذا كله وصفاً لا مصدراً، فما بال الوسواس أخرج عن نظائره وقياس بابه؟

فثبت أن وسواساً وصف لا مصدر، كثرثار، وتمتام، ودحداح، وبابه.

ويدل عليه وجه آخر: وهو أنه وصفه بما يستحيل أن يكون مصدراً، بل هو متعين في الوصفية، وهو ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ فالوسواس، والخناس: وصفان لموصوف محذوف، وهو الشيطان.

وحسَّن حذف الموصوف هاهنا غلبة الوصف، حتى صار كالعلم عليه. والموصوف إنما يقبح حذفه إذا كان الوصف مشتركاً، فيقع اللبس كالطويل والقبيح، والحسن ونحوه، فيتعين ذكر الموصوف ليعلم أن الصفة له لا لغيره.

فأما إذا غلب الوصف واختص، ولم يعرض فيه اشتراك، فإنه يجري مجرى الاسم، ويحسن حذف الموصوف: كالمسلم والكافر، والبر والفاجر، والقاصي والداني، والشاهد والوالي، ونحو ذلك. فحذف الموصوف هنا أحسن من ذكره.

---

(١) رواه الترمذي (الصحيح) (٢/ ١٩٦) في البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق، وانظر: الصحيحة، حديث رقم (٧٩١).

وهذا التفصيل أولى من إطلاق من منع حذف الموصوف ولم يفصل.

ومما يدل على أن الوسواس وصف لا مصدر: أن الوصفية أغلب على فعلال من المصدرية كما تقدم. فلو أريد المصدر لأتي بذو المضافة إليه ليزول اللبس وتتعين المصدرية. فإن اللفظ إذا احتمل الأمرين على السواء فلا بد من قرينة تدل على تعيين أحدهما، فكيف والوصفية أغلب عليه من المصدرية؟

وهذا بخلاف صوم وفطر وبابهما، فإنها مصادر لا تلتبس بالأوصاف. فإذا جرت أوصاف عُلم أنها على حذف مضاف، أو تنزيلاً للمصدر منزلة الوصف، مبالغة، على الطريقتين في ذلك.

فتعين أن «الوسواس» هو الشيطان نفسه، وأنه ذات لا مصدر، والله أعلم.



[معنى «الخناس»]

وأما الخناس: فهو فعَّال، من خنس يخنس، إذا توارى واختفى.

ومنه قول أبي هريرة: لقيني النبي ﷺ في بعض طرق المدينة، وأنا جنب، فانخنست منه[١].

وحقيقة اللفظ: اختفاء بعد ظهور. فليست لمجرد الاختفاء، ولهذا وصفت بها الكواكب في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥]، قال قتادة: هي النجوم تبدو بالليل وتخنس بالنهار، فتختفي ولا ترى، وكذلك قال علي رضي الله عنه: هي الكواكب تخنس بالنهار فلا ترى.

وقالت طائفة: الخنَّس: هي الراجعة التي ترجع كل ليلة إلى جهة المشرق، وهي السبعة السيارة.

قالوا: وأصل الخنوس: الرجوع إلى وراء. و«الخناس» مأخوذ من هذين المعنيين. فهو من الاختفاء والرجوع والتأخر، فإن العبد إذا غفل عن ذكر الله جثم على قلبه الشيطان، وانبسط عليه، وبذر فيه أنواع الوساوس التي هي أصل الذنوب كلها، فإذا ذكر العبد ربه واستعاذ به، انخنس وانقبض، كما ينخنس الشيء ليتوارى. وذلك الانخناس والانقباض: هو أيضاً تجمُّع ورجوع، وتأخر عن القلب إلى خارج، فهو تأخر ورجوع معه اختفاء.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٣)، ومسلم (٣٧١).

وخنس وانخنس: يدل على الأمرين معاً. قال قتادة: الخناس: له خرطوم كخرطوم الكلب في صدر الإنسان، فإذا ذكر العبد ربه خنس. ويقال: رأسه كرأس الحية وهو واضع رأسه على ثمرة القلب يُمَنِّيه ويحدثه، فإذا ذكر الله خنس. وإذا لم يذكره عاد، ووضع رأسه يوسوس إليه ويمنيه.

وجيء من هذا الفعل بوزن فعَّال الذي للمبالغة دون الخانس والمنخنس: إيذاناً بشدة هروبه ورجوعه، وعظم نفوره عند ذكر الله. وأن ذلك دأبه وديدنه لا أنه يعرض له ذلك عند ذكر الله أحياناً، بل إذا ذكر الله هرب وانخنس وتأخر. فإن ذكر الله هو مقمعته التي يُقْمع بها، كما يقمع المفسد والشرير بالمقامع التي تردعه من سياط وحديد وعِصّي ونحوها. فذكر الله يقمع الشيطان ويؤلمه ويؤذيه، كالسياط والمقامع التي تؤذي من يضرب بها، ولهذا يكون شيطان المؤمن هزيلاً ضئيلاً مُضنًى، مما يعذبه المؤمن ويقمعه به من ذكر الله وطاعته.

وفي أثر عن بعض السلف: أن المؤمن يُنضي شيطانه كما يُنضي الرجل بعيره في السفر؛ لأنه كلما اعترضه صب عليه سياط الذكر، والتوجه والاستغفار والطاعة، فشيطانه معه في عذاب شديد، ليس بمنزلة شيطان الفاجر الذي هو معه في راحة ودعة، ولهذا يكون قوياً عاتياً شديداً.

فمن لم يعذب شيطانه في هذه الدار بذكر الله تعالى وتوحيده واستغفاره وطاعته عذبه شيطانه في الآخرة بعذاب النار، فلا بد لكل أحد أن يعذب شيطانه أو يعذبه شيطانه.

وتأمل كيف جاء بناء «الوسواس» مكرراً لتكريره الوسوسة الواحدة مراراً، حتى يعزم عليها العبد، وجاء بناء «الخناس» على وزن الفعال الذي يتكرر منه نوع الفعل؛ لأنه كلما ذكر الله انخنس، ثم إذا غفل العبد عادوه بالوسوسة. فجاء بناء اللفظين مطابقاً لمعنيهما.



[الصدر مكان الوسوسة]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ٥].

صفة ثالثة للشيطان، فذكر وسوسته أولاً، ثم ذكر محلها ثانياً، وأنها في صدور الناس ثالثاً.

وقد جعل الله للشيطان دخولاً في جوف العبد ونفوذاً إلى قلبه وصدره، فهو يجري منه مجرى الدم، وقد وكل بالعبد فلا يفارقه إلى الممات.

وفي الصحيحين من حديث الزهري عن علي بن حسين عن صفية بنت حُيَيٍّ قالت: كان رسول الله ﷺ معتكفاً، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته ثم قمت، فانقلبت، فقام معي ليقلبني، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد، فمر رجلان من الأنصار. فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، فقال النبي ﷺ: «على رِسلكما، إنها صفية بنت حيي». فقالا: سبحان الله يا رسول الله! فقال: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما سوءاً» أو قال: «شيئاً»[١].

وفي الصحيح أيضاً عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نودي بالصلاة أدبر الشيطان وله ضراط، فإذا قضى أقبل، فإذا ثُوّب بها أدبر، فإذا قضى أقبل، حتى يخطر بين الإنسان وقلبه، فيقول: اذكر كذا واذكر كذا ـ لما لم يكن يذكر ـ حتى لا يدري: أثلاثاً صلى أم أربعاً؟ فإذا لم يدر: أثلاثاً صلى أم أربعاً؟ سجد سجدتي السهو»[٢].

ومن وسوسته: ما ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق الله؟ فمن وجد ذلك فليستعذ بالله وَلْيَنْتَهِ»[٣].

وفي الصحيح: أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله إن أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يخِرَّ من السماء إلى الأرض أحبُّ إليه من أن يتكلم به، قال: «الحمد لله الذي رد كيده إلى الوسوسة»[٤].

ومن وسوسته أيضاً: أن يشغل القلب بحديثه حتى ينسيه ما يريد أن يفعله، ولهذا

---

(١) رواه البخاري (٢٠٣٥)، ومسلم (٢١٧٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠٨)، ومسلم (٣٨٩م).

(٣) رواه البخاري (٣٢٧٦)، ومسلم (١٣٤).

(٤) لعله يقصد بقوله: «وفي الصحيح»، أي: الحديث الصحيح، وإلا فلم أجده في أحد الصحيحين، وهو حديث صحيح، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (١/ ٢٣٥ ـ ٢٤٠)، ورواه أبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٦٢، ٩٦٣) في الأدب، باب: في رد الوسوسة، كلاهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: ظلال الجنة، للألباني (١/ ٢٩٦).

يضاف النسيان إليه إضافته إلى سببه. قال تعالى حكاية عن صاحب موسى أنه قال: ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣].

□ □ □

[الاستعاذة من «الوسواس» لا من شره فقط]

وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه ﴿الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾، ولم يقل: من شر وسوسته: لتعم الاستعاذة شره جميعه. فإن قوله: ﴿مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾ يعم كل شره، ووصفه بأعظم صفاته وأشدها شراً، وأقواها تأثيراً وأعمها فساداً. وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة.

فإن القلب يكون فارغاً من الشر والمعصية فيوسوس إليه، ويُخطر الذنبَ بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه، ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له ويحسنها، ويخيلها له في خياله، حتى تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيل ويمني ويشهي وينسى علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها قط، وينسى ما وراء ذلك. فتصير الإرادة عزيمة جازمة. فيشتد الحرص عليها من القلب. . فيبعث الجنود في الطلب، فيبعث الشيطان معهم مدداً لهم وعوناً، فإن فتروا حَرَّكهم. وإن وَنُوا أزعجهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]، أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجاً، كلما فتروا أو ونوا أزعجتهم الشياطين وأزَّتهم وأثارتهم. فلا تزال بالعبد تقوده إلى الذنب، وتنظم شمل الاجتماع بألطف حيلة وأتم مكيدة. وقد رضي لنفسه بالقيادة لفجرة بني آدم. وهو الذي استكبر وأبى أن يسجد لأبيهم، فلا بتلك النخوة والكبر ولا[1] برضاه أن يصير قواداً لكل من عصى الله، كما قال بعضهم:

عجبت من إبليس في تيهه ... وقبح ما أظهر من نخوته
تاه على آدم في سجدة ... وصار قواداً لذريته

فأصل كل معصية وبلاء: إنما هو الوسوسة، فلهذا وصفه بها لتكون الاستعاذة من شرها أهم من كل مستعاذ منه، وإلا فشره بغير الوسوسة حاصل أيضاً.

□ □ □

(١) في هامش الأصل (بدائع الفوائد) (٢/٢٥٨): «الظاهر الذي يقتضيه المعنى: فلم تمنعه النخوة والكبر أن يصير قواداً لكل من عصى الله». اهـ.

[نماذج من شرور الشيطان]

فمن شره: أنه لص سارق لأموال الناس، فكل طعام أو شراب لم يذكر اسم الله عليه فله فيه حظ بالسرقة والخطف، وكذلك يبيت في البيت إذا لم يذكر فيه اسم الله، فيأكل طعام الإنس بغير إذنهم، ويبيت في بيوتهم بغير أمرهم. فيدخل سارقاً ويخرج مغيراً، ويدل على عوراتهم، فيأمر العبد بالمعصية ثم يلقي في قلوب الناس يقظة ومناماً أنه فعل كذا وكذا.

ومن هذا: أن العبد يفعل الذنب لا يطلع عليه أحد من الناس، فيصبح والناس يتحدثون به، وما ذاك إلا أن الشيطان زينه وألقاه في قلبه، ثم وسوس إلى الناس بما فعل وألقاه إليهم، فأوقعه في الذنب، ثم فضحه به. فالرب تعالى يستره والشيطان يجهد في كشف ستره وفضيحته. فيغتر العبد ويقول: هذا ذنب لم يره إلا الله، ولم يشعر بأن عدوه ساعٍ في إذاعته وفضيحته، وقلَّ من يتفطن من الناس لهذه الدقيقة.

ومن شره: أنه إذا نام العبد عقد على رأسه عقداً تمنعه من اليقظة، كما في صحيح البخاري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ـ إذا هو نام ـ ثلاث عقد، يضرب على كل عقدة مكانها: عليك ليلٌ طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلَّت عقدة، فإن توضأ انحلّت عقدة، فإن صلى انحلّت عقده كلها. فأصبح نشيطاً طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»(١).

ومن شره: أنه يبول في أذن العبد حتى ينام إلى الصباح، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه ذكر عنده رجل نام ليله حتى أصبح، فقال: «ذاك رجل بال الشيطان في أذنيه»، أو قال: «في أذنه»(٢)، رواه البخاري.

ومن شره: أنه قعد لابن آدم بطرق الخير كلها، فما من طريق من طرق الخير إلا والشيطان مرصد عليه يمنعه بجهده أن يسلكه، فإن خالفه وسلكه ثَبَّطه فيه وعَوَّقه وشوَّش عليه بالمعارضات والقواطع، فإن عمله وفرغ منه قَيَّض له ما يبطل أثره ويرده على حافرته.

---

(١) رواه البخاري (١١٤٢)، ومسلم (٧٧٦).

(٢) رواه البخاري (١١٤٤)، ومسلم (٧٧٤).

ويكفي من شره: أنه أقسم بالله ليقعدن لبني آدم صراطه المستقيم. وأقسم ليأتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم.

ولقد بلغ شره: أن أعمل المكيدة وبالغ في الحيلة حتى أخرج آدم من الجنة، ثم لم يكفه ذلك حتى استقطع من أولاده شُرْطة للنار، من كل ألف: تسعمائة وتسعة وتسعين، ثم لم يكفه ذلك حتى أعمل الحيلة في إبطال دعوة الله من الأرض وقصد أن تكون الدعوة له، وأن يُعَبد هو من دون الله، فهو ساع بأقصى جهده على إطفاء نور الله، وإبطال دعوته، وإقامة دعوة الكفر والشرك، ومحو التوحيد وأعلامه من الأرض.

ويكفي من شره: أنه تصدى لإبراهيم خليل الرحمٰن حتى رماه قومه بالمنجنيق في النار، فرد الله كيده عليه، وجعل النار على خليله برداً وسلاماً.

وتصدى للمسيح ﷺ حتى أراد اليهود قتله وصلبه، فرد الله كيده، وصان المسيح ورفعه إليه.

وتصدى لزكريا ويحيى حتى قتلا.

واستثار فرعون حتى زين له الفساد العظيم في الأرض، ودعوى أنه ربهم الأعلى.

وتصدى للنبي ﷺ وظاهَر الكفار على قتله بجهده، والله تعالى يُكْبته ويرده خاسئاً.

وتفلَّت على النبي ﷺ بشهاب من نار، يريد أن يرميه به، وهو في الصلاة، فجعل النبي ﷺ يقول: «ألعنك بلعنة الله»[1].

وأعان اليهود على سحرهم للنبي ﷺ.

فإذا كان هذا شأنه وهمته في الشر، فكيف الخلاص منه إلا بمعونة الله وتأييده وإعاذته؟.



[مراتب شرور الشيطان]

ولا يمكن حصر أجناس شره، فضلاً عن آحادها، إذ كل شر في العالم فهو السبب فيه، ولكن ينحصر شره في ستة أجناس، لا يزال بابن آدم حتى ينال منه واحداً منها أو أكثر:

---

(١) رواه مسلم (٥٤٢).

الشر الأول: شر الكفر والشرك، ومعاداة الله ورسوله. فإذا ظفر بذلك من ابن آدم برد أنينه، واستراح من تعبه معه، وهو أول ما يريد من العبد فلا يزال به حتى يناله منه، فإذا نال ذلك صَيَّره من جنده وعسكره، واستنابه على أمثاله وأشكاله، فصار من دعاة إبليس ونُوَّابه، فإن يئس منه من ذلك، وكان ممن سبق له الإسلام في بطن أمه نقله إلى:

المرتبة الثانية: من الشر، وهي البدعة، وهي أحب إليه من الفسوق والمعاصي؛ لأن ضررها في نفس الدين، وهو ضرر متعد، وهي ذنب لا يتاب منه[1] وهي مخالفة لدعوة الرسل، ودعاء إلى خلاف ما جاؤوا به، وهي باب الكفر والشرك، فإذا نال منه البدعة، وجعله من أهلها صار أيضاً نائبه، وداعياً من دعاته.

فإن أعجزه من هذه المرتبة، وكان العبد ممن سبقت له من الله موهبة السنة، ومعاداة أهل البدع والضلال، نقله إلى:

المرتبة الثالثة: من الشر، وهي: الكبائر على اختلاف أنواعها. فهو أشد حرصاً على أن يوقعه فيها، ولا سيما إن كان عالماً متبوعاً، فهو حريص على ذلك، لينفر الناس عنه، ثم يشيع ذنوبه ومعاصيه في الناس، ويستنيب منهم من يشيعها ويذيعها تديناً وتقرباً بزعمه إلى الله تعالى، وهو نائب إبليس ولا يشعر، فـ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]. هذا إذا أحبوا إشاعتها وإذاعتها، فكيف إذا تولوا هم إشاعتها وإذاعتها، لا نصيحة منهم، ولكن طاعة لإبليس ونيابة عنه. كل ذلك لينفر الناس عنه، وعن الانتفاع به.

وذنوب هذا ـ ولو بلغت عنان السماء ـ هي أهون عند الله من ذنوب هؤلاء، فإنها ظلم منه لنفسه، إذا استغفر الله وتاب إليه قَبِل الله توبته، وبَدَّل سيئاته حسنات.

وأما ذنوب أولئك: فظلم للمؤمنين، وتتبع لعوراتهم، وقصد لفضيحتهم، والله سبحانه بالمرصاد، لا تخفى عليه كمائنُ الصدور، ودسائس النفوس.

فإن عجز الشيطان عن هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الرابعة: وهي الصغائر التي إذا اجتمعت فربما أهلكت صاحبها، كما قال النبي ﷺ: «إياكم ومُحقَّرات الذنوب، فإن مثل ذلك مثل قوم نزلوا بفلاة من

---

(١) لأن صاحبه لا يشعر بأنه مذنب حتى يتوب [الشامي].

الأرض»[1]، وذكر حديثاً معناه: أن كل واحد منهم جاء بعود حطب، حتى أوقدوا ناراً عظيمة فطبخوا واشتووا.

ولا يزال يسهل عليه أمر الصغائر حتى يستهين بها، فيكون صاحب الكبيرة الخائف منها أحسن حالاً منه.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة نقله إلى:

المرتبة الخامسة: وهي إشغاله بالمباحات التي لا ثواب فيها ولا عقاب، بل عاقبتها فوت الثواب الذي ضاع عليه باشتغاله بها.

فإن أعجزه العبد من هذه المرتبة، وكان حافظاً لوقته، شحيحاً به، يعلم مقدار أنفاسه وانقطاعها، وما يقابلها من النعيم والعذاب، نقله إلى:

المرتبة السادسة: وهي أن يشغله بالعمل المفضول عما هو أفضل منه، ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل: فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه.

وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس، فإنه إذا رأى فيه داعياً قوياً ومحركاً إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة. فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الداعي من الله.

وهو معذور، ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفَوِّت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل.

وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله يقذفه في قلب العبد، يكون سببه تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله، وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله ولرسوله، ولكتابه، ولعباده المؤمنين، خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة، وخلفائه في الأرض، وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا

---

(١) حديث صحيح، وتتمته: «كقوم نزلوا في بطن وادٍ فجاء ذا بعود وجاء ذا بعود حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه..»، رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى (٥/ ٢٣١) من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، والطبراني في الكبير (٥/ ١٦٥، ١٦٦)، قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ١٩٠): «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح...»، وانظر: الصحيحة رقم (٣٨٩).

يخطر ذلك بقلوبهم، والله يَمُنُّ بفضله على من يشاء من عباده.

فإذا أعجزه العبد من هذه المراتب الست وأعييَ عليه: سلط عليه حزبه من الإنس والجن بأنواع الأذى والتكفير والتضليل والتبديع، والتحذير منه، وقصد إخماله وإطفاءه ليشوش عليه قلبه، ويشغل بحربه فكره، وليمنع الناس من الانتفاع به، فيبقى سعيه في تسليط المبطلين من شياطين الإنس والجن عليه، لا يفتر ولا يَني، فحينئذ يلبس المؤمن لأمَةَ الحرب، ولا يضعُها عنه إلى الموت، ومتى وضعها أُسِر أو أصيب، فلا يزال في جهاد حتى يلقى الله.

فتأمل هذا الفصل، وتدبر موقعه، وعظيم منفعته، واجعله ميزانك تَزِن به الناس، وتزن به الأعمال، فإنه يُطلعك على حقائق الوجود ومراتب الخلق، والله المستعان، وعليه التكلان.

ولو لم يكن في هذا التعليق إلا هذا الفصل لكان نافعاً لمن تدبره ووعاه.

□ □ □

[لماذا «الصدور» وليس «القلوب»؟]

وتأمل السر في قوله تعالى: ﴿يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، ولم يقل: في قلوبهم، والصدر: وهو ساحة القلب وبيته، فمنه تدخل الواردات إليه، فتجتمع في الصدر ثم تلج في القلب، فهو بمنزلة الدهليز له، ومن القلب تخرج الأوامر والإرادات إلى الصدر، ثم تتفرق على الجنود، ومن فهم هذا فهم قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالشيطان يدخل إلى ساحة القلب وبيته، فيلقي ما يريد إلقاءه إلى القلب، فهو موسوس في الصدر، ووسوسته واصلة إلى القلب، ولهذا قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [طه: ١٢٠]، ولم يقل: «فيه» لأن المعنى: أنه ألقى إليه ذلك، وأوصله إليه، فدخل في قلبه.

□ □ □

[بيان مُتَعَلَّق من ﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾]

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾، اختلف المفسرون في هذا الجار والمجرور: بم يتعلق؟.

فقال الفراء وجماعة: هو بيان الناس الموسوَس في صدورهم، والمعنى:

يوسوس في صدور الناس الذين هم من الجن والإنس، أي: الموسوس في صدورهم قسمان: إنس وجن، فالوسواس يوسوس للجني، كما يوسوس للإنسي.

وعلى هذا القول: فيكون ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ نصب على الحال؛ لأنه مجرور بعد معرفة، على قول البصريين، وعلى قول الكوفيين: نصب بالخروج من المعرفة، هذه عبارتهم ومعناها: أنه لما لم يصلح أن يكون نعتاً للمعرفة انقطع عنها، فكان موضعه نصباً.

والبصريون يقدرونه حالاً، أي: كائنين من الجنة والناس، وهذا القول ضعيف جداً، لوجوه:

أحدها: أنه لم يقم دليل على أن الجني يوسوس في صدر الجني، ويدخل فيه، كما يدخل في الإنسي، ويجري منه مجراه من الإنسي، فأي دليل يدل على هذا، حتى يصح حمل الآية عليه؟.

الثاني: أنه فاسد من جهة اللفظ أيضاً، فإنه قال: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾، فكيف يبين الناس بالناس، فإن معنى الكلام على قوله: يوسوس في صدور الناس الذين هم، أو كائنين، من الجنة والناس، أفيجوز أن يقال: في صدور الناس الذين هم من الناس وغيرهم؟ هذا ما لا يجوز، ولا هو في الاستعمال فصيح.

الثالث: أن يكون قد قسم الناس إلى قسمين: جنة، وناس، وهذا غير صحيح، فإن الشيء لا يكون قسيم نفسه.

الرابع: أن ﴿ٱلْجِنَّةِ﴾ لا يطلق عليهم اسم الناس بوجه، لا أصلاً ولا اشتقاقاً ولا استعمالاً، ولفظهما يأبى ذلك، فإن الجن إنما سمّوا جِنّاً من الاجتنان، وهو الاستتار، فهم مستترون عن أعين البشر، فسموا جِنّاً لذلك، من قولهم: جَنَّه الليل وأجَنَّه: إذا ستره، وأجن الميت: إذا ستره في الأرض قال:

ولا تبك ميتاً بعد ميت أجنه ... علي وعباس وآل أبي بكر

يريد النبي ﷺ، ومنه الجنين لاستتاره في بطن أمه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢]، ومنه المجن: لاستتار المحارب به من سلاح خصمه، ومنه الجنة: لاستتار داخلها بالأشجار. ومنه الجنة - بالضم - لما يقي الإنسان من السهام والسلاح، ومنه المجنون: لاستتار عقله.

□ □ □

[اشتقاق كلمة: الناس]

وأما ﴿ٱلنَّاسِ﴾ فبينه وبين الإنس مناسبة في اللفظ والمعنى، وبينهما اشتقاق أوسط، وهو عقد[1] تقاليب الكلمة على معنى واحد.

والإنس والإنسان: مشتق من الإيناس، وهو الرؤية والإحساس، ومنه قوله: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: رآها، ومنه: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]، أي: أحسستموه ورأيتموه.

فالإنسان سمي إنساناً؛ لأنه يونَس، أي: بالعين يُرَى، والناس فيه قولان:

أحدهما: أنه مقلوب من أنس، وهو بعيد، والأصل عدم القلب.

والثاني: وهو الصحيح، أنه من النوس، وهو الحركة المتتابعة، فسمي الناس ناساً للحركة الظاهرة والباطنة، كما سمي الرجل حارث وهمام، وهما أصدق الأسماء كما قال النبي ﷺ: «أصدق الأسماء: حارث وهمام»[2]؛ لأن كل أحد له هم وإرادة، هي مبدأ، وحرث وعمل، هو منتهى، فكل أحد حارث وهمام، والحرث والهم: حركتا الظاهر والباطن، وهو حقيقة النَّوَس.

وأصل ناس: نوس، تحركت الواو، وقبلها: فتحة، فصارت ألفاً، هذان هما القولان المشهوران في اشتقاق «الناس».

وأما قول بعضهم: إنه من النسيان، وسمي الإنسان إنساناً لنسيانه. وكذلك الناس سموا ناساً لنسيانهم، فليس هذا القول بشيء، وأين النسيان، الذي مادته: «ن س ي» إلى الناس الذي مادته «ن و س»؟ وكذلك أين هو من الأنس الذي مادته (أ ن س)؟.

وأما إنسان فهو فعلان من (أ ن س)، والألف والنون في آخره زائدتان، لا يجوز فيه غير هذا البتة، إذ ليس في كلامهم: أنسن، حتى يكون إنساناً إفعالاً منه، ولا يجوز أن يكون الألف والنون في أوله زائدتين، إذ ليس في كلامهم: انفعل، فيتعين أنه فعلان من الأنس.

ولو كان مشتقاً من نسي لكان نسياناً لا إنساناً.

---

(١) في هامش «بدائع الفوائد» (٢/ ٢٦٤)، «معناه: رجوع تقاليب الكلمة، أي: تصرفاتها إلى معنى واحد».

(٢) حديث صحيح، رواه أبو داود (الصحيح) (٣/ ٩٣٥) في الأدب، باب: تغير الأسماء، وانظر: تخريجه مفصلاً في الصحيحة رقم (١٠٤٠).

فإن قلت: فهلَّا جعلته إفعلالاً، وأصله إنسيان، كليلة إضحيان، ثم حذفت الياء تخفيفاً فصار إنساناً؟

قلت: يأبى ذلك عدم إفعلال في كلامهم، وحذف الياء بغير سبب، ودعوى ما لا نظير له، وذلك كله فاسد، على أن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ قد قيل: إن أصله الأناس، فحذفت الهمزة. فقيل: الناس واستدل بقول الشاعر:

إن المنايا يطلعن على الأناس الغافلينا

ولا ريب أن ناساً فعال، ولا يجوز فيه غير ذلك البتة. فإن كان أصل ناس أناساً، فهو أقوى الأدلة على أنه من أنس، ويكون الناس كالإنسان سواء في الاشتقاق.

ويكون وزن ناس ـ على هذا القول ـ: عالٍ؛ لأن المحذوف فاؤه.

وعلى القول الأول: يكون وزنه: فعل؛ لأنه من النوس.

وعلى القول الضعيف: يكون وزنه: فلع؛ لأنه من نسي، فنقلت لامه إلى موضع العين، فصار ناساً وزنه فلعاً.

والمقصود: أن «الناس» اسم لبني آدم، فلا يدخل الجن في مسماهم فلا يصح أن يكون ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بياناً لقوله: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾؛ وهذا واضح لا خفاء فيه.

فإن قيل: لا محذور في ذلك، فقد أطلق على الجن اسم الرجال، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الجن: ٦]، فإذا أطلق عليهم اسم الرجال لم يمتنع أن يطلق عليهم اسم: الناس؟

قلت: هذا هو الذي غَرَّ من قال: إن الناس اسم للجن والإنس في هذه الآية.

وجواب ذلك: أن اسم الرجال إنما وقع عليهم وقوعاً مقيداً في مقابلة ذكر الرجال من الإنس، ولا يلزم من هذا أن يقع اسم الناس والرجال عليهم مطلقاً.

وأنت إذا قلت: إنسان من حجارة، أو رجل من خشب، ونحو ذلك: لم يلزم من ذلك: وقوع اسم الرجل والإنسان عند الإطلاق على الحجر والخشب.

وأيضاً فلا يلزم من إطلاق اسم الرجل على الجني أن يطلق عليه اسم الناس، وذلك لأن الناس والجنة متقابلان، وكذلك الإنس والجن، فالله سبحانه يقابل بين اللفظين كقوله: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ [الرحمٰن ٣٣]، وهو كثير في القرآن، وكذلك قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يقتضي أنهما متقابلان، فلا يدخل أحدهما في

الآخر، بخلاف الرجال والجن، فإنهما لم يستعملا متقابلين، فلا يقال: الجن والرجال، كما يقال: الجن والإنس.

وحينئذ فالآية أبين حجة عليهم في أن الجن لا يدخلون في لفظ «الناس»؛ لأنه قابل بين الجِنة والناس، فعلم أن أحدهما لا يدخل في الآخر.

[الموسوس نوعان: إنس وجن]

فالصواب: أن القول الثاني: وهو أن قوله: ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيان للذي يوسوس، وأنهم نوعان: إنس وجن، فالجني يوسوس في صدور الإنس، والإنسي أيضاً يوسوس في صدور الإنس.

فالموسوس نوعان: إنس وجن فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفي في القلب. وهذا مشترك بين الجن والإنس، وإن كان إلقاء الإنسي ووسوسته إنما هي بواسطة الأذن، والجني لا يحتاج إلى تلك الواسطة؛ لأنه يدخل في ابن آدم، ويجري منه مجرى الدم، على أن الجني قد يتمثل له، ويوسوس إليه في أذنه كالإنسي، كما في البخاري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الملائكة تحدث في العنان - والعنان الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتستمع الشياطين الكلمة، فتقرها في أذن الكاهن، كما تقر القارورة، فيزيدون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»[(١)].

فهذه وسوسة وإلقاء من الشيطان بواسطة الأذن.

ونظير اشتراكهما في هذه الوسوسة: اشتراكهما في الوحي الشيطاني. قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

فالشيطان يوحي إلى الإنسي باطله، ويوحيه الإنسي إلى إنسي مثله. فشياطين الإنس والجن يشتركان في الوحي الشيطاني، ويشتركان في الوسوسة.

وعلى هذا: تزول تلك الإشكالات والتعسفات التي ارتكبها أصحاب القول الأول، وتدل الآية على الاستعاذة من شر نوعي الشياطين: شياطين الإنس، وشياطين الجن.

وعلى القول الأول: إنما تكون استعاذة من شر شياطين الجن فقط، فتأمله فإنه بديع جداً.

---

(١) رواه البخاري (٦٢١٣)، ومسلم (٢٢٢٨).

فهذا ما منّ الله به من الكلام على بعض أسرار هاتين السورتين، وله الحمد والمنة، وعسى الله أن يساعد بتفسير على هذا النمط، فما ذلك على الله بعزيز والحمد لله رب العالمين، ونختم الكلام على السورتين بذكر:

* قاعدة نافعة *

فيما يعتصم به العبد من الشيطان، ويستدفع به شره، ويحترز به منه، وذلك عشرة أسباب:

أحدها: الاستعاذة بالله من الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [فصلت: ٣٦]، وفي موضع آخر: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقد تقدم: أن السمع المراد به هاهنا سمع الإجابة لا مجرد السمع العام.

وتأمل سر القرآن كيف أكد الوصف بالسميع العليم بذكر صيغة «هو» الدال على تأكيد النسبة واختصاصها، وعرف الوصف بالألف واللام في سورة ﴿حمٓ﴾؛ لاقتضاء المقام لهذا التأكيد، وتركه في سورة الأعراف[1]، لاستغناء المقام عنه. فإن الأمر بالاستعاذة في سورة ﴿حمٓ﴾ وقع بعد الأمر بأشق الأشياء على النفس. وهو مقابلة إساءة المسيء بالإحسان إليه، وهذا أمر لا يقدر عليه إلا الصابرون، ولا يلقاه إلا ذو حظ عظيم، كما قال الله تعالى.

والشيطان لا يدع العبد يفعل هذا، بل يريه أن هذا ذُلٌّ وعجزٌ، ويسلِّط عليه عدوه، فيدعوه إلى الانتقام، ويزينه له، فإن عجز عنه دعاه إلى الإعراض عنه، وأن لا يسيء إليه ولا يحسن، فلا يؤثر الإحسان إلى المسيء إلا من خالفه وآثرَ الله وما عنده على حظه العاجل، فكان المقام مقام تأكيد وتحريض، فقال فيه: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾.

وأما في سورة الأعراف: فإنه أمره أن يعرض عن الجاهلين، وليس فيها الأمر بمقابلة إساءتهم بالإحسان، بل بالإعراض، وهذا سهل على النفوس، غير مستعصٍ عليها، فليس حرص الشيطان وسعيه في دفع هذا كحرصه على دفع المقابلة بالإحسان، فقال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠].

---

(١) في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وقد تقدم ذكر الفرق بين هذين الموضعين، وبين قوله في ﴿حمٓ﴾ المؤمن: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [غافر: ٥٦].

وفي صحيح البخاري عن عدي بن ثابت عن سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي ﷺ ورجلان يَسْتَبَّان، فأحدهما احمرَّ وجهه، وانتفخت أوداجه، فقال النبي ﷺ: «إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد»(١).

الحرز الثاني: قراءة هاتين السورتين، فإن لهما تأثيراً عجيباً في الاستعاذة بالله من شره ودفعه والتحصن منه، ولهذا قال النبي ﷺ: «ما تعوّذ المتعوّذون بمثلهما»، وقد تقدم أنه كان يتعوذ بهما كل ليلة عند النوم، وأمر عقبة أن يقرأ بهما دبر كل صلاة.

وتقدم قوله ﷺ: «إن من قرأهما مع سورة الإخلاص ثلاثاً حين يمسي، وثلاثاً حين يصبح، كفته من كل شيء».

الحرز الثالث: قراءة آية الكرسي، ففي الصحيح من حديث محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتى آتٍ، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ... فذكر الحديث، إلى أن قال: فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: «صدقك وهو كَذوب، ذاك الشيطان»(٢).

وسنذكر إن شاء الله تعالى السر الذي لأجله كان لهذه الآية العظيمة هذا التأثير العظيم في التحرز من الشيطان، واعتصام قارئها بها في كلام مفرد عليها وعلى أسرارها وكنوزها بعون الله وتأييده.

الحرز الرابع: قراءة سورة البقرة، ففي الصحيح من حديث سهل بن عبد الله عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لا يدخله الشيطان»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).
(٢) أخرجه البخاري تعليقاً (٧٧٤م).
(٣) هذه رواية الترمذي (٥/ ١٤٥) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة... وقال: «حسن صحيح»، ورواه مسلم (٢/ ٤٣٧) في صلاة المسافرين، باب: استحباب صلاة النافلة في البيت.

الحرز الخامس: خاتمة سورة البقرة، فقد ثبت في الصحيح من حديث أبي مسعود الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»(١).

وفي الترمذي عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق الخلق بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، فلا يقرآن في دار ثلاث ليالٍ فيقربها شيطان»(٢).

الحرز السادس: أول سورة ﴿حمٓ﴾ المؤمن إلى قوله: ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣] مع آية الكرسي، ففي الترمذي من حديث عبد الرحمٰن بن أبي بكر عن ابن أبي مليكة عن زُرارة بن مصعب عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ حم المؤمن إلى ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ وآية الكرسي حين يصبح حفظ بهما حتى يمسي، ومن قرأهما حين يمسي حفظ بهما حتى يصبح»(٣) وعبد الرحمٰن المليكي، وإن كان قد تُكُلِّم فيه من قبل حفظه، فالحديث له شواهد في قراءة آية الكرسي وهو محتمل على غرابته.

الحرز السابع: «لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير» مائة مرة.

ففي الصحيحين من حديث سُمَي مولى أبي بكر عن أبي صالح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد وهو على كل شيء قدير. مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر من ذلك»(٤)، فهذا حرز عظيم النفع جليل الفائدة يسير سهل على من يسره الله عليه.

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠٨)، ومسلم (٨٠٧، ٨٠٨).
(٢) سنن الترمذي (الصحيح) (٣/ ٤) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في آخر سورة البقرة، ورواه الحاكم (١/ ٥٦٢)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) ضعيف، رواه الترمذي (٥/ ١٤٥) في فضائل القرآن، باب: ما جاء في فضل سورة البقرة... وقال: «حديث غريب»، ورواه الدارمي أيضاً من طريق «ابن أبي بكر المليكي» (٢/ ٣٢٣)، وانظر: التهذيب (٦/ ١٤٦).
(٤) رواه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

الحرز الثامن: وهو من أنفع الحروز من الشيطان: كثرة ذكر الله ﷻ.

ففي الترمذي من حديث الحارث الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات: أن يعمل بها، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، وأنه كاد أن يبطئ بها، فقال عيسى: إن الله أمرك بخمس كلمات لتعمل بها، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها، فإما أن تأمرهم وإما أن آمرهم، فقال يحيى: أخشى إن سبقتني بها أن يُخسف بي أو أعذب، فجمع الناس في بيت المقدس فامتلأ، وقعدوا على الشرف، فقال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن: أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وإن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فقال: هذه داري، وهذا عملي، فاعمل وأدّ إليّ، فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله أمركم بالصلاة فإذا صليتم فلا تلتفتوا، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت، وأمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل في عصابة معه صُرة فيها مسك، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحها، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وأمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فأوثقوا يده إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال: أنا أفديه منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم، وأمركم أن تذكروا الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً، حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله»، قال النبي ﷺ: «وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: السمع والطاعة، والجهاد، والهجرة، والجماعة، فإن من فارق الجماعة قِيْد شبر، فقد خلع رِبْقة الإسلام من عنقه، إلا أن يراجع، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جُثاء جهنم»، فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام؟ قال: «وإن صلى وصام، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله»[1]، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب صحيح، وقال البخاري: الحارث الأشعري له صحبة، وله غير هذا الحديث.

فقد أخبر النبي ﷺ في هذا الحديث أن العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله، وهذا بعينه هو الذي دلت عليه سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، فإنه

---

(١) رواه الترمذي (٥/١٣٦) في الأمثال، باب: ما جاء في مثل الصلاة...، وقال: «حسن صحيح غريب»، وانظر: «السنة» (٢/٤٩٦).

وصف الشيطان فيها بأنه الخناس، والخناس الذي إذا ذكر العبد الله انخنس، وتجمع وانقبض، وإذا غفل عن ذكر الله التقم القلب وألقى إليه الوساوس التي هي مبادئ الشر كله، فما أحرز العبد نفسه من الشيطان بمثل ذكر الله ﷻ.

الحرز التاسع: الوضوء والصلاة، وهذا من أعظم ما يتحرز به منه، ولا سيما عند توارد قوة الغضب والشهوة، فإنها نار تغلي في قلب ابن آدم، كما في الترمذي من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «ألا وإن الغضب جمرة في قلب ابن آدم، أما رأيتم إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه؟ من أحسَّ بشيء من ذلك فليلصق بالأرض»[(١)].

وفي أثر آخر: «إن الشيطان خلق من نار، وإنما تطفأ النار بالماء»[(٢)]، فما أطفأ العبد جمرة الغضب والشهوة بمثل الوضوء والصلاة، فإنها نار والوضوء يطفئها، والصلاة إذا وقعت بخشوعها والإقبال فيها على الله أذهبت أثر ذلك كله، وهذا أمر تجربته تغني عن إقامة الدليل عليه.



الحرز العاشر: إمساك فضول النظر والكلام والطعام ومخالطة الناس. فإن الشيطان إنما يتسلط على ابن آدم، وينال منه غرضه من هذه الأبواب الأربعة؛ فإن

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤١٩، ٤٢٠) في الفتن، باب: ما جاء ما أخبر النبي ﷺ أصحابه... وقال: «حسن صحيح»، وفي سنده «علي بن زيد بن جدعان..»، ضعيف، كما في التقريب، وقال صاحب تحفة الأحوذي: «صدوق عند الترمذي» (٦/ ٤٣٢)، ورواه الحاكم (٤/ ٥٠٥، ٥٠٦)، وقال: «هذا حديث تفرد بهذه السياقة علي بن زيد بن جدعان عن أبي نضرة، والشيخان ﵄ لم يحتجا بعلي بن زيد»، وقال الذهبي: «صالح الحديث»، ورواه ابن ماجه مختصراً حديث رقم (٤٠٠٠)، وهو عند مسلم من طريق شعبة عن أبي مسلمة عن أبي نضرة (٥/ ٥٨٢) في الرقاق، باب: أكثر أهل الجنة... والله أعلم.

(٢) رواه أبو داود (١٣/ ١٤١) في الأدب، باب: ما يقال عند الغضب، عن أبي وائل القاص عن عروة بن محمد بن عطية السعدي عن أبيه عن جده عطية بن السعدي، وهو صحابي معروف، الإصابة (٧/ ١٤) وعروة بن محمد، والي اليمن كان من خيار الناس، قال الحافظ: «مقبول»، التقريب (٢/ ١٩)، ومحمد بن عطية: «صدوق»، التقريب (٢/ ١٩١)، وذكرهما ابن حبان في الثقات (٧/ ٢٨٧) و(٥/ ٣٥٩)، ورواه الإمام أحمد (٤/ ٢٢٦)، وسكت عليه الحافظ في الفتح (١٠/ ٤٨٣) الأدب، باب: ما ينهى عن السباب، وحسنه محقق جامع الأصول (٨/ ٤٣٩)، وانظر: هامش رقم (١) (١/ ٤٥٠) من شرح السنة، و(١٣/ ١٦١).

فضول النظر يدعو إلى الاستحسان، ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به.

فمبدأ الفتنة من فضول النظر، كما في المسند عن النبي ﷺ أنه قال: «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن غَضَّ بصره لله أورثه الله حلاوة يجدها في قلبه إلى يوم يلقاه»[1]، أو كما قال ﷺ.

فالحوادث العظام إنما هي كلها من فضول النظر، فكم نظرة أعقبت حسرات لا حسرة؟ كما قال الشاعر:

كلُّ الحوادثِ مَبداها من النظر ... ومُعظمُ النارِ من مُسْتَصْغَرِ الشرر
كم نظرةٍ فتكتْ في قلب صاحبها ... فَتْكَ السهامِ بلا قوسٍ وَلَا وَتَرِ؟

وقال الآخر:

وكنتَ متى أرسلتَ طرفَك رائداً ... لقلبك يوماً أتعبتْك المناظرُ
رأيتَ الذي لا كُلَّه أنت قادرٌ ... عليه، ولا عن بعضِه أنتَ صابِرُ

وقال المتنبي:

وأنا الذي جلب المنيةَ طرفُه ... فمن المطالَبُ، والقتيلُ القاتلُ؟

ولي من أبيات:

يا رامياً بسهامِ اللَّحْظِ مجتهداً ... أنت القتيلُ بما ترمي، فلا تُصِبِ
وباعثَ الطرفِ يَرتادُ الشفاءَ له ... تَوقَّه، إنه يرتَدُّ بالعَطَبِ
ترجو الشفاءَ بأحداقٍ بها مرضٌ ... هل سمعتَ بِبُرْءٍ جاءَ مِنْ عَطَبِ؟
ومفنياً نفسَهُ في إثْرِ أقبحِهم ... وصفاً لِلَطْخِ جمالٍ فيه مُسْتَلَبِ
وواهباً عمرَهُ في مثل ذا سفَهاً ... لو كنتَ تعرفُ قدرَ العمرِ لم تهبِ
وبائعاً طِيبَ عيشٍ ما له خطرٌ ... بطَيْفِ عَيْشٍ من الآلام مُنتهَبِ
غُبِنْتَ واللهِ غَبناً فاحشاً فلو اسـ ... ـترجعتَ ذا العقدَ لم تُغْبَنْ ولم تَخِبِ
ووارداً صَفْوَ عيشٍ كُلُّهُ كَدَرٌ ... أمامَك الوِرْدُ صفواً ليس بالكذبِ
وحاطبُ الليلِ في الظلماءِ منتصباً ... لكلِّ داهيةٍ تُدني من العَطَبِ
شابَ الصبا والتصابي بعد لم يَشِب ... وضاعَ وقتُك بين اللهو واللعبِ

---

(١) ضعيف، ويقصد هنا بالمسند «مسند الشهاب» للقضاعي (١/ ١٩٥)، ورواه الحاكم (٤/ ٣١٣، ٣١٤) وصححه، وتعقبه الذهبي بقوله: «إسحاق واه وعبد الرحمٰن هو الواسطي ضعفوه»، وانظر: السلسلة الضعيفة رقم (١٠٦٥).

وشمسُ عمرِك قد حان الغروبُ لها … والضّيُّ في الأفق الشرقي لم يَغِبِ
وفاز بالوصلِ مَنْ قد فاز وانقشعتْ … عن أفقه ظلماتُ الليلِ والسحبِ
كم ذا التخلفُ والدنيا قد ارتحلتْ … ورسْلُ ربك قد وافتْكَ في الطلبِ
ما في الديارِ وقد سارتْ ركائب مَنْ … تهواه للصب من سكنى ولا أربِ
فافرش الخدّ ذياك التراب، وقل … ما قاله صاحبُ الأشواق في الحقبِ
ما رَبْعُ مَيّةَ محفوفاً يطوف به … غيلان أشهى له من ربعِك الخربِ
ولا الخدودُ وإن أدمين من ضَرَجٍ[١] … أشهى إلى ناظري مِن خَدّك التَّرِبِ
منازلاً كان يهواها ويألفها … أيام كان منالُ الوصلِ عن كَثَبِ
فكُلَّما جليت تلك الربوعُ له … يهوي إليها هوي الماء في صَبَبِ
أحيا له الشوقُ تذكارَ العهودِ بها … فلو دعا القلبُ للسلوانِ لم يُجبِ
هذا وكم منزلٍ في الأرض يألفُه … وما له في سواها الدهرَ مِن رَغَبِ
ما في الخيامِ أخو وَجْدٍ يريحك إن … بَثَثْتَه بعض شأنِ الحبِّ، فاغتربِ
وأسرِ في غمراتِ الليلِ مهتدياً … بنفحةِ الطيبِ لا بالنارِ والحَطَبِ
وعاد كُلُّ أخي جُبْنٍ ومعجزةٍ … وحاربِ النفسَ لا تلقيك في الحربِ[٢]
وخذْ لنفسك نوراً تستضيء به … يومَ اقتسامِ الورىٰ الأنوارَ بالرتبِ
فالجسرُ ذو ظلمات ليس يقطعُه … إلا بنورٍ يُنجي العَبْدَ في الكُرَبِ

□ □ □

والمقصود: أن فضول النظر أصل البلاء.

وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبواباً من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسد عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة، وقد قال النبي ﷺ لمعاذ: «وهل يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»[٣]. وفي الترمذي: أن رجلاً من الأنصار تُوفِّي، قال بعض

---

(١) أي: من «احمرار».

(٢) قال ابن الأثير في النهاية (١/٣٥٨): «الحرب بالتحريك: نهبُ مالِ الإنسان وتركهُ لا شيء له..»، والمعنى: حارب نفسك لئلا تسلبك الفضيلة وتوقعك في الخسران بتضييع أوقاتك وعمرك وهي رأس مالك.

(٣) صحيح، رواه الترمذي (الصحيح) (٢/٣٢٨) في الإيمان، باب: حرمة الصلاة، وابن ماجه (الصحيح) (٢/٣٥٨) في الفتن، باب: كف اللسان...، وانظر: الإرواء، رقم (٤١٣).

الصحابة: طوبى له، فقال النبي ﷺ: «فما يدريك؟ فلعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا ينقصه»[(١)].

وأكثر المعاصي: إنما يولدها فضول الكلام والنظر، وهما أوسع مداخل الشيطان، فإن جارحتيهما لا يملان، ولا يسأمان، بخلاف شهوة البطن، فإنه إذا امتلأ لم يبق فيه إرادة للطعام.

وأما العين واللسان فلو تركا لم يفترا من النظر والكلام، فجنايتهما متسعة الأطراف، كثيرة الشعب، عظيمة الآفات.

وكان السلف يحذرون من فضول النظر، كما يحذرون من فضول الكلام، كانوا يقولون: ما شيء أحوج إلى طول السجن من اللسان.

وأما فضول الطعام: فهو داعٍ إلى أنواع كثيرة من الشر، فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شراً، فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام؟ وكم من طاعة حال دونها؟

فمن وقي شر بطنه فقد وقي شراً عظيماً.

والشيطان أعظم ما يتحكم من الإنسان إذا ملأ بطنه من الطعام، وهذا جاء في بعض الآثار: «ضيقوا مجاري الشيطان بالصوم»[(٢)]. وقال النبي ﷺ: «ما ملأ آدمي وعاءً شراً من بطن»[(٣)].

ولو لم يكن في الامتلاء من الطعام إلا أنه يدعو إلى الغفلة عن ذكر الله ﷻ، وإذا غفل القلب عن الذكر ساعة واحدة جثم عليه الشيطان ووعده، وَمَنَّاه وشهَّاه، وهام به في كل وادٍ، فإن النفس إذا شبعت تحركت وجالت، وطافت على أبواب الشهوات، وإذا جاعت سكنت وخشعت وذلت.

□ □ □

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٨٣) في الزهد، باب: (١١)، وقال: غريب، أي: ضعيف.

(٢) هذه زيادة يذكرها البعض من حديث صحيح أوله: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم...»، قال العراقي في الإحياء (٣/ ٧٩): «مرسل رواه ابن أبي الدنيا في مكايد الشيطان من حديث علي بن الحسين دون الزيادة أيضاً»، مكايد الشيطان، قال العلامة الألباني: زيادة «فضيقوا مجاريه بالجوع والصوم» لا أصل لها في شيء من كتب السنة، التي وقفت عليها، وإنما هي في «كتاب الإحياء» فقط «حقيقة الصيام»، ص(٧٥)، والسلسلة الضعيفة (٣/ ٧٩)، حديث رقم (١٠١٤).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٥٠٩) في الزهد، باب: ما جاء في كراهية كثرة الأكل، وقال: حسن صحيح، وابن ماجه (الصحيح) رقم (٢٧٠٤)، ورواه الحاكم (٤/ ١٢١)، وصححه الذهبي.

وأما فضول المخالطة: فهي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات، وهي في القلوب لا تزول، ففي فضول المخالطة خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة.

ويجعل الناس فيها أربعة أقسام: متى خلط أحد الأقسام بالآخر، ولم يميز بينهما دخل عليه الشر.

أحدها: من مخالطته كالغذاء لا يستغنى عنه في اليوم والليلة، فإذا أخذ حاجته منه ترك الخلطة ثم إذا احتاج إليه خلطه. هكذا على الدوام، وهذا الضرب أعز من الكبريت الأحمر، وهم العلماء بالله وأمره، مكايد عدوه، وأمراض القلوب وأدويتها، الناصحون لله ولكتابه ولرسوله ولخلقه، فهذا الضرب في مخالطتهم الربح كل الربح.

القسم الثاني: من مخالطته كالدواء، يحتاج إليه عند المرض، فما دمت صحيحاً فلا حاجة لك في خلطته، وهم من لا يستغنى عن مخالطتهم في مصلحة المعاش، وقيام ما أنت محتاج إليه من أنواع المعاملات والمشاركات والاستشارة والعلاج للأدواء ونحوها فإذا قضيت حاجتك من مخالطة هذا الضرب بقيت مخالطتهم من:

القسم الثالث: وهم من مخالطته كالداء على اختلاف مراتبه وأنواعه وقوته وضعفه.

فمنهم من مخالطته كالداء العضال، والمرض المزمن، وهو من لا تربح عليه في دين ولا دنيا، ومع ذلك فلا بد من أن تخسر عليه الدين والدنيا أو أحدهما. فهذا إذا تمكنت منك مخالطته واتصلت، فهي مرض الموت المخوف.

ومنهم من مخالطته كوجع الضرس يشتد ضربه عليك، فإذا فارقك سكن الألم.

ومنهم من مخالطته حمى الروح، وهو الثقيل البغيض العقل، الذي لا يحسن أن يتكلم فيفيدك، ولا يحسن أن ينصت فيستفيد منك، ولا يعرف نفسه فيضعها في منزلتها، بل إن تكلم فكلامه كالعصي تنزل على قلوب السامعين، مع إعجابه بكلامه وفرحه به، فهو يُحدث من فيه كلما تحدث، ويظن أنه مسك يطيب به المجلس، وإن سكت فأثقل من نصف الرحا العظيمة التي لا يطاق حملها ولا جرها على الأرض، ويذكر عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: ما جلس إلى جانبي ثقيل إلا وجدت الجانب الذي هو فيه أنزل من الجانب الآخر.

ورأيت يوماً عند شيخنا قدس الله روحه رجلاً من هذا الضرب والشيخ يحمله، وقد ضعفت القوى عن حمله، فالتفت إليّ وقال: مجالسة الثقيل حمى الربع، ثم قال: لكن قد أدمنت أرواحنا على الحمى، فصارت لها عادة، أو كما قال.

بالجملة فمخالطة كل مخالف حمى للروح، فعرضية ولازمة، ومن نكد الدنيا على العبد أن يبتلى بواحد من هذا الضرب، وليس له بد من معاشرته ومخالطته فليعاشره بالمعروف، حتى يجعل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً.

القسم الرابع: من مخالطته الهلك كله ومخالطته بمنزلة أكل السم، فإن اتفق لآكله ترياق، وإلا فأحسن الله فيه العزاء، وما أكثر هذا الضرب في الناس لا كثّرهم الله، وهم أهل البدع والضلالة، الصادون عن سنة رسول الله ﷺ، الداعون إلى خلافها، الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً، فيجعلون البدعة سنة، والسنة بدعة، والمعروف منكراً، والمنكر معروفاً.

إن جردت التوحيد بينهم قالوا: تنقصت جناب الأولياء والصالحين.

وإن جردت المتابعة لرسول الله ﷺ قالوا: أهدرت الأئمة المتبوعين.

وإن وصفت الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله من غير غلوّ ولا تقصير قالوا: أنت من المشبهين.

وإن أمرت بما أمر الله به ورسوله من المعروف ونهيت عما نهى الله عنه ورسوله من المنكر، قالوا: أنت من المفتنين.

وإن اتبعت السنة وتركت ما خالفها قالوا: أنت من أهل البدع المضلين.

وإن انقطعت إلى الله تعالى، وخليت بينهم وبين جيفة الدنيا، قالوا: أنت من الملبسين.

وإن تركت ما أنت عليه واتبعت أهواءهم، فأنت عند الله من الخاسرين، وعندهم من المنافقين.

فالحزم كل الحزم: التماس مرضاة الله تعالى ورسوله بإغضابهم، وأن لا تشتغل بإعتابهم ولا باستعتابهم، ولا تبالي بذمهم ولا بغضهم، فإنه عين كمالك كما قال:

وإذا أتتك مذمتي من ناقص … فهي الشهادة لي بأني فاضل

وقال آخر:

وقد زادني حباً لنفسي أنني … بغيض إلى كل امرئ غير طائل

فمن كان بواب قلبه وحارسه من هذه المداخل الأربعة التي هي أصل بلاء

العالم، وهي فضول النظر والكلام والطعام والمخالطة واستعمل ما ذكرناه من الأسباب التسعة التي تحرزه من الشيطان، فقد أخذ بنصيبه من التوفيق وسد على نفسه أبواب جهنم، وفتح عليها أبواب الرحمة، وانغمر ظاهره وباطنه، ويوشك أن يحمد عند الممات عاقبة هذا الدواء، فعند الممات يحمد القوم التقي، وفي الصباح يحمد القوم السري.

والله الموفق، ولا رب غيره، ولا إلٰه سواه[(١)(٢)].



(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٤٧ ـ ٢٧٦).

(٢) تم ولله ربي الحمد والمنة، حمداً لله رب العالمين وصلاةً وسلاماً على سيدنا محمد خاتم النبيين والمرسلين، وبعد... فقد تم بحول الله تعالى وتوفيقه وعونه وحمده ما يسره سبحانه من جمع لمتفرق ما فسره شيخ الإسلام العلامة المحقق المدقق اللغوي العارف بالله الإمام أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي، ابن قيم الجوزية ﷺ، من كلام رب الأنام صاحب النعم العظام والآيات الباهرات المعجزات.

وكانت بداية الجمع والعمل من الشهر الحادي عشر من عام ألف وتسعمائة وتسعة وثمانين ميلادية، والانتهاء بفضل الخالق الوهاب الرازق بغير حساب في أول رمضان المعظم من عام (١٤١٣) هجرية الموافق الاثنين (٢٢/ ٢/ ١٩٩٣).

وجامعه عبد الله الفقير/ يسري السيد محمد أحمد علي أبو فاطمة حفظها الله تعالى، فإن وفقت فبفضل الله ربي وحده تعالى ـ وإن أخطأت ـ ولا شك ـ فمن نفسي وحدها نعوذ بالله من شرها.

وعلى كل حال أسأل الله تعالى، أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم لا شريك له، وأن يجعله في ميزان حسناتي مثقلاً مصحوباً بالمغفرة لي ولوالدي ولأهل بيتي وللمؤمنين، آمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع الصفحة

سورة القمر

سورة الرحمن

سورة الواقعة

سورة الحديد

سورة المجادلة

الموضوع	الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع — الصفحة

سورة المعارج

سورة نوح

سورة الجن

سورة المزمل

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

سورة الناس

تتمة لتفسير المعوذتين